

الجمعية التاريخية

حمص - سورية

مجلة

البحر التاريخي



التبليغ

للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق - سورية

المدير المسؤول

محمد عبد الصمد الشاطر

رئيس التحرير

اسعد الحسين

مجز

البحث التاريخي

تصدر عن الجمعية التاريخية بحمص

هيئة التحرير

الياس مقدسي

عبد الحفيظ شما

عبد الكريم قبجي

منذر حمودي

العدد رقم (١)

٩ رمضان ١٣٩٧

١٩٧٧/٨

في هذا العدد

- الاقتراحية :
- فلسفة أرنولد تويني
- الميزات الحضارية لفترة مجهولة من تاريخ سورية
- الصهيونية جزء ثالث سيضاف للتوراة اليهودية
- موقع تل الحديد الأثري
- حمص والقضية الفلسطينية بين الذاكرة والنصوص
- ملاحظات حول أهمية العلوم الانسانية
- شيزر وبنو منقذ
- الفخار وأهميته الأثرية والتاريخية
- وهم تاريخي حول النحو والصرف
- الخليج العربي في تاريخه القديم
- من مآثر العرب الحضارية : صناعة الورق
- الهجرة اليهودية الصهيونية
- في متاهات الفكر الصهيوني
- الوثائق التاريخية في صحيح البخاري
- مدخل الى دراسة ديك الجن الحمصي
- النشاط العربي الواسع للجمعية التاريخية في حمص
- المدير المسؤول
- الاستاذ سهيل عثمان
- د. مفيد رائف العابد
- المهندس رياض زيد
- الاستاذ محمد الخولي
- الاستاذ رضا صافي
- الاستاذ ماجد الموصللي
- الاستاذ جرجس مخول
- الاستاذ رياض البدري
- الاستاذ عبي الدين الدرويش
- الاستاذ جميل عازار
- الاستاذ عبد الرحمن ايوب
- الاستاذ منذر حمودي
- الاستاذ الياس مقدسي
- بقلم الاستاذ عبد الرزاق الاصفر
- سمر روجي الفيصل
- الاستاذ محمد الدروبي

المقالات الموجودة في هذه المجلة تعبر عن وجهة نظر أصحابها

جميع المراسلات والحوالات ترسل الى المدير المسؤول الى العنوان التالي :

Gen

حمص - الجمعية التاريخية - شارع عبد الحميد الدروبي

الافتتاحية

لاشك أن معظم الناس على اختلاف درجاتهم وأذواقهم متفقون في الميل الى دراسة التاريخ وتفهم أسرارهِ وخفائِهِ ، ولكن ثمة حاجماً ظل يقلق بال الجميع ، وثمة أسئلة ظلت تطرح نفسها على مدى الأيام : أن ما قيمة هذه المعلومات وما مدى صحتها ؟ وما هو تأثير السلطة وذوي الأهواء الأخرى في إنحراف التاريخ عامة ؟ . لا ريب أن هذه التساؤلات صحيحة بالنسبة لأي تاريخ يعتمد على سرد الحوادث ونقلها دون تدقيق أو تمحيص ، ولكن التاريخ الذي يخضع الحوادث والأخبار للنقد والتجريب فيشك بالخبر الى أن تتأكد له صحته ويستند ما أمكن عن أخبار ذوي الأهواء والأغراض ، مثل هذا التاريخ الذي يضع نصب عينيه القواعد التاريخية الثابتة (ادرس المؤرخ قبل أن تدرس التاريخ ، شك المؤرخ رائد حكمته ، إذا ضاعت الأصول ضاع التاريخ معها ..) لا يقال عنه « لا يمكن أن يصدق » كما أشار الى ذلك ديكرت معتبراً أن حوادث التاريخ لم تقع بالشكل الذي وصفها به .

بعض حوادث التاريخ يمكن أن يكون هذا شأنها ، ولكن التاريخ الذي طبقت في كتابته القواعد الآتفة الذكر تخرج بعيداً عن هذه الدائرة دائرة ديكرت .

نقول ذلك ونحن نقوم بوضع المدد الأول من مجلة البحث التاريخي بين يدي القراء في الوطن العربي ، صدر بعد لأي وطول انتظار . قد لا يبلغ في اخراجه ومادته المستوى الأرفع الذي تهدف اليه ، ولكنه بداية مشجعة للسير في الطريق الذي ألعنا فيه آتفا ، وهو دراسة التاريخ العربي دراسة واعية بعيدة عن العواطف والنقل المرتجل لحوادث اذا ماوزنت بموازين التاريخ الحقيقية كان نصيبها الاهمال ، وهذه مسؤولية كبرى ينبغي أن تتصدى لها كافة الأقلام الواعية والمختصة في القطر العربي السوري بل في الوطن العربي قاطبة .

نأمل للأقلام التي أحججت عن المساهمة في عددنا هذا بعد طول انتظار أن تنطلق لتأخذ دورها في أعداد مقبلة . فمجلتنا ليست إقليمية متقوفة ، فرحنا الكبرى بزوال كل حدود بين الأشقاء وبوحدة عربية شاملة تزيد العرب منعة وقوة .

ختاماً نشكر كل من ساهم وأزر في عملنا هذا ، وأخص بالذكر السيد وزير
الاعلام الاستاذ أحمد اسكندر أحمد لمساعدته المادية القيمة التي قدمها للجمعية التاريخية
في سبيل إصدار هذا العدد .

نعمل باذن الله وعونه ، وسنحاول سد ثغرات في هذا المجال ، بدأت وشوهدت
الكثير من تاريخنا العربي المشرق .

المدير المسؤول

والله الموفق .

محمد الشاطر

فلسفة أرنولد توينبي التاريخية - مضمونها وصدورها

للاستاذ: سبيل عثمان

جميل أن يعيش الانسان عمر أرنولد توينبي ، فهو قد ولد عام ١٨٨٩ ومات في أواخر عام ١٩٧٥ ، والأجل من ذلك أن يستطيع الانسان الاستفادة من عمره استفادة توينبي منه ، فهو قد أتم دراسته في جامعة أكسفورد وعلم بها وأتقن اللغتين اليونانية القديمة واللاتينية حتى قال الشعر بها ، ثم تعلم اللغة الفرنسية والألمانية والاطالية واليونانية الحديثة وألم بالعربية والتركية ، كل هذا فضلاً عن لغته الانكليزية . وإذا كان توسمه الراضخ في التاريخ الأوربي القديم وتاريخ بيزنطة فهو قد اطلع على التاريخ الحديث وترأس دار شاتم لمسح الشؤون الدولية عدة سنوات ، كما اطلع على تاريخ شعوب الشرق الأقصى والشرق الأوسط . وكانت له جولات في الأرض ومحاضرات على مستوى مسكوني . وقد عمل في مؤتمرات الصلح بين الدول الكبرى بحيث أصبح عارفاً بكيفية اجراء الصفقات والمساومات وبحيث أصبح يرثي لحال المؤرخين الذين يتناولون الأمور من ظاهرها . وقد نشر كتباً عديدة ترجم بعضها الى اللغة العربية ، ولعل أبرز كتبه هو (دراسة لتاريخ) الذي جاء في اثني عشر مجلداً ، وقد تلخصه (مرفيلد) وترجم ملخصه الى العربية ، كما تلخصه توينبي نفسه بعد ذلك ، ومن الكتب العربية له كتاب (العالم والغرب) وكتاب (الحضارة في الميزان) وسلاسل من محاضراته ومقالاته نشرت على شكل مجموعات .

وبعتبر توينبي من رواد إنصاف العرب وبشكل خاص في القضية الفلسطينية على العكس من موقف أكثر معاصريه الغربيين .

منهج توينبي :

يتبنى توينبي منهجاً ثلاثياً ، فهو يرى أن عمله يقوم ، أولاً : على التحقيق التاريخي للحوادث وهو عمل المؤرخ ، وثانياً : على استخلاص القوانين العامة للتطور التاريخي مما يقرب جهده من أسلوب العالم ، ويقوم عمله ثالثاً على التصوير وهو من

عمل الفنان .

ان تويني يستفيد من الواقع والعقل والخيال ، واذا كان مهتماً بالتأكد من صحة شواهد الكثرة تاريخياً فهو أيضاً يلجأ الى تأويل القصص الديني والأساطير والحكايات الشعبية . ويستفيد من التراث الأدبي مثل رواية (آغامنون) لأسخيلوس ورواية فاوست لغوته وشعر شسلي . وله تفاعلات ايجابية وسلبية مع آراء العديد من الفلاسفة مثل برغسون وماركس وفخمة وهيجل وابن خلدون واشبنغلر .. وتقوم طريقته في عرض آرائه على ذكر رأيه متبوعاً بجملة من الشواهد والأدلة ، ولا يخلو أسلوبه من أناقة وميل الى المجاذبية الأدبية حتى أنه يسدع أحياناً بعض العبارات القابلة للسير على الألسنة كما سوف نرى . ولا ينسى أن يفند الآراء المخالفة لرأيه .

الحضارة وحدة الدراسة :

اذا أردنا أن ندرس الانسان بعد دخوله العصور التاريخية فلن أصغر وحدة تمتلك التكامل الكافي لاقامة الدراسة عليها هي الحضارة . ان الشعب والدولة والأمة والقطر تعجز كل واحدة منها عن أن تكون أساساً للبحث ، لأن البحث الذي يقوم على كل منها سيكون مبتوراً .

ان فهم المجتمع الانكليزي المعاصر لا يتم من خلال دراسة التاريخ الانكليزي وحده فلا بد من النظر الى المجتمع الانكليزي من خلال الحضارة المسيحية الغربية وما فيها من زواج وحداني ومن نظرة خاصة الى المرأة والى العائلة والى العلاقات بين البشر .

وليست الحضارات كثيرة جداً عند تويني فالحضارات الأساسية تماماً لا تتجاوز تسع عشرة حضارة ، وإذا أضفنا بعض الفروع الرئيسية بلغت إحدى وعشرين وقد تبلغ ثلاثاً وعشرين ، وإذا أضفنا الحضارات المتعطلة بلغ المجموع ثمانى وعشرين حضارة . والحضارات عند تويني أجيال : فالجيل الأول من الحضارات الذي يسميه بالحضارات الأصلية بدأ بالسومرية ثم المصرية ثم المينوية ثم الهندية والصينية القديمتين . وقد انقرض هذا الجيل لتحل محله حضارات الجيل الثاني كالهيلينية (وهي اليونانية والرومانية معاً) والسورية والبابلية والفارسية .. وينقرض الجيل الثاني لتتألف حضارات الجيل الثالث كالاسلامية والمسيحية . وقد انتجت القارة الأمريكية قبل غزو الحضارة الغربية لها أربع حضارات كالمكسيكية والبيروفية . وان أغلب الحضارات قد انقرضت ولم يبق من الحضارات المتطورة الا خمس : هي الحضارة المسيحية الغربية والحضارة المسيحية

الشرقية والحضارة الاسلامية والحضارة الهندية الهندوسية والحضارة الصينية أو البوذية الماهايانية .

وأما الحضارات المتعطلة فلم يزل على قيد الحياة منها : حضارة البدو والبولينيزيين والاسكيمو ، وان أوشكت الأوليتان على الانقراض . ولكل حضارة إنتاجها المعنوي والمادي ، ولكل حضارة سماتها المميزة : فالحضارة الهيلينية يغلب عليها حب الجمال ، ويغلب حب التنظيمات والآليات على الحضارة الغربية ، كما يسيطر الاتجاه الروحي على الحضارة الهندية . وتتقدم البشرية من خلال الحضارات فكأنها عجالات تدور فتسير عربة الانسان الى الأمام ، فصاحبنا لا يعتقد أن التاريخ يراوح في مكانه ، ولا يعتقد بدورات متشابهة تماما بل يعتقد بالتقدم من خلال دورات متشابهة في خطوطها المريضة .. ولكل حضارة خط حياة تسير عليه ، اذ تنشأ وتصلد ثم تذبل وتنتهي . ويجعل تويني مراحل الحضارة ثلاثا : أولاها النشأة والارتقاء ، وثانيها الانهيار أو الذبول ، وثالثها الانحلال أو الانتهاء .

نشأة الحضارة بالتحدي والاستجابة :

الحضارة مسبوقة بمجتمعات بدائية . فكيف انتفضت بعض هذه المجتمعات وأنشأت الحضارات ؟ يرفض تويني تعليل العرقين القائلين : بأن بعض السلالات متفوقة في تكوينها الدماغي أو البيولوجي تفوقا أتاح لها تطوير الانسان ونقله الى المرحلة الحضارية . ان جميع الجماجم في نظر تويني قابلة لإنتاج الحضارة وكذلك جميع الألوان فقد أنتجها البيض والصففر والحمرة ، واذا لم ينتجها أصحاب الجلد الأسود قديما فلا شيء يمنع من إنتاجهم لها اذا تحققت الشروط ، وليست العرقية في القديم والحديث الا ثمرة التفوق المؤقت أو نتيجة وهم ذلك التفوق والغرور .

ويرفض صاحبنا تعليل نشأة الحضارة بالبيئة وحدها ، فبعض البيئات الجغرافية أنتجت الحضارات وبعضها لم ينتجها ، وماكل حضارات البيئات المتشابهة بمتشابهة . وفي الحقيقة فإن تويني عدو التفسيرات الآلية التي تستغني عن عقل الانسان وإرادته ، فالتقدم البيولوجي شيء آلي يمكن الحديث عنه أثناء انتقال النوع الانساني من انسان نياندرتال الى الانسان العارف الحالي أثناء العصر الحجري القديم ، ولكن لا يمكن التحدث عنه في المراحل الحديثة التي نشأت فيها الحضارات ، ولا ننس أن التقدم البيولوجي للنوع الانساني قد توقف تقريبا وبقي التقدم القائم على الانتاج الفكري والاجتماعي . وان التعليل بالبيئة الجغرافية وحدها هو أيضا تعليل آلي ولذلك يرفضه تويني . واذا أردنا تفسير نشأة الحضارة حقاً فإن تويني يبيدنا الى الفرق بين المجتمع المتحضر

والمجتمع البدائي ، فمهما قلصنا الفروق بينهما فإن فرقا جوهريا لا بد أن يبقى (أن المجتمع المتحضر يواجه المشكلات التي تتجدها بحلول لها وهذه الحلول تثير مشكلات جديدة يواجهها المجتمع المتحضر بحلول جديدة ، وهكذا تتابع سلاسل التحديات والاستجابات طالما ظلت الحضارة قائمة . على حين يقتصر المجتمع البدائي على مواجهة مشكلات ثابتة بحلول ثابتة أيضاً فهو ، يراوح في مكانه . وهكذا يصل صاحبنا الى سر الحضارة وهو التحدي والاستجابة .

ففي الألف الرابع قبل الميلاد طرحَت البيئة الجغرافية تحديا معيناً على بعض الجماعات البشرية ، وهو جفاف السهل الافراسي الواقع بين افريقيا وآسيا نتيجة إغفال الجلوديات في الانسحاب . وارتبكت هذه الجماعات وتشتت اجتهاداتها فقد ترك بعضها موطنه الأصلي ليتابع أسلوب حياته القديم فظل بدائياً يعيش على الصيد وجمع الثمار ، وقبّع بعضها في مكانه مستسلماً للجفاف فانقرض ، وغير بعضها مكان اقامته وأسلوب حياته معاً فمات وأنتج الحضارة . وهنا يبرز السومريون الذين تحولوا الى منطقة ما بين النهرين وأقاموا زراعة الري الدائم وأنتجوا حضارتهم ودولتهم ، ثم لحق بهم المصريون القدماء الذين أنشأوا أيضاً حضارة ودولة ، وأما المينويون فلم يبقوا على اليابسة بل انطلقوا الى البحر فأنشأوا الحضارة المينوية الكريتية البحرية .

وهكذا يتابع صاحبنا بحثه في بقية الحضارات الاصلية أو حضارات الجيل الأول ، ليؤكد أن التحدي الأول الذي استجاب له الانسان باقامة الحضارات الأولى كان تحدياً جغرافياً بيشياً . ولا ينبغي صاحبنا وجود تحدٍ بشري ، الا انه يراه غير أكيد . وأما دور التحدي البشري فيظهر أثره جلياً في انشاء حضارات الجيل الثاني كالهيلينية والجيل الثالث كالمسيحية والاسلامية ، فإن تحدي المينويين المتقدمين للجماعات اليونانية هو الذي أدى الى قيام الحضارة الهيلينية . والاحتكاك الذي وقع بين الحضارة الهيلينية في أواخر أيامها وبين المجتمع السوري الذي كانت حضارته قد انهارت هو الذي أدى الى نشوء الحضارة المسيحية ثم الحضارة الاسلامية .

ويتخذ قويني من التحدي مثيراً عاماً للأفراد والمجتمعات ، فيذكرنا ببراعة المضطهدين وذوي الماهات ونشاط الأقليات ، وبالانتصارات التي تلت الهزائم ، وتغلب مناطق الحدود التي تواجه الضغط الخارجي ، وبالتطورات الاقتصادية التي حصلت على يد ابناء البيئات الحافة والصعبة .

والتحدي التالي عنده هو التحدي المتوسط سواء أكان بيشياً أم بشرياً : لأن

التحدي الخفيف أو فقدان التحدي يقي المجتمع راضياً بما وجد نفسه عليه فلا يتطلع الى تغيير وتقديم كآكلي اللوتس في الأوديسة . وإذا كان التحدي قابلاً جداً فإن الانسان ينسحق تحت وطأته ، مثل اليونان الفناريين الذين كانوا يصعدون مع صعود الدولة العثمانية واعتمادها على مهاراتهم ، فلما حاولوا السيطرة عليها صراخاً وثاروا عليها دهمتهم بقوة لا قبل لهم بها فاتتهى حلهم الكبير .

وإذا كانت التحديات متفاوتة التأثير فإن الاستجابات أيضاً متفاوتة القيمة ، إذ أن منها ما يؤدي الى نشوء حضارة قابلة للتطور والحياة السوية ، ومنها ما يؤدي الى نشوء الحضارات العقيمة والمتعطلة التي سوف نفرد لها فقرة خاصة . ومن الاستجابات ما يفضل فشلاً تاماً أو نسبياً ومنها ما ينجح . وإن تبين الاستجابات يتبع تبين التحديات من ناحية ، ومختلف الظروف التي يجري فيها التفاعل من جهة أخرى ، كما يتبع وجود أقلية متفوقة قادرة على الابداع في المجتمع أو عدم وجود هذه القوة . فالاستجابة ابداع ، والابداع من طبيعة فردية ، وإن الابتكارات التي تصدر عن الهيئات والجان هي أيضاً فردية لأن الابتكار يقوم به فرد أو أفراد معدودون ثم يناقشهم الباقيون حوله ويتبنونه . وإذا ما واجهت المجتمع التحديات فليس جميع أبنائه قادرين على المعاناة المهمة بل تحمل ذلك العبء أقلية من بينهم تؤهلها لذلك مواهبها واهتماماتها وامكانياتها بحسب الموقف .

ومن العوامل التي تساعد هذه الأقلية على الابداع انفصالها فترة ثم عودتها الى الجماعة . فالعزلة المؤقتة تعرفها الأساطير حين تحدث عن برسفون ابنة زوس كبير الآلهة اليونانية من ديمترا وهي تمثل القمح الذي تغيب بذرته مخفية مدة في التراب لتخرج بالخير الى الناس ، كما يعرفها الباربع الديني مثل غيبة السيد المسيح في الصحراء قبل انطلاقة العظيمة ، ومثل هجرة محمد ﷺ من موطنه الاصلي واعتزاله قبل ذلك في الغار ، كما أن الوحي كما صوره ابن خلدون يمثل صعوداً مؤقتاً الى المستوى الملائكي ثم عودة الى المستوى الانساني .

وتدل اسطورة الكهف الافلاطونية أن الاعتزال والعودة معترف بها في الفلسفة ، لأن الأسير الذي يناشد زملاءه التحول عن أماكنهم والتطلع الى شمس الحقيقة يتركهم أول الأمر ثم يعود اليهم . وإن تغيير البيئة أو الهجرة بشكل عام عامل محفز للابداع واتباع الابداع ، لأن الجماعة اذا ظلت قابعة في مكانها حافظت على تقاليدها وأسايلها ، فلم يحسن قادتها الابداع ولم تحسن هي اليقبل ، وأما اذا ارتحلت فإن الأحوال المادية والمعنوية تخف ،

وخير الارتمال ما كان عبر البحر ، فيقطع الصلة تماماً بالضغط الاصلية ويرمي الأثقال بالبحر الواسع ، وتشبه الصحراء البحر في هذه المهام .

والابداع الحق هو الذي يطلق شرارة تشبه اللقطة الحيوية عند برغسون يهتز بها كيان المجتمع وينتقل من حال الجمود الى حال التغيير المتتابع ، حيث تأخذ الحلول والمشكلات بعضها بركاب بعض ، وتسير الحضارة الى الأمام . وينتقل أثر الابداع : اما عن طريق التمثل الداخلي للمريدين القلة ، واما عن طريق المحاكاة الآلية من قبل الاكثية . ومع انتقال أثر الابداع وتقبل الحلول الجديدة تنتشر الحضارة .

امارات تقدم الحضارة :

يحسب بعض الباحثين أن الامتداد الجغرافي هو المؤشر الدال على تقدم الحضارة . ولكن تويني يرفض هذا المؤشر ، بل يرى أن امتداد الحضارة جغرافياً كثيراً ما يقترن بهبوطها وضعف توطدها بدلاً من أن يقترن بصعودها . وله على ذلك أدلة من تاريخ الحضارة الهيلينية والحضارة المسيحية الغربية وسواها .. وقد راجت عند المؤرخين فكرة قياس تقدم الحضارة بمدى تقدمها التقني ، حتى أن العصور الأساسية سميت باسماء تقنية مثل العصر الحجري والبرونزي ثم الحديدي ثم عصر البخار والكهرباء والذرة ، وان الأدوات وما يتعلق بالتقنيات واضحة ذات ملامح محددة ولذلك يتمكن الباحثون من رصدها بسهولة فيحسبون أنها ضالتهم مع أن التقدم التقني ليس قرينة كافية دائماً على صعود الحضارة ، فانتقال البشر في العصور السحيقة من انسان نياندرتال الى الانسان الحالي تم بدون تقدم تقني ، وقد كان انسان العصر الحجري القديم أرقى حضارياً من انسان العصر الحجري الحديث الذي سبقه تقنياً ، ودليل تويني على أفضلية انسان العصر الحجري القديم هو أنه فنان رسام فهو مرهف متقدم اذا قيس بخليفته ، وحين تقدمت الفنون العسكرية في عهد جستنيان لم يقترن هذا التقدم الا باضمحلال الحضارة الهيلينية ، وكثيراً ما نتجت الحضارة الماثلة لازوال بعض التقنيات فورثتها عنها الحضارات الوليدة الصاعدة التي لا تملك ذلك المستوى التقني المتفوق ، ثم ما قولنا بالتقنيات الحربية الحديثة التي أوشكت أن تدمر الانسان ؟ .

فما هي علامة التقدم الحضاري إذن ؟ انها نمو القدرة على تقرير المصير ، انها قدرة الانسان ممثلاً في جماعة متعاونة على مواجهة البيئة واخضاعها لأهدافه . عند تقدم الحضارة يصبح كل شيء أكثر أثيرة : فالطبيعة مطواع والآلات مرهفة تكاد تنف عن

روح الانسان سيدها ، وكما ارتفعت الحضارة قلت المشكلات الكونية وتفرغ الانسان للمشكلات الاجتماعية والعنوية ، وكأن تقدم الحضارة نوع من تأنيس الكوني والحاقه بالانساني . ومادامت الحضارة في صعود فان القلة المبدعة تنتج الحلول والأكثرية تتبعها معجبة .

مرحلة انهيار الحضارة

بعد فترة الصعود تقع الحضارة في مستنقع الركود وجفاف معين الابداع التي يسميها توينبي مرحلة الانهيار . ولا تنفي هذه المرحلة انتهاء الحضارة واقعا ورواها من عالم الوجود ، وانما تنفي جمودها وتوقفها ثم انحدارها .

ويرفض توينبي التفسير البيولوجي لانهيار الحضارة وأنه نتيجة انحطاط دم العرق المنتج لها أو اختلاطه ، كما يرفض تعليله بتشيوخ الأرض التي تقوم عليها الحضارة ونضوب خيراتها لأن الأرض دائماً بخيلة على المهامين الجامدين سخية على المبدعين النشيطين . والتعليل الذي يضعه صاحبنا لانهيار الحضارات هو تقاعس القلة المبدعة عن الابداع واتسكائها على حلولها السابقة مع أن المواقف تتغير والمشكلات تتجدد . وهكذا تجابه الحضارة المشكلات الجديدة بالحلول الجاهزة مسبقا والتي لم تخلق لها ، ويطلب من الخمر الجديدة على حد قوله أن تنصب في الزقاق القديمة ، وتحمل الوسائد أكثر من طاقاتها .

وتستطيع عين المؤرخ أن تلمح ذلك حين تجمد القوانين والتشريعات فلا تسير الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والطبقية المستجدة ، وحين تجمد الفنون العسكرية فتواجه الأعداء المتنوعين بوسيلة واحدة لا تتغير بتغير الظروف ، وحين يبدو على المجتمع - وبشكل خاص فئاته العليا - الانهيار بما قدمت سابقا والتمسك بما تم الوصول اليه بحيث يغلق باب التجديد . وعندئذ لا تنظر الأكثرية الى القيادات على انها أقلية مبدعة تتبع اعجابا بها وثقة بقدراتها وخصبها بل تعتبرها أقلية مهيمنة يجب التخلص منها ، وتلجأ هذه الأقلية الى القوة لتثبيت سلطتها ، وتحصل انشقاقات في المجتمع : منها انشقاقات بين المناطق ومنها انشقاقات بين الطبقات ، وتبرز مشكلة البروليتاريا الداخلية والبروليتاريا الخارجية . أما البروليتاريا الداخلية الداخلية فهي الجماعات التي تعيش في منطقة حضارة ما وتعاني اضطهاداً أو حرماناً اما بسبب عوامل طبقية أو طائفية أو عنصرية ... وهذه البروليتاريا تغدو مع الأيام غنيمة ذليلة وتطلع الى التغيير ، وأما

البروليتاريا الخارجية فتعيش خارج حدود حضارة معينة وبشكل قريب منها يسمح لها بالاحتكاك بها فتخافها وتحسدها وتتمنى الحلول محلها . فإذا ما أضيف الى كل هذه المتاعب غو الروح الحربية التي تسعى الى القتال لغير أغراض البقاء ، فإن الحضارة تهدر دمها وتستنفد جهودها بنفسها وعلى يد أبنائها ، وقد يصبح حماها أكلة لها فتبدو عليها أعراض الانتحار ، وتجد أمامها أحد طريقين : فاما الانقراض واما انقاذ يضحي بكثير من القيم الايجابية ، وغالبا ماتحظى الحضارات بهذا الانقاذ .

مرحلة انحلال الحضارة :

ويكون الانقاذ المؤقت بان تقوم حركة قوية تجمع شمل الحضارة ، وتقيم لها دولة عالمية أو دولة شاملة لجميع أجزائها بالقوة ، فتتم الحضارة بفترة من الهدوء ، وتعيد هذه الحركة النظر في الأوضاع السائدة فتتخذ اجراءات عدة لانقضاء على البلبلة والاضياح ، اذ توحد الانظمة والمقاييس واساليب الادارة ، وقد تثبت الضقوس الدينية وتستفيد احدى اللغات فتسود محتملة بعض اللغتين في طبيعتها بسبب ذلك ، وقد تنعم الحضارة بفترة من السلم . وفي هذه المرحلة او في أوائلها على وجه الدقة تبدو على الحضارة امارات الصحة وتستعيد شيئا من ازدهارها ، وينخدع كثيرون فيظنون أن الامور قد وصعت في نصابها مرة اخرى ، وأن الحضارة سوف تستأنف طريق صعودها الا أن هذا التحسن ليس الا صيفا هنديا خداعا يخفي وراءه التحلل التدريجي الذي ينتهي غالبا بزوال الحضارة ، لان جذوة الابداع الحقيقي تكون قد انطفت وكل ما يجري قائما هو ترميم وترقيع يحور في المظاهر ولا يتناول الجوهر المتعب .

وتتابع عوامل النخر عملها ، فالروح الحربية تستيقظ وتتابع تخريبها ، وهذا ما جرى للحضارة الهيلينية التي بلغت احدى ذراها في عهد صولون ، ثم واجهت التحدي الماتوسي حين لم تعد حاصلاتها تكفي سكانها بالاستعمار واتساع التجارة والحرف ، ثم أخذت تفتك بنفسها بعد أن اتسعت على يد المكدونيين الى أن نعمت بالسلام الرومانية التي هيأها لها أغسطس ، وقد شمر أغسطس السيف وأراد أن يغمد من بعده ، فلم يتحقق حلمه وان أُنحت امبراطوريته للهيلينية عمراً مديداً من بعده ، تحللت فيه على مهلها حيث أنضجت البروليتاريا الداخلية اليهودية ، الديانة الجديدة التي مالبت البرابرة الذين يمثلون البروليتاريا الخارجية أن قبلوها وقضوا على الحضارة الهيلينية لتحل محلها الحضارة المسيحية . وقد ترفض الحضارة أن تزول بنتيجة مرحلة الانحلال مع أن الزوال هو

الغالب ، وحين تصر على البقاء فانها تبقى متحجرة بحجرة لذاتها ، كما جرى للحضارة المصرية القديمة التي كان من حقها أن تزول منذ الألف الثالث قبل الميلاد، ولكن غزو الهيكسوس لها أيقظ في أبنائها الاصرار على التثبيت بها فماشت بعد ذلك آلاف السنين وهي متصنعة جامدة .

وخلال مرحلة الانحلال تبيلبيل الأنفس فتتقاذفها تيارات متطرفة مثل التيار السلفي الذي يريد أن يعيد الماضي الذهبي في الظروف المستجدة بالطرق القديمة، ومثل تقيضه التيار المستقبلي الذي يدعو الى قطع كل صلة بالماضي وتكوين مستقبل باهر، وكل من هذين التيارين هارب من الواقع : فالسلفي هارب منه الى الماضي ، والمستقبلي الى المستقبل. وقد تنطلق بعض الانفس وراء دوافعها وغرائزها ، على حين تبالح أخرى في ضبط النفس وقمعها ، وهذان التياران منحرفان عن التوازن الواقعي . وقد تقدم الفلسفة محاولة سد الثغرة التي حصلت نتيجة لضعف الدين أو الرابطة الروحية ، ولكنها لا تعطي الافلسفات انتقائية : اما أن تسودها النزعة السلفية أو النزعة المستقبلية . وهكذا تظل الحضارة في تخبطاتها الاخيرة الى أن تنتهي .

حضارات عقيمة وحضارات متعطلة :

حين تتولد الحضارة من التفاعل مع تحد يفوق قدرة المتجيين : فلما أن تنشأ هذه الحضارة عقيمة ، واما أن تكون متعطلة . والحضارة العقيمة تموت في مهدها بعد أن تعيش فترة وجيزة بالقياس الى العمر الطبيعي للحضارات ، والذي يمتد عند تويني الى آلاف السنين . ومن المجتمعات العقيمة المجتمع الاسكندنافي الوثني الذي حاول منافسة الحضارة المسيحية وعرف ذروة ازدهاره في اسلندة ، ولكنه مالث أن ذاب في الحضارة المسيحية . والحضارة العقيمة اثنائية هي الكنيسة المسيحية الكلتية في ايرلنده ، والتي حاولت أن تقيم نظاماً للدين والحياة مستقلاً عن نظام الكنيسة الكاثوليكية ، الا أن هذه مالثت أن قهرته حضارياً في حوالي القرن العاشر .

وأما الحضارة المتعطلة فانها تعيش مدة طويلة ، ولكنها لا تتقدم خلال حياتها عن الخطوة الأولى التي خطتها عند نشوئها ، فلاستجابة الأولى تأسرها ، وكأن ثقل التحدي الذي واجهته في البداية كان كبيراً بحيث استنفد مجهودها الابداعي فلم تستطع أن تتابع تطوير نفسها وان حافظت على بقائها . ومن المجتمعات المتعطلة مجتمع الاسكيمو والبدو والبولينيزيين والمانيين ومجتمع اسبارطة . وليكن مثلنا التوضيحي هو المجتمع

العثماني نظراً لصلته بتاريخنا ، فالمجتمع العثماني فرع على الحضارة الاسلامية انشاء
الاتراك الذين كانوا مقيمين في سلطان أونو ورشحهم التحدي الذين يواجهونه أمام
العدو ليكونوا أصحاب هذا الفرع الحضاري من دون بقية جيرانهم وأقربائهم الاتراك
الآخرين . وقد كان ابداعهم المثمر هو أنهم كونوا لقوتهم مدداً بشرياً دائماً بانشائهم
الجيش الانكشاري بغض النظر عن قواعد الاصل مهتمين بالتربية وتأسيس النفوس
فلم يعودوا بدوا مفروضين بقوتهم الضيقة على سكان المناطق المفتوحة بل أصبحت
هذه المناطق تقدم بالمحاربين عن طريق النظام الذي اتبعوه بدقة وأكثر من أجله
التدريب والترهيب وهم في ذلك يشبهون المالك الا أن نظام الجيش الانكشاري أدق
وبهذه الطريقة نجوا من قصر العمر الذي تصاب به الدول البدوية عادة كما وصفها
ابن خلدون .

وحيث فسد الجيش الانكشاري لم يقدم العثمانيون ابداعاً جديداً ملائماً يحل محله
وانما قلدوا الدول الأوروبية في أنظمة الجيوش الحديثة التي يبدو أنها لم تناسب
تكوينهم فما لبثوا أن انهاروا .

ومما أسرع بانحلال العثمانيين انتشار مبدأ القوميات بين شعوبها فان هذا المبدأ اذا
كان مفيداً لأوروبا الغربية التي اتفقت فيها حدود الدول القومية مع حدود اللغات
فقد كان سبباً لمجتمعات أخرى كالسلطنة العثمانية التي كانت تضم مزيجاً معقداً من
العناصر والطوائف .

الديانات والحضارات :

عبد الانسان في البدء قوى الطبيعة ، وحين انتصر عليها بانشاء الحضارات عبد
ذاته بشكل صريح أو مقنع ، ولكن الحضارات القديمة لم تلبث أن وقعت في الماعب
وهبت عليها رياح الفشل فادرك الانسان وجود القوى العليا الحقيقية وظهرت الديانات
العالية كاليودية والمسيحية والاسلام والهندوسية والبوذية .

وفي نشأة حضارات الجيل الثالث لعبت الديانات دوراً تكوينياً أساسياً فان
قسماً من مضطهدي الحضارة الهيلينية أو البروليتاريا الداخلية فيها افرز الديانة
المسيحية فتقبلتها البروليتاريا الخارجية الفرنجية والقوطية وأمثالها وسيطرت بها على
المناطق الهيلينية بعد أن كانت هذه الحضارة ذاتها قد استسلمت للدين الجديد وانفتحت
بلادها للغزاة .

وقد حاول المجتمع السوري أن يرد على التأثيرات الهيلينية والمسيحية رداً يحفظ له تجده وشخصيته بعد انهيار حضارته الأولى فنجزت النسطورية والمينوفستية وتجديد اليهودية والزرادشتية عن أن تحمل عبء الصمود إلى أن ظهر الاسلام وحمله أول ماحله العرب وهم بروليتاريا داخلية للحضارة السورية كانت مقصاة ، ونجحت هذه الاستجابة فاصبحت الرابطة المحركة لمنطقة الشرق الأوسط ملأت الفراغ الحضاري في كثير من بقاع الشرق .

واذا كانت المسيحية قد بدأت سلمية فإن آراءها مالبثو أن استخدموا كل أنواع القوة .

واذا كان الاسلام بدأ حرياً بخير الناس بين الدين الجديد وبين الجزية - لا بينه وبين الموت - فانه بعد مدة أخذ ينتشر بالطرق السلمية وتقبلته الفئات العليا والدنيا في المجتمعات الشرقية وانصر فيه كثير من تراث الحضارات السابقة وبشكل خاص التراث السوري .

ويعطي تويني لهذه البداية الدينية التي انطلقت بها حضارات الجيل الثالث أهمية كبيرة ويتوقف عندها طويلاً حتى يوشك أن يجعل منها قانوناً عاماً مع أن الأجيال السابقة من الحضارات لم تبدأ بها .

وعلى كل حال فإذا كانت الديانات تستطيع أن تكون بذور حضارات فهي أيضاً غايتها فعالية الانسان هي السمو والاتصال بالكائنات العليا .

ويعتقد أن الديانات الكبيرة الباقية اليوم هي المسيحية والاسلام والهندوسية والبوذية والماهايانية ، وأن حل أزمة الانسان المعاصر يكن في قدرة هذه الديانات على التفاهم والتعاون وترك التعصب بحيث تهبء الجو لقيام حضارة انسانية عامة .

فصاحبنا يقيم تفكيره على قاعدة دينية ويرى أن الاله لا يقل واقعية عن البشرى . الا أن تدينه لا يميّز قناعاته الأخرى العلمية والفلسفية فهو يفهم الانسان الأول فهماً يقوم على نظرية التطور مثلاً .

ويحاول تويني الفينصف كل ديانة فهو معجب بدعوة المسيحية إلى المحبة وبتوحيد الاسلام الذي لا تشوبه شائبة .

الحضارة المسيحية الغربية :

نبدأ الآن بإجراء تفحص مستند لكل من الحضارات الخمس المتطورة الباقية

— أي الباقية من بين الحضارات غير المتعطلّة — وهي الحضارة المسيحية الغربية والمسيحية الشرقية والإسلامية والهندية الهندوسية والصينية والبوذية .

وقد نشأت الحضارة المسيحية واحدة ما لبثت أن انشقت إلى فرعين كبيرين هما الفرع الغربي الكاثوليكي والفرع الشرقي الأرثوذكسي .

وقد تطورت مراكز الغربية بحسب الضغوط وتنوع الأعداء إذ هي تارة تواجه أعداء من الشرق وأخرى من الشمال وثالثة من الجنوب الغربي ، وقد كان مسلمو الاندلس من أكبر مهدديها فانهت منهم وتفوقت على زميلاتها الشرقية ونافستها على بعض أرضها . وحين كانت مهددة بالاجتياح اعتمدت على النظام الإقطاعي كحل لمشكلتها الدفاعية ، ولفظته حين تغيرت الظروف التي انسجمت معه ، وقد حررت علاقة الإنسان بمجتمعه عن طريق الديمقراطية ، ثم اعتمدت على الصناعة لحل المشكلة الاقتصادية . ولم يعد لها من بروتيتاريا خارجية بربرية تنافسها ولكنها تلقى كفاحاً من قبل الحضارات الباقية الأخرى التي تقف موقف الدفاع عن النفس منها وإكبر منافس الآن لها هي الحضارة المسيحية الشرقية ، كما أن مشكلة العمال والمحرومين أدت إلى منازعات تشبه المنازعات التي تثيرها البروليتاريا الداخلية ولكن الغربية سارت قدماً في حل مشكلة الطبقة العاملة لديها .

وإذا كانت حتى الآن هي الحضارة السابقة لسواها فمن المتوقع أن تكون قد وصلت فترة الاضطرابات المصاحبة للانهار .

ومن أخطائها غرورها حتى كادت أن تنسى أن التاريخ قد عرف سواها .

ومن أخطائها أيضاً الاستعمار الذي بدأ بالزوال .

ومن أخطائها أيضاً منح فلسطين للحركة الصهيونية .

وقد انتقل مركز ثقلها من أوروبا إلى الولايات المتحدة الأمريكية نظراً لاستغراق الدول الأوروبية في الروح الحربية حتى استنفدت قواها كبيراً من مجهوداتها .

الحضارة المسيحية الشرقية :

بعد انشقاق المسيحية تركزت الحضارة الشرقية حول القسطنطينية وفي بلاد اليونان وفي روسيا ثم خسرت القسطنطينية وبلاد اليونان كمنطقتين مستقلتين على يد العثمانيين فأصبحت روسيا تعد نفسها القيصرية الشرقية وخليفة بيزنطة المسيحية .

وقد كان التطور في الغربية يتم على يد قسم من الشعب وهم البورجوازيون وأما في المسيحية الشرقية فقد كان يتم على يد الحكام الذين يساعدهم المثقفون .

ومنذ البدء أصبحت الدولة هي الأساس والكنيسة مساعدة لها وتابعة عند اللزوم على عكس دور الكنيسة المستقل عن الدولة وأحياناً المتعالي عليها عند الغربيين .

وقد عانت المسيحية الشرقية من خصوم كثيرين من أهمهم الغربيون أنفسهم . وقد ردت هذه الحضارة على تفوق الغرب بأن بدأت منذ أيام بطرس الأكبر تستعير تقنيته وما تحتاج إليه هذه التقنية .

وقد أتم الاقتباس لينين وحزبه إذ اقتبس العقيدة الماركسية وهي عقيدة غربية متمردة على الغرب فكيفها مع خصائص الامبراطورية الروسية السابقة وقاد بها النهضة التقنية والعلمية فلم تعد الحضارة الشرقية منافسة للغرب تقنياً فقط بل تنافسه معنوياً إذ تلوح للشعوب المستعمرة بالتمحرر وتلوح للمحرومين من أبناء الغرب نفسه بالعدالة الاجتماعية .

وان التنافس الأقوى الآن واقع بين الاتحاد السوفيتي كممثل للحضارة المسيحية الشرقية المتجددة وبين الولايات المتحدة ممثلة للحضارة الغربية .

ويعتمد الأمريكي على المشروع الفردي والحرية ويظن أنه قد حقق العدالة ويعتمد الشرقي على العمل الجماعي والعدالة ويظن أنه يحقق الحرية .

والحل عند توينسي بين هذا وذاك فهو الاشتراكية الديمقراطية والمثمرة في آن واحد .

الحضارة الإسلامية :

رأينا كيف انصلقت هذه الحضارة على يد العرب تحمل التوحيد والتسامح الديني وقد استطاع الاسلام أن يملأ ان فراغ الحضاري في منطقة الحضارة السورية السابقة ومنطقة الشرق الاوسط بشكل عام كما وصل تأثيره الى الشرق الأقصى وأوروبا .

وما لبثت الحضارة الإسلامية أن انشقت كالسيحية الى فرعين أولهما الفرع الغربي العربي وثانيهما الفرع الشرقي الإيراني أو الأعجمي ، وتغلب الفرع الشرقي الذي كان العثمانيون آخر ممثليه ، وقد عرفت هذه الحضارة بسالة ومجداً اعتزت بها حتى أصبح من الصعب أن تستفيد من الدروس ، فهي من أكثر الحضارات تحفظاً تجاه الاقتباس

من الغرب المتفوق مع انها ليست بعيدة عنه في المكان والذهنية .

وقد جرت محاولات للتغريب فشل بعضها كمشاهدة محمد علي في مصر ومحاوله
أمان الله خان في أفغانستان وتنجحت حتى الآن إحدى المحاولات المتطرفة وهي محاولة
أتاتورك في تركيا .

ويعتد العرب من ابناء الحضارة الاسلامية وقد فقدوا الوحدة التي كان يفرضها
العثمانيون باسم الاسلام وهم يتطلعون الى وحدة جديدة خاصة بهم . ومن واجبهم ان
يسرعوا بها ليستطيعوا الاستفادة قبل قوات الاوان من موقعهم الجغرافي ومن محصولهم
الرئيسي الهام الذي هو النفط ، فضلا عن أنهم يلقون من التحديات ما يجعل الوحدة
استجابة ناجحة .

ومن اهم التحديات التي يواجهونها التحدي الصهيوني ، فاليهود بقية من الحضارة
السورية القديمة أبت أن تذوب في سواها ، وان ظاهرة البقايا من الحضارات المنقرضة
ظاهرة معروفة ومن أمثلتها النسطوريون والمارسيون

وقد تنازع اليهود في العصر الحديث تياران يدعو أحدهما الى الانصهار في مختلف
البلدان وبخاصة بعد انتهاء الاضطهاد الذي كان يوقعه عليهم الشرقيون ثم الغربيون
بينما يرى المسلمون منه ، وأما التيار الثاني فهو الصهيوني الذي يدعو الى اقامة الدولة
العبرية في فلسطين وقد تعاون الغرب مع هذا التيار وساعده مساعده على طرد السكان
الاصليين وانشاء الدولة الصهيونية على أنقاضهم وكان هؤلاء الساسة يعرفون مايفعلون
فيخدعون العرب وينفذون مخططات الصهيونية ، وليس لليهود في فلسطين الا ما اشتروه
بحق كما يرى توينبي ، فاذا تذكرنا هبات المندوبية البريطانية السافرة والمقنعة المؤسسات
الصهيونية وأنواع الضغوط التي كانت تمارسها على الفلاح العربي وتعاون بعض الجهات
الأخرى معها أدركنا أن ما اشتراه اليهود بحق لا يكفي لاقامة مزرعة فضلا عن دولة .

الحضارة الهندية :

نشأت في الهند حضارتان وإن الباقية منها هي الحضارة الهندية الهندوسية التي
منحها الأباطرة المغول المسلحون دولتها الشاملة ثم استولى عليها الغرب تماما فقام
غاندي يقود نضالا سلميا لتحرير ونبذ التغريب ولكن الحضارة الغربية المتفوقة ترحف
على الحضارة الهندية التي يسعى كثير من قادتها الى اتباع النظام الديمقراطي البرلماني
الغربي وهو نظام بداته بريطانيا ، وقد اصبح هذا النظام مهدداً في بلاد المغرب ذاتها

لانه يقوم على مبدأ الدائرة الافليمية على حين ان الالهية الفعلية قد أصبحت
للقطاعات الاقتصادية فهل تمكن الهند من الثبات على هذه الطريق أم أن مشكلات
الفقر ستوقعها في الطريق الماركسي ؟ .

الحضارة الصينية :

ان الصين عريقة حضارياً وقد علمت البشرية الشيء الكثير وان الحضارة الباقية
فيها هي الحضارة القائمة على اساس البوذية وهي أيضاً تواجه زحف الغرب المتفوق
عليها وقد اختارت أخيراً أن تبني العقيدة الماركسية والتقنية الغربية كالاتحاد
السوفيتي وأخذت تصعد في هذا المضمار .

الموقف الحضاري والدولي الراهن :

لاحظنا ان الحضارة الغربية وحدها من بين الحضارات الباقية مازالت في مرحلة
الشباب ، وأما الحضارات الاخرى فقد دخلت في مرحلة الانحلال ، وهي تعاني من زحف
الحضارة الغربية ، ولكنها تبدأ باقتباس الآلات والبضائع والتجهيزات وترفض مبدأ
قبول المبادئ ، والأنظمة ولكن الادوات تجر المبادئ ، فلزحف قوي .

ولكن الحضارة الغربية نفسها مهددة أيضاً ، لأن أبنائها ينهبون باستمرار من
عقيدتها الأصلية ، حتى يمكن اقول بانها واشرفية حضارتان شبه مسيحتين أو
حضارتان كانتا مسيحتين .

ولهذا يتطلع توينبي إلى نشوء حضارة انسانية شاملة تستفيد من الخصائص
الاجابية لجميع الحضارات الباقية ، وقد يقدم الغرب العلم والصناعة والأنظمة ، ويقدم
الشرق السمو الروحي .

وأما الموقف الدولي فهو مرعب بعد ظهور الأسلحة الجديدة ، وتركز القوة في يد
الدولتين العظيمتين بشكل يجعل من المحتمل نشوب نزاع مفاجيء .

ويتطلع توينبي إلى نشوء دولة عالمية قائمة على القناعة لا على القوة ، ولذلك يوصي
بالأمم المتحدة خيراً ، ويطالب بتوجيه التربية توجيهاً يقوم على الاعجاب بخدام الانسانية
لا بقاتليها ، ويجعل أمله في الشباب القادرين على التحرر من الانقياد والتعصب والمضامع
والعداوات المقيتة . وأمله أن تعيش البشرية حياة اشتراكية ، توفق بين حرية الفرد

وضرورات الحياة الاجتماعية . ولكنه في هذه المجالات يبدو موصياً وواعظاً أكثر منه صاحب مخططات علمية . وبقیم أكبر أمله في حل الأزمة الحضارية والدولية الراهنة على تقام الديانات الكبرى الباقية .

مقارنات :

يتضح مضمون فلسفة تويني وأصولها بعقد المقارنات التالية :

١ - تويني وابن خلدون : يعرف تويني فيلسوف التاريخ العربي ويستشهد به في عدة مواضع . ويتشابهان في اتساع المعلومات وكثرة الشواهد وتفق فلسفتها في اعتقادهما بالدور الثلاثي أو الأجيال الثلاثة للحضارة .

إلا أن ملاحظات ابن خلدون لما حوله جعلته يربط الحضارة بالدولة غالباً، فكل دولة حضارتها التي تبدأ بعد انتقال جماعة هذه الدولة من الأسلوب البدوي الى الأسلوب الحضري المستقر .

وتظل في ازدهار الى عهد قريب من سقوط الدولة . وعمر كل حضارة بشكل عام قصير عند ابن خلدون لانه يربطه بعمر الدولة كما يتصوره، وهو غالباً ثلاثة أجيال تمتد على مئة وعشرين سنة بل يقنع أحياناً بمئة سنة ، ومن هنا أيضاً كانت الحضارات عند ابن خلدون كثيرة فكأنها موج البحر الذي يعلو ويهبط . واما الحضارة عند تويني فليست مقترنة بدولة واحدة بل قد تضم العديد من الدول وبخاصة قبل وصولها الى مرحلة الدول العالمية الاخيرة ، والحضارة عند تويني أطول عمراً من الحضارات الخلدونية بكثير، وهي بالتالي اقل عدداً كما رأينا من قبل . ويبدو ان العصر الحديث قد اتاح لتويني بيانات عالية عن الماضي والحاضر لم تتح لابن خلدون ، على ان ابن خلدون لا يخلو من اشارات الى حضارات اوسع وأثبت من الحضارات الموجبة التي أكثر من الحديث عنها. ولكن تقصي هذه الفكرة يحتاج الى بحث خاص .

٢ - ويتشابه تويني مع فيلسوف التاريخ الالمانى شبنغلر في اقامة دراسة الانسان على أساس الحضارات، وفي ان الحضارات حديثة نسبياً ، وأن حياة الحضارة لها مجرى معين . إلا أن تويني يمتد جبرية شبنغلر ويميل الى الاعتقاد بوجود الحرية الى جانب الحتمية والقوانين العامة .

٣ - ويستفيد توينبي من مفهوم الدقة الحيوية أو الوثبة الحيوية عند برغن وهو بشكل عام يسير مع برغن في تيار واحد هو التيار الروحي الذي يهتم بالدين والسمو الى الالهى ويكره الاقتصار على الآليات والماديات . إلا أن برغن ينطلق من علم الحياة على حين ينطلق توينبي من علم التاريخ . ثم إن فلسفة برغن فلسفة عامة ذات نظريات في الوجود والمعرفة والانسان ، واما فلسفة توينبي فتكاد تقتصر على الميدان التاريخي . وبعد بعض الباحثين فلسفة توينبي من أكل الفلسفات وأكثرها معاصرة لأنها تجمع الأبعاد الأربعة للسكان والزمان الى البعد الخامس وهو الحياة الى البعد السادس وهو الروح .

٤ - ويبدو أن توينبي قد استفاد من الماركسية ، فهو يبرز الصراعات الطبقة كنوع هام من أنواع الصراع ويتحدث عن الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية ، ويحتل مفهوم البروليتاريا مكانة خاصة عنده ، واننا لانتسى أن ماركس هو باعث الاهتمام بمفهوم البروليتاريا في الفكر الحديث وان استخدم توينبي هذا المفهوم بمعنى أوسع من المعنى الماركسي . وعلى كل حال فإن الجانب الاقتصادي عند توينبي هو أحد الجوانب الرئيسية في حياة الانسان وليس هو بالجانب الأساسي الوحيد ، ويتقصد بعض الماركسيين توينبي إذ يعدونه فيلسوف مثالياً وصاحب منظومة من الأفكار أتجها الغرب لمنافسة الماركسية .

كما يكرهون حديثه عن الاقليات المبدعة ويبترونه من أنصار نظرية الأفراد الأبطال .

٥ - ولا يخلو فكر توينبي من صلة مع فكر تليدي فرويد المنشقين عنه وهما الفريد أدلر وكارل يوتغ . فقد اهتم توينبي بالتحديات ومحاولة التغلب عليها عند الفرد والجماعة ، وهذا قريب من اهتمام ادلر بمحاولة الانسان التغلب على عوامل تقصه والتعويض عنها بحيث تنشأ العقيدة والابداع عن هذه المحاولة كما قد ينشأ الجنون والعدوان . ويتحدث توينبي عن الاشعور الفردي الذي اكتشفه فرويد وعن الاشعور الجمعي للتنوع الانساني الذي اكتشفه يوتغ ، ويقترح أن يضاف اليها الاشعور الزمري الذي يعود الى أصل جماعة أو حضارة معينة . وكأن توينبي يريد أن يطرق كل الأبواب وأن يستفيد من تراث العصر باجمعه .

وأخيراً فقد قيل عن الرجل بأنه فيلسوف انتقائي ، وقيل عنه إنه شاعر خيالي وقيل أنه يخضع الحوادث لنظرياته بدلاً من أن يخضع نظرياته للحوادث ، وقيل بأنه

صاحب فكر يعد قمة في النور والتنوير . وعلى كل حال فقد وجدته من دراستي
له جذاباً ومفيداً ويبغى الخير والانصاف ما استطاع .

حماة في ١١/٦/١٩٧٧

سرييل عثمان

مصادر البحث

- ١ - موجز دراسة للتاريخ توينبي ترجمة : فؤاد شبل
- ٢ - العالم والغرب =
- ٣ - الحضارة في الميزان =
- ٤ - سلسلة محاضرات ارنولد توينبي
- ٥ - مجلة - عالم الفكر - عدد خاص بفلسفة التاريخ العدد الأول لعام ١٩٧٤
- ٦ - في فلسفة التاريخ احمد محمود صبحي
- ٧ - التاريخ وكيف يفسرونه ويدجري

المميزات الحضارية لفترة مجهولة من تاريخ سورية

د . مفيد رائف العابد

مدرس تاريخ الاغريق والرومان
بكلية الآداب - جامعة دمشق

يعز على أي باحث محب للتاريخ أن يرى بعض الفترات الحضارية وقد اكتنفها غموض شبه شامل كالغموض الذي يحيط بتاريخ الحقبة الهلنيسية ، وقد يزداد تأسفه بصورة أكبر حين يعلم أن هذه الفترة الحضارية تمثل حقبة هامة من تاريخ بلاده . وقد اكتشفت هذه الحقيقة أثناء وجودي على مقاعد الدرس في جامعة دمشق ، وعقدت النية والزم على أن أركز جهودي لالقاء ما أستطيع من أضواء وإبراز ما أقدر عليه من معلومات تخص تاريخ العصر السلوقي في آسية كجزء من تاريخ بلادتي الذي لم يقدم على درسه - فيما أعلم - أي عربي آخر (١) وقد كان لتعيني مميذاً بعد التخرج وإيفادي في بحثة دراسية أكبر الأثر في وفائي لوطني ونفسي بما قطعت من وعود سابقة .

ولست أدعي أنني قد اكتشفت وأنني سأعرض هنا أو في مكان آخر معظم ما يخص تاريخ آسية السلوقية بشكل عام وسورية في العصر الهلنيسي بشكل خاص ، فإن الدراسات المتفوقة للأساتذة روستوفتسف (Rostovtzeff) وبفان (Bevan) وبوشيه لوكليرك (Bouché Leclercq) ويكرمان (Bikerman) وتارن (Tarn) وفيلكن (Wilcken) وجريفيث (Griffith) وولز (Welles) وغيرهم قد

(١) باستثناء الرسالة الجامعية القيمة التي أعدها الأستاذ الدكتور جورج حداد باللغة الانجليزية حول تاريخ مدينة انطاكية في العصرين الهلنيسي والروماني (شيكاغو ١٩٤٩) (الرسالة غير منشورة) والدراسة المبدئية والمختصرة التي خطها قبل وفاته الأستاذ الدكتور أسد رستم والتي نشرتها الجامعة اللبنانية عام (١٩٦٩) في بيروت .

مهتد السبيل لكل دارسي تاريخ مصر الهلنسي عامة والسلوقي خاصة .
إلا أن هذه الدراسات على جلال قدرها وسمو مكانتها والتي وضع معظمها أو أهمها لهذا البحث في أوائل هذا القرن ، أصبحت غير صالحة للاعتدال عليها بصورة مطلقة لسببين أولهما : مايجود به الحفائر بين سنة وأخرى من معلومات تغير أو تعدل أو تؤكد بعض فروض واستنتاجات المؤرخين السابقة لتاريخ الحفائر ، وثانيها : عدم توافر العدد الكافي من المؤرخين الشرقيين لكتابة هذا التاريخ ، فأجدادنا — كما نعلم جميعنا — هم الذين صنعوا هذا التاريخ ، ونحن الأقدر دوماً على كتابته .
وتحتم علينا قواعد البحث العلمي السليم أن نحدد — قبل الاستغراق في بحثنا — مدلولات الالفاظ التي سنستعملها درءاً لما يمكن أن يسبب أي لبس أو غموض وبخاصة أن مصر مدار البحث لم يكن في يوم ما موضوعاً للدراسة علمية موسعة بالعربية ، كما لم تكن سورية بمفهومها العام تلك الوحدة الجغرافية التي تماثل ما نعرفه عن بلاد الاغريق أو مصر أو فارس .

فالعصر الهلنسي^(١) هو مصر الذي غطى مكانياً كل أصقاع العالم القديم التي غزاها الاسكندر المقدوني (٣٥٦ — ٣٢٣) ق م^(٢) من الأندلس إلى البنجاب شرقاً ومن البحر الأسود شمالاً حتى الصحراء العربية جنوباً ، وهو العصر الذي تمارف المؤرخون المحدثون على تحديده زمنياً بالقرون الثلاثة السابقة للميلاد ، وبصورة أكثر تحديداً منذ وفاة الاسكندر في عام ٣٢٣ حتى قيام الامبراطورية الرومانية في عهد أغسطس عام ٣١ . ولما كان معظم مؤرخي مصر يتفقون على أن معالم هذا العصر الحضارية قد بدأت قبل وفاة الاسكندر واستمرت إلى ما بعد عام ٣١ ، فإن هذا الاتفاق يوضح لنا أن التحديد الزمني السابق للعصر ليس إلا اصلاح وضعي أضيف إلى قائمة المصطلحات التاريخية الأخرى لتيسر عصر اتم بسمتين أساسيتين أولهما :

(١) وهو مصر الذي ترجمه بعض مراجعنا خطأ بالعصر الهلنسي ، ووجه الخطأ في هذه الترجمة أنها تستعمل حرفي (السين والتاء) بدلا من حرف واحد لتفريق هذا العصر عن مصر الهلنسي ، والتسمية المعتمدة يستمدّها معظم كبار مؤرخي مصر من العرب انظر مؤلفات الأسناذين الدكتورين ابراهيم نصحي ومصطفى كمال عبد المليم .
(٢) جميع التواريخ الواردة في هذا البحث سابقة للميلاد مالم ينوه صراحة بغير ذلك .

إن أعمال وقوات الاسكندر غيرت وجه العالم المعروف آنذ ، وثانيتها : أنه بعد خضوع العالم الهلنيسي لروما وانغماسه في صراعاتها وحروبها الأهلية فترة من الزمن ، نهض هذا العالم من جديد في عهد الامبراطورية الرومانية على قواعد جديدة ذات طابع اغريقي روماني (١) .

ويختلف المؤرخون في تحديد معنى محدد للفترة « العصر الهلنيسي » ، وفي حين يرى بعض المنصفين انه عصر حضارة جديدة تكونت من عناصر اغريقية وشرقية ، يرى البعض الآخر القائل بتفوق الحضارة الغربية انه عصر انتشار الحضارة الاغريقية بين الشرقيين ، ويرى بعض ثالث منهفط ان العصر لا يمتدى كونه استمراراً منقحاً للحضارة الهلنسية القديمة بفضل ما أحاط بها من ظروف جديدة . وما من شك في ان جميع هذه الآراء تحتوي على بعض الحقيقة ، لكنها لا تمثل الحقيقة برمتها ، ولا يستقيم العمل بها إذا ما تناولنا معالم العصر وجميع ظواهره . ويمكن القول باختصار شديد ان لفظة « هلنيسي » ليست أكثر من عنوان مناسب للدلالة على حضارة القرون الثلاثة السابقة لليلاد التي تقسم الى طورين متميزين يتسم ابكرهما بأبداع خلاف في معظم علومها الشرقية والاغريقية المشتركة مع تفوق ملحوظ للحضارة الاغريقية ، في حين يتسم الطور الأخير برد فعل شرقي روحي ومادي ضد هذه الاصول التي أصابها الاعياء نتيجة لما بذلته من جهود في الطور الباكر (٢) . والآن ماذا عن مميزات هذا العصر الحضارية ؟

مميزات العصر :

ويمتاز العصر الهلنيسي — دون باقي عصور التاريخ التي سبقته — بميزات عديدة أهمها شيوع التعليم وانتشار المدارس والتعليم المختلط وسيادة روح الاخاء إلى جانب تماظم الثروة بين أيدي قلة من الناس مما أدى إلى اضطرابات اجتماعية متعددة . وقد ساعدت اللغة اليونانية التي سادت معظم أرجاء العالم المعروف وقتئذ على بروز ثقافة مشتركة انتشرت في كنفها الآداب والفلسفة ، وعمت في ظلها حرية الفكر

1) W. T arn, Hellenistic Civilization (London 1966) PP. 1 FF

2) iBiD

والقول ، وزالت الكراهية القومية باستثناء ما بقي منها بين المصريين واليهود (١).
ويبدو ان فكرة العالمية التي تحمس لها الاسكندر أثناء حياته ، وانتشار التعليم من خلال سيادة لغة ثقافية مشتركة قد ساعدت على بروز مدارس فلسفية دعت باخلاص الى الاخلاق الفاضلة ونبذ الأحقاد وحل الخلافات بالتحكيم بدلاً من الحرب وعلى رأسها المدرسة الرواقية والأبيقورية (٢) . وقد تبني عدد كبير من ساسة الدولات الاغريقية مبدأ التحكيم في منازعاتهم مع جيرانهم وبخاصة خلال الشطر الأكبر من القرن الثالث ، وبذلك فقد عملوا على تخفيف ويلات الحروب التي كانت أعرفها تبيح عادة لفتنصر أن يقتل رجال العدو ويسبي نساءه وأطفاله . وعلى الرغم من بعض المخالفات التي ارتكبها بعض الساسة للعرف الحربي الذي استنته اسكندر الأكبر ببيع جميع السكان بدلاً من قتلهم ، فإن انتشار « موضة » اعتراف الدولات الاغريقية بأن بعض المدن أو الأماكن « مقدسة » كالمابد ولا يجوز أن يستدي عليها ، والسخط والعداء الذي كان ينصب على منتهك هذه المقدسات من قبل الافراد والدول ينهض دليلاً رائعاً على استيقاظ العواطف الانسانية بدءاً من النصف الثاني من القرن الثالث (٣) .

ولا شك ان مركز المرأة في مصر الهلينسي قد تأثر بالأدوار التي لعبتها الملكات والأميرات المقدونيات بعد وفاة الاسكندر وتأسيس الملك السلوقية والبطلمية والانتيجونية (٤) في كل من آسية الغربية ومصر ومقدونية على التوالي . فقد نافست أدوار بعضهن أدوار الملوك في المجالات السياسية والدينية . ومن القصور الملكية امتدت الحرية النسبية الى النساء العاديات واستطاع بعضهن التحرر من قيود التقاليد القديمة والحصول على قدر وافر من التعليم أتاح لهن الفرصة للبروز في مجالات الفلسفة والشعر والفنون (٥) .

١) Tarn, op cit , P . 3

٢) لمزيد من المعلومات حول اخلاقيات المدرستين الرواقية والايبيقورية ، انظر :
تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ، وتاريخ الفلسفة الغربية لبرتر ندراسل
ترجمة زكي نجيب محمود .

٣) Tarn, op cit' PP. 80 ff

٤) نسبة إلى البلاط السلوقي في انطاكية ، والبطلمي في الاسكندرية ، والانتيجوني في مقدونية وهي البلاطات الرئيسية في العصر مدار البحث .

٥) ابراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالمة (القاهرة - ١٩٦٦) ج ١ ، ص ٤٠ .

ولعل من أبرز المظاهر الاقتصادية للعصر مدار البحث هو ذلك التفاوت الشاسع في توزيع الثروة بين طبقات المجتمع وما تلاه من تفاوت بين سخاء الأغنياء وقلة الأجور ، وكان الأغنياء في ذلك العصر على أتم الأبهة للتبرع بسخاء في خدمة الدولة والصالح العام في الوقت الذي لم يكونوا فيه على استعداد لدفع أجور مناسبة لفلاحهم أو عمالهم أو أقبانهم . ولدينا في مصادرنا أمثلة كثيرة على قيام الأغنياء بتلبية حاجات دولهم المادية تبرعاً أو اقراضاً أو تنفيذاً للخدمة العامة كقناة جسر أو معبد أو تمثال أو رعاية حفل ديني وحتى تجهيز جيش للحرب . وكان من الطبيعي والحالة هذه أن تتفاقم الأزمة الاجتماعية وأن تؤدي - مدعمة بأفكار المذهب الرواقية التي نادى بالاخاء والمساواة (١) - الى اضطرابات عجلت بنهاية ممالك هذا العصر على أيدي الرومان .

ويحاول بعض مؤرخينا المعاصرين أن يستخرجوا بعض أوجه الشبه بين مصر الهلنيسية والمصر الحديث أو المعاصر ، ويذهبون الى القول بأنه كانت توجد في مصر الهلنيسية الكثرة نفسها من الدول الكبيرة والصغيرة التي سانتها حصاره رفيعة مشتركة ، والتي نشأت فيها أفكار الانسانية والاخاء وتحرير المرأة ، وانتشر فيها التعليم انتشاراً أخرج أفواجا من انصاف المعلمين ، ونشأت فيه مناعب اقتصادية قاسية أدت الى المناداة بالأفكار الاشتراكية والشيوعية ، ويستدرك مؤرخونا سابقو الذكر ان مرد الخلاف بين المعاصرين - رغم كثرة ظواهر التشابه - هو ان العالم القديم لم يعرف الآلات ، وكان يعتمد في نشاطه الاقتصادي على العبيد الى حد كبير (٢) .

(١) نصحي ، المرجع السابق ، ص ٤٠ - ٤١ ..

2) Tarn, op cit, PP. 3 ff

الصهيونية

جزء ثالث مضاف للتوراة اليهودية

رياض زيد

جنس اليهود... وعلاقتهم بيني اسرائيل.... والعرب

قد يكون صحيحاً ان اسماعيل واسحق كليهما أبناء إبراهيم عليه السلام من نسل سام ولكن في البداية فقط ، أما بعد ذلك فقد ذاب نسل اسحق مع المصريين والكنعانيين والفلسطينيين والعموريين والحثيين وغيرهم ، ثم أخذ الذوبان بعد السبي البابلي حد الانحلال حتى أصبحنا في النهاية ازاء قوم غرباء لاعلاقة لهم البتة ياسحق ، وحيث اطلقت عليهم تسمية اليهود نسبة ليهوذا ، أحد أبناء يعقوب ، وهو السبط الذي خرج منه داود واسم المملكة التي كانت اورشليم عاصمة لها ، وسنحاول وبشكل سريع تبصير مسيرة هذا الانحلال عبر التاريخ الطويل بمراحله الثلاث : الخروج ، فالشتات ، ثم التراكم .

١ - الخروج : ان الخروج من مصر يمثل نقطة انطلاق في هذا المجال ،

فموسى عليه السلام عندما خرج بقبيلة بني اسرائيل من مصر عام ١٣٠٠ ق . م تبعه أعداد كبيرة من المصريين (١) الموحدين ، وخلال التيه انضمت اليه قبائل كثيرة مختلفة الأصول والمروق لتشكل هذه القبائل كافة عبر تزاوجها واختلاطها واتحاد مصيرها الحياتي وتحت قيادة زعيم واحد شعب اسرائيل ، وقد بدأ العملية موسى عليه السلام بنفسه عندما تزوج بابنة زعيم مدين . وقد وصل تعداد هذا الشعب ٦٠٠.٠٠٠ نسمة بينما نلاحظ أن القبيلة الأم التي دخلت مصر عام ١٦٥٦ ق . م

(١) لاحظ المؤرخون ان سبط اللاويين لم يكن من الأسباط الاثني عشر ، وكانوا بطانة موسى ومن ثم رجال الأكليروس اليهود ولا يستبعد فرويد في كتابه موسى والتوحيد أصلهم المصري .

لم يتجاوز عدد افرادها ٧٢ نسمة .

٢ - الشتات : آ - البابلي : قضى سرجون الثاني البابلي على دولة اسرائيل،

(السامرة) عام ٧٢١ ق . م ، ونقل سكانها لبابل ، ثم قام بعد ذلك نبوخذ نصر بالقضاء على دولة يهوذا (اورشليم) عام ٥٨٧ ق . م فدمرها وذبح سكانها ونقل ما تبقى من سكانها لبابل بعد ان أحرق المآبد والتوراة . وبعد خمسين سنة وفي العهد الفارسي سمح لهم قورش بالعودة لأورشليم واعادة بنائها ، ولكن بدون أفراد وأبناء الأسرة المالكة القديمة ، أي سمح بتشكيل سلطة كهنوتية (١) يديرها رئيس الكهنة بمعاونة مجلس أعيان من المدينين والكهنة (سندرين) ، تبقى اورشليم معها ولاية تابعة للدولة الفارسية .

ولهذا السبب لم يتجاوز عدد الذين عادوا لاورشليم أكثر من خمسين ألفاً من المشتتين إضافة الى قلة من السكان استطاعت البقاء أثر الرجوع خلال الحكم البابلي ، وبقيت الاغلبية المطلقة في العراق ، والباقي اتجه قسم منه مع الجيوش الفارسية باتجاه افغانستان وبخارى وسمرقند والقوقاز والخزر وقسم لمنطقة اللقان مع الغزو الفارسي لليونان.

ب - الهليني : بعد هزيمة الفرس على يد الاسكندر المكدوني عام ٣٣١ ق.م،

وبدء العصر الهليني الذي استمر مع السلوقيين والبطالمة ، انتشر اليهود على مسار هذه الجيوش ليشمل مراكز جديدة : الاسكندرية وآسيا الصغرى والبلقان والقرم وكيب الروسية وشرقاً حتى ضفاف الهندوس بالهند ، وقد قام اليهود في نهاية هذا العصر بثورة مكابية عام ١٦٧ ق م وبقيادة تيا بن يوحنا ومن بعده ابنه يهوذا ، وقد استطاعوا هزيمة السلوقيين وارجاع الدولة والملكية ، ومن أشهر ملوكهم اسكندر جينوس ١٠٣ - ٧٦ ق.م، وعرف بالقسوة والوحشية ، وقد أخضع سكان الجليل العرب (الايطوريون) الى حكمه بعد أن أعمل فيهم السيف وقتل الآلاف ومثل بالنساء والأطفال ، وكذلك بالنسبة للادوميين سكان جنوب فلسطين اجبروا على اعتناق اليهودية بمجد السيف .

ج - الروماني : قامت الجيوش الرومانية باحتلال فلسطين وقضت بذلك على الدولة

المكابية عام ٦٣ ق.م ولكن اليهود استمروا في عمليات القتل والاضطهاد للسكان

الأصليين ، مما اضطر السلطان الروماني للتدخل لاعادة النظام ، وباستمرار التعديات اليهودية حدثت المجابهة الرومانية اليهودية .. عام ٦٦م ، وقد قام اليهود بعمل مجازر كبيرة للسكان المحليين وللاجند الرومانيين مما اضطر القائد الروماني تيطس عام ٧٠م الى أن يهاجمهم ، وهكذا سقطت القدس بيده بعد حصار عنيف ، وراحت طعماً للسلب والنهب والحرق والهدم .

إلا أن اليهود عادوا الى الفتك باعدائهم ما بين عام ١١٥ - ١١٧ م فقد ذبحوا أعداءهم وأكلوا لحومهم وغنطقوا بامعائهم ، ونضحوا أجسامهم بدمائهم ، وصنعوا لهم البسة من جلودهم ، ونشروا من الوسط عدداً كبيراً منهم ، وعرضوا جماعات عديدة منهم للسباع والضواري . وبلغ عدد من فتك بهم اليهود خلال هذين العامين أكثر من ٢٢٠٠٠٠ نسمة (١) .

وفي عام ١٣٢ م قام اليهود بشورة شاملة في القدس بقيادة شمعون بن كوزيبا (٢) الذي ادعى أنه المسيح المنتظر ، فقام هديرانوس بتجهيز حملة قضى عليهم وذبح منهم أكثر من ٥٨٠٠٠٠ نسمة ، عدا الذين قضوا نجبتهم حرقاً أو جوعاً ، بعد أن أعمل فيهم الذبح والحرق ... واحرق منهم ومعابدهم وتوراتهم وكتبهم . وهكذا انتهى وللأبد مصير اليهود في فلسطين ... وتشبت من بقي على قيد الحياة على مسار طويل شمل كل مستعمرات العالم الروماني ... حوض البحر الأبيض المتوسط وحتى المانيا عن طريق الرون - الراين - فرانكفورت .

وقد تسرب قسم منهم الى الجزيرة العربية حيث سكنوا المدينة وخيبر ، وأما ما تبقى في فلسطين فشردمة قليلة هي السامريين ... الذين تحولوا الى قوقمة قزمية مغلقة في نابلس لا تزيد حالياً عن المائتين .

٣ - التراكم : استمر الشتات اليهودي حتى العصر الاسلامي حيث ازدهرت التجارة ، فتحركت الجاليات اليهودية من مواقعها المتناثرة نحو التراكم في مواقع مراكز اتصال الحضارات ، مستفيدة من التسامح العربي الاسلامي حيالها :

أ - شرقاً في منطقة الخزر حيث اتصال الدولتين الاسلامية والبيزنطية من جهة وأواسط وشرق آسيا من جهة أخرى .

ب - غرباً في الاندلس حيث الاتصال باوروبا التي كانت في بداية عصر النهضة .

١ - المؤرخ ديون كسيوس

٢ - تاريخ الحضارات العام

ج - عاصمة الخلافة بغداد .

إضافة الى التراكم الذي بدأ يتشكل في فرانكفورت بالمانيا نتيجة عوامل سياسية أوربية .

آ - منطقة الخزر : شعب الخزر ، تحدر من سلالة تركية مغولية ، جاء من سهوب آسيا الصغرى ، واستقر ما بين البحر الأسود وبحر الخزر في القرن الخامس الميلادي ، وكانت لغتهم قريبة جداً من اللغة التركية المسماة بالجاجتاي ، وقد اختلطت دماؤهم بدماء شعوب وأعراف متعددة مثل الهانز والسايير .

ونظراً لموقعهم الحيوي الذي أشرنا اليه ، ثابر اليهود خلال مختلف العصور على الهجرة الى هذه المنطقة في العهود الساسانية والبيزنطية ، ثم الاسلامية والبيزنطية ، وكانت لهم دوماً مكانة في بلاط ملك الخزر .

وفي عهد الأمويين ، تقدمت جيوش مروان بن محمد ، فأعلن خاقانها الاسلام ، وهكذا عادت الجيوش الاسلامية وهي مطمئنة الى أن أرض الخزر هي جزء من دار الاسلام . « إلا أن المفاجأة التي كانت في عام ٧٤٠ م حين أعلن يولان ملك الخزر دخوله في اليهودية بعد أن أقنعه أجبار اليهود بأن اعتناقه لليهودية من شأنه أن يجعل الله من شعوب القبائل الخزرية المغولية شعبه المختار وان اليهود في أنحاء العالم كافة سيكونون السند والدعم لهذه الدولة وتتحول القبائل الخزرية تبعاً لذلك الى سادة البشرية وأصحاب الحق الشرعي في حكم العالم » .

وقد اكتشف المؤرخون رسائل بين ابن شبروط الوزير اليهودي لعبد الرحمن الثالث في قرطبة بالاندلس وبين أحد ملوك هذه الدولة واسمه يوسف يصف فيها ابن شبروط سروره بأن الله قد حقق حلم الشعب المختار في الدولة الموعودة التي تجمع شتات شعب إسرائيل .

ورد الملك يوسف برسالة دعاه فيها الى زيارة مملكة الخزر اليهودية ، ورسم له فيها شجرة الأسرة المالكة التي تعود جذورها الى الاجداد الاتراك الغول فما كان من ابن شبروط إلا ان رده عليه برسالة عبر فيها عن خيبة أمله من أن ملوك هذه الدولة ليسوا من القبائل الاثني عشرة التي شتت من كنعان .

وقد روى المؤرخون ان أحد ملوكهم : اوباديا قد قام باحضار الأخبار
والخام من بغداد وقرطبة لتعليم أبناء الخزر التوراة والتلمود .

وهكذا تحولت هذه الدولة جملة واحدة الى اليهودية ، تمارس الدور والسلطان
السياسي لليهودية في العالم ، حتى انها بدأت بمهاجمة ديار الاسلام وبدعم من الدولة
البيزنطية ، واستطاعت ان تهدد في فترة من الفترات العواصم العربية ، ويقول المؤرخ
الروسي ارتانوف في ذلك :

« قام الخزر بخدمة عظيمة للتاريخ الانساني ، فقد نجحوا في سد حجة القوقاز
أمام الهجوم العربي ، ويجب علينا ان نضعهم في مستوى البطولة التي نضع فيها جماعة
شارل مارتل في فرنسا » .

واستمرت هذه الدولة ثلاثمائة سنة حتى اجتاحتها الفايكنج ، ونشروا فيها الدمار
والرعب ، مما اضطر يهودها الى النزوح الى مدينة كييف ومنطقة القرم
بمساعدة البيزنطيين .

ولكن نشوء دولة كييف السلافية الجديدة واعتناق الروس للارثوذكسية واتحاد
الكنيسة البيزنطية الرومية ضدهم كانت نتيجة حملات عديدة بدأها أمير كييف عام
٩٦٥ م ثم الامبراطور باسيلوس الثاني عام ١٠١٦ م ، وتلاشى اثر الدولة نهائياً عام
١٠٣٠ م لتشكل الشعوب المغولية التركية لهذه الدولة وبشكل مرعب ورهيب
نطاقاً بشرياً عرف تاريخياً باسم حظيرة اليهود ، غطى جنوب روسيا وشمل جنوب
دويلات البلطيق وكل بولندا ثم أقصى شرق المانيا وامند حتى وصل النمسا والمجر ،
وهكذا اتصل اليهود المغول بيهود المانيا (فرانكفورت) ليشكلوا قطب اليهودية في
العالم وثقلها الطاغى أي مازنته ستة ملايين يهودي .

وكانت عملية خلط وعزج استطاع فيها يهود المانيا قيادة هذا القطيع الكبير ،
ومن أوضح مظاهر هذه السيادة : اللغة الجديدة (اليديشية) المستمدة من اللهجة
الالمانية العليا واستعاروا لهم اسماً (الاشكنازيم)^(١) ليميزوا عن يهود
الأندلس (السفارديم) .

وقد حدث بعد ذلك في القرن الثاني عشر الميلادي ان حاول سليمان بن دوج
الخزري تجميع يهود الخزر ثانية في محاولة زحف للقدس ، بعد أن ضاع وطنهم

الأصلي مدعياً أنه أشعيا وأن ابنه هو المهدي ، إلا أن محاولته باءت بالفشل فقتل فخلفه ابنه مناحم الذي بدل اسمه إلى (داود بن روى) فوصلت جيوشه إلى شمال العراق حيث قتل وأعوانه ، ومنذ ذلك الوقت رفع اليهود في العالم أجمع راية (داود بن روى) التي تحمل النجمة السداسية ، وهذا يعني بأن هذه النجمة هي ليست لداود عليه السلام كما هو معروف .

ب - الأندلس : تراكم اليهود فيها نتيجة لازدهار التجارة حتى وصل عددهم إلى مليون نسمة ، وانتشرت إمتداداتهم عبر أقطار أوروبا الغربية وحوض البحر الأبيض المتوسط ، ودول البلقان حتى الأناضول ، وعندما سقطت الأندلس عام ١٤٩٢ م لحقهم حرب الإبادة والاضطهاد ، فشتوا إلى مواقع إمتداداتهم التي أشرنا إليها ، وحملوا معهم لنتهم الإسبانية المحرفة المعروفة (باللادينو) واستعيرت لهم كلمة السفارديم لتمييزهم عن الأشكنازيم الذين تحدثنا عنهم .

وبدأ كدت دراسات الأثروبولوجيا أن السفارديم قبل خروجهم من الأندلس كانوا قد استوعبوا دماء إيبيرية وغربية وبربرية في عروقهم بحيث يمكن وبسهولة ملاحظة الفوارق العرقية من حيث اللون وشكل الرأس ، والأنف وغيره ، مما يجعل الحديث عن نقاوة المنصر وعن السامية بالنسبة لليهود السفارديم وهم وخرافة

ج - بغداد : تركز اليهود في عصور إزدهار الإسلام في بغداد ، وانتشرت إمتداداتهم : شرقاً إيران وتركستان والهند والصين وغرباً إلى شمال إفريقيا وجنوباً اليمن (١) والحبشة وسمي هؤلاء باليهود الشرقيين ويتكلمون بالعربية إلى جانب إحتفاظهم باللغة العبرية ولا يتجاوز ثقل هذه الدائرة أكثر من مليون نسمة . . .

وكان شأنهم خطيراً في التاريخ العربي والإسلامي فتاريخهم سجل بالمكائد وإثارة التمرات الشعبية والطائفية حتى أن بصاتهم واضحة على كل الكوارث التي حاقت بالعرب والمسلمين خلال التاريخ الطويل .

فمنذ الأيام الأولى التي ظهر فيها الرسول العربي محمد عليه السلام واليهود ينصبون له العداء ، ولا يدعون سبيلاً من سبل الكيد له ولرسالته الاًسلكوه ، وبالرغم من العهود والمخالفات التي كان وقعها معهم إلا أنهم كانوا يغدرون بمواثيقهم حتى إضطروا عليه السلام إلى حربهم . . .

١ - يهود اليمن والحبشة الأصليين ؟ هم ليسوا من الشتات بل تهودوا بالتحول في العصر السبئي .

وقد كان لهم دور كبير في إشعال الفتنة الأولى في الاسلام ، وقتل الخليفة عثمان بن عفان وعلى رأسهم عبد الله بن سبأ ، واستمرارهم في ذلك في عهد الخليفة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، مما اضطره إلى محاربتهم ، وتقي ابن سبأ إلى سباط الدائن .

التوراة . . . والصهيونية

أزلت التوراة على بني إسرائيل عام ١٣٠٠ ق.م (إيتا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور (١)) ولكنهم بوقاة موسى عليه السلام أضاعوها وإرتدوا إلى وثنيهم ، وتجلى ذلك في حرب الابدنة والافناء التي مارسوها خلال حروبهم مع الكنعانيين سكان فلسطين الأصليين ، فقد سحقوا وهدموا وأحرقوا كل شيء حتى الشجر والحيوان ،

وفي عهد داود عليه السلام عام ١٠٠٠ ق.م هدم المعابد الوثنية ، وبنى للرب معبداً في أورشليم وأمر باحضار تابوت العهد المحفوظة فيه ألواح اشريعة والتوراة ، بأسفارها الخمس ، إلا أن المعاجاة كانت في ضياع التوراة ، فقام الكاهن ايباثر (٢) بكتابة نسخة جديدة مخرفة ، إلا أن هذه النسخة المخرفة قد انقطع تواترها بعد ذلك لعودة بني إسرائيل إلى الوثنية بعد عهد سليمان عليه السلام ، حتى جاء يوشيا بن آمون عام ٦٢١ ق.م ، وحاول إعادته قومه إلى التوراة ، وبعد ثماني عشرة سنة أخضر له حلقيا الكاهن نسخة أكثر تحريقاً ، وبالرغم من عدم اعتمادها رسمياً إلا أنها ضاعت كذلك خلال السبي البابلي عام ٥٨٦ ق.م .

وفي العهد الفارسي عام ٥٣٦ ق.م سمح لليهود بكتابة توراتهم من جديد ، فكتبها عزرا مضيفاً إليها أحد عشر كتاباً ، تبتدىء من كتاب يوشع بن نون وحتى السفر الثاني لعزرا ويسمى نحميا ، إلا أن هذه الكتب جميعاً قد أحرفت مرات عديدة خلال المذابح التي جرت لليهود خلال المهدين الهلاني والروماني . ورد في الباب الأول من الكتاب الأول للمقايين هكذا :

١ - القرآن الكريم - سورة المائدة - آية ٤٤

٢ - موسى والتوحيد ص ٦٨ لسيفمون فرويد

« لما فتح ملك ملوك الفرنج أورشليم ، أحرق جميع نسخ كتاب العهد العتيق التي حصلت له من أي مكان بعد ما قطعها ، وأمر أن من يوجد عنده نسخة يقتل ، وتدم تلك النسخة ، وكان تحقيق هذا الأمر في كل شهر » .

وخلال ثلاثمائة سنة أخرى ، قام أنصار اليهود بأعادة كتابة التوراة المعروفة حالياً بالعهد القديم ، مضيفين إليها اثنين وعشرين كتاباً ، كانت آخرها ملاخيا لتشكيل الجزء الأول من التوراة . وكذلك تسعة كتب تسمى باستير وآخرها المكابيين الثاني لتشكيل الجزء الثاني من التوراة (٣) . . . إضافة إلى اشروحات التي أسمىها باليهود . وقد أتت التوراة الجديدة مليئة بالتناقضات والتحريف ، الاختلاف ، وحوث مفاهيم وأمر شاذة ، وامتزح فيها مانسب لموسى عليه السلام بحشو غريب استقوه من اللغات الفارسية والبابلية والمصرية . . . حتى أننا لنجد لهذه التوراة نسخاً عديدة يختلف بعضها عن بعض اختلافاً بيناً وفيما يلي عرض للأصول فيها :

الإله : يهوه :

واحد ولكنه متحول ، يكشف سر استقبال أما بظهوره للبشر لاسيما في الأحلام ، وإما بواسطة (قرع) خشبية يسترثيها الكهنة . . . خاص بهم ، لا يتم بشؤون الشعوب الأخرى ، يخصهم وحدهم بمحبته وعدله وعضده وقدرته الحامية ، مفضلاً جميع أعدائهم . . . وقد تجلى حيال هؤلاء تحيزه وعنفه وتعطشه للدماء ، وحبه كل مكيدة وأوصى بكل إبادة ، واستدر كل شفقة لكرهه ، مع ذلك يتصارع مع يعقوب عليه السلام فلا يقدر عليه

ولنقرأ هذا النص العجيب كما ورد آية ٣٦ / ٣٢ سفر التكوين : «أبقي يعقوب وحده ، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ، ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذه يعقوب في مصارعه معه ، وقال : أطلقني لأنه قد طلعت الفجر . فقال : لا أطلقك إن لم تباركني ، فقال له ما اسمك فقال : يعقوب . . . فقال : لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب . . . بل إسرائيل . . . لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت

٣ - إظهار الحق . . رحمه الله الهندي

٤ - تازيخ الحضارة العامة ، كروزيه .

الانبياء :

أثرو انفضائح وأجازوا لنفسهم الجبارات بعضاً من نصوص التوراة
إبراهيم عليه السلام : تزوج أخته ساره « انها أختي ، بالحقيقة إبنة أبي »
ولست إبنة أمي ، وقد تزوجت بها . ١٢ : ٢٥ : سفر التكوين
دفع بزوجه سارة الى حاكم مصر لقاء مال . . . وقافلة من النوق
والحمير سفر التكوين
يعقوب عليه السلام : كانت ولادته « . . خرج ويده قابضة بقب عيو « توأمه »
٢٦ : ٢٥ : سفر التكوين
لوط عليه السلام : زنى بابنتيه وحملتا بالزنا ٢٩ سفر التكوين
يهود بن يعقوب عليه السلام : زنا بثمار زوجة أبيه ، وحملت بالزنا منه ، وولدت
توأمين . ٣٨ سفر التكوين
هارون عليه السلام . . . بنى معبداً لايجل . . . وعبدته « ٣٢ سفر الخروج
داود عليه السلام « كان يوصوص من نافذته على النساء . . . » « زنى بامرأة
أوربا وحملت بالزنا منه ، فأهلك زوجها بالكر وأخذها زوجة له . . . »
١١ صموئيل الثاني
سليمان : « إرتد آخر عمره وكان يعبد الأصنام . . . » سفر الملوك الأول
وهذا بعض . . . !

الحساب :

لم يرد في التوراة الى ما يشير إلى إعتقاد كتبها بالبعث والحساب . . . بل يلح
القارئ أن القصص أرضي ويتجلى بالمصائب ينتظرون مجد الله على
الأرض . . . باقامة مملكة إسرائيل الخالدة في أورشليم

اليهود والشعوب الأخرى :

اليهود شعب الله المختار ، وانهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم جيلة خاصة تمتاز
على سائر أمم الأرض التي هي بمنزلة البهائم المسخرة لهم لذلك لا حرج في سلبهم

أموالهم بأية وسيلة غير مشروعة . هم وحدهم نفوسهم مخلوقة من نفس الله ، وإن عنصروهم من عنصره ، فهم وحدهم أبناء الإطهار جوهراً ، ومنحهم الصورة الخلقية البشرية تكريماً لهم ، وخلق غيرهم من طينة شيطانية أو حيوانية نجسة ، ولم يخلقهم إلا لخدمتهم ولم يمنحهم الصورة البشرية إلا محاكاة لهم إذ بغير التشابه لا يمكن التفاهم .

هذه هي التوراة بجزأها .

أما الصهيونية :

فهي الحركة اليهودية السياسية المعاصرة ، نشأت في القرن الأخير ، وأقامت فلسفتها على التوراة ومركزة على المفاهيم التالية :

١ - أبدية العدا للسامية : استغلت العدا والكراهية الموجه لليهود عبر عصور مديدة ، مدعية أن هذا الاضطهاد هو شكل من معاداة السامية ، بينما الحقيقة أن جر اليهود الذين تعرضوا لهذا ، ولا سيما في العصر الحديث هم أحفاد المغول التتريين وأحفاد الجرمان الألمان ولا صلة لهم إطلاقاً بالساميين كما أوضحنا سابقاً .

كما أن الاضطهاد المذكور كان الرد الطبيعي لممارسة الحياة اليهودية الفردية ، وارتباط الفرد اليهودي بالمال والتجارة والسمة والانخاسة والربا والجشع والدعارة والتجسس ، وغير ذلك من الأعمال الطفيلية ... وتجمعهم في داخل أحياء خاصة (جيتوات) ، يمارسون فيها سلوكياتهم الممار اليها وكأنهم (دولة داخل دولة) وهذا هو السبب الأصيل والعميق في كراهية هذه الشعوب والأمم لهم على مدار التاريخ إضافة إلى المذابح الرهيبة التي ارتكبوها ضد مختلف الشعوب والأمم .

٢ - الجنس اليهودي التميز ... بأنه (شعب الله المختار) .

٣ - الأمة اليهودية العالمية : باعتبار اليهود يحملون (رسالة قوية روحية) خاصة وأن هذه الرسالة هي (ظاهرة ثقافية خارقة ...) تتجلى في التوراة والتلمود العظيمين .

٤ - الوحدة اليهودية المنبثقة عن تماثل التوراة في أن اليهود كلهم أخوة ، وأنه يتوجب عليهم البحث عن السعادة في (بلد الآباء الأولين) .

٥ - مضمار اندماج اليهود ... ضمن الأمم والحضارات لأن الشعوب الأخرى (نجسة)

٦ - الدين اليهودي جوهر للصهيونية ... ومنه نأخذ تعريفا لليهودي التوراتي التميز (بأن اليهودية) .

٧ - أرض الميعاد ... والتمسك (بالعهد) الزعوم ..

قاي تناقض بين التوراة المكتوبة بأيدي أحبار اليهود بعد السبي البابلي
وبين النصوص الصهيونية المكتوبة بأيدي أحبارهم المثقفين في العصر الحديث ... كلها
أسفار لكتاب واحد ، توراتهم / يكتبونها لإسرائيلهم الكبرى - على أشلاء العالم .
يقول حاييم نخمن بيانك في حفل افتتاح الجامعة العبرية بالقدس عام ١٩٢٥ م :
(إسرائيل والتوراة شيء واحد) هي مركز أسرار الأمة وتطلعاتها اشروعة ، ان
أخبار الأيام الاول والثاني ... آخز ما انزل من الكتاب وليست الأخيرة في تاريخ
إسرائيل .

سيضاف جزء ثالث ... وربما كان هذا الجزء أهم من الجزئين الأولين .
في الجزء الثالث سوف يبدأ بدون شك (بوعده بلفور) وسيكون بعنوان
الصهيونية ... فهل تتبته هذه الأمة .. ؟ .. وتستيقظ !! .

﴿ مصادر البحث ﴾

- ١ - القرآن الكريم
- ٢ - التوراة - العهد القديم
- ٣ - تاريخ الحضارات العام / موريس كروزيه /
- ٤ - اليهود انثرو بولوجيا - جمال حمدان
- ٥ - الصهيونية بداية ونهاية - أبو مازن
- ٦ - الفكرة الصهيونية - النصوص الأساسية - مركز الأبحاث الفلسطيني
- ٧ - اظهر الحق - رحمة الله الهندي
- ٨ - موسى والتوحيد - سنيغموند فرويد
- ٩ - الجوهر الرجعي في الصهيونية - دار التقدم - موسكو
- ١٠ - القبيلة الثالثة عشرة - كوستلر
- ١١ - مجموعة مقالات للأساتذة ابراهيم البعثي - اميره الزين . فيما يتعلق بالخزير
- ١٢ - مكائد اليهود في التاريخ - الميداني .

موقع تل الحديدي الاثري

بقلم

محمد الخولي : محافظ المتحف العربي الاسلامي

أضيت في حوض الفرات فرابة خمس سنوات ، مثلت خلالها المديرية العامة للآثار والتاحف لدى الشحات الأجنبية ، وتقلب خلالها على عدة مواقع أثرية ، تعود إلى عصور تاريخية مختلفة ، بما أ كسبني الكثير من الخبرة بأساليب التنقيب الأثري المختلفة ، وبطبيعة المنطقة في حوض الفرات ، وبنفوس سكانها وتقاليدهم وشؤون حياتهم والآن بد أن طوت بحرة الأسد صفحة من تاريخ المنطقة ، شعرت أنه مفيد أن أسجل ماخبرته عن هذه المنطقة لعله يمثل ظلًا لحياه كانت ثم زالت ، ولتلال ومواقع أثرية ثوت تحت الماء ، وقد وقع اختياري الأول على موقع تل الحديدي .

يقع تل الحديدي على هضبة تمتد حوالي ٣ كم بمصاغة نهر الفرات الخالد ، وتبلغ مساحة الخربة التي يمتد عليها حوالي ٤٠ ، دونماً وترتفع عن سطح البحر حوالي ٣١٠ م ، وأما سطح البحرة ويرتفع الآن إلى ٣٠٠ م فوق سطح البحر ، يحيط بالموقع سهل رحيب خصيب ، تحوطه سلاسل جبلية ، وتشغله مجموعة من القرى بعضها كان على جوانب سرير النهر ، وقد غابت الآن تحت الماء وهي قرى ، الكسرة الطعس ، أبو دارا . والبعض الآخر مبثر في السهل الشاهلي ويمكن استعراضها من الشرق إلى الغرب على النحو التالي :

شاش حمدان ، رسم مسطاحه ، جديدة مسطاحه ، رمانة ، الحيزة ، العطشانة جب الحمام مسطاحه ، جب خميس مسطاحه ، خربة برغوث ، عين الجاموس ، جب حمد الشلال ، رسم العبد ، مسطاحه ، الكسرة ، مزرعة الحديدي ، الحديدي (القرية) .

يعد الموقع عن جسم السد في إتجاه الشمال حوالي ٦٥ كم ، ويتوضع على منعطف من النهر ، يمكنه من الانتراف على مسافة بعيدة في اتجاه مورد النهر ، وعلى مسافة

مماثلة في إتجاه المصب ، كان النهر بالأسس القريب بلج المنطقة من ممر ضيق يساعد على الاتصال بالضفة الأخرى بسهولة ، كما يساعد على التحكم بهذا الطريق المائي التجاري الهام . لاشك أن الضفة الثمانية للنهر جمعت منه مهوى لأفئدة أصحاب الفعاليات الاقتصادية في شتى العصور التاريخية ، شأن نظيره الشهيرين النيل ودجلة ، لذا كانت الأودية والسهول المحيطة بهذه الأنهار الثلاثة محصورة منذ أن دبت أرجل البشر على ظهر هذه الأرض .

شهد نهر الفرات تقلب حضارات عديدة منذ العصور الحجرية الأولى ، وتبعتها عصور الحضارات التاريخية من سومرية وأكادية وأمورية وبابلية وآشورية وميتانية وحشية . واستمرت تنوالى على جنبات النهر الحضارة تلو الأخرى حتى العصر العثماني لذا فإن ضفتي النهر تحتوي على ثقافات شعوب توالى على المنطقة منذ ٢٠ ألف عام على الأقل ، بالإضافة إلى كنوز هامة مما أغرى البعثات العلمية في بقاع العالم المختلفة أن تقتشر على جنباته من مصبه في جنوبي العراق حتى ينابيعه في تركيا ، وتتخير المواقع التي تناسب اختصاصها .

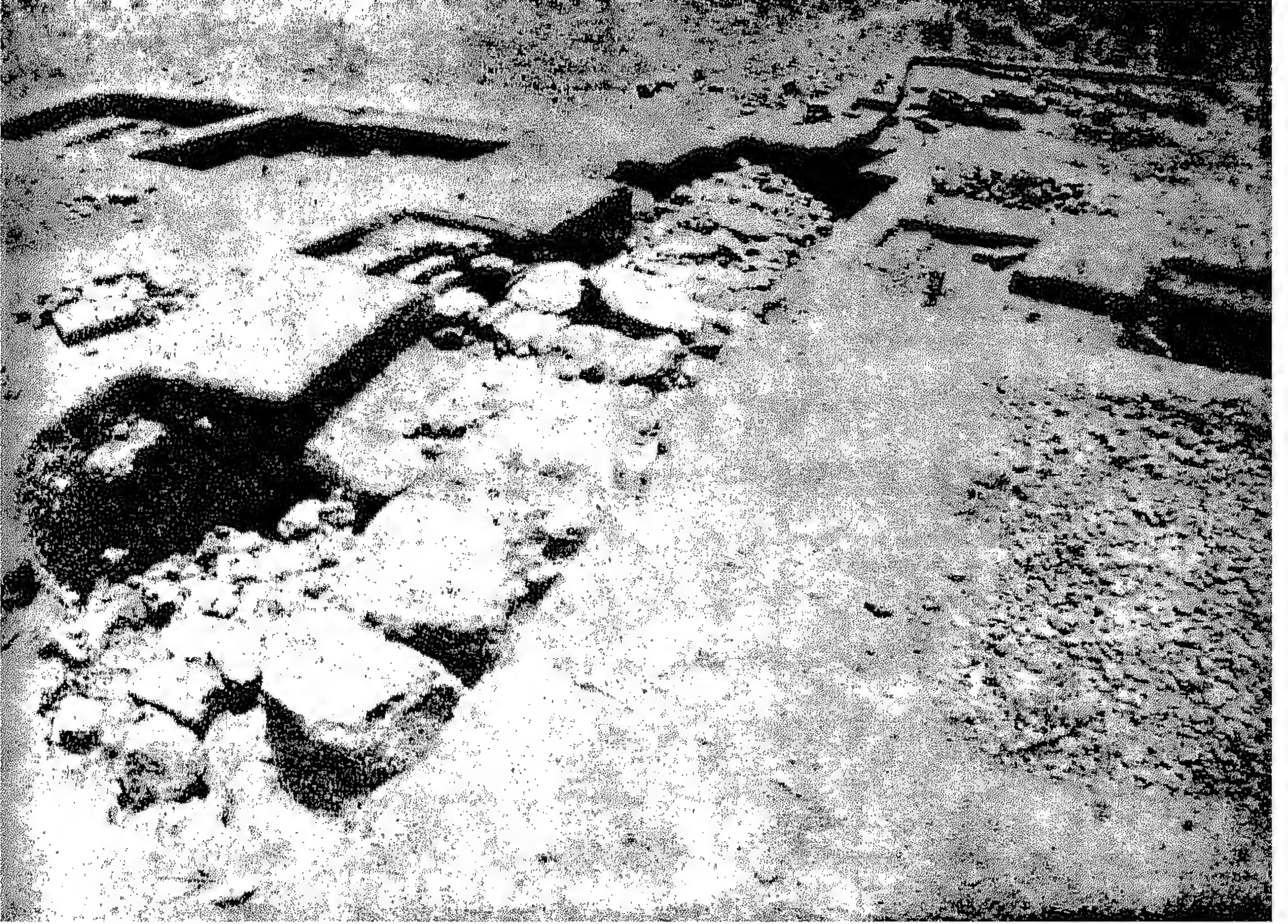
هذا النهر العذب افرات الخير المعطاء الذي أنبت الحث والنيل ، كان يهيج ويشور ويطنى ، فيجرف الحياة أحياناً برمتها من على ضفافه ويسبب الكوارث والويلات ، فتضيع المحاصيل والدور والحيوان والسكان ، ولكن الثورة السقي كبحت الطغيان السياسي والاجتماعي والاقتصادي في هذا البلد ، كان موضوع النهر من بين مواضيعها وآلت على نفسها أن تكبح جماحه ، وأن تمسك بزمامه ، وتحيد العريضة والدمار والحراب الى نعاء وآلاء تقيء على المنطقة والقطر بأسره بالخير والسعادة ، فقررت اقامه سد الطبقة العظيم ، وكان ذلك القرار بمثابة حكم بالسلامة والطمأنينة والاستقرار على رقعة كبيرة ، تمتد من مدينة الثورة حتى قسلة يوسف باشا ، كما كان القرار بمثابة حكم بالفرق على المواقع الاثرية التي تتوضع على ضفتي النهر على طول المسافة المذكورة التي تتجاوز الـ ٧٠ كم ، وقد ترتب على ذلك اصدار نداء دولي عن طريق منظمة اليونسكو لاتقاذ المواقع الاثرية في منطقة النهر ، ونظمت حملة دولية لالقيام بعملية الاتقاذ منذ عام ١٩٦٣ ، وبلغت هذه الحملة ذروتها في عام ١٩٧١ حين بدأ العمل الفعلي وقدمت بعثات التنقيب من جهات مختلفة من العالم ، تمثل الجامعات والمعاهد العلمية والمتاحف وبعض الانشطة الثقافية والاعلامية المختلطة ، وامتدت هذه البعثات على مايقرب من ٢٣ موقعا بما في ذلك بعثاتنا الوطنية ، وقد اشتملت هذه البعثات على

جنسيات مختلفة كالانكليزية والاسريكية والفرنسية والالمانية والمجيكية والسويسرية والهولندية والابطالية واليابانية . وموقع الحديدي هو واحد من هذه المواقع .

وقد دل المسح الأثري الذي قام به العالم الأثري الهولندي فالهون لحوض الفرات أن هذا التل يعود الى عصر الحديد . وهذا ما أغرى العالم الأثري الهولندي الدكتور فرانكن الذي يعمل على إصدار دراسة عن فخار المنطقة تكون بمثابة أجدية فنية لصناعة الفخار من الناحيتين التقنية والتاريخية تغطي جميع العصور التي مرت بالمنطقة ، وقد نجح في تصنيف فخار معظم العصور ما خلا عصر الحديد ، لذا انتهوا هذا التل وبدأ باستخراجه في عام ١٩٧٣ وذلك بواسطة أسبار علمية ساعدت على إخراج عصوره المختلفة ، ووجد أن هذا التل كان مغموراً منذ الألف الخامس قبل الميلاد ، والطبقة التي أخذ منها وثائق الألف الخامسة تتوضع فوق آثار للعمران ، ولكن عمق الأسبار ورخاوة التربة وعدم رغبة المنقب في آثار العصور المتوغلّة في القدم حال دون الوصول إلى الأرض الحرة . ول سوء حظ المنقب لم يستطع العثور على أية وثيقة تعود إلى عصر الحديد وإنما العصور التي سبقته والعصور التي لحقته حتى العهد المملوكي من العصور الإسلامية .

بشرت البعثة الأمريكية المرخصة رسمياً بالتنقيب في هذا التل أعمالها في عام ١٩٧٤ ، وهذه البعثة تابعة إلى متحف ميلووكي وجامعة ميتشغن . قامت بعملية مسح شاملة لتل بجريته الشرقي المنخفض المستوي تقريباً ، والغربي المرتفع غير المستوي ، وقد وزعت البعثة جهودها على الجزئين بآف واحد . وبعد انقضاء الموسم الثاني تبين لهم أن الجزء المنخفض كان مغموراً من قبل شعوب عصر البرونز الأول

(حوالي منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد) وأن العمران لا يتعدى طبقة واحدة وهي لا تتخفّض عن سطح التل بأكثر من ٣٠ سم ، ومن خلال الملقى التي عثر عليها تبين أن السكان كانوا من وسط اجتماعي متقارب يتل طبقة بسيطة ، ربما كانت الطبقة التي تعمل لصالح سكان التل الأعلى ، وعلى التل الأوطأ هذا عدد من النماذج المختلفة المدافن المبنية تحت الأرض والتي تعود إلى عهود مختلفة ، ونظراً لأهمية المدافن بالنسبة لموضوع التنقيب الأثري وجدت أن أخصها بالحديث في هذا المقال . من هذه المدافن واحد يعود إلى عصر البرونز القديم ، ويدل أسلوب عمرانه أنه ينحصر أناساً يتمتعون بمستوى اجتماعي لائق . مخطط هذا القبر يتألف من درج

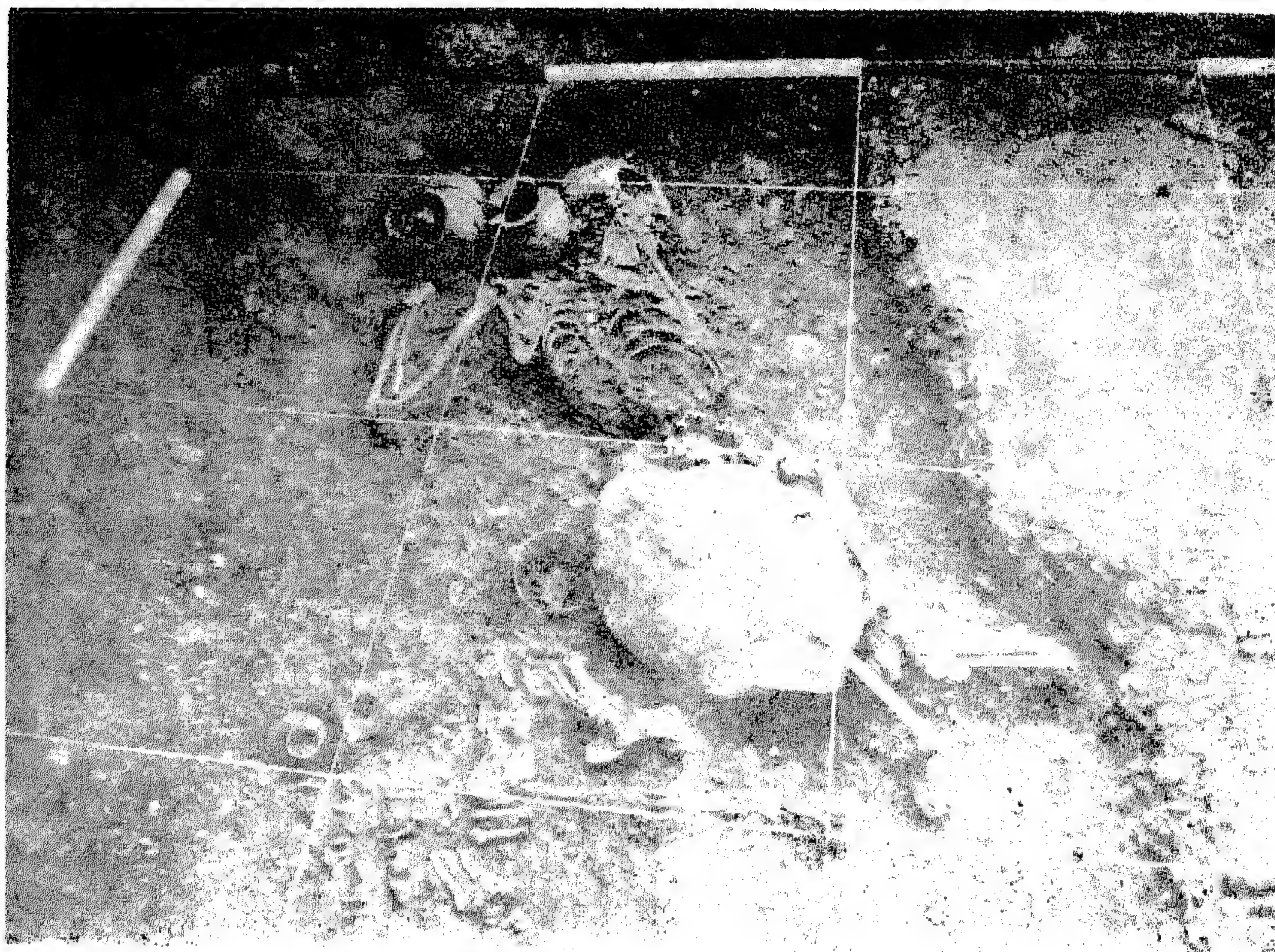


يؤدي إلى ردهة ، تتصل هذه الردهة بغرفة مقبلة بطول يتراوح بين ٤ - ٦ أمتار وعرض ٤ - ٥ أمتار وإرتفاع ٣ م ، ويبلغ الطول الكلي للمدفن حوالي ١٢ م ويأخذ إتجاه الشمال - الجنوب ، ويتميز هذا النوع بكونه مبنياً من حجارة غير موجهة وبأن سقفه مغلق بمشاطيح حجرية بسك ٢٠ - ٣٥ سم وعرض أقصى ١ م وطول يتراوح بين ٢ - ٤ م ويدعى هذا النوع من المدافن ب :

Corbelled Cyclopaean Construction

عثر على مثل هذا النوع في موقع محبابة على الضفة الجزيرية المقابلة من حوض الفرات وفي تل برسيب قرب كركيش وفي موقع ماري . محتويات قبر من هذا

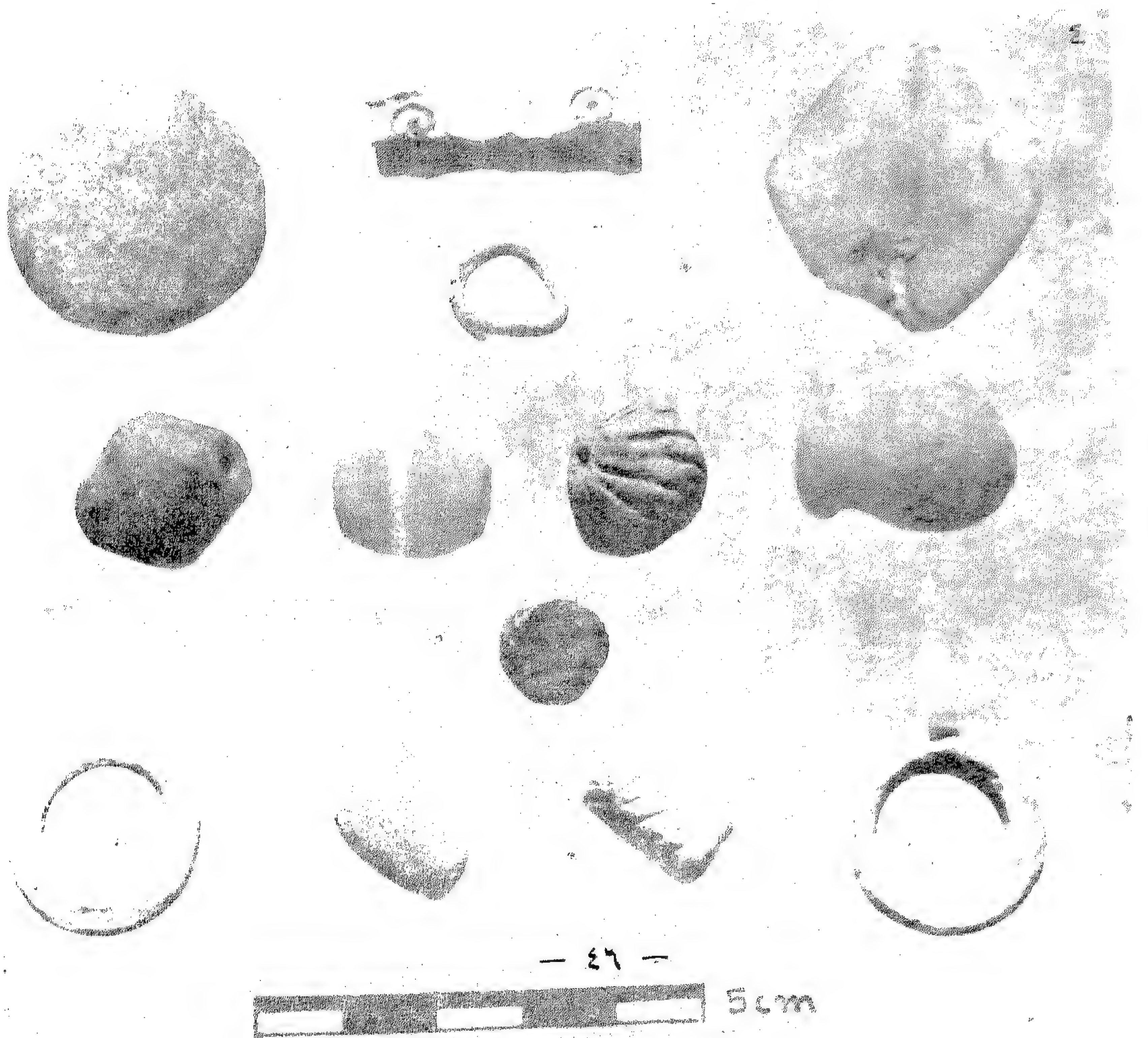
النوع عادة تشتمل على أوان فخارية صقيلة ناعمة ورقيقة ، أحياناً تزيينها خطوط دائرية بعروض مختلفة منفذة باللون الكستنائي . هذا بالإضافة إلى تماثم فخارية تمثل الآلهة والأشخاص وأصناف متنوعة من الخرز المصنوع من الفريت والكوارتز والعقيق والزفت وتشتمل اللقى على دبابيس مختلفة الأشكال مصنوعة من البرونز وأشكال قرنية مصنوعة من الأصناف تنظم بأشكال عقود ، هذه اللقى جميعها توجد منتشرة بين هياكل الموتى .



إن هذا النموزج الذي أرجعه المختصون إلى عصر البرونز القديم من حيث غط بنائه كان يستعمل من قبل السكان في المهود اللاحقة ، وقد يستعمله بشكل

متتابع خلال ألف عام أو أكثر ، وهذا ما حدث فعلاً في القبر الذي نتحدث عنه ، والظاهر أنه عندما انتهى العهد الذي استعمل فيه المدفن أغلق ولكن عوامل الطبيعة من أمطار وتعمرية كشفت عنه فاستفاد منه سكان العصر اللاحق نظراً لكونه مبنياً بشكل جيد وما زال به متسع ، فقاموا بتسوية الطبقة السفلية وشرعوا في دفن موتاهم ، وهكذا استفاد منه من أتى بعدهم . ولذلك فإن بعض المدافن إذا ما درست طبقاتها فإنها تغطي ثباتاً متدرجاً في العهود يفوق بكثير نظيره في العمران لأن طبقات المدفن لا يحدث عليها تشويش بينا طبقات العمران في المواقع السكنية يتتابها كثير من الاضطراب بسبب الحفر التي يحدثها سكان الطبقات العليا وبالتالي إختلاط آثار العهود المختلفة .

ويحدث كذلك أن تخلي هذه المدافن إخلاء تاماً من محتوياتها ويستعملها الأحياء كسكن مؤقت فتكون ملجأً للرعيان من المطر والبرد والحر ويمكن الاستفادة منها كمخاويء إذا ماداهم عدو غاشم المنطقة .

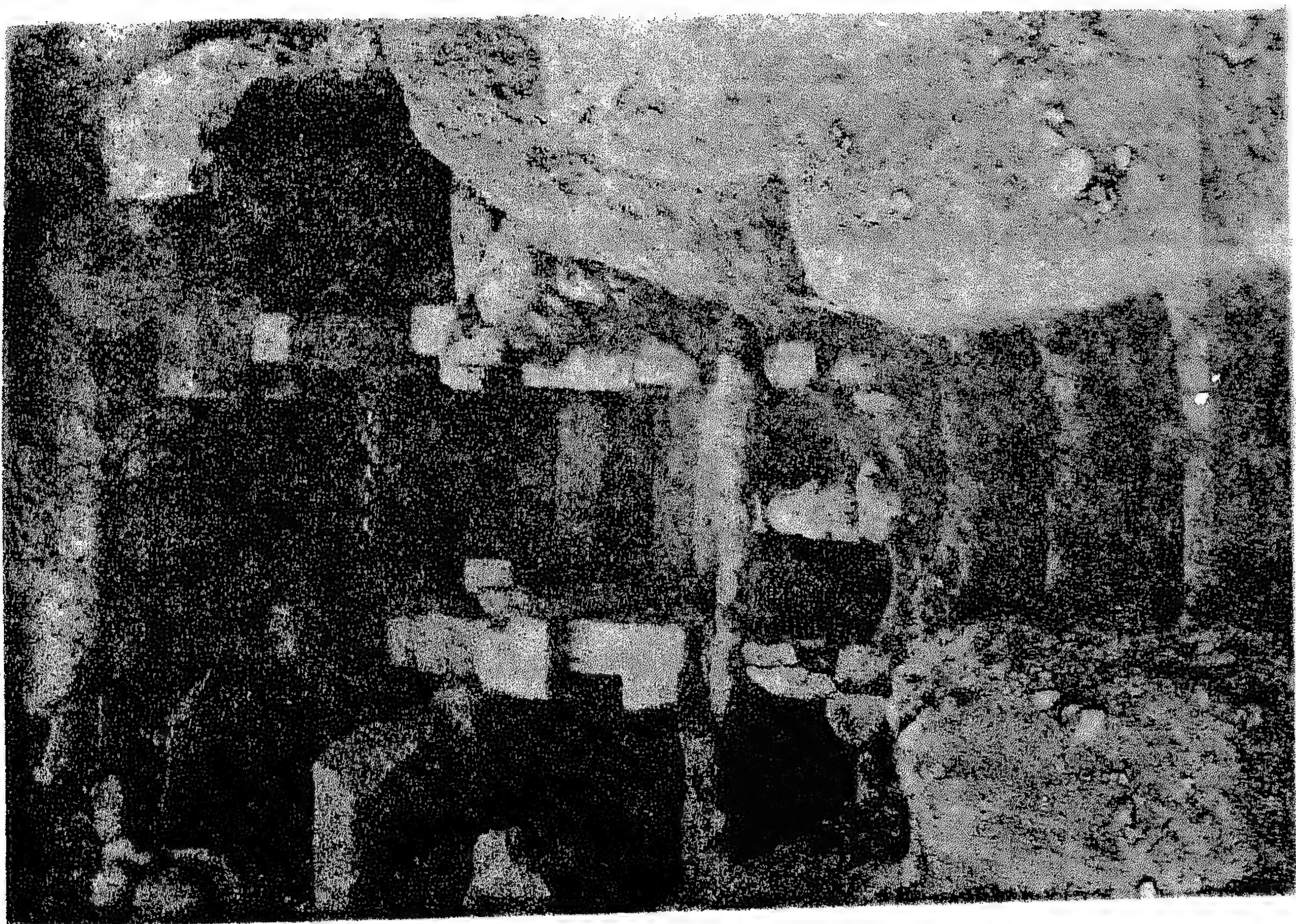


في عصر البرونز الوسيط تراجعت العناية بالمدافن وهزلت نوعية المحتويات ، فأصبح المدفن لا يمدو بشكله حفرة يتراوح قطرها بين ٢ - ٣ م . تارة تحفر في الأرض الصلبة وتارة أخرى تحفر في طبقات الحصى والرمل لتحتجزة الترسبة منذ عهود بالية في القدم والتي تعرف علمياً بـ : (Braccia) .



وعثر على نموذج ثانٍ لمدافن عصر البرونز الوسيط يشبه مدخله جحر الحيوان ، ما أن يبلغ أحد إلى الداخل حتى يفاجأ بحفرة كبيرة غير منتظمة تسع لحوالي العشرين شخصاً قام أرضها ترابية وسقفها بنفس تركيبة البركسيا السالفة الذكر ، وهذا النوع من المدافن يكون له امتدادات في اتجاهات مختلفة وأحياناً يكون لها أكثر من مدخل ، واتحاشي خطر سقوط السقف تترك دعائم طبيعية تتصل ما بين الأرض والسقف . عثرنا في سفح التل الطل على السهل قبراً من هذا النوع واسعاً جداً وبعد إخلاء محتوياته عثرنا على أدوات صوانية تتمثل بسكاكين وحرايب وسهام يمكن إرجاعها إلى العصور الحجرية الحديثة ، وهذا يعني أن الإنسان عندما تتاح له فرصة الاستفادة من جهد غيره لا يتردد في ذلك . ليس هذا من طبيعة الإنسان فقط بل من طبيعة الحيوان لأنه كثير ماناباً الحيوانات إلى مثل هذه المدافن وتتخذ منها سكناً ، فمن ذكرياتنا : ضباع ودثاب وثعالب خرجت من قبور ممائلة في جبل أسيس في صحراء بلاد الشام وأما الزواحف من الثعابين وأسرتها والعقارب فحدث عن ذلك ولا حرج .

محتوى هذه المدافن شبيه إلى حد بعيد بمحتوى نموذج العصر السابق من حيث السكية ولكن النوعية متدنية المستوى فنياً . هناك نموذج ثالث هو نموذج عصر البرونز المتأخر ، انه نموذج مدروس بشكل جيد وهو مبني بكامله من حجر نحمت وبشكل متقن ويتجه بناؤه بشأن نموذج عصر البرونز القديم شمالاً - جنوباً . يتكون من درج اعلاه من جهة الشمال ، بالقرب من منتصف الدرج يوجد الى كل من الجانبين باب حجري يؤدي إلى غرفة جانبية . في أسفل الدرج قبل ولوج عتبة المدفن توجد حفرة اعتقد أنها أوجدت لاستيعاب مياه الأمطار التي تسرب عبر الدرج ، حتى لا تتوحد ردهة المدفن الوسطى . تتصل بالردهة الوسطى ثلاث غرف إثنين جانبيتان صغيرتان وفي الصدر غرفة كبيرة لتودع بها جثث الموتى مع الأواني والأدوات والندور ، عرف هذا النوع في مواقع أثرية معاصرة مثل الألاخ في شمال سوريا وفوري في العراق ورأس شمرا بالقرب من اللاذقية .



بقي لدينا نموذج أخير من القبور ، إنه القبر البسيط الذي لا يعدو شكله حفرة لا يراعى فيها أي أسرار سوى أنها تتسع لحمة المتوفى مع أوانيهِ المختلفة ، وهذا النموذج عرف في مختلف عصور البرونز ، ويتم التعرف على عهده فقط بواسطة اللقى التي تتوفر فيه ويتراوح عمقه بين ١ و ١٥ م .

نلفت النظر إلى أن سكان عصر البرونز انوسيط والذين يظن أنهم من الهكسوس قد اتبعوا أسلوباً خاصاً بالنسبة لدفن الأطفال حيث كانوا يودعونهم في جرار كبيرة يحفر لها في غرف البيت الذي يسكنونه بحيث تتساوى فوهة الجرة وأرض الغرفة ثم تعلق بشكل محكم وهذا ما يشجع على الاعتقاد بأن كل بيت يدفن الجرار الفارغة في أرض الغرفة احتياطاً لطوارئ الموت وأحياناً إذا كبرت الجثة عن حجم الجرة تحدث لها حفرة في أرض الغرفة وتدفن بها .



هذا النموذج وجد كذلك في رأس شمرا إلى جانب شكل آخر مجسم أكثر يتوضع خلف مدخل البيت مباشرة وهي عبارة عن حفرة في الأرض أحياناً يبلغ مقاسها ٢ × ٣ م وعمقها حوالي ٢ م وتبنى بالحجر النحيث وتتصل بدرج يبدأ من عتبة المدخل الرئيسي ، فإن حضر صاحب الدار حياً تجاوز العتبة إلى داخل البيت وإن حضر متوفياً رفعت بلاطة خلف الباب وأُزيل إلى مشواء الأخير .

أهمية المدافن من الناحية الاثرية :

للمدافن أهمية قصوى بالنسبة البعثات الاثرية وذلك لأنها تحتوي على مجموعات متنوعة من مصنوعات العصر ، وهذه المجموعات غالباً تكون الأدوات والأواني فيها سليمة كاملة لذا فإن اكتشاف المدافن واستخراج محتوياتها يساعد البعثة على معرفة أشكال الأدوات والأواني ، وذلك مايساعد على ترميم الكسور التي تعثر عليها في مرائب التنقيب النظامية . والمألوف بشكل عام أن توجد في الحفريات النظامية الكسور أكثر مما توجد القطع الكاملة . لا شك أن ذلك رهن بالظروف التي أحاطت بالعمران موضوع التنقيب فإن كان ذلك العمران مهجوراً في ظروف سلم فلا يجد المنقب إلا ماأهمله السكان بخيارهم وإن كان مهجوراً قسراً فلا يعثر المنقب على نقائس لأن المواطن يتخذ لنفسه مالا يديه وإن كان مخرباً من قبل الأعداء فيتوقع المنقب أن يعثر على أشياء هامة وإن كان التخريب بواسطة زلزال أو كارثة طبيعية فللمنقب حق في أن يتوقع العثور من ما يريد . وفي كل الأحوال تقدم المواد المكتشفة في القبور عوناً هاماً في التعريف بالمكتشفات وبأشكالها .

سرقة المدافن :

إن سرقة المدافن أمر معروف منذ أقدم الأزمان ، ويمكن أن نرجعها إلى الزمن الذي إبتدأ فيه الإنسان يودع الأشياء الحياتية مع المتوفى وقد سمعنا الكثير عن سرقة الاهرامات المصرية منذ عهود الأسر الأولى ، وكذلك سمعنا عن سرقة المدافن اليونانية والرومانية والتدمرية إذن . يكاد يكون شرطاً من شروط السرقة أن تتوفر في القبور مواداً تعري بذلك ، إذا كان ذلك حدث في القديم حين لم يكن للأشياء إلا قيمتها المادية الذاتية فلماذا لا يفكر الناس اليوم بسرقة المدافن وقد أصبح لمحتويات القبور بالإضافة إلى القيمة المادية القيمة الاثرية ؟ .

في السنين العشر الاخيرة أصبحت منطقة حوض الفرات عرضة لصيادي الطيور الذين يأتونها من مسائر جنتبات القطر ومن القطر اللبناني الشقيق وذلك لتوفر أنواع من الطير مغرية مثل الدرغل والطيور البرية والحباري والقطا والدريج بالإضافة إلى أنواع مختلفة من المصافير والحيوانات .

وكان بين هؤلاء الصيادين أناس يحملون البنادق ولكنهم بدلاً من أن يرجعوا

بصيد يرجعون بحقائب مليئة بالآثار . هذا بالإضافة إلى أناس يتعاطون عمليات التهريب بشكل أو بآخر ، وكان تردد هؤلاء وتكاثرهم فيما بعد وشدة إغرائهم المواطنين الفقراء السذج من أهل المنطقة يغويهم بترك زراعتهم وأعمالهم التقليدية والاستعاضة عن ذلك بالبحث عن الآثار ، فكانوا في النهار يقصدون المناطق النائية الوعرة التي لا يرام فيها أحد وفي الليل على ضوء المصابيح يدهمون المناطق الأخرى .

وقد بلغت حمى البحث عن الآثار ذروتها في فترة إرتفاع ماء بحيرة الأسد وتهديدها المناطق المجاورة بالنمر ، إذ لم يبق للمواطن هنا مورد رزق كاف بعد أن قضى النمر على مناطق الزراعة المروية فهب جميع السكان للعمل (في المشكة) أي في استخراج الأنثيكا ، وقد شجع على ذلك تفاضي السلطات هناك لأن المناطق المحيطة في البحيرة سوف تبتلعها البحيرة إن عاجلاً أم آجلاً .

كان الهدف المفضل للصوص هي المقابر الهلنستية الرومانية والبيزنطية ، لأن هذا النوع عادة يحتوي على آثار ذهبية والباطن البسيط يرى في المادة الذهبية أعلى قيمة يمكن الحصول عليها ، والدليل على ذلك أننا كنا نجد إلى جوانب القبور المسروقة كثير من الأواني الفخارية المحطمة حيث كان اللص يكسر الاناء إما لأنه فخارياً وهو بنظره لا قيمة له أو لأنه يتوقع أن يجد فيه أشياء ثمينة . وقد اتبع نفس الأسلوب في مدافن اليهود القديمة فكان اللص يكتب بالدمى الطينية (العاجات) كما يسمونها في المنطقة وكذلك الخرز ، وما يمكن استخلاصه من موقف اللص أنه يعتني فقط بما يطلبه منه الصياد أو المهرب الذي لا يعبأ بطبيعة الأمر بالقطع ذات الحجم الكبيرة التي تكشف أمره أثناء تنقله ، لذا فإن جميع الأواني الفخارية تكسر أو تهمل ويمكن تصور الخسارة الفادحة التي لحقت بالثروة الأثرية لو علمنا أن البعثة الهولندية رمت من قبر واحد حوالي ٢٦٠ قطعة فخارية تحتوي على أكثر من ٩٠ شكلاً مختلفاً .

أساليب اللصوص والادوات التي يستعملونها :

شاهدنا فئة من اللصوص في منطقة جبل خالد — بالقرب من قرية قشلة يوسف باشا — يعملون في نهب مقبرة رومانية ، وعندما شاهدوا سيارتنا تتجه نحوهم تركوا عدة عملهم ولاذوا بالفرار باتجاه الجبل حيث لا تستطيع السيارة اللحاق بهم . قمنا نحن بمصادرة الأدوات وأخذنا نتحرى أساليبهم في العمل فوجدنا

أن ساحة كبيرة من سطح الأرض المجاورة مغروسة بالشارات المتصبة التي تشتمل على عصي قصيرة وجذوع النباتات وغير ذلك وكلها موزعة تقريباً وفق مسافات متقاربة . لم نستطع أن نفهم معنى ذلك في البدء . وبعد مسافة أخرى من الطريق داهمنا رب عائلة يعمل مع عائلته في إخلاء أحد القبور ، فتجاهلنا في بدء الأمر أن الموضوع يهمنا وتظاهرنّا بالفضول وبعد بعض المواقعة والملاطفة بالحديث سألناه عن بعض أسرار المهنة ومنها عن الشارات التي شاهدناها سابقاً ، قال هذه خبرة أبو عفير وجميع هذه القبور محجوزة له لا يستطيع أحد أن يقربها إلا إذ دفع مبلغاً مقدماً ، سأله ما هو أعلى مبلغ يدفع لقبر من هذا النوع ، فقال هذا يتبع ما يكتشف في جواره فإذا تبين أن في هذه المنطقة ذهب يصل ثمن القبر حتى ٥٠٠ ل . س . وقد حدث أن اشتريت قبور ولم يعثر بها سوى على القطع الفخارية والقطع الزجاجية التي لاتساوي جزءاً يسيراً من المبلغ المدفوع .

سأله هل يضع أبو عفير هذه الشارات بشكل اعتباطي كيفما اتفق فأجاب لا إن أبا عفير يعلم الكثير عن أسرار هذه المهنة ولديه فريق يعمل لصالحه ويتقاضى أفرادهم أجوراً عالية وعندما ترى فريقه يعمل في مكان فلا بد أن ذلك المكان هام وأن المواد التي ستستخرج منه ذات أهمية ، لذلك يغري أحياناً برفع اليد عن المكان مقابل مبلغ معين .

سأله هل تعلم كيف أن أبا عفير يعلم مكان القبور فأجاب : يكفي أن يعثر على قبر في مقبرة فيحفر خندقاً مستديراً حوله على مدى معين فإذا اصطدم بقبر آخر يدرس المسافة بين القبرين ويدرس الزاوية التي يتحتم أن تتوضع القبر الثالث في رأسها ، ومن هذا المنطلق يقوم بتغطية المنطقة بالشارات ، وكلما فرغ عماله من إخلاء قبر ينتقلون إلى موضع شارة جديدة للعمل تحتها والفضل على مسؤولية أبي عفير . سأله عن مدى فائدة هذه العملية العفيرية فقال إنها أفضل من البحث الفوضوي لذلك تدفع لأبي عفير فروعات .

في مناطق القبور التي تعود إلى العهود القديمة يختلف الأسلوب بحيث يكون كما يلي : يؤخذ قضيب من الحديد غليظ ١٦ سم أو أكثر ويسمى بحساً ويغرس في الأرض في المكان المتوقع أن يكون قبراً ويدق القضيب بطريقة ثقيلة وعندما ينوص القضيب في الأرض إلى مسافة معينة ولا يصطدم بحجر هذا يعني الانخفاق ،

عندها يسحب القضيب وذلك بوضع عصاة غليظة في العقفة التي تصنع في أعلاه ثم تدار ثم يخرج وإذا ارتطم رأس القضيب بحجر يحس المكان في عدة مواضع ليعلم مدى حجم الحجر فإن وجد كبيراً كشف المكان وإن كان صغيراً أهمل ويجري الانتقال إلى مكان آخر وهذا لا يعني أن كل حجر كبير هو ظهر قبر لأن كثيراً من الصخور الطبيعية تتوزع تحت سطح الأرض .

يحسن هنا أن نشير أن السكان حتى الآن يستعملون الأحجار الكبيرة فوق القبور حتى يحولوا دون إخراج الجثة من قبل الحيوانات الضارية . إن مثل هذه الفكرة ينفذها سكان القرى الذين يمدون عن مناطق الأحجار ولكن بأسلوب آخر وهو أن يغطوا أعلى الحفرة الشوك .

أما أدوات المصوص فانها : المجلس ، المطرقة ، الكريك الطويل والقصير ، المحفار الطويل والقصير ، المسطرين ، الزنايل المربوطة بالحبال .

أخيراً لاحظنا أن ركوداً أصاب هذه (المهنة) لأن معظم المناطق المغربية قد غرقت وكذلك فإن نسبة كبيرة من السكان ارتحلت إلى منطقة الحزام العربي في الجزيرة ، هذا بالإضافة إلى أن السلطات لم تعد تتساهل لأن القمر أخذ مداه والمناطق التي تليه قابلة للتنقيب الرسمي النظامي ، لذا فقد غابت هذه الظاهرة تقريباً .

أقصر الموضوع على هذا القدر آملاً أن أتابعه في مناسبة مقبلة لأتحدث عن البعثات الأثرية وعن طبيعة عملها ومن ثم عن التل الأعلى موضع العمران .

حمص والقضية الفلسطينية

بين الذاكرة والنصوص

في سني ١٩١٩ و ١٩٢٠ كنا طلاباً في القسم الابتدائي من المدرسة الحسينية السلطانية (التي تطور اسمها حتى أصبح اليوم « ثانوية عبد الحميد الزهراوي ») وكان مقرها (في المصلحة) البناء العسكري القديم الذي تشغل طابقه الأرضي اليوم المؤسسة الاجتماعية العسكرية ، وكانت الحديقة الواسعة — التي تشغلها اليوم أبنية نادي الضباط — تابعة له ، وفيها كنا نقضي القرص بين الدروس ، فتنفّ إلى ظلال أشجارها ، وتتجمع في أحضان ورودها نشيد الأناشيد الوطنية ، ونهتسف بالشعارات القومية ، مضطرمين حماسة ، شاغحي الأنوف عزة ، فنحن في ظل الاستقلال . ومن هذا المكان خرجنا ذات صباح ، نشارك البلد فرحه وابتهاجه باستقبال جلالة الملك فيصل بن الحسين بعد أيام قليلة من تويجه ملكاً دستورياً على سورية بمحدودها التاريخية — من رفح إلى جبال طوروس .

وكان من المتبع ، إذاك ، أن ينظم الطلاب ، عند الانصراف ، في فرق بحسب أحيائهم أو شوارعهم ، ويرافق كل فرقة معلم يشرف على نظامها حتى تبلغ حيتها أو شارعها .

وذاث يوم — ويجب أن يكون خميساً فقد كان الانصراف ظهراً — كان يشرف على فرقتنا الأستاذ المرحوم محمد الخالد الشلي ، وهو معلم الموسيقى ومدرّب فرقة النشيد في المدرسة ، وكان معروفاً بنشاطه الأدبي والفني والاجتماعي والسياسي .

ولما بلغنا دار الحكومة (في بنائهما القديم) ألقينا في الجهة الشرقية منها (مكان فندق الخيام اليوم) جمهرة من الناس يصغون إلى خطبة شاب إعتلى إفريز دار الحكومة ، وهو يتقد حماسة ويتدفق بالحطابة بصوت جهوري ، فقال الشيخ نحوه وتبعناه حتى بلغنا الجمهور وإختلطنا به ، وإذا الخطيب هو المرحوم عبد الرزاق

الرستم الدندشي (مؤسس عصبة العمل القومي فيما بعد) ، وكان ساعة وصولنا يقول : « اليهود . . . اليهود الذين لم يدعسوا فاحشة إلا ارتكبوها لاغتصاب بلادنا . . . أترضون بالذل ؟ ؟ » ، وإذا بالشيخ ، عليه الرحمة ، يلوح بعصا كان يتوكأ عليها ويصرخ بملء صوته : « كلاً ! » وينفعل الجمهور ويردد : كلاً كلاً ، ويضيف الخطيب : « أترضون بالمار . . . ؟ ؟ » ويدوي الجواب كلاً كلاً . . . وترتفع قضبان كانت بأيدي بعضهم ، وتلوّح سواعد العزل متساوقة مع عصا الشيخ ، و « كلاً كلاً » تدوي في الفضاء ، ويلتفت الشيخ إلى تلاميذه مشيراً بيده : نحن خواضو غمار الموت . . .

وتنطلق حناجر التلاميذ بالنشيد فإذا هي مظاهرة صارخة وبقفز الخطيب فيقودها إلى أمام دار الحكومة ، وينسدفم ليظهر على شرقها ويستأنف خطاباً جديداً ، والتلاميذ بقيادة معلمهم الشيخ ، ينشدون الأناشيد الحماسية ، والناس من حولهم — وقد تكاثر جمعهم بمن انضم إليهم من المواطنين والطلاب والعلماء — يطلقون الهتافات : الموت لليهود ، أرواحنا فداء للصخرة والبراق . . . حتى أطل من الشرفة شخص يلبس نظارات ملوثة ، وألقى كلمة شكر فيها الجماهير على حماسهم وصدق وطنيتهم ، وطمأنهم إلى أن الحكومة يقظة ، ولن تمكن اليهود من إغتصاب حجر واحد من فلسطين . وتفرق الناس ، وكانت أول مظاهرة يشهدها جيلنا في حمص ، بل لعلها أول تظاهرة عرفها البلد خارج نطاق (المراضات) .

ونأوي إلى بيوتنا نحدث أهلنا حديث (الهوشة) ونسأل عن الصخرة والبراق اللذين كان الناس يفدونهم بالأرواح ، ماها وما شأنها ؟ فيقصون علينا حديث الاسراء بالرسول العربي عليه الصلاة والسلام (من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى) والمروج به من هناك إلى السماء ، يحدثونا عن مكان الصخرة وحائط البراق في هذا الحادث التاريخي المقدس . ثم نسأل عن اليهود ، من هم وما قصتهم ؟ فنعرف أنهم قوم كفار ، عبدوا المجل وقتلوا الأنبياء ، فغضب الله عليهم ولعنهم ومسح طائفة منهم قرنة وخنائز ، وشتت ساثرهم في جميع أرجاء الدنيا ، فأصبحوا منبوذين مكروهين ، لا يألفون ولا يؤلفون ، وباتت حياتهم كلها تقوم على الكيد والفساد والعداوة لكل البشر ، حتى ليدفعهم غدرهم وحقدهم على كل من ليس من دينهم الى اختطاف أطفالهم ، واستصفاء دماءهم بطرق وحشية شنيعة ، ليعجنوا بها عجينة يصنعون منها (فطائر) في بعض أعيادهم .

نسمع هذا فتمتلئ نفوسنا بغضاً وكرهية لهؤلاء الوحوش ، ثم نسأل عن علاقتهم بالصخرة والبراق ، فلا نحظى بجواب واضح ، ولكننا نجد بعض هذا ³ الجواب في اليوم التالي عند معلمينا ، وعند بعض طلاب الصفوف المتقدمة في المدرسة فيكون ذلك أول عهدنا بقضية فلسطين ، وبدء اطلاعنا على الحركة الصهيونية .

ويبدو أن شباب حمص العاملين في الحقل الوطني إذ ذاك ، في ظل (النادي العربي) كانوا موقنين جداً في الخطة التي رسموها لتوعية الجماهير الشعبية وتعريفها بقضية فلسطين والمدوان اليهودي ، على قلة وسائل الدعاية والاعلام المتاحة لهم ، فلا صحافة في البلد ولم تكن الدنيا تعرف المذيع أو التلفاز ، ولكنهم فطنوا الى مكانة خيال الظل (الكركوزاتي) بين تلك الجماهير فاستفادوا منه أياً استفادة ، إذ دفعوا الى الخايل (أبو الخير البخاش) (بابة) - فصلاً - وضعوها حول يهودي قذر مكر سموه (شمویل) تسلل الى بيت عربي آمن ، وأحس به صاحب البيت ، وتصدى له فراح يتصاغر ويتذلل ويدعي أنه ماجاء إلا ليساعده في أعماله الكثيرة : حراثة الأرض ورعاية الماشية والعناية بالدواجن ... ولكن صاحب البيت لا يخدع بأقواله فيطرده ، ويهم بأن يعود الى بيته ، فيغتم الخبيث الفرصة ، وينتضي خنجراً يحاول أن يغمده في ظهره ، لولا يد صلبة تشد على مصفه فتطيح خنجره ، ويلتفت صاحب الدار فاذا جيرته وأبناء عمومه قد استيقظوا وهبوا لنجدته ، فيسرع الى الخنجر يلتقطه من الأرض ويفرصة في قلب الغادر ، فاذا هو جيفة يتخبط بدمه .

ويدوي المقيى بالتصفيق وتعالى الهتافات : « يعمر دينك » « تسلم إيدك » ... « صرميلو » (١) ... « شقفوا » (١) ...

وأعيد عرض (البابة) عدة ليال وكانت حديث الأوساط الشعبية لمدة طويلة ومن خلال شرح أحداثها وفك رموزها وقفت هذه الأوساط على المؤامرة اليهودية الصهيونية ، وأصبحت تتابع أحداث فلسطين وتنفعل بها وتتجاوب معها .

هذه المظاهرة و (البابة) التي تلتها لا تحتفظ الذاكرة بتاريخ محدد لها سوى أنها كانت في العهد الفيصلي . ولكني أستأنس بالنصوص التاريخية فأقرر أنها كانت في شهر نيسان عام ١٩٢٠ تجاوباً مع الانتفاضة الأولى في فلسطين نفسها .

ذلك أن وعد بلفور الذي أعطي لليهود في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ لم يبلغه عرب فلسطين رسمياً إلا في ٢٠ شباط ، فقابلوه بالاحتجاجات الصارخة ، وفي أوائل نيسان

(١) صرميلو - اضربه بالصراية - النعل - احتقاراً له . شقفوا - مزقه

١٩٢٠ ، وأثناء احتفالهم في القدس بعيد النبي موسى (وهو يكاد يشبه خميس المشايخ بحمص ويزامنه) اصطدموا باليهود واشتبكوا معهم بمركة قتلوا فيها عدداً منهم وجرحوا كثيرين ، فهب الجيش البريطاني لصيانة الأمن وحفظ النظام !! ... وشكلت محاكم عسكرية حكمت على زعماء العرب بالسجن مدداً متفاوتة . فكان لهذه الحوادث صداها في المدن السورية ، فتظاهرت واحتجت . وكانت مظاهرة حمص هذه ثم تلتها (بابة الكركوزاتي) . وبذلك تبدأ حمص مسيرتها مع القضية الفلسطينية من أول خطوة فيها .

وتمر العشرينات ليس فيها ما يذكر . ففي فلسطين نفسها يعمد الانكليز إلى مخادعة الشعب العربي وإلهائه بلجان التحقيق والمفاوضات والمؤتمرات ، وإصدار البيانات على شكل كتب بيضاء ... وسوداء ... حتى يخدروا أعصابه ويخمدوا جذوة حماسه ، ويتيحوا لليهود فرصة من الزمن يرتبون فيها شؤونهم ويؤلفون عصاباتهم .

وفي سورية يطغى الاستعمار فينهار العرش وتفرق البلاد في جحيم الثورات ضد الافرنسيين ! .

وفي العراق ملك يشاد ومعاودة تبحث فشق البلاد فئات وأحزاباً .

وفي الجزيرة العربية حرب تثار بين السعوديين والهاشميين تنتهي بانهباء العرش الهاشمي ونفي صاحبه الحسين بن علي إلى قبرص وتكون قضية فلسطين نفسها واحداً من أسباب ذلك .

وفي اليمن سحب كثيفة من دخان مجالس (القات) تحجب عن عيون رجال (الامام) الحشود النجدية التي احتلت (عسير) وأصبحت تدق أبواب مملكتهم (المتوكلية) .

ولا تسل عن مغرب الوطن العربي ولا عن مشرقه فثمة تنيخ كلا كل الاستعمار .

وهكذا نرى كيف يتضافر البغي فيحيل دنيا العرب إلى مثل يوم الحشر . . لكل بلد فيه شأن يغنيه .

وما كان لحمص أن تنجو من غمرات هذا الخضم الزاخر ، خصوصاً وإن الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ - ١٩٢٧ قد ظلت قائمة فيها قرابة سنتين بعد إتهائها في شتى الميادين .

ويأتي العام ١٩٢٩ حاملاً مثقالاً ، ويتخض عن قضية حائط البراق وهو الجدار الغربي للمسجد الأقصى ، وهو نفسه (مبكى) اليهود . . . وإذف فهو ترائهم المقدس ولا بدء لهم من الاستيلاء عليه ! . . . وكيف وهو جزء من المسجد الأقصى ، بل هو أحد أركانه ؟ ؟ ؟ ! . . .

ويشهد شهر آب من تلك السنة مبارك دامية بين العرب واليهود ، فقد صحا عرب فلسطين من خدرهم ، وأفاق العالم العربي من رقاده ، وبدأ عهد نضال واسع ، دموي في فلسطين ، سياسي في سائر الأقطار العربية . ويتنبه العاملون فيه إلى مد آفاقه حتى يشمل العالم الاسلامي ، فيدعون إلى مؤتمر إسلامي عام . ويعقد المؤتمر في المسجد الأقصى ليلة السابع والعشرين من رجب ١٣٥٠ (ليلة ذكرى الاسراء والعراج) الموافق للسابع من كانون الأول ١٩٣١ . وتشترك حصص فيه بوفد يؤسفي أني لا أذكر من أعضائه غير المرحوم يحيى خانسكان ، ومنه استقيت معلوماتي عنه .

ثم يدعو الشباب العربي الفلسطيني إلى مؤتمر للشباب عقد في مدينة يافا أوائل كانون الأول من العام ١٩٣٢ ولعل حصص اشتركت فيه . وأقول (لعل) لأن هذه المؤتمرات قد تعددت فذكراتي متشابكة متداخلة أخشى خداعها فيما لأملك عليه دليلاً قاطعاً .

ثم يقام في القدس معرض صناعي تجاري أواخر العام ١٩٣٣ وتشترك حصص فيه ممثلة بفرقتها التجارية ، ويكون جناحها من أبرز الأجنحة وألمها ، وتنفذ قاعته ملتقى العديد من رجالات فلسطين وغيرها من سائر الأقطار العربية .

ولا تقل لي : ذاك معرض صناعة وإقتصاد فما هو والعمل السياسي النضالي ؟ ؟ فأنتم عليم أن كل المؤسسات والتنظيمات الوطنية في عهود المقاومة إنما هي حجب وستائر للعمل السياسي النضالي ، كما أنها وسيلة لبث الأفكار وتمازج الآراء وتوحيد الصفوف ورسيتها . تستوي في ذلك المؤسسات الاقتصادية والتمسديات الأدبية والثقافية ، والتنظيمات الفنية والرياضية والاجتماعية والنقابية . . . ومعرض القدس هذا لم يقم إلا لهدف سياسي نضالي ، وبحسبك أن تعرف أن مديره العام كان المرحوم نبيه المظنة رئيس لجنة الدفاع عن فلسطين في دمشق .

وتستمر الحال تأييداً لفلسطين بالاضرابات والمظاهرات والاحتجاجات ، والمشاركة

في المؤتمرات والندوات حتى تنفجر الثورة الكبرى في فلسطين ١٩٣٦ - ١٩٣٩ .
وعلى الرغم من أننا - في سورية - كنا في سنتها الأولى نخوض معركة
ضارية مع الافرنسيين بدأت بالاضراب الستيني في شباط وآذار ١٩٣٦ وظن أنها
إنتهت بماهدة إيلول من السنة نفسها ، وأتينا كنا في السنوات التالية ١٩٣٧ - ١٩٣٩
في معركة أشد ضراوة من أجل لواء اسكندرونة . . . فان ذلك لم يشغل البلد عن
واجهه نحو فلسطين! تظاهراً واحتجاجاً وبذلاً سخياً للأموال . . . وإشتراكاً فعلياً
بالقتال ، فقد التحقت كوكبة من شباب حمص بتلك الثورة ، ولا سيما حين هب
لتجديتها القائدان فوزي القاوقجي وسعيد العاص . وما يزال بعض العارفين يذكرون
أسماء بعض من هؤلاء الشباب : نيازي ختن وخالد النجار وأمين زيني ومجيبى الجندلي
وزهري الهروي وشباب من آل الغفري . . . الخ . وقد جرح في إحدى
المعارك الشاب نيازي ختن فعمله رفاقه إلى حمص حيث عولجت جراحه وشفي منها
وكتبت لهم السلامة جميعاً .

وفي أواخر تلك الثورة ١٩٣٨ و ١٩٣٩ كانت حمص ملجأ لبعض مجاهديها
الفلسطينيين الفارين من أحكام الاعدام الانكليزية ، والملاحقين من قبل السلطات
الفرنسية عندنا - تلبية لارادة الانكليز ووفاء بما كانوا أسلفوها يوم قبضوا على
الزعيم ابراهيم هنانو وغيره من المجاهدين السوريين في فلسطين نفسها وسلوها إياهم -
وقد وجد بعض هؤلاء اللاجئين الأمن والحماية ، وعثر الحظ ببعض فاعتقلوا
وسلوا للانكليز .

وما أنس لا أنس واحداً منهم ، شاب في مقتبل العمر ، كله نخوة وعزيمة ونشاط
أدخل الميتم الاسلامي كمراقب داخلي - حماة له - وأطلق عليه اسم (علي) إخفاءً
لاسمه الحقيقي ، وأوصي بأن لا يبرح بناء الميتم فهو حرم مقدس لا يجزؤ الفرنسيون
على انتهاكه . ولكن الذين تخونهم الجراءة يواتهم الكيد وتسفهم الحيلة ، فقد استطاع
اثنان من شرطة الأمن العام الفرنسي الاحتيال عليه واستدراجه من داخل الميتم الى
عرض الطريق ، وثمة اعتقاله وأوثقا يديه قيداً ومضيا به في طريق الشام ، باتجاه
الشكنة العسكرية . ولكنه استطاع أن يفلت منها في أثناء الطريق ، والقيد في يده ،
وأن ينجوا بنفسه حتى يبلغ البساتين القريبة ، فيلتقاه بستاني بالمطف والرعاية ، ويدق
قيدته حتى يحطمه ، ويؤمن له غيباً محجبه عن الأنظار ، ويدلف إلى البلد لينقل نبأه
إلى زعيم حيته المرحوم محمود السبيتي ، وكأنه لا يثر عليه فيلتي بالنبا الى ولده اليافع

(جيد) ، فينطلق هذا الى البستان مع نفر من شباب حيّه ، ويعودون بالشاب المجاهد الى مكان أمين أعدوه له في حيهم (باب السباع) ، فيلبث فيه حتى تواتيه فرصة الخروج من حمص سالماً معافى .

وتندلع الحرب العالمية الثانية أول ايلول ١٩٣٩ فتوقف الثورة العربية ، وقد أحرزت بعض المكاسب بحملها بريطانيا على تقدير قوة الحق العربي ، ولو جزئياً ، وإرغامها على الرجوع عن قرار تقسيم فلسطين الذي كانت اعتمدته بناءً على توصية إحدى لجان التحقيق التي أوفقتها في أوائل اثورة . ولكن الكيد اليهودي لم يتوقف ويخرج العالم كله من تلك الحرب منهوك القوى مضعضع الأركان إلا اليهود ، فقد خرجوا منها بالمصائب الارهابية (الهاغانا) و (شتيرن) واضرابها ، وبفرقة كاملة من الجيش المنظم كانوا ألفوها تحت جناح جيوش الحلفاء ، وبتصير جديد لباطلهم هو الولايات المتحدة التي استطاعوا ، هم وبريطانيا نفسها ، أن يجعلوها طرفاً رسمياً ورئيسياً في القضية ، وهي لم تكن من قبل كذلك ، وأن يحصلوا منها (من رئيسها رورفلت بالذات) على وعود قاطمة باقاة (دولة إسرائيل) في فلسطين .

وبراع العرب لذلك ويضطربون ، فيهبون لجمع شملهم ولم شتاتهم ، ولكن الأحداث لاتملمهم ، فما ينقضي العام ١٩٤٧ حتى تكون الولايات المتحدة قد حملت منظمة الأمم المتحدة على اتخاذ قرار بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، ذلك المشروع الذي كانت بريطانيا قد نبذته قبل عشر سنوات تحت ضغط الثورة العربية . فلا يبقى أمام العرب خيار ، وماهي إلا الحرب (حرب الانقاذ) .

وإذا كان حديثنا هذا مقصوداً على دور حمص وحدها في القضية الفلسطينية فإن حمص جزء من قطر هو نفسه جزء من الوطن العربي الكبير ، ولن نستطيع فهم أحداثها إلا إذا ألمعنا بالجو العام في القطار السوري ثم في الوطن العربي ، بقدر مايمس هذا الجو مدينة حمص ويتعلق بالقضية الفلسطينية .

منذ العام ١٩٢٨ أخذ العمل السياسي ، بل قل العمل الوطني ، في سورية يعيل الى نوع من التنظيم ، بتأسيس هيئات تتحمل أعباء العمل السياسي وتوعية الجماهير وقيادتها في طريق النضال .

ففي ذلك العام أسست الكتلة الوطنية ، وفي العام ١٩٣٣ أنشئت عصبة العمل القومي ، وفي العام ١٩٣٥ شكلت جمعيات تحمل اسم (شباب محمد) أو (الشباب المسلحون) التي انتهت بسد ذلك إلى تنظيم (جماعة الاخوان المسلمين) ، وفي العام ١٩٣٧ ظهر الحزب الشيوعي علناً وكانت من قبل خلايا سرية

وفي هذه الفترة ظهر الحزب القومي السوري في لبنان ولا أحقق تاريخ تسربه إلى سورية فحصر ، وفي العام ١٩٤٠ تكونت نواة حزب البعث العربي . وكانت الأهداف العليا لكل هذه الهيئات واحدة ومتفقة ، وهي تحرير الوطن العربي من الاستعمار بكل أشكاله وتوحيده وبناء نهضته . ولاختلاف بينها ينصب على نظرة كل منها إلى هذه الأهداف وعلى الأسلوب الذي تتبعه لتحقيقها .

وحمص - بلدي الحبيب - خصب التربة ، غني بالمقول الثيرة والمهم المتوفرة . فما من صيحة إلا ويرتد صداها الأول من أفقه ، بل لعل بعض الصيحات تصدر من أفقه أولاً ، أو هي تجد في هذا الأفق المكان الأمثل لتنطلق منه . وعلى ذلك فقد كان يضم فروعاً ناشطة لهذه الهيئات كلها ، ومن ثم كانت سوق العمل الوطني فيه قائمة على قدم وساق ، وميدان التنافس بين تلك الهيئات رحب الساحات بعيد الآفاق ، والتسابق إلى كسب ثقة الجماهير الشعبية متعدد السبل متنوع الوسائل . وكان للمهرجانات الشعبية والحفلات الخطافية في شتى المناسبات - ما يعرض منها عفواً وما يصطنع إصطناعاً - مكانها الأول بين تلك الوسائل . وكانت قضية فلسطين لا تكاد تنفك عن القضية السورية في كل تلك التظاهرات ، بل هي استأثرت بها وكاد يكون لها الميدان كله منذ أواسط الأربعينات ، مما أدى إلى زيادة وعي الشعب لها . وقد تحدثت آنفاً عن موقف حمص منها خلال ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ وقبلها ، ونحن الآن في أواخر العام ١٩٤٧ مع فكرة (حرب الانقاذ) .

من يتولى إدارة هذه الحرب ؟ أجامعة الدول العربية وكان عمرها لايزيد على سنتين ؟ وقد جربها عرب فلسطين في سنتي ١٩٤٦ و ١٩٤٧ حين طرحت القضية على منظمة الأمم المتحدة فلم يحمداوا غيب التجربة . ثم هي إلى ذلك تتألف من دول أعضاء في منظمة الأمم المتحدة لا تستطيع أن تدفع جيوشها إلى بلد ما يزال الانتداب البريطاني عليه قائماً ولن ينتهي قبل منتصف أيار ١٩٤٨ .

إذن فلتكن الحرب شعبية تساندها الدول العربية وتمدها بالمال والسلاح والعتاد ، وبالضباط يستقبلون من وظائفهم وينضمون إليها قادة مدربين ، حتى يحين موعد انسحاب بريطانيا من فلسطين فتبادر الجيوش العربية النظامية إلى أداء واجبها في نصرة العرب وإنقاذهم من عدوان اليهود الصهيونيين .

وإنشأت على فلسطين كتائب المتطوعين من شتى الأقطار العربية وفي طليعتها

سورية . وما أنتحل لها صفة الطليعة هذه انتحالا ، وإنما هي الحقيقة التي لا جدال فيها .

فإذا هبت كل الأقطار العربية لتتجد فلسطين على اعتبار أنها قطر شقيق ، وأن الدفاع عنها واجب قومي ، فإن سورية تهب لتتخذ جزءاً منها ولتجبر كسراً أصابها في جناحها ، ثم لتدفع عن نفسها بالذات ما يجنبه لها الغدر اليهودي وأهداف التوسع الصهيوني . فقد أتيح للشعب العربي فيها خلال السنوات الماضية ، وبخاصة في أثناء الحرب العالمية الثانية ، أن يطلع على بعض الوثائق الرسمية التي تشتمل على المخطط اليهودي التوسعي ، ولعل أجمعها وأوجزها ، فيما يتعلق بسورية (ومنها لبنان وشرق الأردن) ماجاء في كتاب وضع نصه اليهود أنفسهم وحملوا رئيس الولايات المتحدة ويلسون « صاحب البنود الأربعة عشر وفي مقدمتها إلغاء الاستعمار وحق كل الشعوب في الحرية والاستقلال وتقرير مصائرهم بأنفسهم ، على توقيعه . وهو يشتمل على مايلي :

« إن حققت مطالب الفرنسيين المستندة إلى معاهدة (سايكس - بيكو) السريّة ، كان تحقيقها ضربة قاضية على الوطن القومي ، تنافي طبيعة أرضه الجغرافية وتهمل حاجاته الاقتصادية . إن نجاح القضية الصهيونية يتوقف على توسيع الحدود في الشمال والشرق إلى أن تشمل نهر الليطاني ومنابع المياه في الحرمون ، أي سهلي حوران وجولان . إن لم يكن وعد بلفور - الذي وافقت عليه فرنسا وسائر الدول الحليفة - قصاصة من الورق ، فيجب أن تتخذ التدابير اللازمة لتحقيقه . »

والكتاب هذا أرسل رسمياً إلى بريطانيا في أواخر العام ١٩١٩ أو أوائل العام ١٩٢٠ . فقبلت مضمونه - بل هي كانت ضالعة في وضعه - ودعمته بكل ماملك من جهد وحيلة ، ولكن (مصلحة) الفرنسيين حملتهم على إتخاذ موقف عنيد ومتصلب في عدم التنازل عن أي جزء من تلك المناطق . فأخفقت الخطة .

إذن فحرب سورية كانوا يعتبرون النضال من أجل فلسطين واجباً (قطرياً) وإمتداداً لنضالهم الذي توجّج بأجلاء الفرنسيين عام ١٩٤٦ ، بالإضافة إلى كونه واجباً قومياً ، فكان إندفاعهم في سبيله أقسى وأشد من إندفاع سائر الأقطار المربية ، وتدفع متطوعوهم للانتظام في كتائب (جيش الانتقاذ) فرادي وجماعات .

ولو رأيت حمص في تلك الفترة لرأيت البلد ، كما عرفته ، سباماً إلى تلبية نداء الواجب ، موحد الصف ، على تعدد الهيئات والأحزاب فيه ، تمثله لجنة عامة موحدة ألقت من شبابه المثقفين ورجاله العاملين وقتيانه الميامين ، برئاسة المرحوم الأستاذ عبد الحميد الحراكي ، مهمتها جمع الأموال لتأمين السلاح والعتاد لمن عزموا الجهاد بأنفسهم وقصرت أيديهم عن التجهز له ، ثم تنظيم عملية التطوع وإيصال المتطوعين إلى معسكر (قطنا) ليوزعوا منه على شتى المناطق في فلسطين .

ولو أشرفت على شوارعه الرئيسية وساحاته العامة ، لراعتك غضبة الشعب الأبوي الطيب ، ولهالتك ثورته الجارفة الكاسحة ، ولألقيت البلد على بكرة أبيه بين كمي يتطاير الشرر حارقاً من عينيه ، وتقي تنطلق الدعوات صادقة من شفته ، وهاتف بشعارات الحرب ، وداع إلى الاقدام والصبر عند اللقاء . وليس أروع ولا أبدع عند الوداع من مرآى امرأة (بلدية) تلفها ملاعنها الزرقاء تحتضن إبنها المدجج بالسلاح بين ذراعيها ، وتطبع على جبينه قبة الرجولة ، وتأخذ وجهه بين راحتيها « رح يا إبنى أودعك عند الذي لاتضيع عنده الودائع ، الله ينصركم ويسلمكم ، وتزغرد كأنها تزف عريساً ، فتجاولها زغاريد النساء وزججرات الرجال وأهازيج الأطفال ، وتضج الساحة بالتصفيق ، وتعج الخلائق بدعوات النصر والسلامة والتوفيق .

وتنضي الكتاب ، وتتوالى الأنباء ، سارة حينا ، موجعة حينا ، مشرقة في كل الأحوال ، حتى يتصف أيار فتزحف الجيوش المرية : سبعة في العدد ، وإثنين في الشدة ، يتقدمان من شمال وجنوب حتى ليوشكا أن يتعانقا في (تل أبيب) ، وتوشك القدم المرية أن تتمكن من عنق (شمویل) لولا سرعة النجدة ، وكانت له هذه المرة ؛ فقد قيل : « هدنة أربعة أسابيع حتى تتمكن (المساعي الحميدة !) من حقن الدماء وإجثاث جذور العداوة والبغضاء » .

وليس في الناس من يجهل نتيجة تلك المساعي (الحميدة جداً) التي رجحت كفة اليهود عند إستئناف القتال ، وأرغمت الدول المرية على الرضوخ لقرار الهدنة الدائمة والتوقف عن القتال ، واقتلعت مليون عربي فلسطيني من أرضهم وألقت بهم لاجئين في الأقطار المرية المجاورة .

وإذا كان التاريخ إنما يسجل ويقرأ للمظة والاعتبار ، فإن أبلغ غطة كانت لي من قضية اللاجئين ، ماسمته من بعض ضيوف حمص منهم ، إذ ذاك ، وهو

أنَّ إحدى الجهات العربية ، التي كانت ترفع شعار حماية الفلسطينيين والدفاع عنهم ، كانت تغريهم بالتزوح عن أرضهم ، وتحضهم عليه ، وتيسر لهم سبله ، مقنعة إياهم بأنه لن يطول أمده ، فأتى مجلس الأمن سميت الأمر في شهر أوشهرين ولو على أساس قرار التقسيم في أسوأ الأحوال ، فيعودون إلى ديارهم سالمين . وكانت خدعة لاتفوقها خدع اليهود اتخذت سبيلاً لبلوغ غايات وإرضاء شهوات .

وكان دخول الجيوش العربية إلى فلسطين إزداناً بانتهاء الحرب الشعبية ، فانضمَّ بعض التطوعيين السوريين إلى صفوف جيشهم ، وعاد سائرهم إلى مدنها ، وراحت كل مدينة تتفقّد أبنائها وتحصي شهداءها . وكان لحصص صفحة مشرقة في سجل الخالدين زينتها بأسماء عشرات من الشهداء الأبرار ، تحتفظ الذاكرة بأسماء بعضهم ممن كانت تجمعي بهم صلات خاصة أو علاقة تربية : الضابطون الباسلين فتحي الأتاسي ومارسيل ككرامه ، والفقي الرح روجي عادل الأتاسي ، والزهرتين الناضرتين إيني الميتم الاسلامي عبد الجواد مراد ومحمد القباني .

وبانتهاء هذه الرحلة ، ينتهي الحديث عن مواقف المدن فرادى في ميادين النضال من أجل فلسطين ، ويندمج في الحديث عن الحكومات ، وهو ليس من غرض كلتي هذه . أقراني فمت بعض واجبي نحو بلدي حمص فسجلت كل ماوعته الذاكرة وماستقيته من بعض الأخوة المعاصرين للأحداث التي تصله بقضية فلسطين ؟ قد يكون ذلك ! إلا حديث (الكلمة) خلال تلك الأحداث ، حديثها منظومة تنشد في الحفلات ، ومنتشرة تنشر في الصحف والمجلات ، ومسموعة تنطلق من المسارح في مشاهد وتمثيليات . وإنها لجديرة بحديث خاص ودراسة مستقلة يقوم بها من لاتقل لسانه عقدة (ضمير المتكلم) ، فسيجد فيها إرهابات للنضال المسلح والعمل الفدائي وتحذيرات صريحة مما حدث في نكبتي ١٩٤٨ و ١٩٦٧ ، ونداءات صارخة للوحدة ودعوة واضحة إلى شهر سلاح البترول الذين كانوا عماد الحركة الظافرة سنة ١٩٧٣ .

ولو أتيح لهذه الدراسة من ينهض بها لمت الصورة وبدأ موقف حمص من القضية الفلسطينية واضحاً جلياً من جوانبه كلها ، أو قريباً جداً من الوضوح والجلال .

حمص — رضا صافي

ملاحظات حول أهمية العلوم الانسانية كعلم الآثار والاثربولوجيا وعلم اللغات المقارن وعلم الاديان المقارن بالنسبة لعلم التاريخ

ماجد الموصلي

القسم (١)

مقدمة

أردفت فلسفة القرن التاسع عشر اللغات الأوربية بمصطلحات جديدة كمصطلح وحدة العلوم أو مصطلح علم العلوم أو مصطلح اجتماعية العلوم (١) وما كانت هذه المصطلحات الجديدة إلا تلمساً محسوساً ومشكوكاً في صحته وخاصة بالنسبة للعلاقات بين مختلف العلوم وإمكانية إفادة بعضها البعض ، إلا أن تنبؤ الفلاسفة ذلك كان قد بدأ يتحقق منذ بداية القرن العشرين وبدأ التأكيد يزداد عليه يوماً بعد يوم . وما يمكن ملاحظته اليوم هو التطور الهائل للعلوم وبشكل لم تعرفه الانسانية من قبل ، فالمعرفة البشرية تتضاعف باستمرار خلال فترات زمنية تقصر بدورها بشكل مضطرد ، كذلك فإن التخصص والاندماج يهيان النظام التقليدي للعلوم ويحرضان على نشوء علوم جديدة كما نشأ علم الكيرنيتيك (٢) الذي يوحد معرفتنا وينقلها إلى مستوى عال من التجريد وكما نشأ علم الباليونتولوجيا (٣) الذي بدأ يزودنا بمعلومات علمية عن أصل وتطور الانسان وبدايات الحياة في الحقيين الجيولوجيين الثالث والرابع . وبما تجدر الإشارة له في هذا الصدد القول بأن الأشكال والطرائق وقواعد التنظيم

(١) فلسفة هيجل وماركس ص ٦ من كتاب G.N. wolkow , Soziologie der Wissenschaft

(٢) ص (١١) Frank Fiedler , Einheitswissen Schaft

(٣) علم نشوء الحياة والانسان ، الشجرة الخاصة بالمعرض الخامس من أصل الانسان الذي افتتح في خريف عام ١٩٧٦ في متحف الانسان في باريس .

للبحث العلمي تخضع اليوم لتحول جذري، فالملاقة بين العلم والعمل تقترب بشكل ملحوظ، ويأخذ العلم شكل القوة غير المباشرة للإنتاج في المجتمع، كما ويبنى القاعدة النظرية لخطوط التطور الاجتماعي بالإضافة إلى أن مسكاته العلم في الحياة الاجتماعية قد خضعت هي أيضاً لتحول جذري وبحيث يمكننا التحدث عن ثورة حقيقية .

(١) تشكل كلتا علم الآثار مصطلحاً دخل على اللغة العربية حديثاً وهو ترجمة للمصطلح الشائع في اللغة الانجليزية **Archaeology** وفي اللغة الألمانية **Archaeologie** وفي اللغة الفرنسية **Achéologie** (١) وإذا ترجمنا حرفياً الكلمة الانجليزية **Archaeology** إلى العربية فإنها تعني علم القوس، وبالْحَقِيقَةُ فإن علم القوس كان قد نشأ كوصف لاتجاه خاص ضمن علم التاريخ وكان سبباً في ظهور علم تاريخ العمارة، ويعني مصطلح علم القوس البحث في تاريخ ومنشأ ووصف القوس الذي به إليه المؤرخون والرحالة الذين شاهدوا أو اطلعوا على المدن والأوابد الحجرية التي خلفتها بشكل خاص الحضارات المصرية واليونانية والرومانية (٢) . كان منشأ علم الآثار إلى حد ما عشوائياً وغير منهجي إلا أنه سرعان ما تطور بشكل ملحوظ وعن وعي كامل سواء من حيث طرائقه أو وظائفه أو أهدافه واستخدام ماقدمته بقية العلوم مثل الجيولوجيا والفيزياء والكيمياء وعلم اللغات المقارن وعلم الأنثروبولوجيا وعلم تاريخ الأديان المقارن من معلومات في تطوير طرائقه ووسائله وبنية الاسراع في التعرف على الحضارات المندثرة سواء تلك التي عاشت خلال التطور البشري ما قبل اكتشاف الكتابة أو تلك التي عاشت خلال العترات التي تلت ابتكار الأبجديات . وقبل أن أنتقل إلى عرض مايمكن أن يفيد علم الآثار به علم التاريخ سأطرق إلى ذكر فروع علم الآثار وطرائقه .

(١) لقد ذكرت في المقدمة أن علم الآثار قد ظهر في بدايته كوصف للهندسة المعمارية للأوابد الحجرية الضخمة التي بقيت ظاهرة فوق سطح الأرض والتي خلفتها الحضارات شبه الناحرة (٣) كالحضارة المصرية والحضارة اليونانية والحضارة الرومانية

(١) إشتقت الكلمات الثلاثة عن اللغة اليونانية .

(٢) كانت الخلفات الاثرية كأبنية المعابد الضخمة وغيرها قد بنيت بالأحجار الكبيرة وقد قاومت عوامل الحت الطبيعي والزلازل وغيرها بما أبقى على بعض من أجزائها ظاهراً فوق الأرض وقد لفتت هذه البقايا المصرية أنظار الرحالة والمؤرخين وجعلتهم يقومون بوصفها والبحث في تاريخ بنائها .

(٣) بالمقارنة مع التاريخ الصحيح للانسان .

إلا أن تتبع مخططات وأساس الأبنية الأثرية الظاهرة فوق الأرض قد لفت أنظار الجغرافيين والمهندسين والمغامرين منذ القرن السادس عشر الى ضرورة التنقيب ، علماً بأن نبش القبور وسرقة محتوياتها معروف في التاريخ منذ آلاف السنين ، فقد بنيت الاهرامات متضمنة ممرات سرية تعيق على سارقى القبور العبث بوجوداتها ، وقد أظهرت التنقيبات الأثرية الحديثة في التلال والمواقع الأثرية الواقعة على ضفاف الفرات أيضاً وخاصة التنقيب في المدافن الجماعية ان تلك المدافن كانت قد تعرضت للنهب والبحث بها في الألف الثالث ق . م ، وهذا الكلام يعني ان انسان الحضارات القديمة كان يعرف شيئاً عن الحفر في الأوابد الأثرية وإن كانت هذه المعرفة في حينها غير هادفة .

لقد سار التنقيب عن الآثار زمنياً في العديد من المواقع الأثرية المشهورة في العالم بشكل مختلف ، وتبنت معاهد الآثار كمعاهد المصريات ومعاهد الحضارات الهندية (١) ومعاهد علم الآشوريات وغيرها إعداد الدراسات وتشكيل بعثات التنقيب .

[١] (٢) التنقيب هو عماد علم الآثار وهدفه إعناء المعارف الانسانية عن التاريخ القديم المكتوب وتقييمها وإعطاء معلومات علمية عن الحضارات الانسانية لما قبل التاريخ وحضارات ما قبل الكتابة والمجتمعات المادية لتاريخ المجتمعات القديمة يتمثل مثلاً بالأدوات والأسلحة والفخار والمجوهرات والقطع الفنية وكذلك بقايا البيوت والمعابد والمدافن وغيرها من منشآت معمارية .

بدأ التنقيب العلمي المنهجي بشكل حقيقي في القرن التاسع عشر وقد طورت له طرائق علمية دقيقة ووصل إلى مستوى رفيع من التقدم منذ بداية القرن العشرين ، لكن التنقيب الفعلي عن الآثار كان قد بدأ منذ القرن السادس عشر وكان هدف ذلك التنقيب غير المنهجي هو الحصول على النفائس والتحف الثمينة وإعناء مجموعات هواة الجمع ، وقد جرى أول تنقيب في عام ١٥٠٦ في روما ، كما وتم الكشف عن الرسوم الجدارية الرومانية في مدينة روما الأثرية (٢) .

بدأ التنقيب عن الآثار في منطقة الشرق الأوسط عام ١٨١١ في كل من موقعي بابل وآشور ، وقد جرى أول تنقيب في سوريا عام ١٨٣٨ في ارواد ، وفي عام

١ - حضارات موهنجودارو وهارابا .

٢ (راجع Lexikon der Kuust , Leipzig 1968 , archaeologie)

١٨٦٠ جرى تنقيب عن الآثار في طرطوس وبيبلوس وحيدا ، ثم تبع ذلك تنقيب في كركيش (جرابلس) عام ١٨٧٨ ، وفي عام ١٨٩٩ جرى تنقيب في الموقع الأثري الهام تل حلف (محافظة الحسكة) بإشراف العالم الألماني الكبير فون اوبنهايم (١). أما التنقيب عن الآثار في فلسطين فقد بدأ عام ١٨٦٥ وتوقف بعد حفريات البروفسور البرايت (٢) إلا أن حفريات كاثلين كينيون قبل وبعد الحرب العالمية الثانية وخاصة في موقع حفريات أريحا (٣) دفع بعلم التنقيب عن الآثار بخطوات عديدة إلى الأمام ، وكان لأعمال هذه الإنجليزية الفضل في التحديد الزمني للحضارات الشرقية منذ العصر الحجري الحديث وحتى منتصف الألف الأول ق . م .

تتعدد طرائق التنقيب الحالية في الحقيقة على الخبرات العلمية المكتسبة لأجيال الأثريين والمنقبين الذين مارسوا التنقيب عن الآثار في مختلف بقاع الأرض وخاصة في منطقة الشرق القديم (مهد الحضارات الانسانية المتقدمة الأولى) . وتسبق عملية التنقيب الأثري الدراسات التحضيرية ، وتشتمل تلك الدراسات على الاطلاع على جميع المعلومات التاريخية عن الموقع المراد التنقيب فيه أو عن المنطقة المعنية بالامر ، وتضم عملية الاطلاع كذلك دراسة اللقى الأثرية والنتائج المستخلصة سابقاً إن كان الموقع قد قُب فيه من قبل وفي الحالة الأخرى دراسة كافة النتائج لحفريات في مواقع أثرية مجاورة ، وتشتمل الدراسات التحضيرية أيضاً على دراسة فخار المنطقة بشكل رئيسي لما للفخار من أهمية بالغة بالنسبة للتاريخ والتنقيب الأثري ، أما إذا كان الموقع لآثار ما قبل التاريخ والمصور الحجرية المتوسطة والحديثة فدرس عندها كافة اللقى الحجرية للموقع أو المنطقة . وتضم الدراسات التحضيرية أيضاً الاطلاع على كافة المعلومات الجغرافية والجيولوجية والبيئية (The ecology) .

الحقيقة إن الدراسات الأولية عن الموقع تؤثر في الأسلوب الذي يتم فيه تشكيل بعثة التنقيب ، فبعثة التنقيب التي تنقب في موقع ما قبل التاريخ هي غيرها التي تنقب في موقع حضارات الكتابة ، وعليه تضم بعثة التنقيب لموقع آثار ما قبل التاريخ بالإضافة إلى الطلاب أو الخريجين اخصائيين في الجيولوجيا والبيولوجيا والنبات والاثروبولوجيا ويرأس البعثة أستاذ متخصص في آثار ما قبل التاريخ .

(١) راجع كتاب تل حلف (von Oppenheim)

(٢) مقدمة كتاب K.Kenyon, Archaeology in the Holy Land

(٣) اسم موقع أريحا كما ورد في كتاب K.Kenyon هو Jericho

بينما تضم بعثة التنقيب لمواقع الحضارات القديمة بالإضافة الى الطلاب أو الخريجين اخصائيين في هندسة العمارة واللغات القديمة والفخار ، ويرأس البعثة استاذ متخصص في حضارات الموقع .

[١٣] يتبع عملية التنقيب كتابة التقارير عن النتائج المستخلصة ، يلي ذلك دراسة تلك التقارير والصور ودراسة مقارنة للفخار ان كان التنقيب قد جرى في موقع أثري لحضارات ما بعد العصر الحجري الحديث (الفوليتيك) ويتم التأريخ اما بواسطة الفخار المكتشف او بواسطة استخدام طريقة الكربون (١٤) وحديثاً باستخدام الطريقة المبنية على القياس الفيزيائي لتحرك ذرات المعادن باتجاه القطب ، وتبنى وتربط النتائج المستخلصة في آخر موسم التنقيب بنتائج عمليات تنقيب سابقة وتشر النتائج الجديدة وتناقش لتثبيت هويتها العلمية .

من دراسة النتائج المستخلصة عند نهاية موسم التنقيب يتبين لعلماء الآثار على اختلاف اختصاصاتهم ظهور معلومات جديدة تهتم دارسي تاريخ الفنون والعمارة والتجارة والصناعة والاقتصاد والقانون والاجتماع والسكان كما تهتم دارسي تاريخ الديان (١) وتاريخ الكتابة ودارسي اللغات القديمة (٢) وعلماء الأنثروبولوجيا (٣) وعلماء البيئة والحيوان .

٢ (صدر في لايبزغ (٤) عام ١٩٦٧ كتاب عنوانه رمل فوق معابد بلاد العرب **Sand uebet den Tempeln Arabiens** للمؤلفة ايغا غيرم لاخ وقد تضمن الكتاب استعراضاً تاريخياً لرحلات المغامرين والبحاث وللنتائج التي توصلت اليها البعثات العلمية بتنقيباتها التي أجرتها في بلاد اليمن ، كما وحاولت الكتابة البدء بعرض امكانية إعادة كتابة تاريخ اليمن وذلك عن طريق الربط بين كافة المعلومات العلمية الحديثة وبين ماورد من معلومات تاريخية في تدوينات مؤرخي اليونان والرومان والعرب .

[٢١] كان أول المغامرين الأوربيين الذين وصلوا بلاد اليمن هو الدانماركي كارستن نيبور (**Carsten Niebuhr**) فقط حطت رحال ذلك المغامر في بلاد

-
- ١ - سوف أتطرق الى بحث علاقة علم الأديان المقارن بعلم التاريخ لاحقاً
 - ٢ - سوف أتطرق الى بحث علاقة علم اللغات المقارن بعلم التاريخ لاحقاً
 - ٣ - سوف أتطرق الى بحث علاقة علمي الأنثروبولوجيا والاجتماع بعلم التاريخ لاحقاً
 - ٤ - ألمانيا الديمقراطية

العرب السعيدة في خريف عام ١٧٦٢ ، ومع وصوله بسدأت مرحلة البحث العلمي الحديث لبلاد العرب وتاريخها ، وكانت معلومات البعثة التي يرأسها نيور (١) قبل البدء بأجراء أبحاثها مقتصرة على ماورد في وصف اليونانيين والرومان لبلاد العرب ، هذا الوصف الذي يعود تاريخه الى أكثر من ألف وخمسة عام ، فمنذ بطليموس الذي وصف البلاد المعروفة في زمنه (القرن الثاني الميلادي) لم ترد معلومات جديدة الى أوروبا عن بلاد العرب . كان من نتائج أعمال البعثة الأولى في اليمن التنبيه الى غنى تلك البلاد بخلفية حضارية متقدمة والتفتيه الى الفموض الذي يحيط بتلك الحضارات البائدة وخاصة من ناحية تاريخها الجلي ، وقد تبع نيور في شمس الرجال الى اليمن الدكتور سيتزن (Dr. Seetzen) الذي كان من أهدافه زيارة مأرب عاصمة مملكة سبأ .

قبل أن تحتل بريطانيا ميناء عدن بعدة سنوات بدأت في عام ١٨٣٤ بأجراء أعمال قياسات على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية ، وقد لاحظ ضابط السفينة السيد ولستيد وجود صخور سوداء تقع على ساحل حضرموت وعلى بعد حوالي ٤٠٠ / كم الى الشرق من عدن ، وعلم ولستيد لاحقاً ان اسم المكان الذي رآه من البحر هو حصن الغراب ، وتقع عند أقدام هذا الحصن قرية يير على . ارتقى ولستيد الى هذا المرتفع البركاني مصطحباً معه زميلين من زملائه ، واكتشف عنده بقايا طريق عمدة تقود السائر على الأقدام حتى أعلى المرتفع ، وهناك عثر الثلاثة على بقايا أسوار وبقايا جدران أربعة خزانات للمياه . لقد تساءل الثلاثة عندها من تحصن في حصن الغراب اي من بناء ولماذا ؟ لكنهم توصلوا بعد هنية الى الفكرة التالية : يجب علينا ان نبحث عن أحجار مكتوبة علنا نستطيع الهداية بها الى مبتغانا ، وفعلنا عثر ولستيد على نصين محفورين على الحجر ، وبأشر فوراً الى نسخ الكتابة وارسال هذه الطلاسم الى أوروبا .

١ - ضمت البعثة بالإضافة الى نيور كلا من كريستيان فون هافن C.V.Haven

كمتخصص في اللغات الشرقية ، وبيتر فورسكال P. Forskal بيولوجي ، والدكتور

كريستيان كارل كرامر C. C. Cramer كطبيب ، وجورج باورن فانيد G. W.

Buuernfeind كرسام .

تبع ولستيد كل من ادولف فون فريدي . (١) وآرنود (٢)
وجوزيف هالفي (٣) وسيفريد لانجر (٤) وادوارد غلازر (٥) .

(١) وصل ادولف فون فريدي إلى ميناء المكلا في عام ١٨٤٣ وكان يهدف الوصول إلى طرب فبدأ أولاً بزيارة للأسوار القديمة التي وصفها ولستيد ومن ثم تابع السير في وادي حضرموت حيث كان قد تزيل بزي مسلم يريد الحج إلى قبر النبي هود ، ولكن البدو قبضوا عليه لشكهم بأمره ومزقوا أوراقه وأعادوه إلى الساحل ، ولحسن الحظ كان ادولف قد أرسل بعضاً من أوراقه المدونة عليها المعلومات التي سجلها عن آثار وادي حضرموت وخاصة عن مدينة لبنة إلى المكلا .

(١) توماس جوزيف آرنود T. J. Arnaud حط به الترحال في بلاد العرب السعيدة في تموز عام ١٨٤٣ مستغلاً وصول حامية تركية ومبتغياً زيارته بمملكة سبأ ذات الفنى الخيالي . بدأ آرنود رحلته متخفياً بزي بدوي ، وخرج من صنعاء متجهاً إلى مأرب ليرى السد الذي قرأ عنه في كتاب الله عز وجل ، ولكن الصعوبات التي واجهته كوجوده في منطقة يبرو عبيدة لم تمنعه من نسخ بعض كتابات المنطقة .

(٢) جوزيف هالفي وصل إلى صنعاء في شباط من عام ١٨٧٠ وانطلق إلى منطقة الجوف متخفياً بزي يهودي ، واستطاع خلال إقامته في اليمن القيام بنسخ عدد كبير من الكتابات والنصوص المحفورة على الحجر وخاصة كتابات لغة حضارة المينين (عاصمتهم مدينة قنوة) .

(٣) سيفريد لانجر S. Langer وصل إلى اليمن في شباط من عام ١٨٨٢ واعتل فيها في شهر حزيران من نفس العام .

(٤) ادوارد غلازر E. Glaser زل في ميناء الحديدة في تشرين أول من عام ١٨٨٢ أي بعد حوالي أربعة أشهر من موت سيفريد لانجر ، وتنفى بزي فقيه مسلم واستطاع بمقدرته الفائقة على التلاؤم نسخ أكبر عدد من النصوص المحفورة على الأحجار الأثرية ، وبالمعاونة مع أسلافه فقد قارب عدد النصوص التي استطاع نسخها الألفي نص وهي مكتوبة باللفات السبئية والمينية والقبتانية والحضرموتية .

ثم وصلت البعثة البريطانية الأولى للتنقيب عن الآثار والتي تتألف فقط من ثلاثة نساء تقودهن سيدة توميسون (١) وفي عام ١٩٥٠ بدأت البعثة الأمريكية للتنقيب عن الآثار في جنوب الجزيرة العربية أعمالها برئاسة البروفسور البرايت . لنقرأ ترجمة المقطع من كتاب السيدة غير لاخ عن أعمال البعثة الأمريكية : (البروفسور البرايت يبحث عن كسر فخارية :) .

لم يهدف البروفسور البرايت عالم الآثار التنقيب الشامل في أوابد مدينة تمنا التي تبلغ مساحتها حوالي ٢٥ / هكتاراً ولم يكن في مخططة الكشف عن القصور الضخمة لكي يهيج أنظار العالم بأبهة الحياة التي عاشها ملوك قبة لكنه يظهر من المؤكد أن رفع الأتقاض عن القصور النازقة بواسطة المول والرفش والفرشاة هو عمل ممتع ، ومع ذلك فإن عمل الأثرين هو اليوم أبعد من أن يكون هدفه فقط حفر وتنقيب عن القصور والمعابد أو البحث عن الحلبي الذهبية والتماثيل وجمع للنصوص المكتوبة وهو أيضاً أبعد من أن يكون هدفه رسم صورة لما كان عليه بناء قبل تدميره ، ولكن اعتماداً على اللقى والآثار التي يعثر عليها يجب الكشف عن علاقات تاريخية ، لذلك يمكن أن يكون لكسرة من الفخار اللون بالنسبة للآثار تحت ظروف خاصة قيمة أكبر من قطعة أثرية مصنوعة من الذهب . أن لون الكسرة الفخارية نوعها أو الطريقة التي صنعت بها أو الطريقة التي دهنت بها كل هذه الأمور يمكن أن تزود المختص بالآثار بمعلومات جديدة تؤدي إلى إستنتاجات وربط علاقات جديدة ، وكذلك فإن المقارنة بين تلك الكسر الفخارية مع كسر مشابهة ظهرت في موقع أثري آخر تعطي الأثري إمكانية تحديد الزمن بدقة متى استخدم ذلك النوع من الفخار وكذلك تعطيه إمكانية تحديد العمر للطبقة الأثرية التي وجدت فيها الكسر بشكل دقيق وسليم .

لقد تمهدت للوظيفة الرئيسية للبعثة الأمريكية للتنقيب عن الآثار في جنوب شبه الجزيرة العربية بالحصول على عدد كاف من اللقى الأثرية ذات المصدر الغريب عن المنطقة ، فمن هذا الطريق يمكن الوصول إلى كرونولوجي مقارنة بالنسبة لجنوب الجزيرة العربية .

لم تستطع تنقيبات عريتود كاتون توميسون في وادي عمسد العثور على مثل

هذه اللقي ، فقد كانت هريدة وكان معبد الشمس فيها عبارة عن مكان مقدس صغير ،
والآن يجب أن يستخدم المول للتنقيب في إحدى عواصم الممالك الأربعة لجنوب
الجزيرة المرية ، في أوابد المدينة الملكية تمنا يمكن توقع العثور على لقي تستطيع
البصنة بواسطتها تاريخ تاريخ قبة بدقة .

أختيرت مقبرة تمنا لكي تكون موقعا للتنقيب ، فالتقبر تحتوي على الكسر فخارية
والأختام الاسطوانية والعقود والتماثيل . بالمقابل فإن تقارير رحلات آرنود وهالني
وغلازر أشارت بالاجماع على أن النصوص المكتوبة على الأحجار وجدت في مواقع
آثار جنوب بلاد العرب بالقرب من أبواب المدن والمناطق المحيطة بأسوارها . لذا
بدأت مجموعة تحت إشراف البروفسور هوني مان بالكشف عن الباب الجنوبي ليمنا
والمبنى من ردم تبلغ سما كته ثلاثة أمتار .

يرتفع نصب آلهة الشمس الفرانتي من بين الرمال الحيطه به وهو يقع في
مركز المدينة الملكية السابقة ويتوقع تواجد بقايا عدد لا بأس به من الأبنية
بالقرب منه .

بينما بدأ التنقيب كلاً من الدكتور جامي والبروفسور هوني مان وفنديل فيليس
في الأمكنة الثلاثة التي ورد ذكرها أعلاه ، أعطى البروفسور البرايت كل اهتمامه
للعنصر الهام ألا وهو التل الذي يرتفع حوالي عشرين متراً والذي يقع على بعد ١٥
كم إلى الجنوب من أوابد تيمنا .

لقد اكتشف البروفسور البرايت في وادي بيحان ليس فقط أوابد المدينة
الملكية تيمنا ولكن أيضاً مرتفعات ذات قمة شبه مسطحة وترتفع حوالي ١٥
إلى ٢٥ متراً ولها أطراف مائلة وهي موزعة بشكل ملفت للنظر وعلى مقربة من
بعضها البعض .

يدعو الأثريون تلك المرتفعات بالتلال ، والتل عبارة عن مرتفع مسكون تتوضع
طبقاته السكنية فوق بعضها البعض . ردم وأحجار من الطين وكسر فخارية وبقايا
جدران كل تلك الأشياء تنير للأثري ماضي المستوطنات المدمرة والتي قامت فوقها
وعلى نفس المكان مستوطنات جديدة . مثل هذه التلال كان تل حجر بن حميد
وهو يقع على بعد ١٥ كم من تيمنا وقد أصابه الحت الطبيعي في جزئه الغربي
فكشفت بذلك بعض الطبقات الأثرية . هنا بدأ البروفسور البرايت وبكل حذر
إستخدام المول وضمن مربع يبلغ طول ضلعه ١٨ م .

حفر المال التراب ضمن هذا المربع ستيمتر فستيمتر ، ويطء باتجاه الأسفل حفروا طبقة بعد الأخرى . فقط من رأى مرة تنقياً عن الآثار يعرف بكم من الصبر والتأن وبكم من تحسّس الأقالم الضروري يمكن قراءة طبقات الأرض المتوضعة فوق بعضها البعض والتي يعود تاريخها إلى مئات السنين وبل آلاف السنين ، يجب الانتباه إلى كل عنصر ولا يجب إضاعة أشياء تبضها الطبقات الأثرية وهي بعد غير مرئية ، كذلك تهم المختص طبقات الأرض ذات الألوان المختلفة فهي تساعد في الوصول إلى فكرة جديدة . اذا حدث وتوصل المال إلى أرضية مسكن فيوضع عندها المعول جانباً ويبدأ العمل بحذر بواسطة السكين والقرشاة .

بعد مضي سبعة أسابيع على عمل البروفسور البرايت في حجر بن حميد كان عمق التنقيب إبتداء من السطح فقط أربعة أمتار ونصف ولم يؤد التنقيب إلى العثور على أشياء ذهبية أو بقايا أبنية فخمة لكن على الرغم من ذلك فقد ضم هذا التل الأشياء التي يبحث عنها البروفسور ، فكسر الفخار التي عثر عليها في الطبقات العليا من التل أعادته في تحديد تاريخ آخر مسكن للتل خلال القرون ما بين المائتين والخامس عشر ميلادي ، وأما الطبقات الدنيا فتعود إلى ما بين القرنين الخامس والثالث ق . م (١) .

(٢) من السرد الذي ورد آنفاً عن مضمون كتاب السيدة غير لاخ يمكن أن نخلص إلى النقاط التالية :

١ - تقسم المصادر المتوفرة عن تاريخ اليمن حتى وصول أول المغامرين الأوربيين إلى البلاد إلى ثلاثة أنواع :

أ - الكتب المقدسة

ب - كتب التاريخ التي كتبت في العهد القديمة كتلك التي كتبت في العهد اليونانية والرومانية والعربية الإسلامية (٢) .

Eva Ger Lach p. 285 - 287

٢ - يعتبر كتاب الاكليل لمؤلفه اليمني الحماني والمولود في صنعاء عام ٩٤٥ من أهم المصادر القديمة عن تاريخ اليمن ، وقد كتبت في عشرة اجزاء ووصف فيه هذا الجغرافي القدير الذي كان يتقن قراءة النصوص القديمة المحفورة على الأحجار الأثرية القلاع والقصور القديمة، ويعتبر هذا الكتاب مصدراً علمياً هاماً بالنسبة للبحث في تاريخ جنوب الجزيرة العربية .

جـ - التراث الشفوي والتمثل بالقصص والحكايات الشعبية والأساطير والأفعال والأغاني .

٢ - النتائج التي خلص إليها كافة الرحالة والعلماء والمغامرين الذين زاروا بلاد اليمن وحتى إجراء أول عملية للتنقيب عن الآثار .

٣ - الدراسات التي تمت في جامعات أوروبا حول ترجمة النصوص المدونة والمحفورة على الحجارة الأثرية ومقارنتها ضمن مجموعة اللغات العربية الجنوبية ومقارنتها ببقية لغات المجموعة السامية واستخلاص معلومات تاريخية منها .

٤ - النتائج التي توصلت إليها بعثات التنقيب العلمي الأثري الأولى والتي أجرت أعمالها فقط في الأوابد والمدن الأثرية الظاهرة فوق الأرض .

٥ - النتائج التي توصلت إليها بعثات التنقيب العلمي الأثري والتي أجرت أعمالها لاحقاً في التلال الأثرية .

[٢] ٣ - وبناء على النقاط الخمسة التي ورد ذكرها أعلاه يمكن ملاحظة مايلي :

١ - علم الآثار هو علم من نوعية خاصة فهو يعتمد على الوثائق من كافة الأنواع لكن تلك الوثائق يمكن أن تتأرجح أهميتها بالنسبة لعلم الآثار ضمن حدين مرنين جداً في تقاربها إلى بعض أو في إبتعادها عن بعض .

٢ - تراكم المعلومات التي تنتج عن عملية إجراء التنقيب لتعطي جدولاً كميّاً تعدل علاقته مع الكيفية العلمية بثبات أو نفي أو تعديل للكم والكيف والجاهز قبل التنقيب .

٣ - تتحدد الأهمية العلمية والنتائج المستخلصة عن علاقة الكم والكيف بمقدار غنى المقارنة .

٤ - تتأرجح النتائج المستخلصة عن التقييم للمعلومات السابقة وربطها بالنتائج الحاضرة زمنياً وتبعاً للطرائق المستخدمة في البحث العلمي .

٥ - من الممكن أن تبدأ محاولة إعادة كتابة تاريخ منطقة ما بحذر شديد وخاصة بالنسبة لاكتشاف العلاقات بين العناصر التاريخية المتشعبة .

٦ — يجب أن لا تنقل في إعادة كتابة التاريخ كافة الأوجه الحضارية المختلفة زمنياً بدءاً من الصناعة الحجرية الأولى ومروراً بمختلف الاكتشافات الهامة بالنسبة للتقدم الحضاري والتقني بشكل خاص والفني والثقافي بشكل عام كما ويجب تجنب طغيان إبراز الوجه السياسي العام للحوادث التاريخية .

— يتبع في العدد القادم —

— شيزر وبنو منقذ —

اعداد : المدرس جرجس نخول

كل أثر أو موقع هام يرتبط باسم شخصية بارزة أو أسرة معينة عاصرته أو مرت عليه ، واسم شيزر أينما ذكر ومتى ذكر يرتبط به اسم بني منقذ ، وهي الأسرة الكنانية المعروفة بين القبائل العربية بالفروسية والبطولة ، إلى جانب العلم والأدب ، وخاصة في الفترة التي تمرضت فيها بلادنا للطامع الاستعمارية الأوروبية التي اتخذت اسم الحروب الصليبية قناعاً لها . فكان لشيزر ولبني منقذ وفارسهم أسامة القسط الهام في التصدي لهذه الهجمات وإبعادها عن مواقعهم الحصينة في شيزر .

موقع شيزر ودورها عبر التاريخ :

على مسافة ٣٠ كم إلى اشمال الغربي من حماة وعلى نهر العاصي في نقطة تحول إتجاهه نحو الغرب في منطقة الغاب تقع شيزر ، وقد لعبت دور الحصن المنيع منذ عهد الفراعنة ، فذكرها تחותس حوالي ١٥٠٠ ق . م في وصف إحدى حملاته باسم « شيزار أو سيزر » وذكرها بعده « انتحوتب الثاني » (١) ووردت باسم « زنزار » في رقم تل العمارنة . وسماها اليونان الأقدمون « سدزار » وأطلق عليها « سلوقس ١ » في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد اسم « لارسا » حيث أسكنها مهاجرين من لارسا في تساليا . وذكرها البيزنطيون باسم « سيزر » وغلب عليها الاسم السامي العربي في صيغة « شيزر » وذكرها امرؤ القيس في قصيدته المشهورة :

تقطع أسباب الابانة والهوى عشية جاوزنا حماة وشيزا (٢)

وتردد إسمها هذا في كتابات المؤرخين العرب كياقوت الحموي والأصطخري ، أما مؤرخو الصليبيين فأطلقوا عليها اسم « قيصرية » أو « قيصرية العاصي » تمييزاً لها عن غيرها .

١ — J. H. Breasted : Ancient Records of Egypt . V . 2 . 314 : 584

٢ — ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٣٥٣

أما عن أهميتها الاستراتيجية ، فلقوعها على الطريق الداخلية الهامة التي تصل الساحل الشمالي بالمنطقة الداخلية والتي كانت طريق أكثر الفاتحين ، ولسيطرتها على الوادي الذي تشرف عليه قلاع أخرى ، كانت لها دور هام في الحروب الصليبية مثل أقاميا « قلعة المضيق » وكفر طاب وغيرها من المراكز التي احتلها الصليبيون مراراً واتخذوها كقواعد للهجوم على شيزر وحماة وغيرها .

أما تحصينها فتذكر أكثر المصادر التاريخية أن بني منقذ هم أصحاب الفضل الأكبر فيه ، وأن سديد الملك علي بن منقذ قد بدأ تحصينها فور تسلمها من البيزنطيين عام ١٠٨١ م ، كما أن نور الدين محمود زنى اهتماماً زائداً وخاصة بعد أن هدمتها الزلازل عام ١١٥٧ م وينسب إليه بناء الجانب الغربي من البرج الجنوبي . وتؤيد ذلك الكتابة المذكورة عليه ، ويذكر الأثري « هون برشم » في كتابه « رحلة في الشام » أن باشورة باب القلعة من آثار نور الدين محمود هذا ولكن لم يبق منه الآن إلا النذر اليسير .

تاريخها السياسي :

نظراً للدور الذي لعبه المنقذيون في حصن شيزر واجماع أكثر المصادر على اعتبار عظمة الحصن وأهميته تعود إليهم رأينا اعتبارهم مبدأ لتاريخ شيزر وقسمناه إلى ثلاثة عهود :

- ١ — قبل بني منقذ : ١٥٠٠ ق . م — ١٠٨١ م
- ٢ — عهد بني منقذ : ١٠٨١ م — ١١٥٧ م
- ٣ — بعد بني منقذ : ١١٥٧ م

١ — قبل بني منقذ :

أول من ذكر شيزر كما أسلفنا تحوتس من فراعنة الأسرة الثامنة عشرة حوالي عام ١٥٠٠ ق . م وبعد « امنحوتب ٢ » لكن تاريخها السياسي يبدأ مع قيام الدولة السلوقية حيث جدد « سلوقس ١ » بناءها إلى جانب جارتها أقاميا عام ٢٩٨ ق . م وأسكنها مهاجرين من لارسا إحدى مدن تساليا اليونانية وسماها باسم مدينتهم الأصلية . وبقوا فيها حتى الاحتلال الروماني عام ٦٤ ق . م . ودخلت ضمن الامبراطورية التدمرية حيث يذكر أن الامبراطور « اورليانوس »

دخلها عام ٢٧١ م بعد معركة انطاكية (١) وتراجع جيش زنوبيا باتجاه تدمر ، ثم ازدهرت في المهدين الروماني والبيزنطي وأصبحت دار أسقفية (٢) . وعندما جاء الفتح العربي الاسلامي سلم سكان شيزر مدينتهم إلى القائد أبي عبيدة بن الجراح بعد فتح حمص وحماة ، ومن أقوال أهلها للأمير العربي ، الفاتح : « إنا قتلنا بطريقنا في محبتكم » (٣) ويعنون بذلك قائدهم . واستوطنتها طائفة من الموارنة عند انتشارهم في وادي العاصي أواخر القرن السابع الميلادي (٤) ثم سكنها قوم من بني كندة . وغزاها القرامطة ، وكانت عرضة لهجمات البيزنطيين وخاصة فترة صراع سيف الدولة الحمداني معهم ، حتى أن وفاته كانت فيها ثم نقل جثمانه إلى حلب . وبقيت تتأرجح بين النفوذ البيزنطي والحكم الفاطمي إلى أن سيطر عليها البيزنطيون ، وبقيت تابعة لنفوذهم مدة ٨٢ سنة إلى أن احتلها بنو منقذ عام ١٠٨١ م .

٢ — عهد بني منقذ :

تابع على حكم شيزر من بني منقذ بعد استيلائهم عليها من البيزنطيين كل من : « سديد الملك أبو الحسن علي بن مقلد بن نصر » وهو الذي ينسب إليه إصلاحها . ولما توفي خلفه ولده : عز الدولة أبو مرهف نصر بن عسلي ، وقد إتسع نفوذه خارج شيزر إلى المرة واللاذقية ومصياف . وبعد وفاته خلفه أخوه « مجد الدين » والد أسامة الشهير ولائعكافه على نسخ القرآن وشغفه بالصيد تنازل عن الأمانة (٥) لأخيه الأصغر « عز الدين أبي العساكر سلطان » الذي لفترة حكمه تعود أكثر الحوادث التي دونها أسامة في مذكراته وكتبه ، وبعد وفاته خلفه ابنه « تاج الدولة ناصر الدين محمد » وهو آخر الأمراء المنقذين ففي عهده حدثت الكارثة المفجعة : « زلزال ١١٥٧ م » (٦) التي قضت على بني منقذ ولم ينج منهم سوى أسامة الذي كان غائباً في دمشق فجاء شيزر بعد الزلزلة وعان ماقلته بشيزر وأهله ،

١ — مجلة الشرق العدد « ٢٠ » صحيفة ١٠٣٦ ، ١٨٩٨ نقلاً عن فويسكوس .

٢ — جرجي زيدان — تاريخ سورية ولبنان ص ٣٥٠ طبع بيروت ١٨٨١ م .

٣ — الحوليات الأثرية : ١٩٥٢ نقلاً عن الواقدي .

٤ — المسعودي : التبيين والإشراف .

٥ — أبو شامة : ذيل الروضتين ج ٢ ص ١١١ وابن الأثير ج ١ ص ٥٠٤ .

٦ — ابن الأثير : ج ١ ص ٥٠٣ .

فرثام بقصيدته المشهورة التي منها :

لم يترك الدهر لي من بعد قدوم
قلباً أجشمه صبراً وسلواناً (١)

هذي قصورهم أمست قبورهم
كذاك كانوا بها من قبل سكانا

وكان لبني منقذ في شيزر علاقات هامة مع جيرانهم من اسماعيلية وماليك وفرنجية
« صليبيين » ومنفصل بالشرح علاقاتهم مع الصليبيين :

بقيت شيزر الحصن العربي الذي لم يستطع الفرنجة أن يسيطروا عليه طيلة المدة
التي قضوها في بلاد الشام . ويعود السبب في ذلك إلى مناعة الحصن أولاً وإلى
إستبسال أمرائه من آل منقذ في الدفاع عنه . فلقد انتزعوه من الروم البيزنطيين
وظلوا حماة الميامين إلى أن أودت بهم الكارثة المفجعة .

وطوال هذه المدة والغارات وأعمال الغزو والسلب والنهب لم تنقطع ؛ فتارة
تبدأ من جهة الفرنجة وأخرى يكون المنقذيون هم السابقون ، فشيزر مركز المنقذين
الأساسي وأقاميا « قلعة المضيق » مركز الفرنجة الذي يمدون منه معظم حملاتهم .
وكثيراً من الأحيان يتعاون الفرنجة والبيزنطيون في حركاتهم العسكرية
وكتاب الاعتبار لأسامة . . حافل بذكر الحوادث والغزوات والمعارك التي كان بطلها
وعورها كاتب هذه الأخبار ؛ فسهلت على المؤرخين والنقاد كثيراً من العناية في
النقد والاثبات ، فالراوي شاهد عيان وقائد معظم المعارك .

ولقد انتقينا أبرز الأحداث التي وقعت بين بني منقذ من جهة والصليبيين
والبيزنطيين من جهة أخرى ، والتي ألح عليها أسامة في كتابه وتناقلها أكثر
المؤرخين عنه .

ففي سنة ٥٠١ هـ ١١٠٨ م نزل شيزر « تنكرد » خليفة « بوهيموند » على
انطاكية في عام ١١٠٤ م . فحاصرها إلى أن تم الصلح بينه وبين سلطان .
وإستمر هذا الصلح حتى ١١١٠ م حيث عاد وحاصر المدينة وأمكن
دوت جدوى .

وقد جاءها في نفس العام ١١١٠ م . صاحب طرابلس الصليبي « برتراند »

وكان أمراؤها في الصيد فرجعوا ودخلوا الحصن متسللين ومن بينهم أسامة الذي دخل من تحت السكر (١) . وفشلت محاولة « براترند » وكان المسلمون لا يسكتون على هذه التعديات فكانوا يبادلون الحصار بالحصار والحمة بحملة مماثلة . في عام ١١١٥ م اجتمع امير شيزر مع غيره من الأمراء وهاجموا حصن كقرطاب (٢) وأحرقوه واستخدموا في حصاره كافة الوسائل المعروفة آنذاك ، ولكنه لم يتداع فالتجها منه الى « داينث » حيث نشبت المعركة في أيلول ١١١٥ م التي هزم فيها الفرنجة وسلمت على أثرها كقرطاب . ولم يكتف المتقديون بهذه الانتصارات بل كانوا يجددون باستمرار . في آب ١١١٩ م سير عز الدين أبو العسكر : أسامة إلى نهب أقاميا ومعه رجاله . فيتصدى لهم الافرنج وتنشب معركة يتقلب فيها أسامة ويعود سالماً مع جماعته (٣)

وفي سنة ١١٢٢ م يأتي شيزر جماعة من فرسان الافرنج وعندما لم يتمكنوا منها قتلوا الحارس وعادوا إلى مراكزهم .

وفي سنة ١١٢٤ م جدد بنو منقذ الهجوم على أقاميا وكان على رأس الحملة أسامة وشهاب الدين قراجا . فحاولوا مهاجمة باب الحصن لكن الافرنج صدوهم عنه وجرح شهاب الدين فتراجعوا عنها إلى شيزر وعاد شهاب الدين إلى حماة حيث مات متأثراً بجراحه (٤) .

وفي عام ١١٢٧ أغار عسكر انطاكية على شيزر فلبأ عسكرها إلى القلعة حصنهم المنيع فماد الافرنج من حيث أتوا .

وفي سنة ١١٢٩ م نزلت شيزر خيل انطاكية من جديد بقيادة « بوهيموند الثاني » كما جاءها عام ١١٣٨ م القيصر البيزنطي « حنا جومنين » (٥) على رأس جيش من الروم ونصب منجنيقاته على جبل جريجيس المشرف على القلعة ، فاستنجد أبو العساكر سلطان بهاد الدين زنكي الذي أسرع لنجدته ونزل حماة وأخذ يشن الغارات على الروم ويأخذ من يظفر به منهم وطالب مبارزة جيش الروم في السهول والصحاري والتخلي عن التمرکز في المناطق الجبلية . كما اتبع سياسة الايقاع بين الروم

١ - أسامة . الاعتبار ص ٥٥ ٢ - المصدر نفسه ص : ٧٣-٧٤-٧٥ .

٣ - ٤ - المصدر نفسه ص ٤٧ - ٤٨ .

٥ - احمد وصفي زكريا : جولة أثرية . ص ١٦١ - المطبعة الحديثة دمشق ١٩٣٤ .

والتميمي : الحروب الصليبية - ٩١ - مطبعة اللواء القدس ١٩٤٥ .

والفرنجة مقتفياً خطة المسلمين في غزوة الخندق في مطلع الدعوة الإسلامية .

وهكذا غادر الامبراطور البيزنطي قلعة شيزر بعد أن حاصرها فترة من الوقت تاركاً وراءه المجانيق وسائر آلات الحصار ، فافتفى عماد الدين أثره وظفر بكثير ممن تخلف من جنوده ، وأخذ جميع متركوه غنيمة له . وكانت كثير من المدن السورية وخاصة حماة تخشى وقوع شيزر في يد الروم لأن ذلك يؤدي إلى سقوطها هي الأخرى . وهذا دليل قاطع على أهمية شيزر الاستراتيجية بالنسبة للدفاع عن بلاد الشام آنذاك .

ولكن هذه المنازعات الحربية لم تكن تمنع من حدوث وفاء أحياناً بين شيزر والصليبيين وخاصة طرابلس . ومما يذكر أن صاحبها أرسل مرة إلى أبي العساكر سلطان رسولاً ليوصله من أقميا إلى رمنية (١) منفذ سلطان ذلك (٢) . وهذا دليل على الوثام والسلام الذي كان يحدث بين الفريقين أحياناً . .

٣ — بعد بني منقذ .. عهد المماليك والأتراك :

لما حلت الكارثة ببني منقذ ١١٥٧ م هرع إليها الطامعون ، فاقصد حاول الصليبيون أن يملكوا القلعة ليحققوا حلمهم العالي رغم تدميرها ، لكن الاسماعيلية هبطوا إليها من مصياف وطردها الصليبيين واستولوا على شيزر . ثم جاء نور الدين محمود زنكي وطرده الاسماعيلية منها ورممها وجدد الدور وأقطعها إلى أخيه في الرضاة « مجد الدين بن الداية » ، وبعد وفاة هذا انتقلت إلى أخيه « سابق الدين عثمان ابن الداية » ، فاختلف مع الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين الذي اعتقله ، مما أغضب السلطان صلاح الدين الأيوبي . وكان هذا من الحجج لانتزاع الشام من الزنكيين . ودخل أولاد الداية في خدمة صلاح الدين فأقرهم على شيزر وضم إليهم « أبا قيس » .

وفي عام ١٢٣٢ م استولى عليها صاحب حلب الملك العزيزة (محمد بن الظاهر غازي) ولما جاء التتر بقيادة هولاكو ١٢٦٠ م هدموا أكثر القلاع التي كانت للأيوبيين ولا بد أن يكونوا قالوا أيضاً من شيزر لأنها ذكرت في جملة القلاع التي

١ — من الحصون المنتشرة في منطقة مصياف ، مقابل بعين .

٢ — أبو الفداء . ص ١٦٠

زارها الملك الظاهر بيبرس مراراً ورممها (١) .

وفي عهد قلاوون الصالحى ظلت شيزر كجارتها أقاميا بيد الأمير منقر الأشقر الذي عصى قلاوون ، لكن هذا استرجعها منه صلحاً على أن تبقى بيده . وتنازلت على شيزر غارات الصليبيين إلى أن أقيمت هدنة في عام ١٢٨٣ م بين قلاوون وبين أمراء الصليبيين « أودوبوالشيان » نائب المملكة في عكا وأقباعه لمدة عشر سنوات (٢) ورمم قلاوون بعض أركان شيزر واستكتب اسمه على جدرانها . وظلت في حوزة خلفائه المماليك حيث كانت نيابة من أعمال حلب .

وفي سنة ١٣٤٧ م وقعت فتنة في شيزر بين العرب والأكراد إلى أن ألقاها « ناصر الدين بن المهسنى » من حلب وقع الفتنة (٣) .

وفي سنة ١٣٥٢ م هاجمها أحد أمراء البادية « نصير بن حيار » فنهبا وقتلها بأهلها ولعل خرابها بدأ منذ تلك الفتنة .

وفي العهد العثماني أقاموا فيها حامية بالتناوب مؤلفة من ٣٠ نفرًا لحفظ الأمن فقط (٤) وذلك لزوال الحاجة للدفاع بعد استيلاء العثمانيين على بلاد الشام بكاملها ، فلم يبق لها مكانة حربية كما لم تعد القلاع والحصون تفي بمهمة الدفاع بعد اختراع الوسائل النارية الحديثة . ولذا أهملت شيزر وغدت قرية يسكنها البعض من الأعراب والاسماعيلية إلى ما قبل حوالي ٧٠ عاماً / حيث نزحت الاسماعيلية عنها إلى قرية عقارب الصافي التابعة لسلمية وبقي السكان أخلاطاً من الأعراب وقلاحي القرى المجاورة الذين كانوا يغيرون عليها أيام الفتن في عهد المماليك والعثمانيين .

١ - المقرئى : السلوك ج ١ ص ٤٤٦ والنجوم الزاهرة .

٢ - المصدر نفسه ص ٩٨٧

٣ - كرد علي خطط الشام ج ٢ ص ١٥٨

٤ - بي براز دزدار قلعة شيزر شيخ مصطفى بن حسن « دزدار : حاكم حصن »

الفخار وأهميته الأثرية والتاريخية

رياض البدوي

مدير آثار حمص

الفخار مادة رخيصة قابلة للانكسار ؛ وحين تنكسر يستغني عنها الانسان فيرميها أرضاً ، ومن هنا نجد ضمن أنقاض وطبقات الخرائب عدداً كبيراً من القطع الفخارية ، فاذا تواجدت في موقع أثري لم تبث به الأيدي أو العوامل الطبيعية ، نستطيع عندئذ بالتنقيب الطبقي والمنهجي الدقيق ان نقدر عمر الطبقات التقريبي ؛ ونعرف على حضارة الأمة أو الشعب وعلاقاته مع جيرانه القريين والبعيدين وذلك بتتبع آثار هذا الفخار ، اذ أن لكل نوع من الفخار ولاتاج كل منطقة ميزات خاصة يصنفها العلماء بدقة ، فهم يدرسون بنية الفخار وتركيبه الكيماوي وطريقة صنعه باليد أو الدولاب أو استعمال القالب ، بالإضافة الى طريقة تزيينه بالتحم أو الحز أو القطع أو الوخز أو القولة التزيينية ، ودراسة معارف القدماء وذوقهم ودقهم بالعمل ومستوى حضارتهم وأفكارهم ومعتقداتهم وذلك بمعاينة الرسوم المتوضعة على الفخار . كما يمكن تقدير عمره التقريبي بواسطة التحليل بالكربون المشع أو الفحم ١٤ وقد أذيت هذه الطريقة لأول مرة عام ١٩٤٩ وهي طريقة مألوفة لبعض المواقع في بلادنا : جيبيل وسوية عصور ما قبل التاريخ في رأس شمرة ؛ وفي تل الرماد وتل السبد ، كما انها نجحت في تقدير أعمار الآثار المصرية خاصة ما يعود منها لما بعد ١٨٠٠ ق . م . كما توجد طرق فيزيائية لتقدير عمر الفخار (بالطرق المغناطيسية وطريقة التألق الحراري وهما طريقتان جديدتان لم تعطيا بعد نتائج أكيدة) . كثيراً ما يسأل المرء عن المادة الرئيسية المكونة للفخار . . . أو ربما يسأل أيضاً عن كيفية حصول الصانع على الفخار . . . ! ؛

يحصل الصانع على الفخار بواسطة الفسيل بالماء والترسيب مكوناً عجينة لينة تأخذ شكلاً يجففه ثم يشويه بدرجة عالية من الحرارة تصل الى الف درجة أو

أكثر ، ثم يرد بالتدريج ليصبح الاناء المصنوع صلباً ومتيناً ، إلا أنه لا يصلح إلا لحفظ الماء لأن فيه مسام . ويصنع من المادة نفسها القرميد والآجر وأتانيب المياه ومصارف المياه المالحة . . ، ويكون الفخار جيداً بقدر ما يكون صافياً وحلوياً على مواد معدنية مثل البوتاسيوم ومعدن الألمنيوم وحمض السيليس . . .
اكتشف الانسان القديم منذ العصر الحجري الحديث صناعة الفخار صدقة ، فقد كان يؤلف الاناء من الاغصان المدققة على شكل سلة ويكسوها بالفخار ليتماسك الاناء ، ولكن بعد ان تعرض الاناء إلى حرارة عالية على سبيل الصدقة ؛ تماسك الفخار وأصبح متيناً . وقد برع الانسان القديم بصناعة الفخار وتقنن به إلى درجة معجبة ، واستمرت الصناعة راقية عند الأمم حتى أتى العرب المسلمون فأخذوا يتفنون بتزيين الفخار بالحز والوخز والقطع وإضافة الحبيبات وإضافة أشكال مجسمة (الباروتين) ، والتلوين . كما احدثوا على سطح الفخار زخارف بارزة نباتية وحيوانية وكتاية وهندسية . . في غاية من الدقة والجمال . . .

ومما يجدر ذكره ان الفخار بقي حتى وجود الكتابة المصدر الوحيد لامدادنا بالمعلومات التاريخية الحضارية لكل تاريخ الشرق القديم ، ولقد كان الطين وما زال له مكانته المرموقة في حضارات ما بين النهرين بصورة خاصة وفي جميع الحضارات الأخرى بصورة عامة . وقد خلف لنا الاقدمون من آثارهم الفنية الفخارية مجموعات كبيرة في السكك تغطي على ماسواها من الآثار ، وكان لهذا الفخار فضل عظيم في تعريف الشعوب والاستدلال على نوع حضارتها ومدى رقيها .

وتعتبر الأواني الفخارية المكتشفة في حوض النيل من أقدم الفخار الموجود في العالم ويرجع إلى ١٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، كما اكتشف أيضاً فخار مصنوع باليد في أنحاء انكلترا وبلجيكا والمانيا وهي تعود إلى حوالي ١٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وتعتبر من بواكر نشوء صناعة الفخار في عصور ما قبل التاريخ . (لكن هذه التواريخ غير مؤكدة لأنها قدرت نسبة إلى طبقات الأرض التي وجدت فيها) .

كما وجدت في وادي النيل كسور القرميد والآجر ، بالإضافة إلى الأواني الفخارية المسماة « تيرا كونا » التي يحفظ فيها أدوات الميت ومؤنثته مثل قبور ممفيس التي تعود إلى ما بين ٥٠٠٠ - ٣٠٠٠ ق . م ، أما الرسوم الجدارية في قبور طيبة فتتضمن مشاهد تمثل حياة صناع الفخار وترجع إلى ما بين ٣٠٠٠ - ١٧٠٠ ق . م ،

وقد وصلت صناعة الفخار الى مصر الى الأوج في الفترة الواقعة بين ١٧٠٠ - ٥٠٠ ق.م .
وفي سورية يوجد أنواع عديدة من الفخار أقدمها يعود الى الألف السابع ق.م
وجد أكثره في منطقة الجزيرة في تل براك .

أما في موقع رأس شمرة « اوغاريت » فقد بدأ باستخدام الفخار منذ الألف
السادس ق.م ، واليه تعود أول أبجدية عرفت في العالم وهي عبارة عن رقيم فخاري
صغير (الطول ١٥ سم والعرض ٣ سم) كتب عليه ثلاثون حرفاً أبجدياً أوغاريتياً
مشتقاً من الخط المسماري .

ومدينة ماري الممورية - تل الحريري - أعطتنا أيضاً من القطع الأثرية والفخارية
المتنوعة الاشكال والحجوم مهل الجرار والصحون والطاسات والقدر والكؤوس
والمصابي والحقق الصغيرة وكلها تشير الى أن الفخار المموري قد بلغ شأنًا عظيماً في
تطوره وانتاجه من حيث الكم والكيف .

ومادنا بصدد عرض الطين قزماً علينا ذكر انتاج آخر للفن المموري هو فن
التمائم الذي يقدم لنا الشيء الكثير عن مظاهر الحياة والمعتقدات ، ومن أم المواضيع
التي طرقها هذا الفن هو الانسان (الرجل والمرأة) فقد أعطتنا حفريات ماري
بمجموعات تمثل الرجل والمرأة وهما بوضع الوقوف عارياً تماماً وإبراز الثديين وصفيفات
الشعر وزينات العنق ، وكان نموذج (الربة الام) المارية هو السائد في جميع تماالم
المرأة في الألف الرابع والثالث والثاني والأول قبل الميلاد .

كما نجد من مخلفات الفن المموري في ماري مجسم بيت صنع من الطين غير
المشوى مطلي بالكلس ، وهو نادر المثال عظيم الاهمية لأنه يكشف عن ناحية
مجهولة من فن البناء طالما اختلف العلماء حولها ، فنحن أمام مثال كامل للبيت السوري
المموري في الألف الثالث .

وبالتنقيب العلمي الذي جرى على الضفة اليسرى للفرات في تل العبد ، عثر ضمن
السوية الثانية المدد الكبير من التماثيل البشرية والحيوانية ، ويجدر بالذكر العثور على
قرن لصنع الفخار مليء بالأواني الفخارية (اصص فوق بعضها وصحون وأجزاء
آنية متنوعة ودمى .. الخ) ويمكن أن ترجع هذه اللقى الى الألف الثاني
قبل الميلاد .

واستناداً الى اللقى الفخارية المكتشفة في تل الحاج على الضفة اليمنى من الفرات

وخاصة الأواني الناقوسية والجرار المصقولة والمدهونة بالاحمر وبمقارنتها مع لقى مماثلة مكتشفة في تل حبوبة المجاور فإن أهمى طبقة أثرية في تل الحاج ترقى الى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد .

أما بلاد الرافدين فقد عثر فيها على قوايت مصنوعة من قطعة واحدة أو قطعتين تدل على مدى تقدم هذه الصناعة في تلك البلاد ، كما قام البابليون والآشوريون بصنع القرميد المطلي بالزجاج المتعدد الألوان وذلك في الفترة الواقعة بين القرنين التاسع والسادس ق.م ، ويحدثنا هيرودوت أن عاصمة ميديا في إيران كانت محاطة بسبعة أسوار من القرميد المنون ولكل سور لون خاص به .

ولا ندري ان كان الهنود قد تعلموا صناعة الفخار من بلاد الرافدين أو أنهم توصلوا اليها بأنفسهم ، وقد وجد في القبال الغربي من الهند اواني من الفخار الاحمر يدل على تقدم الحضارة الهندية في الألف الثالث ق.م وهو من النوع المصنوع باليد . وعلى الرغم من وجود الملاقات التجارية بين اليونان وسوريا وبلاد الرافدين فإن صانع الفخار اليوناني يتجه اتجاهاً خاصاً في صناعته ، حيث يعتمد على مادة النضار الصافي النظيف الفني بالسيليس ، ويتني بتكوين اناء بدقة بالغة ويزينها برسوم ملونة تعطيها قيمة فنية راقية . ويمكننا القول أن الفنان اليوناني قد وصل بين القرنين السادس والرابع ق.م الى الاوج في صنع الفخار شكلاً وحباً وجمالاً واثافة وغنى بالرسوم والألوان ، وقد اقتنت معظم المتاحف العالمية تحفاً تعود الى هذه الفترة ، وكل متحف منها يفاخر بمجموعته وينشر عنها باستمرار معلومات مهمة تضاف الى معلومات الميثولوجيا القديمة .

وفي العصر الهلنستي أخذ الفنان السوري يدع تماثيل فخارية جميلة تمثل آلهة الميثولوجيا (افروديت) و (ليدا) و (كيبيد) وربة العدالة والانتقام (نيميسيس) ، بالإضافة الى التماثيل الفخارية التي تمثل مواضيع المقتبسة من الحياة اليومية تمثل أما جالسة تحنو على رضيعها وعلى وجهها أجمل معاني المطف والحنان . او موسيقيات تعزف كل منهن على آلاتها الموسيقية (اللير) أو الفيتار أو العود أو الدف أو المزمار أو منقيات أو راقصات ... الخ وهناك تماثيل فرسان ... ويعتقد بعض مؤرخي الفن أن هذه التماثيل الفخارية كانت تمثل أو تشكل جزء من الاثاث الجنائزي وتوضع في القبور كي تؤنس الموتى ، وكان بعض هذه التماثيل يسهم في تزيين مساكن الأحياء ومعابد الالهة في ذلك العصر . كما أبدع فنان ذلك العصر تماثيل فخارية تمثل حيوانات

أليفة (كالديك والحصان والخروف والجلد .. الخ) يتميز بعضها بالدقة الفنية والاسلوب الواقعي .

أما الصناع الرومانيون ، فلم يتأثروا بالبلاد المفتوحة كمصر وبلاد الرافدين وموريا في بادئ الامر وانما فضلوا متابعة اتجاه الفن اليوناني ، فقد استمر الصانع الفنان على ابتكار الاشكال الجميلة للأواني الفخارية ذات الفوائد الاستعمالية مؤكداً صلة الجمال بالفائدة قبل ظهور مانسميه في عصرنا الحديث بـ (علم الجمال الصناعي) . أضف الى ذلك السرج الفخارية التي تزين سطوحها مواضيع ميثولوجية ومشاهد موسيقية وزخارف لها أهميتها الفنية وقيمتها الجمالية ولانستطيع أن ننكر أهمية الفخار في العهد البيزنطي على الرغم من أنه فخار رخيص من الاستعمالات اليومية لكنه يتميز بتنوع عظيم وانتاج شعبي عملي ، وكان اكثرها أهمية ، وتنوع السرج بعضها بمنع ضوئي واحد وبعضها باثنين أو ثلاثة أو أربعة أو أكثر ، وبعضها قابل للتعليق .. ويلاحظ أن الصانع الفني كان يتفنن في زخرفة هذه السرج بكتابات مقدسة أو تزيينها بمواضيع دينية أو رمز من رموز المسيحية (كالصليب) مما جعل السرج أعمالاً فنية لها أهميتها المقدسة ، وبما يميز الفن البيزنطي عن الفن الكلاسيكي بالرغم من أنه الوارث الوحيد له في جميع المجالات ، ظهور شعارات المعتقدات المسيحية على جميع المظاهر الفنية واختفاء الشعارات الوثنية وما يماثلها في جميع فواحي الحياة .

وبالرغم من التنقيبات العديدة في المواقع الاثرية التي أعطينا فخاراً كثيراً فإن الميزات ليست واضحة ، خاصة اذا كان الموقع الاثري قد سكن من قبل العرب في المهود الاسلامية ، فإن تحديد عهد الفخار يكون صعباً اذا لم يحمل شعاراً أو كتابة تفصح عن هويته .

وللدراسة الفخار في المهود الاسلامية ، يمكن أن نصفه في مراحله التطورية التالية :

١ - فجر الفخار العربي الاسلامي ويعتد من ظهور الاسلام الى أوائل القرن ٣ / هـ فمن الصعوبة تمييز الانتاج هنا في العهد العربي عنه في العهد السابق ، الا من ظهور بوادر عربية خالصة كظهور الكتابة العربية بالخط الكوفي على الفخار ، أما الزخرفة فقد غلب عليها البساطة في الشكل والتنفيذ ، فقد لجأ الفنان الى تكوين تنوء فوق العروة بشكل لطيف استخدمه لوضع علامة تشير الى صاحبه ، اما تربة هذا النوع من الفخار فكانت نظيفة وصافية لذا استطاع الفنان أن يجعل أوانيسه رقيقة مثال الاثاء الذي يحمل اسم ابراهيم النصراني رقيق جداً يبلغ سمكه أقل من ملم واحد .

٢ - ضحى الفخار العربي الاسلامي ويمتد من القرن ٣ - ٥ هـ فقد حصل تجديد وابداع ملحوظين في جميع مظاهر الفن العربي الاسلامي وذلك عندما انشئت مدينة سر من رأى = سامراء ، فقد حورت الأشكال النباتية والطبيعية وجردت من كيانها الحي ، روعي فيها التناظر والتكافؤ بين المساحات المشغولة بالزخرفة والمساحات العارية .

٣ - ظهر الفخار العربي الاسلامي ويمتد بين القرنين ٥ - ٨ هـ فمن خصائص هذه المرحلة ان الزخرفة نفذت بالقالب على الاغلب ، وتنوعت الألوان الفخارية ، وكان للعمى وظيفة عملية وأحياناً ذات صفة تزيينية .

ويمد هذا الاستعراض الشامل للفخار لا بد من القول بان الفنان والصانع ترك في مختلف المصور روائع فنية فخارية تعتبر من اجمل ما أبدعه الانسان عبر التاريخ ، لما يتميز به من جمال المعنى والمبنى والصورة والشكل والمضمون مما جعل الفنانين المعاصرين يعجبون بها ويمودون اليها ويقتبسون منها ويعتبرونها غايج جديدة بالتأمل والدراسة لأنها بمثابة مفاخر للفن ، وسبيل من سبل الكشف والاطلاع على حقيقة الجمال .

مصادر البحث :

- | | |
|---|-------------------------|
| الحوايات الأثرية العربية السورية | ١٩٦٠ و ٩٦١ و ٩٦٢ و ٩٧٤ |
| دراسات في مادة الفخار والخزف | د . محمد أبو الفرج العش |
| مكتشفات الحملة الدولية لانقاذ آثار الفرات المديرية العامة للآثار والمتاحف | |
| التقيب الأثري الحديث | الأستاذ عدنان البني |
| الفن السوري في العصر الهلنسي الروماني | الأستاذ بشير زهدي |
| الفن العموري | الأستاذ عدنان الجندي |

وهم تاريخي حول النحو والصرف

بقلم الاستاذ محي الدين الدرويش

عندما طلب إليّ الاخوه أعضاء الجمعية التاريخية الاسهام في العدد الأول من مجلتهم ، وقفت حائراً أتساءل : ماذا أحدثهم وقد جاسوا خلال التاريخ ؟ وأحاطوا علماً بخفاياه وأسراره ؟

وذكرت حديثاً شريفاً فحواه : استعينوا على الصناعات بأهلها ، فلماذا لا أجعل حديثي متصلاً بما يتعلق باللغة العربية ، فأنا قيس هذه اللغة وهي ليلاي ، وقد أنفقت في مصافحتها شيخوختي وصباي ؟ لماذا لا أزيل وهما ساور الأذهان قروناً متعاقبة ، وتناقله المؤرخون دون بحث عن صحته أو بطلانه ، يتشكل الواحد منهم على رواية الآخر ، وما أيسر هذا الاتكال الذي مثله « مولير » بالمركز الذي ينقد الرواية بقوله : هي قبيحة لأنها قبيحة وقلان الذي قدمت إلى جانبه يرى هذا الرأي وفات هؤلاء المؤرخين جميعاً أن الفرض الحقيقي من مطالعة التاريخ هو إهاجة قوانا العقلية ، وإن ندرس أفكار غيبرنا وآراءهم لانتقلها دون تمحيص فالتاريخ متحسف حافل بروائع الصثور ، ولن نستطيع فهمه بطريق التصورات المجردة . فمن الأوهام التاريخية ما يتعلق بعلم النحو والعروض ، فقد زعم المؤرخون أن واضع علم النحو هو أبو الأسود الدؤلي إما لكونه سمع ابنته يوماً تلحن فذهب إلى الامام علي بن أبي طالب فقال له : فشا اللحن في ابنتنا وأخشى أن تضيع اللحن فقال الامام : اكتب : الكلام كلّسه اسم وفعل وحرف والأسماء ثلاثة ظاهر ومضمر ومبهم والفاعل مرفوع أبداً والمفعول منصوب أبداً والمضاف إليه مجرور أبداً فافهم وقس وما عنك لك من الزيادة فاضمه . وأما لكون عمر بن الخطاب جيء إليه برجل يقرأ : « إن الله بريء من المشركين ورسوله » بالجر فسأله ، فقال : هكذا قرأت في المدينة فقال عمر : ليس هكذا ، إنما هي ورسوله بضم اللام فان الله لا يبرأ من رسوله ، ثم أمر أن لا يقرأ القرآن إلاّ عالم بالعريضة ودعا بأبي

الأسود فأمره أن يضع النحو ، ومقتضى هاتين الروايتين بتناقضها المؤرخون . إن هذا العلم لم يكن معروفاً قبل أبي الأسود وأن كلام الناس قبله إنما كان بمجرد الفطرة ، ولكن الإمام السيوطي قال في الزهر : « النحو والمروض كانا قديمين وأنت عليها الأيام قفلاً في أيدي الناس فجدهما الخليل وسيبويه » وهذه وثبة ذهن مربية لم تدعمها الدراسة الكافية ، فقد حاول السيوطي الاستدلال فأتى بأدلة لا تقوم على قدم ثابتة ولذلك اضربت عن ذكرها واجتزأت بذكر ما سنع لي في تأييد دعواه ، وإزالة هذا الوم السائد من أمور ، إن لم يفد كل منها أفاد المجموع .

أولاً — تبين الإمام علي لأبي الأسود جملاً من القواعد الاصطلاحية ظاهر الوضع بين البطلان فليس في وسع الذهن البشري أن يضع هذه القواعد فوراً ولا بد من الأناة والتأمل ويبيده أيضاً قول الإمام نفسه لأبي الأسود : وما عنك لك من الزيادة فاضمه إليه أي مما كان كهذه الضوابط فهذا صريح أو كالصريح في أن هذا كان معروفاً بينهم أو بين أفراد منهم لا مجرد صحة النطق سليقة .

ثانياً — قول عمر بن الخطاب : لا يقرأ القرآن إلا عالم باللغة العربية فإن المتبادر منه قواعدها وأصولها التي بها تعرف وجوه الكلام إذ لو كان المراد مجرد التكلمين بالصواب لزم منح كل أعجمي منه ولم يكن وجه للتخصيص بالعالم باللغة إذ القوم جميعاً أعراب معتدلو الألسنة بالسليقة وتجويره القرآن لمن كان عارفاً دون غيره صريح في أن منهم عارفين باللغة وإن منهم جاهلين بها فيلزم أن تكون معرفة العارفين قديراً زائداً على ما عند غيرهم وليس إلا القواعد والضوابط المذكورة وإلا لانسد باب قراءة القرآن وصار نسباً منسياً .

ثالثاً — أمر علي بن أبي طالب أبا الأسود بوضع النحو إذ فيه ما يدل على أن هذا العلم معلوم لدى الأمر والمأمور على السواء لاسيما وأنه أمره أمراً مطلقاً ولم يبين له ما ينسج على منواله منه .

رابعاً — أنه حيث كان علم المروض واصطلاحاته من خبن وطي وغير ذلك معلوماً لدى بعض العرب كما صرح به الوليد بن المغيرة إذ قال في القرآن لما قيل : أنه شعر : والله لقد عرضته على هزجه ورجزه فلم أره يشبه شيئاً من ذلك ، والشعر لم يكن إلا لأفراد من العرب فلأن تكون قواعد العربية إلى هي لسانهم جميعاً أولى . ونخلص من هنا إلى القول بأن اللغة العربية بنيت وتطورت بمقتضى ناموس

النشوء والارتقاء الطبيعي في بيئة غنية متنوعة بالموارد المادية والبشرية ثم تطوّرت بالاشتقاق والقلب والابدال والنحت والتعريب قبل الاسلام وبعده على مدى عشرات القرون من التاريخ المكتوب والمعروف ومن التاريخ غير المكتوب وغير المعروف وكان للمرب في ذلك الزمن السحيق دول معروفة .

وبفضي بنا الحديث إلى ذكر حقيقة لا بد منها وهي ان اللغة العربية مفضّلة على جميع اللغات السّامية لمحافظة أكثر من بقية اللغات السّامية على الخصائص السّامية الأولى وعدم تنصلها منها ، فما من قاعدة من قواعد اللغات السّامية تابعت نموّها ونضجت في تطوّرها كما نضجت في اللغة العربية بعد ذلك التقدم المتطاوّل عبر أقدم العصور ، ففي اللغات السّامية إعراب ولكنّه قاصر غير مطّرد ولا متناسق في مواضعه ولم يبلغ قط مبلغ القسّان الذي نعرف فيه حدود الاطراد وحدود الاستثناء ، وفي اللغات السّامية اشتقاق ولكن قوالب الاشتقاق فيها لم تميّز بأوزانها ومعانيها كما تميّزت مع تطور اللغة العربية ، وفي اللغات السّامية نحو وصرف ولكنها واقفان فوق المنبت جذوراً كالخشب الذي لا يقبل النمو بعدما وصل إليه ، وما من جذر من جذور نحونا وصرفنا لم يتفرّع ولم يحتفظ بقوة الحياة فيه ، ولغتنا العربية تجري دائماً على توافق تام مع روح الموضوع واندماج كامل في صميمه ، وهكذا تشكل بأشكال الأشياء وبرز مع كل حالة موقعاً بإيقاعها وحركة روحها توافقاً وانسجاماً ، كما تتناسق وتتوافق في الرّقص الايقاعي لقطات الرجل مع صفق الصفاقات أو نقرات اليد على الطّار بحساب ، ولست أدري إذا كان الشاعر ابن حمديس الصقلي لمح في راقصته خاصة اللغة العربية هذه توافق إيقاعها أم لمح في اللغة العربية خاصة رقص الراقصة في توافق لقطات رجلها ونقرات الطّار حين وصفها وصفه المشهور :

وراقصة لقطت رجلها حساب يد نقرت طارها

وليس يعقل ان يكون مرتجلاً ذلك التهذيب والتنزيه الذي تميّز به لغتنا من كل نقيصة والمعلّنى من كل خسيّة والبرأ بما يستهجن أو يستبشع فلم تجمع بين ساكنين أو متحركين متضادين ، ولم تلاق بين حرفين لا يأتلفان ولا يعذب النطق بهما أو يشنع ذلك منها جرس النغمة وحسن المسمع كالغنين مع الخفاء والقاف مع الكاف والحرف المطبق مع غير المطبق مثل تاء الافعال مع الصاد والضاد في أخوات لها والواو الساكنة مع الكسرة قبلها والياء الساكنة مع الضمة

قبلها ، ولذلك كان المؤرخ العظيم والفيلسوف الرياضي أحمد بن محمد البيروني من أهل خوارزم وهو يتحطق بحلاوة العربية يقول : « والله لأن أهيجي بالعربية أحب إليّ من أن أمدح بالفارسية » وسمعتنا الامام الزمخشري الاعجمي الذي أغرم باللغة العربية يقول في مقدمة كتابه الفصل في النحو : « الله احمد على ان جعلني من علماء العربية ، وجباني على الفضب للعرب والعصية ، وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز ، وانفوي إلى لفيف الشعوية وانحاز ، وحسبنا استشهاداً على توغلبا في القدم بحديث شريف دلل على ان العربية كانت لفظة ابراهيم خليل الرحمن ، وهذا الحديث يعطي حقائق موضوعية هامة توضح بعض ماغاب عن التاريخ في منهجه الحديث .

الخليج العربي في تاريخه القديم

الخليج الزمردى الذي يحتضن اللؤلؤ والأصداف ويعوم فوق بحر من الذهب الأسود كان وما يزال يستدر لعاب الفاتحين ويحرك شهوات الطامعين ويمثل حلاً ذهبياً بالنسبة للمستعمرين . يتمتع بموقع استراتيجي فريد ومركز اقتصادي رائع فلا عجب أن تكون شطآنه على موعد مع كل مغامر وقاتح ، وأن تبقى منطقة الخليج قلقة طيلة العصور تتطاحن على أرضه مختلف القوى دون أن يتمكن أي من الغزاة تغيير عروبة الخليج أو تبديل سمات شعبه أو إيقاف تيار عطائه .

اسم الخليج بين الفارسية والعروبة :

كان الاسم الذي عرف به الخليج قديماً هو البحر الأدنى أو البحر المر كما ورد في النقوش الأكادية ويقابله البحر الأعلى أي البحر الأبيض المتوسط (١) وما أن قام الاسكندر بفتوحاته بين ٣٣٣ - ٣٢٣ ق م وقضى على الأسرة الأخمينية وعرف الساحل الشرقي من الخليج حتى أطلق عليه اسم الخليج الفارسي (٢) ثم استمر التداول بهذا الاسم ولم يسلم من الوقوع في خطأ هذه التسمية ~~كثير~~ من المؤرخين العرب والأجانب . لأن الساحل الغربي باجماع المؤرخين كان مجهولاً بالنسبة للاسكندر . ليس غريباً أن يقع الاسكندر في خطأ تسمية الخليج باسم الخليج الفارسي لأنه لم يكن يعرف سوى الشاطئ الشرقي من الخليج لكن الخطر يكمن في استمرار المؤرخين المغرضين وإصرارهم على تسميته باسم الخليج الفارسي ، لكن عودة إلى ما كتبه العديد من المؤرخين والمستشرقين توضح لنا أن نسبة الخليج لفارس تزوير

١ - العرب والملاحة في المحيط الهندي تأليف جورج فاضل حوراني ترجمة الدكتور يعقوب بكر صفحة ٣٠٩ .

٢ - الخليج العربي تأليف قدري قلمجي والكفاح العربي في عربستان تأليف خليل التميمي .

مؤكد أوجبه الأساليب الاستعمارية ولم تحف حقيقة عروبة الخليج على كثير من الباحثين الذين أعطوا للخليج اسمه الحقيقي (الخليج العربي) . فمنذ القرن الأول الميلادي أطلق المؤرخ الروماني (بلييني ٦٢ - ١١٣ م) على الخليج اسمه العربي أثناء تحديده ووصفه لمدينة خارا كس التي يرجح الباحثون أنها مدينة الحمرة وفيما يلي ما قاله بلييني : « خارا كس مدينة تقع في الطرف الأقصى من الخليج العربي حيث يبدأ الجزء الأشد بروزاً من العربية السعيدة وهي مبنية على مرتفع اصطناعي ونهر دجلة إلى يمينها . . . » (١)

ويقول المؤرخ الانكليزي المعاصر رودريك اوين في كتاب نشره عن الخليج العربي عام ١٩٥٧ مايلي : « ان التسمية الفارسية للخليج العربي ، بالنسبة للعرب ، لا وجود لها لقد كانت هذه المساحات في الرمال والمياه دائماً جزءاً لا يتجزء من الخليج العربي . . . » (٢) ويقول أيضاً : « إن هذه المساحات الشاسعة من الرمال وتلك المياه الضحلة الزرقاء الترابية الأطراف وكل ما فوقها وما تحتها كانت وستظل أجزاء من الخليج العربي . . . » كما يقول : « بما أن كتابي هذا تقرير عن رحلة شلكت فيها بعد الجهد الأولي مسلماً فيه أقل ما يمكن من المقاومة وتعمدت أن أحرم فيها نفسي من القصد وأردت أن أجرد ذاتي من الارادة وأسلمت النتيجة إلى يد الله فليسوف أشير إلى هذا الخليج اللاهب الرطب من العالم كخليج فارسي ما قبل وصولي وكخليج عربي ما بعد ذلك لأن هذا ما يفرضه التأديب . » (٣) فلاحظ من خلال دراساتنا لأقوال اوين أن رحلته إلى الخليج كانت لمعرفة حقيقة الخليج وتسميته وأنه جاء إلى المنطقة وهو يحمل في ذهنه صورة بان الخليج فارسي فاذا الحقيقة غير ذلك خليج عربي وليس خليجاً فارسياً .

ومن المعروف أن الشطر الغربي من الخليج لم يكن يعرف غير العرب سكاناً تربطهم باخوانهم عرب شبه الجزيرة العربية أواصر القرى ووحدة اللغة والحضارة والتاريخ . لقد كان يطلق على الشطر الغربي اسم البحرين أو شط عبد القيس بدءاً

١ - الخليج العربي صفحة ٩ تأليف قدري قلمجي نقلاً عن كتاب الخليج الفارسي تأليف أرنولد ويلسون .

٢ - الكفاح العربي في عربستان ، خليل النعيمي صفحة ١٠ .

٣ - الخليج العربي صفحة ١٤ .

من رأي الخليج حتى عمان ويشمل الساحل والجزر الواقعة في الخليج (١)
ويتمى سكانه إلى قبائل ربيعة ومضر منها عبد القيس وبكر بن وائل وعجل
وضبيعه وعتره . . (٢)

أما الشطر الشرقي من الخليج فهو فارسي بحكم السياسة وحدهما بينما يؤكد
الواقع التاريخي والبشري والجغرافي عروبة أيضاً وقد اتبته كارستن ينبور الذي قام
برحلات في الجزيرة العربية عام ١٧٦٢ وعبر عن هذه الحقيقة فقال : « لكنتي
لا أستطيع أن أمرّ بمائل بالمستعمرات الأكثر أهمية والتي رغم كونها منشأة
خارج حدود الجزيرة العربية ، هي أقرب إليها . أعني العرب القاطنين على الساحل
الجنوبي من بلاد فارس المتحالفين على الغالب مع الشيوخ المجاورين أو الخاضعين لهم . . . »
وقال أيضاً : « ومن المضحك أن يصوّر جغرافيو جزءاً من بلاد العرب كأنه خاضع
لحكم ملوك الفرس في حين أن هؤلاء الملوك لم يتمكنوا قط أن يكونوا أسياد
ساحل البحر في بلادهم الخاصة . لكنهم تحملوا صابرين على مضض أن يبقى هذا
الساحل ملكاً للعرب . . » ثم أوضح أكثر فقال : « لقد أخطأ جغرافيون حين
صوّرنا لنا جزءاً من الجزيرة العربية خاضعاً لحكم الفرس لأن العرب هم الذين
يملكون جميع السواحل البحرية للإمبراطورية الفارسية من مصب الفرات إلى مصب
الآندوس على وجه التقريب . . . صحيح أن المستعمرات الواقعة على السواحل
الفارسية لا تخص الجزيرة العربية ذاتها ولكن بالنظر إلى أنها مستقلة عن بلاد الفرس
ولأن لأهلها لسان العرب وعاداتهم . . » (٣)

هذه بعض من الأدلة الدامنة والحقائق الثابتة تؤكد عروبة الخليج اسماً وحقيقة
وتضع مكانه العرب وموطنهم في المكان الذي يستحقون من أمهم العربية كما تثبت
زيف الأساليب الاستعمارية وحملات ادعائها المفرضة ، ويتضح لنا من الأدلة التاريخية
العربية والأجنبية أن نسبة الخليج لفارس تزوير مؤكد أوجبه الأساليب الاستعمارية .

لمحة عن جغرافية الخليج :

يؤلف الخليج العربي النزاع الأيمن من بحر العرب أو أحد خليجي المحيط

- ١ — معجم البلدان تأليف ياقوت الحموي صفحة ٤٤٩ .
- ٢ — العرب قبل الإسلام جرجي زيدان صفحة ١٨٣ .
- ٣ — الخليج العربي قدري قلعجي .

الهندي (البحر الأحمر والخليج العربي) وقد نشأ نتيجة عوامل متعددة منها
الالتواءات والهزات الأرضية العنيفة التي حدثت في الطور الثالث من العصر اليوسيني
ونَهضت بسببها سلاسل طوروس وزاغروس وهيميليا كما نهدت هضبة إيران وتكوّن
غور فسيح في منطقة الخليج أثرت فيه عوامل مختلفة - أهمها نهر دجلة والفرات
الذان كانا وما يزالان يرسمان شطآنه ويبدلان أشكاله نتيجة عوامل الجرف والطمي .
تبلغ مساحة الخليج مئتين وخمسين ألفاً من الكيلو مترات المربعة وهو ضحل المياه
لا يتجاوز عمقه مئة متر أما طوله فيبلغ في خط مستقيم بين مصب شط العرب
وساحل عمان ثمانمائة كيلو متر ويتراوح عرضه بين ثمانية وعشرين ومئتي كيلو متر
إلى الشرق من شبه جزيرة قطر وبين ستة وأربعين كيلو متراً في مضيق هرمز ويمكن
تقسيم الخليج جغرافياً إلى ثلاث مناطق :

آ - المنطقة الشرقية : تتكوّن من سهل ساحلي ضيق تكثر فيه الجوانات
(المتقعات الساحلية) وتليه إلى الشرق سلاسل جبلية تأخذ في الارتفاع كلما
امتدت نحو الشمال لتؤلف الحدود الطبيعية الشرقية من الوطن العربي وما بين هذا
الساحل وتلك السلاسل الجبلية يمتد إقليم عربستان الذي قوطاً الاستعمار البريطاني
والإيراني لسلخه عن الوطن الأم في أعقاب الحرب العالمية الأولى . لقد كانت الأطماع
الاستعمارية في هذا القطر العربي الذي يرقد فوق أحواض غزيرة من النفط وتتوفر
على سطحه التربة اللحية الخصبة وخواف بريطانيا من ترشيح الشيخ خزعل نفسه
لعرش العراق مشروطاً لزوم قيام وحدة بين الاقليمين (العراق وعربستان) فراحت
بريطانيا تسمى إلى اقناعه بسحب ترشيحه حتى تمّ لها ما أرادت وأخذت توغر
صدر إيران وتشجيعها على احتلال الاقليم وتساعدتها عن طريق القدر والخديعة بعد
الفشل العسكري .

أما سواحل هذه المنطقة فهي قليلة التعاريج أنشأ عليها الإيرانيون بعض
الموانئ مثل بندر عباس وبندر كنجه وبندر شهر .

ب - المنطقة الغربية : وهي إمتداد طبيعي لشبه الجزيرة العربية شرقاً ، ساحلها
كثير التعاريج متعدد الخلجان والرؤوس تقابله مجموعات من الجزر يساعد وجودها
على هدوء حركة الماء في الخليج واستخدامها كمراكز لصيادي السمك وموانئ
لاستقبال السفن كما تنطوي سواحلها على مصايد اللؤلؤ والاسماك وإلى الغرب منها
تمتد سهول الأحساء بطول أربع مائة كيلو متر وعرض ستين كيلو متراً ، وتليها غرباً سلاسل قليلة الارتفاع

لجبال شمر والجبل الأخضر الذي يتميز بروعة مناظره .

ج - المنطقة الشامية : وتشمل سهوب جنوب بلاد الرافدين وغرب عربستان وهي سهوب رسوبية حديثة غنيّة بالثروة المائية ، تتكوّنت من رسوبات النهرين التوأمين (دجلة والفرات) ، اللذين أرغما الخليج على التراجع نحو الجنوب وقيام سهوب خصبة كانت من أهم عوامل إزدهار الحضارة في التاريخ القديم .

إن موقع الخليج وتداخله بين بلاد الشرق القديم قصر الطريق البري عبر وادي الفرات وبادية الشام وجعله الطريق التجاري الشمالي واستمر يلعب دوراً بارزاً في نقل التجارة وتحقيق الاتصالات البشرية بين عالمي المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط منذ أقدم العصور . ولم يفقد هذا الخليج جزءاً من أهميته إلا بعد شق قناة السويس ، لكن اكتشاف منابع النفط في منطقة الخليج واستخدام وسائل النقل الحديثة أعادت للخليج العربي أهميته الاستراتيجية ودوره الانساني .

الخليج ملتقى تيارات الصراع في العالم القديم :

تاريخ الخليج حافل بالأحداث الحربية منها والحضارية ، تصارعت من أجل موقعه وثرواته مختلف القوى في العالم القديم ودرج على شطآنه رواد الحضارة الأوائل من سومريين وعيلاميين وبابليين وآشوريين وكلدانيين وعرب (١) . وإذا استثنينا السومريين والعيلاميين نجد أن الشعوب التي شع فور حضارتها إلى أنحاء العالم القديم هي شعوب عريضة ترجع بنسبها وأصولها إلى عرب شبه الجزيرة العربية الذين دفعهم ظروف الحياة وقسوة الطبيعة وتبدل المناخ للهجرة نحو مواطن الماء والغصب في بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام ووادي النيل حيث أسسوا دولاً قوية وحضارات رائعة وتطلعت نحو التوسع والفتوحات .

لقد ورد في أخبار سرجون الأكادي أن فتوحاته بلغت البحر الجنوبي أو الأسفل أي الخليج العربي وأنه استولى على أجزاء منه . كما ورد في كتابة على تمثال من الميوريت لنارام سين تنص : أنه أخضع بلاد ماغان (عمان) وغلب سيدها مانيوم وبذل عشور المنقيين على أختام ومواد أخرى من عمل الهند في أور وكيش والبحرين ومواضع أخرى من الساحل العربي الشرقي . على أن الاتصال التجاري البحري كان

معروفاً في الألف الثالثة قبل الميلاد، وأن حركة الاتصال هذه كانت مستمرة عامرة وأن بعض مواضع الخليج مثلاً البحرين كانت من مراسي السفن الشهيرة في تلك الأيام، تقصدها السفن القادمة من العراق في طريقها إلى الهند والسفن القادمة من الهند في طريقها إلى العراق. وتشير النقوش السومرية والآكادية التي ترجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد إلى صلات بحرية واسعة بين أرض الجزيرة وبلاد دلمون (البحرين) والعراق وماعان (عمان) وميلوخا التي تقع جنوب الاحساء في عمان (١) ويظهر من النصوص أن (دلمون) كانت جزيرة تتمتع بقدسية خاصة، وقد رويت عنها أساطير دينية وعبدت فيها آلهة تعبد لها أهل العراق مما يدل على الاتصال الثقافي المتين الذي كان بين العراق والبحرين، وتشير أسطورة (أنكي) وزوجه (منخرساك) وملحمة (جلجامش) وأسطورة أرض الحياة وغير ذلك من القصص الشعبي إلى هذا الاتصال الطبيعي بين جنوب العراق والعروض.

يرى بعض المؤرخين أن سكان الخليج هم أول من رفعوا شراعاً في البحار ومارسوا الملاحة وأتقنوا علمها فكانوا الصلة العاملة بين الشرق والغرب ويرى آخرون أن الفينيقيين هم من هذه الديار العربية (٢) أي من سكان البحرين بينما يقول فضيل عبيد في كتابه (عمان والخليج العربي) : (إن الفينيقيين كان موطنهم عمان، وميناء تجارتهم مع أفريقيا والشرق الأقصى هو ميناء صور الواقع إلى الشمال من رأس الحد). ليس المهم أن نتعمق في البحث عن الوطن الأصلي لهؤلاء الملاحين الفينيقيين العظام لكن الأهم من ذلك هو أن نعرف الدور الحضاري العظيم الذي قام به سادة الملاحة البحرية وأساتذة العالم القديم وما قدّموه للعالم المعروف آنذاك من خدمات اقتصادية وفكرية.

أما البابليون فقد أتقنوا فنّ الملاحة كأقربائهم الفينيقيين واتصلوا بالهندوسيلان والجنوب العربي والحشة يصدّرون إليها مصنوعاتهم اليدوية المتقنة، وكان الخليج العربي يحظى برعاية ملكية بابلية (أرنولد وياسون) ويقول الكاتب اليوناني ايشنوس: «إن بابل التي ترقد على كنوز من الذهب كانت تبعث بعثاتها على متون السفن». ثم أصبحت أرض جزيرة العرب مسرحاً لملوك آشور فقد جاء في نص آشوري أن الملك سنحاريب أرسل حملة إلى الخليج فانتصرب وحقت رغباته، وقد فرّ ملك

١ - تاريخ العرب قبل الاسلام جواد علي ج ١ صفحة ٥٥٤ - ٥٦٠

٢ - ملوك العرب الجزء الثاني صفحة ٢٢١ تأليف أمين الريحاني.

إلى الخضوع لآشور . ويظهر أن سنحاريب كان قد تمكن فعلاً من إخضاع الأعراب له ومن السيطرة عليهم . ويرى بعض الباحثين في نبت (هيرودوت) له بأنه ملك العرب والآشوريين تعبيراً عن إخضاع الأعراب للحكم الآشوري وإن كان ذلك قد وقع لأمد محدود (١) . وقد افتخر آشور باني يمل بأنه ملك من البحر الأعلى حتى جزيرة دلون من البحر الأسفل (٢) أما عن علاقة البابليين بالخليج فالمعروف أن البابليين كانوا قد ضموا جزيرة (دلون) أي البحرين إلى أملاكهم وعينوا عليها حاكماً بابلياً وذلك بعد سنة ٦٠٠ ق . م بقليل . (٣)

الصلة بين العرب والفرس :

إن مغارفنا بصلات العرب بالأخمينيين والبارثيين قليلة جداً فلقد ذكر كزينوفون العرب في جملة أتباع الملك كورش ٥٥٧ - ٥٢٩ ق . م وأنه عين والياً عنه على (العربية) ويظهر أن المراد بها (الجزيرة) أو جزء منها وذكر هيرودوت أن جميع سكان آسية الذين أذلهم كورش ثم قاميز بعده قد اعترفوا بسلطانه إلا العرب ، فهؤلاء لم يخضعوا كالرقيق البتة لسلطان الفرس وإنما كانوا قد تحالفوا معهم وساعدوهم في الوصول إلى مصر ، ولو كانت علاقاتهم غير ودية معهم لما تمكن الأخمينيون من غزو مصر . واهتم دارا بأمر التجارة البحرية فأمر سكايلاكس اليوناني بالذهاب إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي لكشف تلك المناطق وتكوين صلات تجارية معها فوصل هذا المكتشف اليوناني - على رواية هيرودوت - إلى الهند وقد أثرت هذه الخطوة تأثيراً خطيراً على التجارة العربية في البحار إذ فتحت البحر الأحمر والبحر العربي والمحيط الهندي لمنافسين أقوياء صار بإمكانهم شراء تجارة أفريقية والهند وسواحل جزيرة العرب بأسعار رخيصة لبيعها في الأماكن التي تريدها والتي كانت تشتريها بأثمان غالية وبذلك أخذت من التجار العرب جزءاً كبيراً من أرباحهم وألحقت بتجارهم مع البحر المتوسط ضرراً لا يستهان به (٤) .

١ - تاريخ العرب قبل الإسلام ج ١ صفحة ٥٩١

٢ - جواد علي ج ١ صفحة ٦٠٥

٣ - نفس المرجع صفحة ٦٢٠

٤ - جواد علي ج (١) صفحة ٦٢٤ - ٦٢٥

الخليج العربي في العصر اليوناني :

منذ بداية الثلث الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد بدأ عصر جديد من عصور التنافس والصراع في منطقة الخليج العربي ، فقد دأبت الآمال بخيلة الاسكندر الماكدوني لاكتشاف أرض العرب ومصب نهر الهندوس ومنابع شروق الشمس كي يؤسس امبراطورية عالمية يتحقق فيها الاخاء وتزول منها عوامل الخصومة والحروب وتمتزج فيها حضارة الشرق بحضارة الغرب ، ولتحقيق هذه انطموحات قام بسلسلة من الحروب والفتوحات اجتاحت خلالها بلاد الشرق القديم ونقذ أمنية أييه في الانتقام من الفرس الاخمينيين الذين عزوا بلاد اليونان .

لقد أسند الاسكندر مهمة بناء أسطول كبير إلى أحد كبار مهندسيه (كراشير) وسير حملات متواصلة إلى الهند لجلب الأخشاب من غاباتها وبناء الاسطول الذي أسند قيادته إلى صديقه نياركوس واختار له البحارة من الفينيقيين والمصريين والقبارصة واليونان ثم سيره للكشف في الحوض الأخضر (الخليج) ، وتتابعت تلك الحملات للكشف والتوسع على أيدي قواد تابعين للاسكندر أمثال نياركوس وأركياس وهيرودس سولي ولقد منيت الحملتان الأولى والثانية بالفشل ، وتورد الجند أثناء الرحلة في جزيرة دلون فأمر الاسكندر بصلب ربانة السفن وسير حملتين ثالثة ورابعة نجحت في الوصول إلى باب المندب .

كان اهتمام الاسكندر ببناء السفن وتحسين الملاحة في نهر انقراوات والنهوض ببناء بابل يضاهي اهتمامه باكتشاف مصب نهر الهندوس وبالتالي منابع شروق الشمس (١) وشجع الاسكندر على بناء المدن التي سميت (الاسكندريات) نسبة اليه وشجع اليونانيين على السكنى في تلك المدن وعلى التمازج بين الشرق والغرب كي يحقق الهدف الذي كان يصبو اليه فكان من نتيجة ذلك أن المنطقة عاشت في خير وبجوحسة ونشطت الملاقات التجارية بين الشرق والغرب عبر الخليج على أيدي الملاحين الفينيقيين وعرب جزر الخليج وشطآنه .

إن الفتح الماكدوني للمنطقة الشرقية من بلاد العرب لم يؤثر على البنية الاجتماعية لسكانها واستمرت العروبة سمة مميزة للعرب الفاطنين هناك . ثم كان موت الاسكندر في بابل بحملى الملاريا في الثالث عشر من حزيران عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة قبل

الميلاد نهاية المطاف بالنسبة لتيار الكشف والفتوحات .
انتقلت السيادة على القسم الشرقي من الامبراطورية الى السلوقيين الذين شغلوا
عنها بالانزعاع مع البطالة على جنوب بلاد الشام فتحررت السند وقامت الاسرة البارثية
في فارس وانتزعت العراق من السلوقيين عام ١٣٨ ق م .

الصراع بين العرب والفرس الساسانيين :

ثار الساسانيون على البارثيين وانتزعوا الحكم من أيديهم عام ٢٢٤ ميلادية ومدد
الساسانيون نفوذهم إلى العراق وساحل غربي الخليج ودارت رحى الحروب بين فارس
وبيزنطة وكان اللخميون في الحيرة حلفاء للساسانيين والساسنة في بصرى حلفاء
لليزنطيين أما عرب شبه الجزيرة فقد كانوا يقلقون راحة الامبراطوريتين الكبيرتين
بغارات خاطفة مستمرة . وظل الصراع بين خليجي المحيط الهندي (البحر الأحمر
والخليج العربي) قائماً حتى تفوق الخليج العربي أثناء حكم الاكاسرة الأقوياء الذين
الذين أسسوا موانئ على الخليج وسعوا لاقتناء المراكب وإنشاء الأسطول وقاموا
بأعمال الملاحة عبر الخليج التي نازها تنمو وتزدهر إبان حكم الاكاسرة الأقوياء ثم
تؤول إلى الضعف إذا ما إعتلى العرش أكاسرة ضعفاء لا يحفلون إلا بأشخاصهم ولا
يعيرون المصلحة العامة اهتماماً ، وكثيراً ما كان العرب يشنون الغارات على ثغور الفرس
ومراكبهم التجارية ويخضدون شوكة الامبراطورية العظيمة (١) . وكانت مدينة الأبله
أهم موانئ أعالي الخليج في أيام فتح المسلمين للعراق وكانت حينئذ مسالمة من قبل
كسرى وكان تجارها يربحون ربحاً عظيماً (٢) .

وهكذا كان الخليج شرياناً حياً وميداناً لتبادل المنافع ومسرحاً لغارات الجيوش
والقراصنة دون أن يتمكن كل ذلك من تغيير مجرى تيار العروبة في الخليج . فقد
صنع الجاهليون سفنهم وقواربهم بأيديهم مستعينين بالخشب المستورد وبالخشب المحلي .
صنعوها في مواضع متعددة من سواحل جزيرة العرب ولا سيما على سواحل
الخليج حيث تيسر لسكانها استيراد الخشب الصالح لبناء السفن من الهند .

معارك عريية خالدة على شطآن الخليج :

إذا كان الفرس قد نجحوا في فرض نفوذهم على العراق والخليج واليمن إلى
حين فإن الأيام بالنسبة لهم لم تكن سهلة ميسورة فلقد دفعوا الثمن غالياً للوصول
إلى أحلام الفرس وأطماعهم في أرض العرب دون جدوى وظل العرب أسياد أنفسهم

١ - الخليج العربي : قنري قلمجي .

٢ - تاريخ العرب قبل الاسلام : جواد علي ج ٧ صفحة ٢٥٧ .

وأرضهم ، حسبنا في ذلك ما تركه التاريخ الأدبي من مناظرة النعمان بن المنذر لكسرى أو شروان الذي أراد أن يتقص من العرب ، وكيف رد عليه (عامله) الرد الشافي بوصف قومه : « لم يطمع فيهم طامع ولم ينلهم نائل حصونهم ظهور خيلهم ومهادهم الأرض وسقوفهم السماء وجنتهم السيوف وعدتهم الصبر » . (١)

كان الخليج منطقة ساخنة وشهد خلال تاريخه القديم مزيداً من الغزوات والمعارك منها غزوة بني عبد القيس من البحرين على بلاد فارس أيام سابور الثاني (ذي الأكتاف) ٣١٠ — ٣٧٩ ميلادية فغلبوا أهلها على مواشيهم ومعاشهم وغلبت قبيلة إباد على سواد العراق ثم مكث العرب حيناً لا ينفذوهم أحد حتى كبر سابور فعبر الخليج إلى البحرين واليامة والقطيف وشرع يقتل ولا يقبل فداءً ، وسفك دماء لا حصر لها من نعيم وبكر وعبد القيس انتقاماً لغزو العرب الذي استهدف الثغور الفارسية (٢) .

لكن معارك ثلاثاً دارت رحاها على أرض الخليج فكانت أياماً عربية خالدة ذاق الفرس فيها ألوان الذل والهوان .

آ — معركة قلعات حوالي ٥٣٦ ميلادية : كان الفرس قد احتلوا قلعات (مرفأ في عمان شمال رأس الحد) وفرضوا سيطرتهم على عمان فخرج مالك بن فهم من السراة يريد عمان وانضمت إليه قبائل العرب من معد وغيرهم ، ودارت المعركة بين العرب والفرس فكانت نصراً للعرب ، وتجددت الحرب بعد عام فانتصر العرب أيضاً وطرد الفرس وتمّ نقل الهاربين منهم على سفن العرب إلى الشواطئ المقابلة في إيران تسبيلاً لهم على النزوح والهرب . (٣)

ب — يوم الصفقة : هو اليوم الخالد الثاني من أيام العرب على الفرس في عهد كسرى أو شروان (٥٣١ — ٥٧٩ م) يعود سببه إلى هجوم بني تميم على قافلة فارسية تحمل عدة القتال إلى عمال كسرى في اليمن في وادي نيطاع باليامة حيث استولوا عليها وقتلوا أساورتها (قوادها) وأسروا دليلها (هودة بن علي الحنفي) الذي أخلى سبيله مقابل فدية ، فانطلق إلى كسرى وقص عليه أمر بني تميم فاغتاظ

١ — الخليج العربي : قدري قلمجي صفحة ٩١

٢ — العرب قبل الاسلام : جرجي زيدان

٣ — عمان قديماً وحديثاً تأليف محمد علي الزرقاء صفحة ٥٩ — ٦٠

كسرى وأكرم هوزة بكأس من الذهب وثوب مذهب من ديساج وعقد من در^١ وقلنسوة ثمينة ثم قال : يا هوزة رأيت هؤلاء الذين قتلوا أساورتي وأخذوا مالي ؟ أينك وبينهم صلح ؟ قال هوزة : « أيها الملك بيني وبينهم حساء الموت وهم قتلوا أبي » .

قال كسرى : « قد أدركت ثأرك ؛ فكيف لي بهم ؟ » قال هوزة : « اجلس عنهم الميرة سنة ثم ارسل معي جنداً من أساورتك فأقيم لهم السوق فانهم يأتونها فتصيبهم عند ذلك خيلك . » وفعل كسرى ذلك وكانت سنة مجدية حتى أحس بضائقة العرب فأرسل إلى هوزة قائلاً : « إيت هؤلاء فاشفني منهم واشتف . » وأرسل معه ألفاً من الأساورة بقيادة شخص يدعى آذاد فردزين حبشني^(١) حتى وصل حصن المشقر من أرض البحرين ونودي الناس بأن كسرى قد بلغه الذي أصابكم في هذه السنة وقد أمر لكم بيرة . فقدم الناس وفيهم بنو سعد وهم بطن من تميم أخذوا يدخلونهم إلى الحصن واحداً واحداً بعد أن أخذ سلاحهم وفي داخل الحصن كان المكبر يأمر بضرب أعناقهم فنظر عبيد بن وهب التميمي إلى قومسه يدخلون ولا يخرجون فقال : ويلكم أين عقولكم ؟ فوالله ما بعد السلب إلا القتل . وانتفض حسامه وضرب سلسلة كانت على باب المشقر فقطعها وانفتح الباب واكتشفت الجريمة ، فاقترحموا الحصن واختلطت دماء الفرس بالنجيم العربي وخرج عبيد مفتخراً يقول (٢) :

تذكرت هنداً لات حين تذكر	تذكرتها ودونها سير أشهر
حجازية علوية حلأ أهلها	مصاب الخريف بين زور ومنور
ألا هل أتى قومي على النأي أتى	حميت ذماري يوم باب المشقر
ضربت رتاج الباب بالسيف ضربة	تفرج منها كل باب مضبر

ج - يوم ذي قار : صفحة ناصعة من صفحات تاريخ العرب القومي والعسكري هو عدة أيام بين العرب الفرس حدثت عند ماء لبكر بن وائل قرب الكوفة اختلف المؤرخون في تحديد العام الذي حدث فيه هذا اليوم منهم من جعله

١ - سماه العرب المكبر لأنه كان يقطع الأيدي والأرجل .
 ٢ - أيام العرب في الجاهلية تأليف محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البخاري
 ومحمد أبو الفضل إبراهيم .

جعله قبل الهجرة والمهم في الامر انه حدث في مطلع القرن السابع الميلادي
عند بزوغ فجر الاسلام إذ كان النبي ﷺ قد بعث ووصله نبأ نصر العرب في
ذي قار فقال : « هذا أول يوم انتصف فيه الرب من العجم وي نصروا » .

ترجع أسباب القتال في هذا اليوم إلى مقتل النعمان بن المنذر في المدائن ورفض
هانيء بن قبيصة بن هانيء بن مسعود أحد بني ربيعة بن ذهل بن شيان تسليم
ما أودعه النعمان عنده قبل ذهابه لمقابلة كسرى إلى إياس بن قبيصة الطائي عامل كسرى
على الحيرة فالتفت جموع العرب حول بني شيان وساهمت النساء العربيات بدورهن
المشرف في القتال وأخذن يرددن :

إن تهزموا نصاتق ونقشرش النمارق
أو تهزموا تفارق فراق غير وامق . .

وثبت العرب في القتال وصمدوا صموداً عجيباً وألحقوا بالفرس هزيمة كانت بداية
النهاية لامبراطورية الفرس . وأثبت العرب أنهم أمة واحدة تلتقي عند الخطر وتزول
الأرض تحت أقدام الغزاة . .

للبحث صلة

من مآثر العرب الحضارية :

صناعة الورق ونشره في العالم

١ — اشتهر العرب بالحفظ والرواية والحكم منذ القدم وكان لهم حضارة متواضعة تلي حاجات مجتمعهم البدوي والحضري البسيط ، وليس سوق عكاظ إلاّ صدى لما طبع عليه العرب من شغف بالأدب والمشاعر الانسانية والفخر .

ولما ظهوروا على مسرح الحضارة العالمية بعد ظهور الاسلام تفتت طاقاتهم الكامنة وأبدعوا أيعا إبداع في مختلف صنوف أبواب الحضارة ماشادته لهم قريحتهم الخصبه . . . واعترف بفضلهم أساطين المؤرخين ، وفيما امتدت إمبراطوريتهم من جنوب باريس في فرنسا إلى كاشغر في الصين هضموا وتمثلوا كافة الحضارات التي وجدوها في البلدان المفتوحة كالحضارة السريانية والهندية والفارسية واليونانية . . . وأجادوا في الطب والفلك والهندسة والفلسفة والزراعة وطوروا بعض الصناعات كالبارود والزجاج وصناعة الأسلحة والقماش والفخار . . .

وستشرع الآن بدراسة ما أسداه العرب المسلمون إلى الانسانية من الفضل في تطوير الصناعة الورقية الهامة التي من الصعب أن يتخيل أحدنا تقدم المعرفة الانسانية بدونها ، ولكن لابد من اعطاء القارئ لمحة قصيرة عن المواد التي كانت تستعمل لتسجيل المعارف البشرية منذ تعرف الانسان على طريقة الكتابة بواسطة النقش بالزئيل والمطرقة على الحجارة وتخلصه من هذه الطريقة الشاقة والمضنية . . . بمواد الكتابة تكاد تنحصر فيما يلي :

- ١ — ورق البردي .
- ٢ — الرقم الفخارية .
- ٣ — الرقوق (الجلود) .
- ٤ — الألواح الخشبية . . .

وستناول شيء من الشرح كلاً من هذه المواد :

١ - ورق البردي في مصر :

في عصور ما قبل التاريخ كان الفيضان يأتي إلى مصر كل صيف ، فيشكل البرك والمستنقعات بعد ارتداد المياه إلى مجراها الأصلي في النيل ، وتنمو ضمن هذه البرك أدغال " وحشائش ونبات البردي ، وقد استفاد المصريون من نبات البردي ، ذي الساق المثثة والتي تحتوي على عصارة لزجة ، وطول هذه النبتة يتراوح بين المترين والثلاثة أمتار ، وقطرها حوالي أربعة سنتيمترات ؛ وبعد قلع النبات ونقله إلى المخازن ، ينزع الغلاف الخارجي (القشر) ويقطع الجسم إلى شرائح رقيقة وتوضع هذه الشرائح بجانب بعضها ثم توضع طبقة متعامدة فوق الطبقة الأولى حسب الطلب ، وتضغط الطبقتان معاً وتندق بمطارق من الخشب على سطح مستو ، وهنا تلعب العصارة اللزجة دورها في التثبيت واللصق ، بعد إضافة قليل من الماء . . . وتصبح بعد ذلك صالحة للاستعمال .
وكان الكاتب المصري يستعمل نوعين من الحبر : الأسود والأحمر وتكون الكتابة على شكل أعمدة أفقية أو رأسية بواسطة فرشاة يغمسها في المداد ويخط ما يكلف به من الأعمال . . .

٢ - الفخار :

لم يستعمل سكان الرافدين الرق أو ورق البردي ، ربما لأنهم اعتقدوا أن الفخار — [وهم على صواب في ذلك] — أكثر مقاومة لعوامل الفناء وأطول بقاء من النوعين السابقين رغم أن الصلوات كانت وطيدة بين القطرين : مصر والعراق منذ القدم . وكانت كتابة الصومريين تعرف بالخط المساري الذي سمي كذلك لأنها على شكل المسامير أو الأسافين .

وكان السكاتب يرسم علاماته فوق سطح اللوحة الطينية وهي طرية بواسطة قلم مثلث الشكل يمسك به مائلاً ، وعند الانتهاء يقوم بتجفيفه أو حرقه ، وبذلك يسهل حفظه ، وكذلك كتب البابليون ١٩٠٠ — ١٦٠٠ ق . م وثائقهم بهذا الخط ، وكانت تحفظ هذه الوثائق ضمن حرارة كبيرة فوق أرفق تلحق بالعابد والقصور . . .

٣ - صناعة الرق :

نشأت هذه الصناعة بصورة أصولية ومتقطعة في مدينة برغاموم في آسية الصغرى عام ٢٦٢ ق . م على أثر انفصالها عن الدولة السلوقية ، وحدثت منافسة حضارية بين

الاسكندرية وبرغاموم بوصف الأولى المركز الأول للحضارة ، ولايرغام برغام على الاعتراف بزعامتها ، منعت الاسكندرية تصدير ورق البردي إليها ، فرد عاقلها أمتيز الثاني (٢٠٤ - ١٨١ ق . م) على هذه المضاربة بتشجيع صناعة جلود الضأن والماعز والمجول . . لتكون مادة الكتابة بدل البردي . ومع أن الرق كان يستعمل منذ القديم في الكتابة إلا أنه لم يأخذ شكل الصناعة المنظمة إلا زمن هذا الماهل البرغامي . ويستود الاعتقاد أن الاسم الأوربي للرق وهو البرشمان . . . (parchment) مشتق من اسم مدينة برغاموم . وكانت أفضل أنواع الرق هي جلود المجول . . ومعالجة الجلود تكون على النحو التالي : ينقل الجلد ويدفن لمدة أيام ضمن الأحجار الكلسية للتخلص من شحمه وقذارته ثم يضط على إطار ويترك ليحلف وتحلف شعراته بواسطة السكين . وينقل الجلد للحصول على سطح أملس للكتابة . . .

٤ - أما الألواح الخشبية الرومانية فكانت على نوعين :

١ - يطلّى لوح الخشب بمادة بيضاء لتظهر عليها الكتابة واضحة .

٢ - يستعمل لوح ذو حواف بارزة ويسكب شمع منصهر على اللوح فيتكون بعد تجمد الشمع سطح مستو تحفر عليه الكتابة بقلم معدني مدبب (استيلوس) طرفه الآخر مستويا لطمس الشمع بعد انتهاء الغرض المطلوب من النص المحفور عليه . أما في بلاد العرب وخاصة في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين فقد استعملوا للكتابة جريد النخل والرقاع (الخرق) والرق وعظام اكناف الشاة والابل وكانت الرق عند العرب هو أثمن هذه المواد ، ومنه قوله تعالى في كتابه الكريم (في رق منشور) (١) .

هذا وظلت مصر المورد الرئيسي لورق البردي في العالم القديم وخاصة الى بلاد اليونان ، ولما تعرف العرب على سر صناعة الورق كما سيأتي فيما بعد ، ونشروه في العالم قضى على صناعة ورق البردي نهائيا مع الرقوق ، وأصبحت مواد الكتابة متاحة لجميع جماهير الشعوب الاسلامية لأن الورق مادة سهلة ورخيصة . وأصبح لدى العرب المصانع الكثيرة وأسواق لبيع الورق والكتب ، وعندما كان رهبان الأديرة في أوروبا يقومون بحك الكتابة الموجودة على الرق لاستعمالها مجدداً في الكتابة (٢) كانت مراكز الاشعاع العقلي في بغداد وقرطبة ودمشق وبخارى وسمرقند والقيروان تعج بالخطاطين والنساخ وتجار الورق (الوراقين) والمجلدين والمذهبين والمزخرفين والمصورين للكتب لشرح مضمونها وخاصة الكتب الطبية والأدبية . وكان كثير من سكان

الامبراطورية الاسلامية وعائلاتهم يعيشون على أجر ما ينسخونه من الكتب ، وليس سبب
الخصومة بين ابن العميد وأبي حيان التوحيدي إلا عندما كلف الأول الثاني نسخ عدد من
الكتب رآها التوحيدي مرهقة له . (٣) وإذا كان مقياس الحضارة في عصر من العصور
هو نسبة المتعلمين إلى الأميين أو الذين يفكون طلاس الحرف فيمكن اعتبار سكان
الامبراطورية الاسلامية في أعلى السلم الثقافي . . وما تمجّب رجال شارلمان من هدية
هارون الرشيد الخليفة العباسي وظنهم أنها من قبيل السحر إلا دليلاً على ما نزعهم :
والآن : كيف تعرف العرب المسلمون إلى الورق بعد نهضتهم الجبارة . . إن المتبع
للمصادر التاريخية التي أولت هذه الناحية اهتماماً بالغاً لا يسهه إلا الاعتراف بالفضل
العظيم للأيادي العربية التي طورت هذه الصناعة .

فلم يكن الاسلام يقيم عمداً الأساس لصرحه الأشم في آسيا الغربية حتى اندفعت
كتائب المسلمين المظفرة إلى ما وراء النهر عبر الطريق التي سلكها الاسكندر المكدوني
من قبل . في عام ٤٦ هجرية الموافق ٦٦٦ ميلادية سير الخلفاء العرب من دمشق
عدة حملات لفتح تلك البلاد . ولكن صفة الفتح المستمر والدائم لم تأت إلا عندما
سير الحجاج القائد المظفر قتيبة بن مسلم الباهلي عام ٨٦ هـ / ٧٠٤ م ورجز راية
الاسلام فوق أسوار بلخ وسمرقند . . . ونشبت ثورة في بخارى عام ١٣٤ هـ
قضى عليها العرب زمن حكم أبي مسلم الخراساني لتلك البلاد بزعماء القائد زياد بن الربيع
الذي قمع الفتنة التي أضرم أوارها الثائر : شريك بن الشيخ المهدي وانضم إليه من
الزعماء عبد الجبار بن شعيب وأمير خوازم ، (٤)

واستطاع زياد بن الربيع أسر عدد كبير من الفتية الذين كانوا يعرفون صناعة
الورق حيث أفضوا بها إلى العرب .

ويؤكد يتفق رأي العلماء أن الورق ابتكرته الصين خلال القرن الثاني
للميلاد . . . في عام (١٠٥) م اخترع (نساى لون) مادة لكتابة مكونة من
قشور الشجر والقنب والخرق البالية وشباك الصيادين وأصبح له مكانة محفوظة لدى
الامبراطور الصيني . ولكنه تورط بعد ذلك مع الامبراطورة في بعض اللصائس ،
واقترض أمره . فذهب إلى منزله واغتسل ومشط شعره ولبس أحسن ملابسه ثم
تجرع السم ومات .

وطريقته لصنع معجونة الورق كالتالي : تقطع المواد النباتية وتنقع في ماء الجير ،

فتمسح رخوا ثم تدق وهي مغمورة في السائل، فتفصل الألياف عن بعضها، ويصفى المحلول خلال منخل حريري ضيق المسام، فتبقى فوق المنخل طبقة من الألياف تجف ثم يصفى سطحها ويضاف إليها مادة ماسكة من الفراء لتقوية الألياف (٥).

وبذلك تمكن العرب من إقامة مصانع للورق وانتاجه بكميات كبيرة وأصبح الكتان والقنب عماد صناعة الورق الأبيض الناعم، وكانت الضربة التي تلقتها صناعة أوراق البردي على يد الخليفة أبو جعفر المنصور ٧٥٤ - ٧٧٥ م الذي حرم على دوائر الدولة استعمال ورق البردي، وبنت أول مطحنة للورق في بغداد عام ٧٩٤ م في ظل حكم هارون الرشيد (٦).

ثم شمل إقامة المطاحن الورقية أنحاء العالم الاسلامي، ويقال بأن أقدم مخطوطة على ورق كتبت بالعربية في القرن التاسع (غريب الحديث) المنسوخ عام ٨٦٦ م ويعتبر أحد أقدم الكتب وهو الآن محفوظ بمكتبة جامعة لندن وأما أول وثيقة أوربية كتبت على ورق فتعود للملك روجر الصقيلي في سنة ١١٠٢ م بعد خروج العرب من الجزيرة؛ وأمر كتبه زوجته باليونانية والعربية في سنة ١١٠٩ م (٧).

وكما تتنوع أصناف البضاعة فإن أسعارها تختلف بحسب الجودة ومن سوق لآخر، والورق أيضاً لم تكن أسعاره بعد انتشاره واحدة بل كانت تختلف حسب النوعية وحسب الجودة. فالورق الأبيض الصقيل الذي يصنع في الصين أغلى ثمناً من الورق الأصفر الذي يصنع في الشتاء ويرجع الفرق بين نوعي الورق إلى المادة المستعملة: فقد كان يصنع من الكتان (ويكثر في مصر) المضروب بالقطن كما يصنع من الخرق البالية (٨) ثم أين كانت تقام المصانع (المطاحن) الورقية من قبل العرب لهذه المادة الحيوية فهل كان إنشاءها يختص به قطر دون آخر؟ يحدثنا لويجي لينبالد العالم الإيطالي: إن العرب أول من أدخل هذه الصناعة إلى أوروبا وقد أنشأوا مصانع عظيمة في الأندلس وصقلية ومن ذلك الحين انتشرت صناعة الورق في إيطاليا (٩).

هذا في جناح العالم الاسلامي الغربي ولكن مانصيب الجناح الشرقي في تطوير هذه الصناعة وهو الذي نقلها إلى الأندلس: فقد ازدهرت صناعة الورق زمن هارون الرشيد الذي أمر بكتابة المصاحف على هذا الورق، بدلاً من الرق (البرشمان) وانتشرت صناعة الورق انتشاراً هائلاً في البلاد الاسلامية كلها منذ القرن الثاني للهجرة (أي القرن ٨ للميلاد) ومن طريق العرب دخل الورق قارة أوروبا (١٠).

وجاء في مقال : ديار الكتب العربية ومشاكلها للعلامة العربي التونسي عثمان الكصاك مايلي :

نشر الكاغد : جلبه هارون الرشيد من الصين وشربه ينداد فانتقل الى القيروان في نهاية القرن الثاني للهجرة وصنع بالمنازل والعامل وتحول إلى الأندلس - مدينة شاطبة وبين وجوده بالقيروان ووجوده بفرنسة بمدينة اسثون (Esson) خمسة قرون هذا ماقله العلامة العربي . ونستدل من دراساتها لهذا النص أن صناعة الورق أصبحت منزلية نظراً لسهولة وسرعتها وخيرها (١١) .

ونحن الآن نرى كثيراً من السلع الاستهلاكية تزاحم بعضها البعض مما يجعل سوقها رالجة للسماسرة والمضاربين لدى الشركات والحكومات بقصد الربح التجاري واحداث الأزمات الاقتصادية ، فهل الورق من هذه الأدوار حسب جودته وأصنافه ؟ [وقد راجت صناعة الورق في العصر العباسي الثاني وكان ورق البردي الذي اشتهرت به مصر منذ عهد بعيد كثير الاستعمال حتى أوائل العصر العباسي الثاني ثم حل محله الكاغد الذي انتقل من الصين إلى البلاد الإسلامية واشتهرت به سمرقند حتى قبل أن كواغد سمرقند عطلت القراطيس وانتشرت صناعة الورق في دمشق وطبرية وطرابلس الشام وحافظت سمرقند على شهرتها في هذه الصناعة (١٢) .]

والشيء الجدير بالذكر أن العرب كانوا يستخدمون القوة المائية والهوائية في إدارة رحى طواحين الورق وهاك ماقله زينريد هونكة :

[... حتى أنه اضطر (روجر الثاني) في عام ١١٠٢ م إلى تجديد وثيقة كانت قد دمجتها أمه النبيلة أديلازيا Adelasia في العام السابق وتقضي بامتلاك مطحنة كان قد بناها عربي في دير القديس فيليبس (١٣) . SanFilippo ويستدل من كلام السيدة زينريد هونكة أن بناء المطاحن كان اختصاصاً عربياً حققه العرب بأنفسهم ومنحوا أوروبا كل أنواع المطاحن المائية والهوائية ...]

وعندما ابتلى هذا الشرق الإسلامي بهجمة غادرة من قبل الغرب تحت ستار الدين والدين منها براء وأعني بها الحروب الصليبية ٤٩٠ هـ - ٦٠٩ هـ ١٠٩٦ - ١٢١٢ م - اقتبس الفريون كثيراً من فنون الشرق وصناعاته ، ففي الحرب اقتبسوا لبس الدروع الخفيفة وقرع الطبول والرتب العسكرية ؛ ونقلوا صناعة السكر والزجاج وغيره ونسوا كثيراً من عاداتهم واقتبسوا صناعة الورق (١٤) .

وعندما زحف الجنرال غورو على دمشق واحتلها عام ١٩٢٠ كان على رأس قواته الضابط غوابة وقد سجل غوابة مذكراته كضابط حربي وذيلها بهذا التعليق الفريد :
 [انا في دمشق .. ان هذا الاسم كان يمثل لي شيئاً خرافياً عندما كنت أقرأه في سجلات عائلتي وأنا بعد في سن الطفولة . إن جان مونتولييه الجد البعيد لجدتي من جهة (ابي لوزي) كان قد وقع في الأسر خلال الحرب الصليبية الثانية ١١٤٧م وتقل الى دمشق : انه كان من السواد الاعظم [يقصد جنود الجيش] ولذلك لم يعامله السرافون (يقصد بها المسلمين) المعاملة الحسنة التي كانوا يختصون بها الفرسان اللامعين وأهل دمشق جعلوا منه ذلك الحين عبداً يشتغل في أحد المصانع التي يصنع بها الورق من القطن فاشتغل المسكين هناك شغلاً شاقاً خلال ثلاث سنوات ، وبعد ذلك فر من دمشق وتمكن من الالتحاق بالجيش الصليبي بعد اجتياز آلاف المخاطر . وعندما عاد الى مسقط رأسه بعد غياب دام عشر سنوات أسس أول طواحين الورق التي عرفها أوروبا . (١٥)

وأخيراً نقول : ان نهضة أوروبا جاءت بعد اطلاعها على تراث العرب العلمي والفكري وأخذ يساورهم شعور عظيم بالمعجز والفضل أمام تيار العرب العلمي ، وكاد يثبت في الأذهان انه لا سبيل الى مضاهاة العرب ، وقد صور هذه الحالة النفسية أصدق تصوير الشاعر الايطالي تيرارك : ماذا لقد استطاع شيشرون أن يكون خطيباً بعد ديموشين واستطاع فيرجيل أن يكون شاعراً بعد هوميروس ثم بعد هؤلاء جاء العرب ، لا يسمح لأحد بالكتابة ؟ لقد جاربنا اليونان غالباً وتجاوزناهم أحياناً ثم نقولون (الكلام موجه لمواطنيه الطالبان) إننا لانستطيع الوصول الى شأو العرب بالخيال بالمعقريه ايطاليا الناقية .

عبد الرحمن ايوب

الربيع ١٩٧٧ / ٧ / ١٧

المراجع لهذا المقال

- ١ - قصة الورق وصناعته في مصر : دكتور محمود عبد الواحد ص ١٢
- ٢ - أثر العرب في الحضارة الأوروبية : جلال مظهر ص ٣٣٨
- ٣ - أبو حيان التوحيدى : بقلم الدكتور زكريا ابراهيم
- ٤ - تاريخ بخارى : المستشرق المجري ارمينوس فامبري ص ٧٩
- ٥ - الورق وصناعته في مصر ص ٧٨
- ٦ - شمس العرب تسطع على الغرب : زيفريد هونكة ص ٤٦
- ٧ - أثر العرب في الحضارة الأوروبية ص ٣٣٩
- ٨ - تاريخ الدولة الفاطمية : د . حسن ابراهيم حسن ص ٥٨٩
- ٩ - العلوم عند العرب : قدرى حافظ طوقان ص ٣١
- ١٠ - دور العرب في التكوين الأوربي : د. عبد الرحمن بدوي
- ١١ - مجلة الآداب البيروتية العدد ٢ - ص ٧٠ شباط سنة ١١
- ١٢ - تاريخ الاسلام السياسي : د : حسن ابراهيم حسن جزء ٣ ص ٣٢٥
- ١٣ - شمس العرب تنظم على الغرب . هونكة ص ٤٦
- ١٣ - الحروب الصليبية : رفيق التميمي ص ٢٧٢
- ١٥ - يوم ميسلون : ساطع الحصري ص ٣٦٨

الهجرة اليهودية الصهيونية بين

١٨٨٠ - ١٩٤٨

اعداد المدرسي : منذر صمودي

مع أن الكثير من الكتاب والمؤلفين ، قد ألقوا الكتب وصنفوا الدفاتر في موضوع القضية الفلسطينية ، وأثرها على حركة تطور الوطن العربي ، للوجهة ما ، بدأ بمض الناس معها بالنسائل قائلين : أو لم تشبع القضية الفلسطينية درساً وتمحيصاً ، أو ليس من المفيد والأجدي أن نصرف جهدنا ووقتنا ومالنا في سبيل القضايا الأخرى التي نعاني منها ؟! في هذا الوقت بالذات أجده نفسي مضطراً للدراسة القضية الفلسطينية ، انطلاقاً من اعتقادي بأن الامبريالية وحلفاءها ، قد خططوا لايحاد إسرائيل بقصد تمويق وعرقلة مسيرة النضال الكفاحي المتظر من الأمة العربية . واتي لأرجو أن يساعدني الحظ في بحث الهجرة الصهيونية وما رافق ذلك من أساليب مأكرة وغير أخلاقية ، مارسها الجهات المعادية للأمة العربية بشكل يتفق وينسجم مع الأهداف الاستعمارية . لذا نبدأ بموامل الهجرة (١) الصهيونية ، التي يمكن اجمالها فيما يلي :

١ - عامل أسامي : يشارك فيه طرفان هما :

أ - البورجوازية النرية - التي أصبحت امبريالية -

ب - البورجوازية اليهودية ، التي نمت وتكونت داخل البلدان الأوربية ، قبل ظهور البورجوازيات النرية ، فالتحت الظروف للبورجوازيين اليهود ، أن يلعبوا دوراً هاماً في حياة أوربة ابان تأسيس الدول الأوربية الحديثة ولاسيما خلال مرحلة الاستعمار والتنافس الاستعماري . لذا كانت البورجوازية اليهودية مقبولة لدى الانظمة الأوربية لارتباطها واستفادتها من الرساميل اليهودية من جهة ولعدم وجود بورجوازيات أوربية بديلة في بادئ الأمر . الا ان هذه الحالة لم تستمر طويلاً بسبب تكون البورجوازيات الوطنية النرية ، التي راحت تضيق ذرعاً أكثر فأكثر

بحسب حجمها وازدياد نفوذها ، بالبورجوازية اليهودية ، في مجال التنافس الاقتصادي الداخلي ، لذا اقتضت المصالح البورجوازية المشتركة ، ان تحسم الخلافات الناشئة بين البورجوازيات الغربية والبورجوازية اليهودية غير المطمئنة على سلامة مستقبلها ، وتم رأب الصدع عن طريق خلق تحالفات احتكارية عالمية موجهة ضد شعوب العالم وفي طليعتها ، الأمة العربية ، التي كانت في القرن التاسع عشر تعاني من آثار التجزئة والاحتلال والتخلف ، فتطلع المتحالفون نحو الوطن العربي كعالم جديد لم يوزع بين المستعمرين ولم يتمكنوا من نهب خيراتهم كما يريدون .

٢ — عامل ثانوي : يتكون هو أيضاً من عنصرين ، هما :

- آ — شعور عدد قليل من المتدينين اليهود بالرغبة في الهجرة الى فلسطين للعيش بجوار الأماكن المقدسة — فكان هؤلاء عرضة لتضليل الصهيونية والامبريالية — .
- ب — تعرض اليهود الفقراء للاضطهاد جزاء تصرفات البورجوازيين اليهود تجاه الشعوب الأوربية من ناحية طبقية ، ونتيجة بقاء رواسب الفكر الديني المتوارث من عهود الأنظمة الاقطاعية لدى الأوربيين من ناحية أخرى .

— ٢ —

مراحل الهجرة الصهيونية :

١ — المرحلة الأولى بين ١٨٨٠ — ١٩١٨

أسس المهاجرون اليهود أول مستعمرة (١) زراعية في فلسطين عام ١٨٨٠ م وكانت بدائية متأخرة كما يقول المؤرخ اوفولد تويني ، ثم بعد اشتراك بعض اليهود الروس في مؤامرة اغتيال القيصر الروسي اسكندر الثاني عام ١٨٨١ م ، تعرض اليهود الروس لاضطهادات وملاحقات ، هاجر على أثرها قسم كبير من اليهود الى أوربة الغربية واميركا ، حيث تركز الرساميل ، ويشدد عود الامبريالية — التي تسهم في احتكاراتها بعض البيوتات المالية اليهودية — بينما اتجه قسم صغير من اليهود نحو فلسطين بتأثير جماعات — أحباء صهيون — الداعية الى تجميع اليهود في

١ — من هذه المستعمرات : بتاح تكفا — ريشيون ليستيون — رونسون بتاح — زخروف بمقف .

فلسطين، تحت ستار الأغراض الدينية، لإخفاء الغرض الحقيقي، الرامي إلى السيطرة على البلاد واستعمارها. ولهذا السبب قدمت الجمعيات المذكورة الدعم والمساعدة لليهود المهاجرين إلى فلسطين من أجل الاستيطان.

ثم مالبت جمعيات صهيون أن تعاونت مع - صندوق الاكتشاف فلسطين - في عملية دفع اليهود باتجاه احياء التاريخ العسكري اليهودي بنية استخدام القوة في السيطرة على البلاد، ونظراً لذلك اصدرت الدولة العثمانية في عام ١٨٨٨ القرارات والقوانين التي تحرم الهجرة اليهودية الجماعية الى البلاد العثمانية وتحدد مدة دخول اليهود الأجانب بثلاثة أشهر للحج. ولكن اليهود حصلوا في عام ١٨٩٠ م من الدولة العثمانية على (اعتراف رسمي بهم، باسم جمعية دعم الزراعيين والحرفيين اليهود في فلسطين وسورية) وكان ذلك بمثابة تراجع عن قرارات الحظر السابقة الى حد ما. وفي عام ١٨٩٣ م قام الرأسمالي اليهودي الأصل - بول فريدمان - بمغامرة عسكرية، وقتل جيشاً مكوناً من حوالي ستين فرداً، محمولين على ظهر يخت بخاري، لاحتلال مدين، واستعان يهودي انكليزي للطقوس الدينية اليهودية، كما استعان يهود آخرين من الاسكندرية، يتكلمون اللغة العربية، يساعدونه على اغراء البدو والسكان الأصليين. كان معظم جيشه يتكون من أعضاء جمعيات حب صهيون، إلا أن هذه المغامرة باءت بالفشل بعد أن قام الجنود بالمصيان على النظام العسكري - البروسي - القاسي الذي طبق عليهم.

ولمواجهة الدولة العثمانية واكراهها على قبول الهجرة الصهيونية في فلسطين، قابل تيودور هرتزل قيصر ألمانيا وطلب مساعدته من أجل انشاء شركة قانونية لتنمية الأراضي في فلسطين عام ١٨٩٨ م تكون تحت حماية ألمانيا، لكن القيصر الألماني رفض تأييد هذا المشروع لأنه يثير مخاوف كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا على مصالحها. ولما لم تفلح مساعي الاعتماد على الدول الكبرى بما فيه الكفاية؛ شجع زعماء الصهيونية قوميي الشعوب والأمم المختلفة على ترويج افكار اللاسامية بين الجماهير ضد اليهود، وأشار إلى هذه الناحية هرتزل عام ١٨٩٦ بقوله: ان (من أشد أنصاري قوة خفي اليوم هو لاساميي بطرشبورغ ايفان^(١) وسيموني) وتزداد الفكرة وضوحاً من خلال الحديث الذي دار بين هرتزل ووزير قيصر روسيا حول

ما تستطيع روسيا فعله لتشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين عندما قال الوزير : (كان من عادتي أن أقول للامبراطور المرحوم اسكندر الثاني : لو ان في الامكان اغراق ستة ملايين يهودي أو سبعة ملايين في البحر الأسود لبلغت قمة الرضا ولكن هذا غير ممكن إذن يجب علينا أن ندعهم يموتون) .

ولما ألح هرتزل على ضرورة تحريك روسيا نحو التعجيل في تهجير اليهود الروس ، أجابه الوزير الروسي - رايت - ساخراً : (ولكننا تقدم لليهود كل التسهيلات الممكنة للهجرة : رفات مثلاً) . وتحمّس للصهيونية كل من الألمان والانكليز والفرنسيين والاميركان بهدف المساهمة في تهجير اليهود الى فلسطين .

وفي موجة ثانية من الهجرة امتدت بين ١٩٠٤ - ١٩١٣ بلغ عدد المهاجرين بين ٣٥ - ٤٥ ألفاً كان أكثرهم من اليهود الروس ، بينما كان معظم المهاجرين من الناحية الطبقية ، من العمال الذين أقاموا مستعمرات يهودية صرفة ، منع العمال العرب من المشاركة فيها وحصر العمل بالعمال اليهود فقط ؛ فكان هذا التصرف بمثابة مقاطعة اقتصادية يهودية للسكان العرب ، أصحاب البلاد الأصليين . إلا ان هذه المقاطعة زادت في تحسب المثقفين العرب من الحركة الصهيونية وما ترمي اليه من زيادة الهجرة . ولكن وبالرغم من معارضة العرب للهجرة ووجود قانون الحظر الذي فرضته الدولة العثمانية ، فقد استمرت الهجرة بتأييد من متصرف القدس احمد رشيد بك امين عام ١٩٠٤ بل ازدادت رغم اوامر الباب العالي بمنع دخول المهاجرين وبذلك نرى شكلاً آخر من اجراءات تعطيل قوانين حظر الهجرة الصهيونية الى فلسطين مارسته السلطات الحاكمة . وفي عام ١٩٠٦ جرى استبدال احمد رشيد بك بمتصرف جديد هو علي اكرم بك ، نزولاً عند الضغوط العربية ، ونفذ هذا المتصرف التعليمات التي وصلت اليه من السلطات العثمانية بحذافيرها ، وكان ذلك نتيجة فشل المنظمة الصهيونية في كسب عطف الدولة العثمانية رسمياً رغم العروض المغرية التي قدمتها الصهيونية للدولة العثمانية ، التي عبّر عنها هرتزل بقوله : (لو أعطانا جلالته السلطان فلسطين ، لبذلنا مافي وسعنا لتنظيم مالية تركيا تنظيمًا كاملاً) . غير ان فرص نجاح المساعي الصهيونية لدى الدولة العثمانية ازدادت بعد قيام ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨ واكرام السلطان عبد الحميد الثاني على اعلان الدستور والعودة بالبلاد الى الحياة البرلمانية التي سمحت لعدد كبير من اليهود بأن يصبحوا أعضاء بارزين في حزب تركيا

الفتاة وفي البرلمان الثاني . فقد تعاطف هؤلاء الحزبيون والبرلمانيون اليهود مع الحركة الصهيونية ، وكان من أبرزهم نيسم روسو ونيسم مازلباغ .

في عام ١٩١٠ وصف قائمقام الناصرة العربي منلوك ومطامع الصهيونيين بقوله : (لا يختلط اليهود بالعثمانيين أبداً ولا يتعاون منهم شيئاً ، كما ان لهم مصرفهم الخاص . وأنسوا في كل قرية وفي كل مستعمرة لجنة مركزية ومدرسة ولليهود أيضاً علم أزرق تتوسطه نجمة داود ؛ يرفعون هذا العلم بدلاً من العلم العثماني ويصرخ اليهود عندما يخاطبون السلطات الادارية بأنهم مسجلون في السجلات العثمانية أي أنهم مواطنون عثمانيون وهذا كذب وخداع . . .) . ان ما تحدث عنه قائمقام الناصرة كان نتيجة ما خططت له الصهيونية في مؤتمراتها وخاصة مؤتمر لاهاي المنعقد عام ١٩٠٨ حيث قرر فيه الصهاينة تأسيس شركة للأراضي الفلسطينية وتخصيص قرض يقدمه البنك الوطني اليهودي لبناء حي عصري للمهاجرين اليهود بالقرب من يافا — فوآة تل أبيب — كما تقرر اعتبار اللغة العبرية لغة التخاطب الرسمية للحركة الصهيونية ؛ لتصبح لغة الحياة اليومية والعلمية تجاري لغات الامم المتقدمة .

وتمشياً مع هذه السياسة أنشأ الصهاينة الجامعة العبرية في القدس عام ١٩١٣ فكان لها فضل كبير في مجال تطوير اللغة العبرية وتقدم الحركة العلمية العبرية من خلال جهود الماهدين والكليات التابعة لها مثل : معاهد الدراسات اليهودية والشرقية والفلسفة وكليات الآداب والتاريخ والعلوم بأقسامها : العلوم الطبيعية ، الكيمياء غير العضوية ، الكيمياء البيولوجية ، الكيمياء العضوية ، الكيمياء الطبيعية ، والرياضيات والهندسة وفي الجامعة العديد من الأجهزة العلمية المتقدمة الى جانب مكتبة تحتوي على ربع مليون من المجلدات في مختلف الأغراض الفكرية والعلمية .

بمسد جهود مضمية بذلتها الحركة الصهيونية ، وصل عدد اليهود في فلسطين عام ١٩١٣ الى حوالي ٨٥ ألفاً فتساءل عن ظاهرة الهجرة الصهيونية الدكتور روين عام ١٩١٣ قائلاً : (وماذا جنى اليهود بعد عشرين عاماً ؟) ثم أجاب نفسه بقوله : (لاشيء أو ما يقرب من العدم إذا قيس بالأحلام الأولى ولا علاج لذلك إلا إذا جلبنا دماء قتيه من مختلف أنحاء أوربية تعيد الشباب وتنفع في الأرض روحاً وثابة جديدة) . ولتحقيق ما طرح الدكتور روين من أفكار فقد أقدم على تأسيس مكتب فلسطين في حيفا وراح يفاوض السلطات التركية ويوسع دائرة نشاط مكتبه

بواسطة الاستعانة بمزيد من الخبراء والقانونيين والزراعيين والفنيين من أجل جعل الهجرة ممكنة ومشجعة . إلا أن وقوع الحرب العالمية الأولى أحدث الخلل والفوضى في الجهاز الإداري الصهيوني ، وبرزت إلى السطح ظاهرة الهجرة العاكسة بين ١٩١٣ و ١٩١٨ وانخفض عدد اليهود في فلسطين من ٨٥ ألفاً عام ١٩١٣ إلى ٥٥ ألفاً عام ١٩١٨ نتيجة تدني الحالة الاقتصادية وتوقف تدفق المعونات (١) الخارجية ، فاستدعى كل ذلك جعل الهجرة تبدو وكأنها عديمة الجدوى ، قبل إخضاع البلاد للاحتلال البريطاني عام ١٩١٨ .

المرحلة الثانية بين ١٩١٨ — ١٩٣٩

ما كادت تخضع فلسطين للاحتلال الانكليزي ثم للانتداب حتى بادرت بريطانيا إلى التعاون مع الحركة الصهيونية والتصرف وفق مخططاتها لتعيين الصهيوني البريطاني هربرت صمويل مندوباً سامياً في فلسطين ، والاعتراف بالمنظمة الصهيونية وحققها في تكوين وكالة تقدم النصيحة للانتداب وتتعاون مع حكومة فلسطين في المسائل (٢) الاقتصادية والاجتماعية التي من شأنها أن تؤثر على إقامة الوطن القومي اليهودي ، بل التزمت بريطانيا بالاعتراف بشرعية الهجرة وتسهيلها أمام من يود دخول البلاد عن طريق المندوب السامي الذي يملك حق تحديد عدد المهاجرين من آن لآخر حسب الظروف وإن مافلته بريطانيا في فلسطين من اجراءات وتصرفات كان في الغالب مدبراً ومخططاً له ، وفق المصالح الاستعمارية البريطانية والمخطط الصهيوني الذي عبر عنه حاييم وايزمن بقوله : (ان مركز الثقل في الحركة الصهيونية ، ليس هو البرنامج المتطرف ، ولكن هو العمل المنجز ، الاستيطان ، التعليم ، الهجرة ، الحفاظ على علاقات لبقة مع دولة الانتداب - بريطانيا - وإن التقدم بمطالبات غير عملية سوف يستثير العرب ويستبق المتاعب التي تخرج دولة الانتداب) . ولكي لا تثار مثل هذه المتاعب

١ — كان ذلك بسبب ظروف الحرب العالمية الأولى والتي كانت الدولة العثمانية إحدى أهم الدول المشاركة في رحاها الدائرة .

٢ — سهلت بريطانيا الهجرة الصهيونية باقداها على منح الجنسية الفلسطينية إلى المهاجرين وتعليمهم العديد من امتيازات المزارعين كالكهرباء والبوتاس .

والاخراجات التي أشار اليها وايزمن ، لأن حك الانتداب قد صيغ بالشكل الذي يؤمن الوفاق ، ويمنع الطلاق بين الحركة الصهيونية راعية الهجرة ومصلحة المهاجرين وبين الدولة المنتدبة بريطانيا كهيئة تحقيق ذلك امام المؤتمرين في سان ريمو ، كما في المادة الثانية والتي تقول : (تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن وضع البلاد في احوال سياسية وادارية واقتصادية تضمن انشاء الوطن القومي لليهود) . وتنص المادة الرابعة على انه : (يعترف بوكالة يهودية ملائمة لهيئة عامة لاسداء المشورة الى ادارة فلسطين والتعاون معها في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من الامور التي تؤثر في انشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين ، وتساعد وتشترك بترقية البلاد على ان يكون ذلك خاضعاً دوماً لمراقبة الادارة) . ونصت المادة السادسة قولة : (على ادارة فلسطين مع ضمان عدم إلحاق الضرر بحقوق ووضع فئات الأهالي الأخرى ، ان تسهل هجرة اليهود في احوال ملائمة وان تشجع وبالتعاون مع الوكالة اليهودية حشد اليهود في الاراضي الموات غير المطلوبة للمقاصد العامة) .

كذلك أكدت المادة الثامنة والعشرون على : (أن تكون الانكليزية والعربية والعبرية ، اللغات الرسمية في فلسطين ، وكل عبارة أو كتابة بالعربية وردت على نطاق أو عملة تستعمل في فلسطين يجب ان تكرر بالعربية وكل عبارة أو كتابة بالعبرية يجب أن تكرر بالعربية) وفي الجلسة العشرين للجنة الانتداب الدائمة في عصبة الأمم بجنيف ، صرح ممثل الحكومة البريطانية قائلاً : (ان الدولة المنتدبة - بريطانيا - تبذل كل ما في وسعها للسماح لليهود بالمهجرة الى فلسطين وان حكومة فلسطين تنفق جزءاً من أموالها بطريق مباشرة وغير مباشرة في سبيل انشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين) . وفي مذكرة سرية أرسلتها بريطانيا الى يهود امريكا جاء فيها : (إن الحكومة البريطانية تعترف بحمل فلسطين موطناً قومياً لليهود وعلى منح يهود فلسطين جميع الحقوق القومية والسياسية والمدنية وعلى اطلاق الهجرة اليهودية الى فلسطين من كل قيد وعلى تكوين شركة يهودية يكون لها حق إمتلاك الاراضي) . وتنفيذاً لهذا المخطط التأمري الصهيوني - البريطاني بدأ اليهود يستولون على الوظائف ولا سيما الهامة منها بينما كان العرب يفقدون وظائفهم يوماً بعد يوم ، فنصت الوكالة اليهودية دولة ضمن دولة تتمتع بما يشبه حق الرقابة على السلطات البريطانية التي طلب منها بأن (... التشريعات التي تصدرها السلطات العسكرية يجب ان تعرض أولاً

على اللجنة الصهيونية (التي لم تحف أطباعها الاستعمارية الا عندما تخاف من تفجير المقاومة العربية)، عندئذ تلجأ الى التصريحات العلنية للتضليل ، وفي نفس الوقت تصدر المنشورات السرية إلى هيئاتها ومؤسساتها تعلن فيها عن عزيمتها واصرارها على حق تطويب فلسطين قاعدة لتحرركات النشاط الصهيوني الهادف الى اغتصاب البلاد وتشريد سكانها، كما أشار الى ذلك عام ١٩٢١ نائب رئيس الجمعية الصهيونية الدكتور ايدر بقوله : (لا يمكن ان يكون في فلسطين الا وطن قومي واحد هو الوطن اليهودي ومن المستحيل ان تكون هناك مساواة في الشركة بين العرب واليهود بل يجب ان تكون هناك سيادة يهودية حلالا يزداد عددهم ازدياداً كافياً) .

ومع ان السلطات البريطانية قد اصدرت في آب عام ١٩٢١ قانوناً يحدد الشروط المالية التي ينبغي ان تتوفر فيمن يود الهجرة إلى فلسطين من اليهود كما يلي :

١ - آ - أصحاب رأسمال لا يقل عن ألف جنيه .

ب - العاملون في المهن الحرة مع خمسمائة جنيه .

٢ - ذوو الفرص المؤكدة في إيجاد العمل في البلاد .

٣ - الأشخاص الذين يكفلهم سكان يقيمون في فلسطين .

وبذلك يكون القانون المشار إليه في جوهره ليس أكثر من مغالطة بريطانية لايهام العرب بأنها أرادت ان توقف الهجرة الصهيونية ، بينما هي ساهمت بتنظيم الهجرة نيابة عن الوكالة الصهيونية وعلى نفقة الشعب الفلسطيني وبرهنت عن حسن نيتها تجاه الصهاينة باقدامها على منح الجنسية الفلسطينية للمهاجرين اليهود . ونتيجة لهذه هذه السياسات المعادية للحق العربي ، فقد دخل فلسطين خلال العقد الأول من الانتداب - ١٩٢٠ - ١٩٢٩ - حوالي مئة ألف من المهاجرين ، وكان من أم العوامل التي ساعدت على زيادة تدفق المهاجرين الى فلسطين ، وضع الولايات المتحدة الاميركية لعدد من الاجراءات التي تحدّد عدد المرغوب بهم من المهاجرين وشروط قبولهم ، بينما كانت بولونيا ايضاً تعمل على تقليل عدد اليهود العاملين في بعض المجالات الاقتصادية التي تؤثر على مصالح الشعب البولوني قومياً ، ولهذا السبب أو ذاك يعم المهاجرون اليهود وجوههم نحو فلسطين ، في الوقت الذي

راحت الولايات المتحدة الاميركية تتطلع فيه الى أهمية المنطقة ومبادرتها الى تأسيس الشركة الاقتصادية الفلسطينية . وبسبب مواعمة الظروف وصل عدد المهاجرين في عام ١٩٢٩ الى ١٥٠ مئة وخمسين ألفاً ، يصادلون ١٦٪ من مجموع سكان البلاد يوزعون وفق النسب التالية :

- ١ - ٣٣٪ يعملون في الصناعة .
- ٢ - ٢٠٪ يعملون في الزراعة .
- ٣ - ٢٠٪ يعملون في التجارة .
- ٤ - ٢٧٪ يعملون في المهر الحرة .

إلا أن تيار الهجرة الى فلسطين تأثر بالأزمة الاقتصادية الكبرى في العالم الرأسمالي والبلدان التابعة عام ١٩٢٩ ، وأصبحت الهجرة المفادرة لفلسطين ، أكثر من الهجرة القادمة اليها ، وخصوصاً ، بعد توقف تدفق الأموال من الخارج الى الصهاينة في فلسطين ، مما سبب اختناقاً في الاقتصاد اليهودي الصهيوني ، وخلق معاناة صعبة لليهود المهاجرين في نفس الوقت الذي انخفضت فيه نسبة المهاجرين الروس بشكل متزايد منذ قيام الثورة الاشتراكية واصدار القوانين التي تحرم الالتقاء الى الحركة الصهيونية ، باعتبارها حركة رجعية كشفت عن طبيعتها المادية للثورة الاشتراكية وباتت ذات صلة بالتيارات الشوفينية والتعريفية ، وحليفاً وثيق الارتباط بالامبريالية والأنظمة الرجعية ، وفي الثلاثينات توقفت الهجرة تماماً من الناحية الشرعية والرسمية ، ولكن ذلك لايعني توقف الهجرة غير الشرعية ، التي استمرت بتشجيع من الدوائر الامبريالية ، ودعاة الصهيونية : البشوثين هنا وهناك للمب يقول العديد من بسطاء اليهود وفقرائهم واقتناعهم بصحة حكاية وجود الملايين والعسل في فلسطين وتصويرها لهم بلاداً مهجورة من السكان ، تنتظر من يسارم الى استيطانها وجمع خيراتها . وهكذا تجاوزت الصهيونية لحنه واستمرت الهجرة الى فلسطين ، إذ دخل البلاد عام ١٩٣٢ حوالي ٢٦ مئة وعشرين ألف مهاجر بصورة شرعية ودخلها حوالي ١٤ أربعة عشر ألفاً من المهاجرين بصورة غير شرعية ، واستمرت نسبة المهاجرين في عام ١٩٣٣ بمعدل ثلاثة آلاف مهاجر في الشهر الواحد . وفي عام ١٩٣٤ - ١٩٣٥ دخل البلاد حوالي ١٥٤ مئة وأربعة آلاف مهاجر .

بينما اشترت شركات الاستيطان من الأراضي عام ١٩٢٩ - ١٩٣٠ حوالي ٢٥٠
مئتين وخمسين ألف دونم وكان عدد الأسر العربية المطرودة من أرضها ٢٠ عشرين
ألف عائلة . وقد يكون من العوامل التي ساعدت على تحقيق ذلك تأمر السلطات
البريطانية مع الأسر الاقطاعية عن طريق استخدام القوة أو التلاعب بقوانين تسجيل
المقارات - الطابو - ومن أجل زيادة عدد المهاجرين لم تدع الصهيونية فرصة
وصول هتلر الى السلطة تمردون الافادة منها ، لذا تحالفت مع اجهزته بنية تحقيق
أهداف هتلر بالخلع من اليهود ، وتحقيق أهداف الصهيونية في زيادة عدد المهاجرين
الى فلسطين ، واتفق الطرفان على خطة ترويع اليهود وتخويفهم ليضطروا الى مغادرة
أوروبا والتخلي عن فكرة البقاء فيها ، وفي مجال تطبيق الاتفاق (كان رجال الغستابو
يظهرون براءة خارقة في تنظيم الهجرة اللا مشروعة ، وسرعان ماظهر تأشيرات السفر
والخروج بصورة سحرية . وكانت شركة الملاحقة الألمانية في الدانوب تنقل المهاجرين
الى موانئ رومانيا) ليتوجهوا من هناك الى موانئ البحر الأبيض المتوسط ومنها
الى فلسطين ، ولكي تكسب الصهيونية عطف العالم عليها وتيسر سبل تنفيذ مخططاتها
الرامي الى السيطرة على فلسطين ، عمدت دعايتها الى المبالغة في تصوير الاضطهاد النازي
للإهود . وقد أشار الى وجود المبالغة في تصوير الاضطهاد النازي الليفيتانت جنرال
فريدريك مورغان ، الرئيس البريطاني لادارة الاغاثة والسكان التابعة للأمم المتحدة
في المانيا بقوله : (١) (فالإهود الوافدون بالآلاف من مدينة لودز وغيرها من المراكز
البولندية يرتدون الملابس الفاخرة ويبدون في صحة جيدة ، يتفجر الدم من وجناتهم
وجيوشهم متفتحة بالنقود . وليس على أي فرد منهم سياء البؤس أو الاضطهاد رغم
أنهم جميعاً يروون نفس القصة الخيالية المملة عن المذابح والتعذيب) .

وبالرغم من مشاركة الدول الرأسمالية للحركة الصهيونية في التشهير بهتلر الذي
هجر الإهود واضطهدهم كما يزعمون ، فإن تلك الدول نفسها ، لم تسمح للإهود والنجر
بدخول بلادها ، اذا ماوقفوا بالفرار من معسكرات الاعتقال . وان ذلك الموقف
هو الذي يفسر لنا عدم اعطاء الإهود أكثر من ٤٧٦٧ شهادة هجرة بالدخول الى
الولايات المتحدة الاميركية ، ويوضح الروابط المشتركة بين عنصرية هتلر ومشاعر
الامبرياليين ازاء الجاليات اليهودية والنجرية في بلادها ، فعملت على تنشيط الهجرة
نحو فلسطين بطرق مشروعة أو غير مشروعة ، وعلى سبيل المثال فقد دخل فلسطين

عام ١٩٣٦ حوالي ٣٦ ستة وثلاثين ألفاً من السواح ، الا أنه لم يخرج من هؤلاء السواح سوى ٤ أربعة آلاف فقط . ومن الاساليب التي اتبعتها الصهيونية في زيادة عدد المهاجرين بشكل غير أخلاقي وغير قانوني ، اقدام الصهيونية على خطف الأطفال من بين أحضان أهلهم وارسالهم الى فلسطين مع أن هؤلاء الأطفال لم يكونوا جميعهم من اليهود . وعلى كل حال وجد المهاجرون ما يشجعهم ويغريهم على البقاء في فلسطين كاعطائهم أراضي الموات واقدام الاقطاعيين على بيع أراضيهم وقراهم الى المؤسسات الصهيونية وبالاتفاق مع حكومة الانتداب البريطاني على اخراج الفلاح العربي من أرضه وتسليمها الى الصهاينة كاقدام المندوب السامي واكبوب على تهجير بدو وادي الحوارث من أرضهم وصرع بعضهم بالرصاص ، في الوقت الذي كان الصهاينة يفرضون على العرب مقاطعة اقتصادية شاملة من أجل اقحامهم ودفعهم الى بيع أراضيهم والرحيل عنها . وقد وصف الخبير الانكليزي - سمبسون - هذه المقاطعة التي استمرت بعد فرض الانتداب بقوله : (ولا يؤلف - بشكل - مبدأ الاصرار التعمد على مقاطعة العمال العرب وعدم تشغيلهم في المستعمرات اليهودية ، مناقضة للانتداب فحسب ، وانما يؤلف كذلك مصدراً دائماً ومتزايداً للخطر الذي يهدد البلاد) . ولم يكف بذلك بل وصف الصهاينة بالردية أيضاً وأكد في تقريره (ان ٣٠٪ من القرويين العرب هم بحاجة الى مساعدة بسبب حرمانهم من الأرض) لتعاون كل من المشتري والبائع والمرايبي مع بريطانيا والصهيونية ضد الفلاح المسكين الفارق بالديون، وكذلك دعا الى وجوب نشر التعليم الى جانب المساعدة المادية ، بغية ايجاد فرص جديدة للعمل والتخفيف من اندفاع الفلاحين نحو المدن للبحث عن عمل يهرب امامهم بسبب المحاصرة والمقاطعة . وتحدث عن مسألة الأرض الخبير الانكليزي فرنش بقوله : (لو لم ترتكب الحكومة خطأ عظيماً في الماضي والحاضر لما رأينا مشكلة المزارعين الذين لا أرض لهم) ووصف ايضاً تقرير لجنة شو حظر المهجرة على العرب كالتالي : (. . . ان الشعور السائد اليوم بين العرب يستند الى خوفهم المزدوج من أنهم سيحرمون وسائل معيشتهم وسيسيطر عليهم اليهود سياسياً يوماً ما بسبب المهاجرة اليهودية وشراء الأراضي وأصبح العرب لا يرون في المهاجرة اليهودية خطراً على معيشتهم فقط بل يرون فيه ذلك الذي قد يسيطر على البلاد في المستقبل أيضاً) . ان ماورد في تقرير لجنة شو كان نتيجة مالملاحظ من استيلاء الصهيونية على مليوني دونم من أخصب الاراضي في سهل الحولة ومرج ابن عامر ويسان وسارونة ، وفي تلك الاراضي الطيبة

كانت تؤسس المستعمرات والمدن التي تكبر وتتسع يوماً بعد يوم وتصبح أكثر فأكثر قدرة على استقبال المزيد من المهاجرين الذين يتم توطينهم على الشكل التالي :

١ - التوطين في المستعمرات الزراعية التعاونية (الموشاف) .

٢ - التوطين في المستعمرات الزراعية التعاونية الجماعية (الكيبوتز) .

٣ - التوطين في الملكيات الزراعية الصغيرة والخاصة .

وفي عام ١٩٣٦ وصف احد التقارير الهجرة اليهودية ووضع اليهود في فلسطين بأن (الطائفة اليهودية في فلسطين تبلغ أكثر من ٤٠٠ اربعمائة ألف شخص ولها عاصمتها ، تل أبيب ، وهي اكبر مدينة في فلسطين ، ولها علمها الوطني ونشيدها الوطني ، ونظامها الثقافي ، ولها شبكة من المصالح الاجتماعية . وترتبط هذه الطائفة باليهودية العالمية بواسطة الوكالة اليهودية ، بينما تدار شؤون هذه الطائفة الداخلية بواسطة مجمع وطني ومجلس ملي ومجلس ربانين) .

أسس المهاجرون اليهود في فلسطين الأحزاب السياسية العديدة ، إلا أنها كانت أحزاباً عنصرية مرتبطة بالصهيونية والامبريالية ، تسمى جاهدة لتسويق اغتصاب فلسطين والتوسع على حساب الأقطار العربية المجاورة . وفي الثلاثينيات كانت المنظمة العسكرية يطار تردد النشيد التالي :

مجال حيوي للملايين على ضفتي الأردن

الأردن له ضفتان واحدة لنا وكذلك الأخرى

تبنت الأحزاب الاشتراكية اليهودية فكرة العمل باليد ، وحظرت العمل بالاجرة لدى الآخرين ، فكثرت مزارع الموشاف والكيبوتز الموزعة هنا وهناك ، واستغلت الصهيونية بذلك ظاهرة العمل التعاوني في مجال الدعاية والتشديق بإمكانية تطبيق الاشتراكية في فلسطين بعد تحررها من الانتداب الانكليزي . وكان لهذه الدعاية أثرها لدى الاشتراكيين اليهود ، الذين خدعوا بالدعاية وصدقوا خرافة اقامة النظام الاشتراكي الرائد في فلسطين ؛ ثم مالبث معظم المخدوعين أن بدأوا يكتشفون مع الزمن زيف الادعاءات وتوزع الاشتراكيين بين الأهمية الثانية والاشتراكية البوندية وان المزارع التعاونية تتحول الى ممسكرات انتاجية موجهة ضد الرب أولاً وضد الطبقة الكادحة من اليهود والرب ثانياً بسبب سيطرة البورجوازية اليهودية على البلاد مالياً

وإدارياً ، كما تبين ارتباط معظم المؤسسات بالمستدروت الصهيوني - اتحاد العمال - الذي هو بدوره يخضع إلى البورجوازية عن طريق مؤسسات (صندوق المرض والعجز - بورصة العمل - شركة المقاولات - بيع المنتجات الزراعية - تعاونية البيع بالجملة - شبكة مدارس عمالية . . .) .

وإن النقابات اليهودية لم تستطع الإفلات من قبضة البورجوازية التي دفعتها في طريق الشوفينية لذلك رفعت شعار : العمل والأرض واللغة . لذلك كان لابد من قيام ثورة ١٩٣٦ التي عبرت عن رفض العرب للانتداب والصهيونية ، ونجم عن قيام الثورة تناقص عدد المهاجرين إلى فلسطين من ٣٠ ثلاثين ألف عام ١٩٣٦ إلى ١١ أحد عشر ألف عام ١٩٣٧ و ١٣ ثلاثة عشر ألف عام ١٩٣٨ . وبعد سحق الثورة والقضاء على المقاومة عادت نسبة الهجرة إلى الارتفاع وسمحت بريطانيا بدخول ١٥ خمسة عشر ألف شخص في العام إلى البلاد لمدة خمسة أعوام مع العلم أن الهجرة غير الشرعية استمرت بفضل سكوت بريطانيا التي (لم تفعل . . . كثيراً للحؤول دون الهجرة اللاشعورية ، كما أنها لم تطرد المهاجرين الذين قدموا بطريقة غير شرعية عند اعتقالهم) .

المرحلة الثالثة بين ١٩٣٩ - ١٩٤٨ :

استطاع هتلر منذ وصوله إلى السلطة في ألمانيا أن يجند كل الطاقات والامكانيات المتاحة في بلاده من أجل النهوض بالبلاد ودفعا في مجال التنافس الاقتصادي وبالتالي الدخول في الصراعات العسكرية مع جيرانه ومع الدول الامبريالية المنافسة لألمانيا اقتصادياً وعسكرياً ، مما فجر شرارة الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ . وفي تلك الأثناء (جهد الصهيونيون لاقتناع دول الهجرة مثل الولايات المتحدة وكندا بعدم قبول اللاجئين اليهود ، مدعين بأن اللاجئين لا يريدون الذهاب إلى أي بلد سوى فلسطين ، وهكذا رفضت عدة بلدان بما فيها الولايات المتحدة قبول قدوم اللاجئين اليهود) . ولتأكيد هذا الادعاء وكسب مواقف الدول وحيازة تعاطف الرأي العام لدى الشعوب ، أقدمت الصهيونية على ارتكاب جريمة قتل آلاف الأبرياء من اليهود المهاجرين كإغراقها للباخرة باتريا والتسبب بمقتل ٢٥٠ مئتين وخمسين من ركابها ، والاقدام أيضاً على أغراق الباخرة ستروما والتسبب في مقتل ٧٥٠ سبعمائة وخمسين من ركابها أيضاً . وهكذا نظراً لاساليبها الشريرة وقسوتها الملحة لدى الدول الكبرى ، مددت بريطانيا

مدة قبول المهاجرين الى فلسطين حتى عام ١٩٤٥ أي حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ،
ربما تسمح الظروف بتنفيذ ما هو مبيت للشعب العربي الفلسطيني . ثم ما كادت تعلم
بريطانيا ان الحصان الانكليزي المكلف بحجر العربية الصهيونية الى فلسطين ، قد شاخ ،
واعدت له طلبة الخلاص بعد استبداله بحصان آخر ، لكنه هذه المرة كان حصاناً
امريكياً حتى بادرت الى الاعراب عن عدم الرضا بواسطة وزير خارجيتها بينغن ،
الذي علق على طلب الرئيس الامريكى ترومان الذي طلب : (من بريطانيا ، الدولة
المتدبة ، السماح لمئة الف مهاجر بدخول فلسطين قائلآ - أي بينغن - (١) :) أنا
أقول بكل جد اذا كان الموضوع فقط هو موضوع التفريغ عن مئة الف من يهود
أوربه ، واذا كانت المسألة التي يجب علي حلها هي مسألة انسانية بحته ، فاعتقد أنه
يمكن الشور على تسوية ولسوء الحظ لم يكن الموضوع كذلك ، فان المئة الف من
وجهة النظر الصهيونية هم فقط بداية ، وان الوكالة اليهودية تتحدث عن الملايين .
ان طلب العرب هو طلب عسيرة جداً اجابته . نحن هنا في بريطانيا العظمى كمجلس
للموم نقرر ما إذا كنا سنقبل الناس في هذا البلد أم لا . لا أحد غيرنا يقوم
بذلك ، فلماذا يجب ان نقرر وكالة خارجية بمولة بسخاء من أمريكا كم من الناس
يجب ان يدخل الى فلسطين ، وتتدخل باقتصاديات العرب ، الذين كانوا هناك منذ ألفي
عام ؟ هذا مايجب علي مواجهته) .

نعم كانت بريطانيا مضطرة الى قول الحقيقة بعد أن شعرت بالخطر الامريكى
الذي يهدد المصالح البريطانية في الوطن العربي أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية
ولا سيما بعد اقبال الولايات المتحدة الامريكية على امتلاكها وسيطرتها لشركات البترول
العامة في آسية العربية . وكانت بريطانيا مضطرة الى المشاركة في اللجنة الانكلو
امريكية عام ١٩٤٥ لكي تتمكن كل من الولايات المتحدة وبريطانيا من (٢) حل
مشكلة فلسطين بطريقة عملية تخدم مصالحها) في المنطقة . درست اللجنة القضية
الفلسطينية ورفعت بعد ذلك توصياتها لدعم الهجرة الصهيونية على الوجه التالي :

١ - منح مئة الف شهادة دخول الى فلسطين للصهاينة ومساعدة من يود
الهجرة من اليهود الى فلسطين .

١ - قضية فلسطين ص ٨٠٨ للدكتور أحمد طرين

٢ - دولة اسرائيل ص ٤٠ جالينا نيسكيتينا

٢ - إطلاق حرية بيع الأراضي واجارتها بغض النظر عن المنصر أو المذهب أو الطائفة .

قدمت هذه المطالب وفرضت على الاطراف المعنية ، في وقت تطورت فيه فلسطين من الناحية العسكرية لصالح الصهيونية التي (أصبحت دولة شبه عسكرية أو دولة بوليس) ، أرائها بريطانيا كذلك ، بدليل ان المفوض السامي البريطاني قد سارع الى القول : (قررت الحكومة البريطانية الآن لأسباب قوية وجوب السماح باستمرار الهجرة بصفة مؤقتة بالمعدل المقترح وهو الف وخمسمائة مهاجر شهرياً) . وفي بلمنور بالولايات المتحدة الاميركية ، عقد الصهاينة عام ١٩٤٢ مؤتمراً صهيونياً اميركياً ، قرروا فيه التوصيات التالية :

١ - التعجيل في قيام دولة يهودية كجزء من العالم الديموقراطي الجديد .
٢ - رفض الكتاب الابيض الصادر عام ١٩٣٩ الذي يطالب بتدعيم الهجرة الصهيونية .

٣ - السماح بحرية الهجرة اليهودية .
٤ - السماح للوكالة اليهودية في السيطرة على الاستيطان .
٥ - انشاء جيش يهودي له رايته الخاصة والاعتراف به ويسمح بالمشاركة بالحرب الى جانب جيوش الحلفاء . والغرض من المطلب الاخير هو اظهار الصهيونية كأحد الأطراف المتحالفة ضد هتلر من جهة يمكن الافادة منها في الاتفاقات الدولية والدعاية للصهيونية . ولاستخدام هذا الجيش المدرب ضد العرب من جهة أخرى إذا ما سمحت الظروف .

وفرض على اليهودي الامريكي دفع ضريبة مقدارها ٢٥٠ مشين وخمسين دولاراً امريكياً عندما يستنر عن الهجرة الى فلسطين ومع هذا كانت نسبة المهاجرين من اليهود الاميركيين ضئيلة بسبب قدرتهم على دفع الضريبة والتبرعات نتيجة اشتراكهم مع الامبريالية الاميركية في نهب ثروات الشعوب ومنها طبما الشعوب العربية . وبالرغم من الاجراءات الامبريالية الصهيونية المتخذة ضد العرب ، كان عدد سكان فلسطين عام ١٩٤٧ وفق الاحصاءات الانكليزية ، قد وصل الى (١٩٣٣٦٧٣) نسمة منهم ٣١٪ من اليهود فقط نظراً لعدم قيام اليهود العرب بالهجرة الى فلسطين وذلك لاقتناعهم بانتائهم العربي من جهة ولعدم وجود تمايز طائفي يستحق الذكر من ناحية أخرى . وعلى هذا الأساس كان اليهود الغربيون يشكلون ٩٠٪ من مجموع سكان يهود فلسطين حتى ١٩٤٧ .

المراجع

اسم المؤلف أو المترجم	اسم الكتاب
الياس سعد	١ - الهجرة اليهودية الى فلسطين
لوران غاسبار	٢ - تاريخ فلسطين
بير ديمرون	٣ - ضد إسرائيل
محمد التونسي	٤ - الخطر اليهودي
ادارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي للجيش السوري	٥ - محاضرات في التوجيه القومي
قاسم الشواف	٦ - مع الكلمة الصافية
محمد عبد العزيز نصر	٧ - الصهيونية في المجال الدولي
لجنة الثقافة والنشر بهيئة التحرير بالقاهرة	٨ - هي هي الصهيونية
علي كنعان - ترجمة -	٩ - خنجر إسرائيل
عباس محمود العقاد	١٠ - الصهيونية العالمية
جلال صادق المعظم	١١ - دراسات يسارية
محمد الزعي	١٢ - إسرائيل بنت بريطانيا البكر
خيري حماد - ترجمة -	١٣ - مفارق الطرق الى إسرائيل
سليمان حاتم	١٤ - الصهيونية العالمية وخطرها الكبير على البشرية
علي محمد علي	١٥ - إسرائيل والشرق الأوسط
اكرم زعير	١٦ - القضية الفلسطينية
أحمد طرين	١٧ - قضية فلسطين
هيلدا شعبان صائغ	١٨ - التمييز ضد اليهود الشرقيين في إسرائيل
خالد قسطيني	١٩ - الحكم غايياً
غسان كنفاني	٢٠ - في الادب الصهيوني
ابراهيم العابد	٢١ - الضعف والسلام
جاك دومال	٢٢ - التحدي الصهيوني
فتحي الرحلي	٢٣ - الصهيونية أعلى مراحل الاستعمار

- ٢٤ — المذهب العسكري الاسرائيلي
 ٢٥ — إسرائيل واقم استعماري
 ٢٦ — دولة إسرائيل
 ٢٧ — عاجلاً أو آجلاً - نزول إسرائيل
 ٢٨ — المسألة اليهودية
 ٢٩ — فلسطين مسألة ماثلة
 ٣٠ — فلسطين جريمة ودفاع
 ٣١ — احذروا الصهيونية
 ٣٢ — تاريخ الاقطار العربية المعاصرة
 ٣٣ — سلسلة شؤون فلسطينية حتى العدد ٥
 ٣٤ — مجلة المعرفة - عدد خاص -
- هيثم الكيلاني
 مكيم رودنسون
 جالينا نيكييتينا
 ١٥ كاتباً فرنسياً
 كارل ماركس
 نادي كتاب الساعة بالهند
 ارنولد تويني
 يوري ايفانوف
 نجمة من المؤلفين السوفييت - دار التقدم - موسكو
 منظمة التحرير الفلسطينية
 وزارة الثقافة السورية

في متاهات الفكر الصهيوني

بقلم الياس مقدسي

فكر اليهود بعد أن دمر الملك الكلداني نبوخذ نصر مملكته عام ٥٨٦ ق. م. إقامة دولة جديدة فثار (زور بابل) أحد زعمائهم عام ٥٢٢ ق. م. مستفيداً من دورة الفوضى القصيرة التي مرت بها الامبراطورية الفارسية والتي تقع ما بين وفاة قمبر وتولي داريوس الحكم ، ولكن سرعان ما تبخرت أحلامهم كما اخفقت فيها بعد جميع المحاولات التي بذلوها في اجتذاب اليهود للإقامة بأرض الميعاد المزعومة فلم يستجب لنداء (عنرا) أحد زعمائهم عام ٤٥٨ ق. م. سوى عدد قليل وعدد أقل لنداء (نحميا) عام ٣٨٤ ق. م. .

ومنذ ذلك الحين كان هدف اليهود الحفاظ على وجودهم ومقاومة مغريات الحضارات التي يعيشون بينها خشية أن يتجرّفوا في تيار الاندماج (١) لذا عاشوا في أوروبا بشكل خاص متعلقين على أنفسهم ضمن دائرة الجيتو / وهي الحارات اليهودية الانعزالية . / ويبدو أنه نتيجة لطبيعة البناء الفوقي الذي كان قائماً في الجيتو والذي كان يؤكد لليهود باستمرار أنهم المتفوقون المختارون فقد انجذب كثير من شبابهم للأفكار العنصرية السائدة في أوروبا كفلسفة / نيتشة / فتأثروا بها ورأوا د أن اليهودية قد ابتعدت عن جوهرها منذ عصر الأنبياء وحتى الوقت الحاضر لأنها أعلنت من شأن المجردات وأهملت القوة الجسدية وفضلت الكتاب على السيف والظل على الحياة ، وتمحول اليهود إلى شيء ملتصق بالقانون المجرد ليس له إرادة مستقلة ،

هذا وقد طالب هؤلاء الشباب وعلى رأسهم الفيلسوف الصهيوني / آحاد همام / بضرورة اطلاق المنان للروح اليهودية ، كما رأوا أن اليهودي يملو فوق التاريخ ويجسد كلمة الرب ويصلب من أجلها .

١ — مشكلة اليهود العالمية : دراسة تحليلية لآراء المؤرخ البريطاني ارنولد توينبي

تأليف فؤاد محمد شبل ص ١٣

والواقع إذا كان تأثر الوجدان اليهودي بالأفكار العنصرية قد جاء فتأخراً فإن الدول الاستعمارية في أوروبا قد تبنت قضية توطين اليهود خارج القارة الأوربية منذ منتصف القرن السابع عشر . ففي عام ١٦٥٤ كانت فرنسا ترغب في توطينهم في كينيا، وفي عام ١٧٩٩ حاول نابليون توطينهم في فلسطين ولكن المحاولة باءت بالفشل إثر هزيمته على أسوار عكا .

وأما بريطانية فقد اهتمت بتوطينهم في فلسطين وقد أشار إلى ذلك (ايفانوف) في كتابه / احذروا الصهيونية / . كما ذكرت صحيفة التايمز في عددها الصادر بتاريخ ١٧ آب ١٨٤٠ :

« إن الاقتراح القائل بتهجير اليهود إلى بلاد آبائهم ليسكنوها لم يعد مسألة جدية بالبحث وحسب بل هو موضوع قائم فعلاً ويتطلب دراسة جدية . . . »

وفي ألمانيا كان بسمارك يفكر باستغلال هذه الفكرة ولكن بتهجير اليهود إلى البقعة الممتدة على طول خط سكة حديد برلين — بغداد .

وهكذا يتضح أن الدول الاستعمارية هي التي ابتكرت فكرة خلق الدولة اليهودية في الشرق العربي وأنها كانت تدفع اليهود إلى قبول هذه الفكرة والترحيب بها .

وهنا يجب أن لا ننسى دور الرأسمالية اليهودية التي كانت تملك زمام السيطرة المالية في كل من انكلترا وفرنسا وتمتع بأوضاع ممتازة في ألمانيا والنمسا كما كانت تقود التيار السياسي بزعامة أسرة روتشيلد . لقد كان روتشيلد من ألد أعداء ثورة باريس عام ١٨٤٨ تلك الثورة التي دقت ناقوس الخطر للرأسمالية اليهودية وحولت فكرة استيطان اليهود في فلسطين من غرض استعماري مجرد إلى فكرة عنصرية تستهدف إبقاء يهود العالم في قبضة التحالف اليهودي العالمي المكوّن من كبار الرأسماليين اليهود .

وكان على الرأسمالية اليهودية أن تتحرك ، وتذكرت أن هناك رقعة من الأرض في هذا العالم ينظر إليها اليهود أنها مقدسة وتستطيع توجيههم نحوها بدعوى الاحسان وتخليصهم من الاضطهاد . وهكذا تحول اهتمامهم في اتجاه عنصري استعماري لتقضي على ظاهرة اندماجهم في المجتمعات البورجوازية .

إذن التقت المصالح الاستعمارية المتعددة مع الرأسمالية اليهودية حول هدف واحد وهو « توطين اليهود في فلسطين » ولكن ذلك الهدف لم يثر فضول اليهود وبحول أنظارهم بشكل جماعي إلى فلسطين . وكان لابد من ولادة الحركة الصهيونية لتحيل

الفكرة الاستعمارية إلى عقيدة سياسية . وفي اواخر القرن التاسع عشر جاءت الحركة الصهيونية كنمير عن الذات القومية الوهمية . ولكن هذه الحركة ليست فكراً أو مذهباً أو عقيدة سياسية وإنما هي تشويه متعمد للمفهوم الانساني ، وهي تدعو لافناء العقل والوعي والارادة الانسانية عن طريق الارتقاء في أحضان المطلق ، والمطلق بطبيعته شامل وعالي يتخطى الزمان والمكان حيث أن كل مايجري في الطبيعة وحياة البشر بإرادة الاله / يهوه / ونتيجة لهذا الارتقاء المفوي في احضان المطلق فقد أصبح اليهود أمة مقدسة طُبعتْ جميعُ طفوسهم وكتبهم الدينية بطابع قومي عميق ، كما أصبحت فكرة الأمة المقدسة هي إحدى أسس الفكر الصهيوني الذي يري أن اليهودية ضرب من ضروب الفلكلور الشعبي الذي يستحق الاحياء بل والتقديس ويتبنى هذا الرأي الحاخام / صموئيل حايم لاندو / وعدد من المفكرين الصهاينة أمثال (نحمين سيركين) .

يؤمن لاندو بالأمة اليهودية المقدسة ويُشيرُ في لغة صريحة إلى « أن الاقامة في الأراضي المقدسة هي أحد الأوامر الدينية اليهودية » .

وبذا تكون القومية هي القيمة الاساسية والمطلق الأول بالنسبة للشعب اليهودي ، كما تستبر الأرض مطلقاً ثانياً لابد من توفره لأن القبس الالهي لا يؤثر في الشعب اليهودي إلا وهو على أرضه (١) ثم يُشير لاندو إلى العمل ويعتبره مطلقاً ثالثاً ولكن تقديس للعمل عنده لا ينبع من احترامه للعمل الانساني كوسيلة للتغلب على الطبيعة ولا هو محاولة لتحقيق فكرة الانسان المتكامل الذي يفكر بعقله وقلبه ويده بل يتنبع من إيمانه بأن العمل اليدوي في أرض الميعاد عامٌ لاعادة خلق الانسان اليهودي والوجود القومي .

العمل إذن ليس نشاطاً ثقافياً ولا سياسياً ولا حتى أخلاقياً لأن مثل هذه المفاهيم لاتشمل الحياة الازلية التي هي صفة الشعب .

وبشكل عام يمكن القول إن الحركة الصهيونية لم تقابل بالترحاب من قبل اليهود فعينها عرض هرتزل كتابه / الدولة اليهودية / على حاخام فيينا استنكر فكرة الوطن القومي اليهودي ، وحينما حاول عقد المؤتمر الصهيوني الأول في ميونخ احتج

١ - الفكرة الصهيونية : النصوص الأساسية . إشراف الدكتور أنيس صايغ

بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية مركز الأبحاث ١٩٧٠

أعضاء الأقلية اليهودية هناك مما اضطر الحركة الصهيونية في أن تتخذ من بال مركزاً لها . إلا أن الرفض اليهودي للصهيونية يختلف في درجاته ومنطقاته .

ولعل أكثر اتجاهات الرفض ثورية هو الاتجاه الألماني الاندماجي الذي يرى أصحابه « أن الصهيونية ليست إلا تمبيراً عن عقلية الجيتو في خلطها بين الدين والقومية وأنها لا تعبر عن المستقبل وإنما هي رواسب من الماضي .. » كما يرى أصحاب هذا الاتجاه أيضاً :

« أن اليهود ليس لهم تاريخ مستقل وإنما يشاركون في تاريخ الشعوب التي يعيشون بينها ، فتاريخهم فرنسي في فرنسا وانكليزي في انكلترا ، واللغة التي يجب أن يتحدثوا بها هي لغة الوطن الذي يعيشون فيه » وقد رفع هؤلاء الصيغة الاندماجية القائلة :

« كن يهودياً في منزلك مواطناً خارجه »

والى جانب هذا الرفض الألماني هناك رفض آخر للصهيونية بخصوص تداخل الانتماء الديني والقومي عند اليهود ، يتمثل في موقف « صهيونية الدياسبورا » أو صهيونية المنفى وهي مدرسة تحاول أن تربط ما بين الرؤية الصهيونية المطلقة وواقع الأقليات اليهودية في الغرب . ومن اتباع هذه المدرسة الحاخام « سلفر ١٨٦٣ - ١٩٦٣ » الذي يرى أن المنفى ليس مصدر بلاء خالص بل هو حقيقة ينبغي الترحيب بها .

ويرى أيضاً « أن اليهود الأمريكيين ليس لديهم ما يدفعهم للعودة الى أرض الميعاد فظروفهم طيبة للغاية ، كما أنهم ليسوا ضحية للاضطهاد العنصري الذي ينصب أساساً على الزنوج ... »

لكن موقف الصهيونية التقليدي من يهود المنفى يتم بالرفض التام لأنها تؤمن بأن كل الجهود المبذولة للحفاظ على الكيان اليهودي في المنفى هي في الواقع عمل قسري لحفظ وجود غير طبيعي ولأن حياة المنفى ليست جذيرة بالبقاء كفاية في حد ذاتها وقد عبر المفكر الصهيوني « جوردن » عن هذه الافكار بقوله :

« هدفنا أن تصبح فلسطين الوطن الأم ليهود العالم وأن تكون الجاليات اليهودية في الشتات مستعمرات لها وليس العكس ... »

ومن أجل تحقيق هذا الهدف عقد زعماء اليهود ثلاثة وعشرين مؤتمراً كان الأول في « بال » بسويسرا عام ١٨٩٧ وقد تدارس المؤتمر الخطط التي تؤدي الى

تأسيس مملكة صهيون العالمية واحيطة قراراتهم بأشد أنواع التحفظ والكتمان ومن هذه القرارات :

١ - يجب أن يكون شعارنا كل وسائل العنف والخديعة ويتحتم علينا ألا نتردد في أعمال الرشوة والخيانة إذا كانت تخدمنا في تحقيق غايتنا .

٢ - يجب علينا أن نصادر الأملاك بلا أدنى تردد إذا كان هذا العمل يمكننا من السيادة والقوة .

٣ - إن حكومتنا ستشبه الاله الهندي / فشنو / وكل يد من أيديها المائة مستقبض على لولب في الجهاز الاجتماعي للدولة (١) .

لقد كان تيودور هرتزل رئيس المؤتمرات الست الأولى يتحرك من مكان الى آخر حاملاً في عقله آلاف الأساطير اليهودية خاصة اسطورة العودة واسطورة الامة المرتبطة بالأرض رغم شتات آلاف السنين ، وكان يقول « شعارنا هو فلسطين داوود وسليمان » ولكنه عملياً كان يطالب بالأرض العربية « من الفرات الى النيل » .

إن هرتزل مثل كل صهيوني يستقد أن له علاقة ميتافيزيقية بأرض الميعاد يحملها في قلبه أينما سار ولهذا فهو دائم الحنين الى العودة ، وبسبب مثاليته الفلسفية المفرطة وإيمانه العميق بالأساطير فانه يرفض دراسة الواقع التاريخي في فلسطين وبحث عن وسيلة يتخلص بها من العرب أصحاب البلاد ويفرغ بواسطتها أرض الميعاد وتقريغ أرض الميعاد لا يتم على حد تعبيره إلا عن طريق العنف لذا يشير في مذكراته الى ضرورة تدريب الشباب في الدولة المزمع تأسيسها ليكونوا جيشاً محترفاً كما يجب تدريب الباقين ليكونوا قادرين على الخدمة كمتطوعين إذا لزم الأمر .

« والتدريب يجب أن يكون عن طريق الأناشيد والدين والمسرحيات البطولية والتكريم » .

هذا الاحساس المعادي للتاريخ يظهر عند هرتزل على هيئة جمود ادراكي حاد فهو لا يؤمن بحركة التاريخ ولا بقدرة الانسان العربي على الاحتفاظ بأرضه بل يؤمن أن الارادة الصهيونية قادرة على انتزاع الأرض من أصحابها .

هذا الجمود الادراكي الذي خدر ضمير هرتزل في مطلع القرن العشرين هو ذاته الذي لعب دوراً خطيراً في حرب تشرين عام ١٩٧٣ .

فلقد كان عند الامرائيليين من الدلالات ما يؤكد أن العرب يستعدون للحرب ولكن الدلالات بقيت معلومات مبثورة لا ينتظمها أي اطار وليس لها اتجاه محدد لأن الاطار والاتجاه لا يمكن أن يدركها الا من يقرأ التاريخ ويفهم حركته والامرائيليون بطبيعتهم لا يؤمنون اطلاقاً بحركة التاريخ لأنهم لو فعلوا لآمنوا بحتمية استيقاظ العرب وهو استيقاظ سيؤدي الى سقوط واختفاء الكيان الصهيوني المزروع ميكانيكياً في المنطقة :

والآن بما أننا نتعرض لنهايات الفكر الصهيوني يجدو بنا أن نلقي الضوء على حركة الكنعانيين وعلى موقف أوري افيري من الصهيونية وهما حركتان ترفضان بعض مثل وأفكار الصهيونية ولكن هناك قاعدة مشتركة تربط بينهما وبين الصهيونية .

أولا - حركة الكنعانيين

وهي حركة سياسية - ثقافية ذات نظرة خاصة للتاريخ اليهودي وقد بدأت نشاطها في الأربعينات في فلسطين . وتصدر هذه الحركة عن اسطورة مفادها أنه عندما عاد اليهود من مصر الى أرض كنعان فانهم لم يجدوا فيها قبائل معادية لهم ، بل وجدوا شعباً ينطق بالعبرية ويشبههم في الملامح والخصائص البدنية .

وبهذا لم يكن خروج اليهود من مصر وذهابهم الى أرض كنعان غزواً وانما كان مجرد عودة لأن اليهود والعبرانيين ليسوا سوى كنعانيين .

هذه الاسطورة تختلف عن الاسطورة الصهيونية في بعض خطوطها حيث تجعل ارتباط اليهودي أو العبراني بالأرض ارتباطاً حقيقياً وتعمق من أهمية الأرض كما أنها تلغي اسطورة الشعب المختار والعودة الى أرض الميعاد ، وترى أن اليهود أمة فقط على عكس ماتراه الصهيونية أن الشعب اليهودي أمة وجماعة دينية .

ولكن رغم هذه الاختلافات فإن حركة الكنعانيين تشارك الصهيونية في بعض السمات فهي ترفض الواقع التاريخي وتنسادي بتحرير اليهودي من دور المتفرج ازاء التاريخ . وفيما يتعلق بموقفها من العرب في فلسطين فانها ترفض وجودهم وتنظر اليهم بانهم أقلية دينية يمكنها أن تدخل الحياة الاسرائيلية شريطة أن تحافظ على طابعها كجماعة دينية مميزة ، وفي عام ١٩٦٩ نشرت اعلاناً في احدى الصحف الاسرائيلية طالبت فيه بتجنيد العرب في الجيش الاسرائيلي وتعليمهم اللغة العبرية كما فادت بضرورة الاحتفاظ بالأراضي العربية المحتلة وتصعيد الهجرة اليهودية وزيادة نسبة المواليد .

والواقع يمكن القول إن هذه الحركة ليست حركة شعبية وإنما حركة غرضها تشويه الوجود العربي في فلسطين وهي تعبر عن فشل الفكر الصهيوني بعد احتكاكه بالواقع التاريخي كما تعبر عن عجز بعض قطاعات المجتمع الإسرائيلي عن التأقلم مع هذا الواقع . أنها حركة تعتمد انكار حق الإنسان العربي الفلسطيني في أرضه عن طريق التهميم أن العرب أقلية دينية من جهة وعن طريق ربط وجود اليهود المبرانيين تاريخياً بالكنعانيين العرب أصحاب البلاد من جهة أخرى .

ثانياً - موقف اوري أفيري من الصهيونية

يرى أفيري أن الصهيونية والحملات الصليبية لها سمات مشتركة عديدة فالدفعة العاطفية وراءها لم تكن سياسة محضة بل كانت خليطاً عجيباً من الدوافع العملية والصوفية فقد كان الصليبيون يتحدثون عن إرادة الله التي أرسلتهم لبيت المقدس ، وكان الصهاينة يتحدثون عن العودة إلى أرض الميعاد لتشييد محكمة الرب

هذا وقد رسم أفيري أوجه التشابه بين الغزو الصهيوني والحروب الصليبية بما يلي

١ - هرتزل = البابا أربان الثاني (١)

٢ - المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧ = مؤتمر كليرمونت عام ١٠٩٥

٣ - الارتباط بين اليهودية العالمية وإسرائيل = الارتباط بين أوروبا ومملكة الصليبيين

٤ - اعتماد إسرائيل على التمويل اليهودي العالمي = اعتماد الصليبيين على تدفق المال من أوروبا .

إلا أنه رغم هذا التشابه فإن أفيري يصر على اختلاف التجربة ، لأن الصليبيين كانوا أقلية وكان بإمكانهم أن يعودوا إلى بلادهم أما الاسرائيليون فلا ، ولذا فإنه هاجم اسحق راين عندما قال في الذكرى السبعين للمؤتمر الصهيوني الأول : « إن إسرائيل هي مملكة الصليبيين الجديدة » ، لأن في ذلك اضماً لارادة اليهود الذين علموا كيف انتهت مملكة الصليبيين على أيدي العرب .

ويرى أفيري أيضاً أن الدولة الصهيونية محاصرة عسكرياً لأنها وريثة التناقضات

١ - المرتكزات النفسية للفكرة الصهيونية ص / ٤٦ / تأليف عبد الرحمن غنيم

الصهيونية ولا تحاول أن تتخطاها . فالصهاينة الجدد قد تجاهلوا الوجود الفلسطيني أحياناً عن وعي وأحياناً أخرى عن غير وعي ، ورفضوا الاعتراف بأن أرض فلسطين كان يقطنها العرب منذ آلاف السنين .

وبينا يرى الصهاينة أن صلة صوفية مطلقة تربط بين اليهودي وأرض الميعاد وأن هذه الصلة كفيلة بتغيير الذات اليهودية والتركيب النفسي اليهودي يرى أفيري على العكس من هذا أن النفس البشرية ليست نتاج تفاعل ميكانيكي بينها وبين الواقع بل هي ككل مركب ينمو ببطء ، وعلى مر الزمن من خلال معايشة واقع تاريخي محسوس

ومنطلقاً من هذا التصور يبين أفيري أن المشكلة الرئيسية لإسرائيل أنها دولة لا تزال تدور في عالم الأحلام والمطلقات دون أن تمايش واقعها التاريخي والاجتماعي معايشة حقيقية بل تسيطر عليها الذهنية الجيتوية حتى بعد أن ماتت أنماط التفكير والواقع الذي أدى إلى ظهورها ، وهذا مايفسر انقسام الشخصية الإسرائيلية على نفسها فهي تعيش عالمين مختلفين :

أحدهما له أساس موضوعي « الواقع الإسرائيلي » ، والآخر هو من مخلفات الماضي لم يعد له وجود « الجيتو » .

ويتضح الخلاف بين رؤية الصهاينة الصوفية ورؤية أفيري النسبية في حديثهم عن بطولة الشخصية اليهودية (١) ، فبينما يُصر الصهاينة على أن اليهود أبطال وضحايا وليسوا بشراً عاديين ، يرفض أفيري حتمية الاستشهاد الصهيونية ويرفض أيضاً أن يكون اليهود مثل أبطال المآسي اليونانية الذين حكمت عليهم الآلهة بمصير محتوم ، كما يعرض في مقاله عن الشخصية الإسرائيلية صورة طريقة لسته مقنين يرقصون ويتقاذفون الكرة الأرضية بأرجلهم / أبطال خارج التاريخ / ولكنهم في الوقت ذاته يغنون في مرج الأغنية الشعبية الإسرائيلية « العالم كله ضدنا ولكن لا بهمنا » ، والحل عند أفيري هو أن يدخل الإسرائيلي الكرة الأرضية كأي إنسان آخر وأن يعتمد عن المطلقات ويجني ثمار واقعه الجغرافي والسياسي والاجتماعي وأن يرفض الرؤية الصهيونية التي تقسم العالم إلى الأعداء « العرب » ، والمنهزمين « اليهود خارج إسرائيل » ، والصفوة المختارة « الصهاينة المحاربون » .

وأخيراً يمكن القول إن الفكر الصهيوني في حالة صراع دائم مع ذاته ، وإذا كان قد اهتمى إلى إقامة الدولة الاسرائيلية في فلسطين عام ١٩٤٨ . إلا أن هذه الدولة قامت على التضليل والاغراء وتشويه التاريخ ، وهي لا تملك مقوفاً واحداً من مقومات الأمة ، وهذا ما جعلها تتحول إلى واقع مليء بالمشاكل والمتاعب ، ذلك أن مجيء اليهود إلى فلسطين من دول كثيرة ليسكنوا في بلد ، هم غريبون عنه بقدر ما هو غريب عنهم وليقيموا فيه بالقوة والعنف مجتمعاً واحداً ، لم يكن بالأمر السهل الذي حلم أوائل الصهاينة بتخطي صعوباته (١) فما أن قامت دولة اسرائيل حتى قامت معها عشرات المشاكل والصعوبات السياسية والاجتماعية التي هزت كيانها المصطنع وما زال تبحث به إلى أن يزول .

يقول عالم الأجناس البريطاني الدكتور / فانتون / الذي زار اسرائيل عام ١٩٦٦
« إن اسرائيل مجتمع في طريقه إلى التمزق » .

وإضافة إلى ذلك فإن الارهاب الصهيوني في فلسطين المحتلة يعتبر فصلاً أسود في التاريخ الانساني ، فكما أن عدداً كبيراً من الناس أصبحوا وحوشاً بشرية بفعل العرقية النازية وتلطخت أسماءهم بألوان من الفظائع البربرية فإن الامـسرائيليين قد انقلبوا بفعل العرقية الصهيونية إلى وحوش إرهابيين تملأ أعماهم القلب الانساني بالأسى والاستنكار مما دعا « جيرمان ديون » (٢) إلى القول : « إن لعنة القسوة والوحشية متصل الى اليهود الصهاينة ولن يفلتوا من أيدي القدر... »

اتهى البحث

١ - التمييز ضد اليهود الشرقيين في اسرائيل تأليف / هيلدا شعبان الصايغ / .

٢ - الارهاب الصهيوني : تأليف / فرانتز شايدل / ص ٤٨ .

الوثائق التاريخية في صحيح البخاري

بقلم الامتاز عبد الرزاق الاصفر

لقد أصبح التاريخ اليوم علم الحقائق لاعلم الروايات ، وأخذ المؤرخ بمنهج البحث التاريخي الذي يعتمد على النصوص الوثائقية ومحاكمتها والبحث عن حشيتها ومصادرها وتقدير قيمتها التاريخية بمقارنتها مع غيرها من النصوص ، ومن ثم استنتاج الحقائق التاريخية منها وربط هذه الحقائق بعضها ببعض ضمن السياق التاريخي العام . ومن هنا أصبح التاريخ يعتمد على الحفريات والنقوش والوثائق والمخطوطات والنقود والمقاييس وعلى الأجهزة العلمية التي تساعد على البحث والكشف عن الأعمار الزمنية ، وذلك حتى تكون أحكامه أقرب ما تكون إلى الحقيقة وأبعد ما تكون عن التخمين والظن والرجم بالغيب .

وحين ننظر إلى كتبنا التاريخية نجد أنها بحاجة إلى إعادة التمهيد . وهذا ما عبر عنه الكثيرون بإعادة كتابة التاريخ ، وذلك لما يتسرب إلى معلوماتها من الشك بسبب ما يعتورها من التأرجح والتخبط والتناقض والبالغة والتعصب في كثير من الأحيان . وهنا تبرز أهمية النصوص 'الأكيدة التحقيق' كالقرآن الكريم أو العالية التحقيق كالأحاديث الصحيحة .

والئن كان القرآن النص الذي لا يأتيه الشك من بين يديه ولا من خلفه فتأتي بعده في الصحة الأحاديث الشريفة الصحيحة . ومن حظ التاريخ العربي والإسلامي أن الحديث خضع إلى منهج مبكر في التدقيق والتحقيق والتحري من قبل علماء الحديث وجامعيه ، وكانت الغاية في أول الأمر دينية محضاً بسبب حرصهم على السنة التي تكمل القرآن الكريم شرحاً وتوضيحاً وتفصل ما أجمل فيه وتروي سيرة النبي وأفعاله وهي بالنسبة للمسلمين واجبة الاقتداء ولا سيما في الأمور العبدية والعقدية وفي انعامات والأخلاق والآداب لقوله تعالى :

« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، وقوله : « ولكم في رسول الله أسوة حسنة » .

وليس هنا مجال البحث عن القيمة الدينية للأحاديث ، بل مجال البحث عن قيمتها التاريخية .

ولنتحدث مباشرة عن أول كتبها وأعظمها ألا وهو الجامع الصحيح للإمام البخاري . ولا بد قبل ذلك من لمحة موجزة عن صاحبه . فالإمام محمد البخاري من الموالى الفرس ، ولد في بخارى عام ١٩٤ هـ . وكان أبوه محدثاً . وقد نشأ البخاري يتيماً وورث عن والده مالاً ساعده في رحلاته العلمية فيما بعد . وكان على جانب كبير من الذكاء والورع والأمانة والصدق . وحفظ وهو في الماشرة كتب وكيع وابن المبارك . وكانت أولى رحلاته إلى الحجاز وهو في السادسة عشرة حيث تخلف ليجمع الأحاديث من مكة والمدينة ثم غادرها إلى بلخ فمرو فنيسابور فالري فبغداد فالكوفة فالبصرة وواسط ثم ذهب إلى الشام فزار دمشق وحمص وقيسارية وعسقلان ثم غادر الشام إلى مصر ثم عاد إلى وطنه بعد هذه الرحلة الطويلة التي دامت ستة عشر عاماً قضاهما في البحث عن علماء الحديث ورواته وحفاظه ولقي فيها من التعب والمشقة ما لم يلقه أحد من العلماء . كل ذلك في سبيل العلم . وتوفي البخاري في عام ٢٥٦ هـ وله عدا الجامع الصحيح مؤلفات كثيرة منها التاريخ الكبير والتاريخ الأوسط والتاريخ الصغير وكان يملك في تحقيق أخباره التاريخية مسلكه في تحقيق روايات الحديث وله مؤلفات في الفقه والسنن جليلة القدر .

والذي هل البخاري على تأليف كتابه مارآه ، في عصره ، من كثرة رواية الحديث ومن الشكوك التي تكثف الأحاديث بسبب العصبية القبلية أو الاتجاهات السياسية والنزاع بين الشعوية والسروية والمنازعات الكلامية ، ورغبة بعض ضفاف النفوس التقرب من الخلفاء والأمراء ، وما أدخله الوعاظ من أحاديث الترغيب والترهيب وما اخترعه القصاصون من الروايات المختلفة لجذب الناس ، أو من الأساطير والخرافات الاسرائيلية وسواها . . .

كل ذلك أدى بأصحاب النظر إلى التردد في قبول الحديث وجعل من الصعب الوثوق بصحة أي حديث يسمعونه مما أدى إلى وجود فراغ في الدين وبحوثه التي كانت على أوجها في النصف الأول من القرن الثالث الهجري . ولذلك قرر الإمام البخاري الخروج إلى الناس بكتاب يجمع الأحاديث الصحيحة المعتمدة عليها ، فكان أن ألف هذا الكتاب بعد أن اختار أحاديثه من مئات الآلاف من الأحاديث التي جمعها وحفظها وأعمل في متونها واسانيدھا مبضع الفاحص المدقق .

يبلغ عدد أحاديث الجامع الصحيح ٩٠٨٢ حديثاً وهي كل ما أورده البخاري، فإذا حذفنا من هذا العدد الأحاديث المكررة التي تدخل في أكثر من باب وعددها ٤٥١٣ حديثاً ثم أسقطنا الأحاديث المتابعة وهي الأحاديث التي تعاد روايتها من طريق اسنادي آخر وعددها ٥٦٦ حديثاً ثم حذفنا بعد ذلك الأحاديث الملققة وهي التي رويت فقط عن الصحابي الأول الراوي عن رسول الله كأن يقال: عن عمر رضي الله عنه . . أو التي سقطت من اسنادها أحد الرواة وعددها ١٣٤١ حديثاً . . أقول إذا أسقطنا هذه الأحاديث بقي لدينا ٢٧٦٢ حديثاً هي زبدة كتاب البخاري التي اختارها خلال عشرين عاماً من بين مئات آلاف الأحاديث . وهذا يصور لنا مدى دقة وحرصه على اتقان عمله .

وقد نهج البخاري في تأليف كتابه منهجاً خاصاً . فجعل منه كتاب فقه علاوة على كونه جامع أحاديث ، ولذا رتبته وبيّنه حسب أبواب الفقه . وكان يأتي بجميع الأحاديث التي تتعلق باب معين ، ثم يأتي بالآيات القرآنية التي تتعلق بالموضوع نفسه ثم يوفق بين الأحاديث والآيات ويستخرج الأحكام ، ويعطي رأيه ، وهذا مادعا المحدثون بترجمة الأحاديث . ذكر البخاري أولاً كتاب الصلاة فالزكاة فالصيام فالحج واليوم والعمالات والمرافقات والشهادات والوصية والوقف والجهاد ، وكل هذه الأبواب فقهية ، ثم أورد كتباً غير فقهية تتعلق بالمعقائد كسوء الخلق والجنة والنار ، ثم أورد تراجم الأنبياء وفضائل الصحابة والمهاجرين والأنصار والسيرة النبوية والغازي وتفسير بعض الآيات ، ثم عاد إلى الفقه فذكر الطلاق والزواج والأطعمة والأشربة والآداب والاستئذان وصلة الرحم والحدود والنفور والاكراه وتفسير الرؤيا والفتن وأحكام الاجتهاد والوصية وغيرها . . . وقد بلغ مجموع هذه الكتب سبعة وتسعين كتاباً .

وكان كل كتاب يحتوي على أبواب وفصول بلغ عددها ٣٤٥٠ باباً وفصلاً . منها ما يطول ومنها ما يقصر حتى ليرد فيه الحديث الواحد ومنها ما هو أبيض لا يحوي شيئاً . وكثيراً ما نجد فيه عناوين ولا نجد تحتها شيئاً من الأحاديث أو نجد أحاديث بدون عنوان ضمها الشارحون إلى أحد الأبواب . ويظهر أن البخاري توفي قبل أن يتم كتابه أو أنه بشكل مسودة نظمها الشارحون فيما بعد .

وإذا كان لهذا الترتيب فضائله الفقهية فقد اضطره إلى أن يقطع بعض الأحاديث ليوزعها بين بابين إذا كانت متعلقة بموضوعين مختلفين . فكثيراً ما نرى مثلاً شطر

الحديث في باب الصلاة وشطره الآخر في باب البس . ويصعب الجمع بين الشطرين
لولا وحدة السند .

شروط البخاري : إذا تحدثنا عن شروط البخاري في قبول الحديث فهذا لا يعني

أنه وضع شروطاً مسبقة قبل أن يشرع في جمع الأحاديث أو قبل أن يبدأ تأليف كتابه . ولكن هذه الشروط التي سنذكرها إنما استتجت من قراءة الكتاب وتبصع الأحاديث والتأمل في آرائه حول المتون والأسانيد وما فيها من قوة أو ضعف . فوجد كأنما يسير على منهج مرسوم وقواعد منظمة وشروط معينة . إلا أن هذه الشروط لا تضطر بل يمترضا بعض الشذوذ الذي لا يمنع من إطلاق القاعدة . وعلى كل حال فهذا الشروط ليست من نصه بل من استنتاج الدارسين . وهي على قسمين :

(الأول) شروط السند والسند عنده شرط واحد وهو أن يكون متصلاً من رواية الحديث حتى النبي عليه السلام أي ذكر كل روايته واحداً عن آخر بلفظ السماع أو التحديث كأن يقول الراوي : سمعت فلاناً يقول أو حدثني فلان عن فلان... الخ وكلها تعني الأخذ الصريح المباشر . وخلاف السند المتصل السند المنقطع وقد ذكرناه في مطلع هذا البحث . ورواية البخاري للمنقطعات قليلة .

(الثاني) شروط الرواة : وهي سبعة شروط :

- ١ — أن يكون الراوي مسلماً . فلا تقبل رواية الكافر أو الذمي .
- ٢ — أن يكون عدلاً مشهوراً بعدالته .
- ٣ — أن يكون صادقاً فلا تقبل شهادة الكاذب ولو مارحاً أو هازلاً .
- ٤ — أن يكون ضابطاً والضبط هنا قوة الحافظة وقلة الخطأ والنسيان والبعد عن الخلط ، وهو أن يكون الراوي ثقة في نفسه ولكنه لا يدري ممن سمع هذا الحديث أو يخلط إسناداً بآخر .
- ٥ — أن يكون غير مدلس . والتدليس في الإصلاح قريب من الكذب وهو أن يسقط فرداً ضعيفاً من أفراد إسناده وافماً بين رجال أقوياء فيتجاهله ليكسب حديثه القوة والشهرة .
- ٦ — أن يكون متبعاً غير مبتدع . والمبتدع صاحب البحث والرأي والأخذ بالعقل والفلسفة واتباع المذاهب المبتدعة كالمعتزلة والمرجئة والزنائدة . أما الخوارج ،

فقد روى عنهم البخاري لأنهم يعتبرون الكذب كبيرة يكفر صاحبها . وقد روى البخاري عن عمران بن حطان حديثاً واحداً . والغالب أنه يميز الرواية عن غير الغلاة منهم ، كالفقهاء أو عمن ذهب مذهبهم ثم قاب (ذهب بعض المحدثين إلى أنه لا تجوز الرواية عنهم جميعاً لأنهم كفروا علماً ولا يجوز تكفير المؤمن) .

٧ - أن يكون معروف الحال غير مجهول الاخلاق والأعمال .

ويظهر من هذه الشروط أن المقصود منها مجتمعة في شخص الراوي أن يكون موثقاً به ولكن ماهو مقياس الثقة ؟ إنه مقياس نظري محض ، يستند إلى نظرة المرء وأقوال الناس وإلى ملاحظة الظاهر من السلوك والأعمال . وهذا جهد الدارس . وإذا كانت النوايا والضمائر من الأمور الغيبية فعليها من السلوك دليل .

فاذا اجتمعت هذه الصفات للراوي ، وكان معاصراً لمن روى عنه وملازماً له ملازمة طويلة كان من رواة الطبقة الأولى . وهي الطبقة التي اعتمد عليها البخاري في رواية أحاديثه الأصلية . وإن كان معاصراً له ولم يلزمه أو لازمه فترة قصيرة كان من رواة الطبقة الثانية . والبخاري يروي عن هؤلاء أحاديث التقوية . أما الامام مسلم فقد اعتبر الطبقة الثانية بمنزلة الطبقة الأولى . وهناك طبقات أخرى دون هاتين لم يرو عنها البخاري . وروى مسلم عن الثالثة للتقوية . وهذا ما يؤكد لنا تشدد البخاري في قبول الرواية بالنسبة إلى غيره من المحدثين

وقد لاحظ بعضهم أن البخاري يؤثر الأحاديث التي يرويها اثنان عن اثنين حتى الرسول فطنوا ذلك شرطاً من شروطه . وإكفنه في الحقيقة لم ياتزم بهذا الشرط في كتابه ولاقصده .

الانتقادات الموجهة الى صحيح البخاري :

وجهت إلى الجامع الصحيح الانتقادات التالية :

١ - إتيانه بالترجمة والآيات والأحكام مع الأحاديث . بخلاف صحيح مسلم الذي أفرد للأحاديث فقط . وقد أجيب عن هذا الانتقاد بأن البخاري أراد أن يخدم الفقهاء بتدوين ما حصل لديه من العلم نتيجة ممارسته الطويلة للحديث .

٢ - تقطيعه بعض الأحاديث بين باين أو أكثر . والحق إنه إذا أراد أن يذكر من الحديث ماله علاقة بالباب وجب أن يفصل ما سواه . وعلة ذلك أيضاً التبويب الفقهي .

٣ — كان البخاري ، في الغالب ، يوجه نقده لرجال الحديث بدون أن يحاكم
متن الحديث نفسه . فقد أورد أحاديث يكذبها العقل والواقع والتجربة ، كالحديث
الذي رواه عن سعيد بن غفير عن الليث عن عبد الرحمن بن خالد عن ابن شهاب
عن سالم عن عبد الله بن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ يوماً في آخر حياته
بعد أن صلى العشاء وسلم : « أرأيتم ليلتكم هذه ، فإن رأس مائة سنة منها لا يبقى
على ظهر الأرض أحد ! » . وهذا ماظهر للبخاري خلقة .

٤ — طعن علماء الحديث المتقدمون بثمانين رجلاً من رواة البخاري ، فمثلاً : روى
عن عكرمة مولى ابن عباس ، الذي قال فيه عبد الله بن عمر يخاطب مولاه نافعاً :
لا تكذب علي كما كذب عكرمة على ابن عباس . . . وعكرمة هذا كان يرى رأي
الخوارج الصفرية . وكذلك روايته عن اسماعيل بن أويس الذي أقر على نفسه
بوضع الأحاديث .

وأجيب عن هذا بأن عدد المطعون فيهم من رواة البخاري قليل إذا قيس بالعدد
الضخم من الرواة الذين روى عنهم ويقدرُونَ بالآلاف . وكذلك إذا قيس بعدد
المطعون فيهم من رواة مسلم وعددهم / ١٦٠ / رجلاً أكثرهم من المتقدمين من رواة
البخاري . ثم إن البخاري كان يورد أحاديث هؤلاء على سبيل التقوية لا على سبيل
الأصالة والاعتماد .

هذه هي المآخذ التي وجهت إلى صحيح البخاري وهي بسيطة جداً بالنسبة
إلى حسنات الكتاب ومزاياه . وفي الحقيقة إنه يعد بالنسبة لعلم الحديث فتحاً جديداً
إذ ظهر بشكل كتاب منهجي متكامل يحقق بعد طبقة كتب المسانيد التي جمعها رجال الطبقة
الثالثة من تابعي التابعين سواء من أهل الحجاز مثل مالك وابن جريج أم من أهل
الشام مثل الأوزاعي أم من أهل العراق مثل الثوري وحماد . ولكن رجال هذه
الطبقة ضمنوا كتبهم كثيراً من أقوال الصحابة وفتاواهم . وقد تلام جماعة أفردوا
كتبهم الرواية عن صحابي واحد ، فكانت كتب المسانيد مثل المسند عن أبي بكر
أو المسند عن عائشة . ومن هؤلاء المؤلفين أحمد بن حنبل . ولم يستقر تدوين
الحديث بشكل منهجي يحقق إلا على يد البخاري . ولهذا يعد فتحاً جديداً اتبعه
فيما بعد كثير من الجامعين مثل مسلم والنسائي والترمذي ، فترسموا خطاه واعترفوا له
بالفضل والتقدم فأضافوا إلى علم الحديث روافد جديدة وإن لم يبلغوا من الكمال
العلمي مابلغه الإمام البخاري .

والخلاصة إن كتاب البخاري كتاب نصوص وثائقية يمكن للمؤرخ أن يعتمد عليها إلى درجة كبيرة وبخاصة بعد أن عكف المحدثون على نقدها وتبيان مواضع العلة والضعف فيها وفرغوا من ذلك منذ زمن طويل . ولا يسهل الباحث في تاريخ الاسلام إلا أن يجعل صحيح البخاري أحد مصادره المتعمد عليها . أما قيمة الكتاب من الناحية الدينية ومن الناحيتين اللغوية والأدبية فهي عظيمة جداً ولا مجال للحديث عنها في هذا البحث . وأهم ميزة لصحيح البخاري أنه قدّم لنا منهجاً علمياً للتحقيق في الروايات أفاد منه المؤرخون العرب بل والأدباء أيضاً . على أن مؤرخ العصر الحاضر يفيد من جميع كتب الأحاديث ولو اختلفت وتناقضت فيما بينها لأنه سيعمل منهجه العلمي التاريخي أيضاً في سبيل الوصول إلى الحقائق الراجحة نسبياً إن لم نقل الأكيدة . وإن المؤرخ ليستفيد أيضاً من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة إذ لا بد أن يتساءل : ما الدافع السياسي أو الديني أو الاجتماعي الذي دفع القوم إلى وضع هذا الحديث أو ذاك . أليس هنا مجال للبحث عن حقيقة كامنة ؟

مصادر البحث :

- ١ — ضحى الاسلام لأحمد أمين
- ٢ — طبقات الشافعية للسبكي
- ٣ — تاريخ بغداد للخطيب البندادي
- ٤ — وفيات الأعيان لابن خلكان
- ٥ — الفهرست لابن النديم
- ٦ — دائرة المعارف الاسلامية
- ٧ — مقدمة عمدة القاري في شرح صحيح البخاري للعيني
- ٨ — هدى الساري لابن حجر العسقلاني
- ٩ — شروط الائمة الخمسة للخوارزمي
- ١٠ — البداية والنهاية لابن كثير ج ١١
- ١١ — صحيح البخاري .

مدخل الى دراسة ديك الجن الحمصي

سمر روعي الفيصل

تطلع الدراسة التالية إلى نتيجة مبدئية مفادها الاعتماد على المصادر في تكوين هيكل لديك الجن الحمصي أقرب إلى الشخصية التاريخية الحقيقية .

ومن هنا يستفيد المرء من طرائق البحث التاريخي وبخاصة المنهجية منها .

— ١ —

ديك الجن واحد من الذين تتمثل فيهم الحقيقة القائلة إن الأدب العربي لم يؤرخ بعد تأريخاً منظماً ، وإنه مازال في خضم من الاضطراب لانعلم مداه ، إلا أنه اضطراب يعقبه هدوء ، وفوضي ستؤول إلى نظام . وسنحاول في هذه الأسطر رسم معالم الطريق التي نراها صحيحة في دراسة شاعر العصر العباسي ديك الجن الحمصي .

تسكاد كتب الأدب تجمع على أن ديك الجن من أكبر شعراء العصر العباسي ، وأنه خير ممثل للمدرسة الشامية التي عرفت في القرن الثالث للهجرة بثقيف الشعر ، والعلم بفنونه درساً وتأليفاً ، والاستقصاء ، والجزالة والسلاسة والمذوبة . ولا غرو بعد ذلك أن تقرأ عن تلمذ أبي تمام الطائي عليه ، وأنه كان سبب شهرته وذووع صيته . وتسكاد كتب تاريخ الأدب تمدنا بالمعلومات التالية عن حياة ديك الجن الحمصي .

ولد عبد السلام بن رغبان الملقب بديك الجن (١) في حمص سنة إحدى وستين ومائة ، وعاش بضماً وسبعين سنة ، وتوفي سنة خمس وثلاثين ومائتين في حمص ذاتها (٢) . ولم يبرح خلال ذلك فواحي الشام ، لأنه آثر البقاء في حمص بجانب الجبان وأهل الخلاعة ، فقد كان مثلهم خليعاً ماجناً منعكفاً على القصف والاهو . ولم يجد مع هؤلاء الصحب غير بساتين حمص الموقفة مكاناً لا يثار هذه اللذات ، فاعتكف بها ، وصار لا يبارحها إلا لماماً . على أنه تغير حين عرف ورداً بنت الناعم ، فأحبها وتزوجها لكنه قتلها بيده نتيجة وشاية قام بها ابن عمه أبو الطيب (؟) . وملخص

هذه الحادثة أن ورداً خانت زوجها مع غلام له في أثناء غيابه في سلبية في زيارة أصدقائه من بني هاشم . ويكتشف ديك الجن الخديعة بعد قوات الأوات ، فيظل يبكي على زوجه ، أو عليها مع غلامه ، بقية حياته ، ويقول فيها شعراً ما فتئت كتب الأدب تردده ، وأهم أشعاره في هذا قصيدته :

ياطلعةً طلع الحيام عليها	وجني لها ثمر الردى بيديها
رويت من دمها الثرى ولطالما	روى الهوى شفتي من شفتيها
قد بات سيني في مجال خناقمها	ومدامي تجري على خديها
فوحق نعلها وما وطىء الحصى	شيء أعز علي من نعلها
ما كان قتلها لأنني لم أكن	أبكي إذا سقط الغبار عليها
لكن ضننت على الميون بحسنا	وأفت من نظر الحسود إليها



هذه النقاط هي أهم ما تناقلته كتب تاريخ الأدب ، ويلاحظ الباحث أنها أهملت فترة حياته الأولى حتى حبه لورد (٤) ، وفترة حياته الأخيرة بعد قتله لورد . ليس ذلك فحسب ، بل إن ماروته هذه الكتب مليء بالثغرات التي تقلل من أهمية هذه الروايات ، إن لم تنقلها إلى ساح الشك في أحيان كثيرة . وفي هذا المجال فورد الإشارة - بشيء من اليقين - إلى أن معظم المعلومات التي وردتنا عن هذا الشاعر مأخوذة من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (الجزء ١٤) ، وعن هذا الكتاب تفرعت معلومات أخرى اجتهدية لعب في أكثرها خيال أصحابها دوراً كبيراً ، صوروا فيه ديك الجن رجلاً أهوج يتحكم فيه حب الذات .

بعد هذا كله ، أين ديك الجن من ذلك كله ؟ وما صحة مارووه عنه ، وكيف نستطيع الوصول إلى معلومات كافية وافية تنير لنا حياته وشعره ؟ .

- ٢ -

معالم الطريق

الطريق الصحيحة في رأيي أن نتمدد على شعره في سد ثغرات حياته أولاً ، وهي الصحيحة ثانياً في دراسة شعره دراسة أدبية وافية ، فأين هذه الأشعار ؟ .

١ - الديوان :

لا يوجد ديوان يجمع أشعاره كلها ، فقد ضاع هذا الديوان مع ماضع من تراثنا ، وقيل إنه موجود في الهند ، لكن أهل العلم لم يروه ، وما يزال لديهم أمل في العثور على ديوانه بين المخطوطات العربية الموزعة في أرجاء العالم . وعلى هذا فلم تبق بين أيدينا غير قصائد ومقطوعات وأبيات مفردة مبثوثة في كتب الأدب القديمة ، وقد توفر على جمعها بين دفتي كتاب واحد ، بعض الأدباء فأخرجوا بمجموعين تحت اسم ديوان ديك الجن المحصي :

الأول :

قام به الشاعران الحمصيان عبد المعين الملوحي ومحي الدين الدرويش ، وقد أخرجوا هذا المجموع (٤) بعد جهد خمسة وعشرين عاماً ، فاستحقا بذلك شكر أهل الأدب أجمعين ، لأن لهما فضل إحياء هذا الشاعر بين أناس كانوا يجهلون . ويضم هذا المجموع اثنين وعشرين وأربعمائة بيت فقط .

والثاني :

قام به المحققان المراقبان عبد الله الجبوري والدكتور أحمد مطلوب ، وقد جمعا فيه أشعار الديوان الأول وأشعاراً أخرى عثرا عليها بأنفسهما ، فكان لهما بذلك فضل متابعة الجهد وثناء أهل الأدب (٥) .

على أن الديوانين لا يجمعان أشعار الشاعر كلها ، بدليل أننا وجدنا له أشعاراً أخرى جديدة لم نثر عليها فيها ، ونكتفي الآن بالإشارة الى أماكن وجود بعضها :

— حماسة ابن الشجري ٨٩٩/٢

— قطب السرور في أوصاف الخمر ٣٥١ - ٥٤٨ - ٥٦٠ - ٦٤٧ - ٦٤٨ - ٦٥٨
وهذان الكتابان رأيا النور بعد إخراج الديوانين ، ولم يكن في مكنة المحققين الأفاضل الاطلاع عليها .

مادمنّا نتحدث عن شعره فعلينا التأكيد أولاً من صحة نسبة القصائد التي تناولها بالدراسة اليه . فقد وجدنا كثيراً من شعره ينسب الى غيره مما يدعو الى الحيرة في هذا الأمر ، فقصيدته المشهورة :

باطلعة طلع الحمام عليها وجنى لها ثمر الردي بيديها

منسوبة في الاغاني نفسه للسليك بن جهم ، وقصيدته (٦) :

وليلة بات طلة النيث ينسجها حتى إذا كملت أضحي بدبجها

منسوبة الى الخباز البلدي مع اختلاف في عدد أبياتها وألفاظها ، كما ذكر ذلك الثمالي صاحب بئمة الدهر . وغير ذلك كثير نلاحظه في حواشي الدلائل المطبوعين ، مما يدل على عدم دقة الرواية بسبب ضياع الديوان الأصلي ، وإذن فأمام الباحث عمل شاق لكنه مجد في النهاية .

٢ - أخبار الشاعر :

في هذا المجال ، علينا أولاً استبعاد رواية الاغاني ، أو ترك الشك يداعب ماورد فيها دوماً ، فلكتاب الاغاني سيطرة على أدبنا العربي لانعرف لغيره مثل هذه السيطرة . ولا علينا إن أردنا الدراسة العلمية الصحيحة أن نستبعد رواية هذا الكتاب ، أو أن ندرس هذه الرواية دراسة دقيقة دون أن نعتبرها أصلاً ننطلق منه ، ذلك أننا نراها عند كل من تحدثوا عن هذا الشاعر من قدماء ومحدثين . وسبب افتراحنا استبعاد رواية هذا الكتاب أننا نشك في صحتها جملة وتفصيلاً ، وربما كان لتشيع ديك الجن دور في كون الرواية على هذه الصورة .

بعد هذا ، على الباحث أن يبحث مصادر أخبار الشاعر وهي في رأي قسبان :

أ - مصادر أصيلة : وهي

١ - كتاب الأغاني - أبو الفرج الأصفهاني - دار الكتب - القاهرة - ١٩٢٧

٢ - شعراء الشام في القرن الثالث - خليل مردم بك - مطبعة الترقى - دمشق - ١٩٢٥

٣ - أعلام الأدب والفن (ج ١) - أدم الجندي - مطبعة مجلة صوت سورية - دمشق - ١٩٥٤

٤ - ديك الجن الحمصي - البدوي المثلث - (لم أعثر على الكتاب)

٥ - محاضرات الموسم الثقافي ٦١ - ١٩٦٢ - وزارة الثقافة - دمشق ١٩٦٣

٦ - مقدمة ديوان ديك الجن الحمصي - جمع : الملوحي والدرويش - تحصى ١٩٦٠

٧ - مقدمة ديوان ديك الجن الحمصي - جمع الجبوري ومطلوب - بيروت ١٩٦٤

ب — مصادر فرعية :

وهذه المصادر تنير بعض النقاط المجهولة لدى الباحث ، وهي كثيرة جداً بحيث يصعب حصرها ، وسأذكر أهمها مراعيًا ذكر أرقام الصفحات التي ذكر فيها ذلك الجن ، والأجزاء ، والطبعة ، والمحقق ، ودار النشر إن وجدت :

١ — قطب السرور في أوصاف الخمر - الرقيق النديم - تح : أحمد الجندي

مط : مجمع اللغة العربية بدمشق - ١٩٦٩

ص : ٢٧٨ - ٣٥١ - ٥٤٨ - ٥٦٠ - ٥٩٢

- ٦٢٣ - ٦٤٦ - ٦٥١ - ٦٥٨ - ٧٠٣ .

٢ — الوشح - المرزباني - تح : علي محمد البجاوي

دار نهضة مصر - القاهرة - ١٩٦٥ ص ٥٣٣

٣ — إعتاب الكتاب - ابن الأثير تح : د. صالح الأشر

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق - ١٩٦١ - ص ١٥٩

٤ — ألحان الحان - عبد الرحمن صدقي

دار المعارف - القاهرة - ١٩٥٧ ص ٩٦

٥ — تاريخ الأدب العربي - كارل بروككن - تر : د. عبد الحليم محمود

دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٨ (الط ٢) ص ٧٢/٢ - ٧٧

٦ — أخبار أبي فواس - ابن منظور المصري - تح : محمد عبد الرسول إبراهيم

- عباس الشربيني : مطبعة الاعتماد - القاهرة - ١٩٢٤ - ص ٢٤٢/١ - ٢٤٣

٧ — حياة الحيوان الكبرى - الدميري -

كتاب التحرير - القاهرة - ١٩٦٥ - ص ٦١٦/١

٨ — الممالك والممالك - الاصطخري - تح : د. محمد جابر عبد السلام الحيني

ترائنا - القاهرة - ١٩٦١ - ص ٤٦ (عن حمص خاصة)

٩ — عجائب المخلوقات - القزويني

كتاب التحرير - القاهرة - ١٩٦٥ - ص ٣١٨ - ٣٢٥

١٠ — الموازنة - الآمدي - تح : محي الدين عبد الحميد

المكتبة التجارية - القاهرة - ١٩٥٩ (الط ٣) ص ٥٤

١١ - المثل السائر - ابن الأثير (ضياء الدين) - ثح : د . بدوي طباعة
مكتبة نهضة مصر - القاهرة - ١٩٥٩ - ١٩٦٠ - ص ١٧٠/١ و ١٠١/٢

١٢ - النثر الفني - زكي مبارك
المكتبة التجارية - القاهرة - ١٩٥٧ (البط ٢) ص ٢٥/٢

١٣ - أمالي الزجاجي - الزجاجي
المؤسسة العربية الحديثة - القاهرة - ١٣٨٢ هـ ص ١٠٢ وما بعد

١٤ - الممددة - ابن رشيق
مطبعة أمين هندية - القاهرة - ١٩٢٥ (الط ١) ص ٦٤/١ و ١١٩/٢

١٥ - ذم الهوى - ابن الجوزي - ص ٦٤٩ وما بعد (؟) .
هذا ، إلى كتب التراجم التي لاغنى عنها في كل بحث علمي ، وبخاصة هنا
كتاب وفيات الأعيان (ج ١) ، وكتب التاريخ والأدب العامة كتاريخ ابن عساكر
(لا توجد له طبعة محققة تحقيقاً علمياً ، عدا الأجزاء التي أخرجها مجمع اللغة العربية
بدمشق ، ومحاضرات الأدباء ، وتزيين الأسواق ، والمستطرف من كل فن مستظرف ،
ودوان الصبابة ، وعقلاء المجانين ، ومدايع المشاق ، و . . .

٣ - تصنيف الأشعار والأخبار :
وهذه خطوة أخرى هامة في سبيل دراسة شاعرنا ، إذ أننا نرى ركائماً من
الأخبار والأشعار الموثوقة ، فماذا نفعل بها ؟ .

أ - الأشعار :

سيلاحظ الباحث أن شعر ديك الجن يقع في معظمه ضمن النقاط التالية :

★ شعره في الحمرة

★ شعره في ورد خاصة

★ شعره في غلامه بكر

★ شعره في مديح الهاشميين

★ شعره في الموضوعات العامة (الوصف — الغزل . . .)

على الباحث تصنيف هذه الأسماء ، ومحاولة معرفة الأزمنة التي قيلت فيها ، لأهمية ذلك في أثناء الكتابة عن الشاعر . وعلى الباحث أيضاً التنبيه إلى قسوافي أشعارشاعرنا ، فهناك قواف لا نجد لها ، وأخرى يكثر ديك الجن منها ، وثالثة يقول عليها بيتاً أو بيتين . ففي ديوانه (جمع الملوحي والدرويش) لا نجد قوافي على الأحرف التالية : الخاء والذال والزاي والسين والضاد والطاء والنين والواو ، بينما تكثر القوافي على الأحرف التالية : (الباء ٦٩ بيتاً) ، (الدال (٢٤ بيتاً) ، (الراء (٨٣ بيتاً) ، (الفاء (٢٠ بيتاً) ، (اللام (٧٩ بيتاً) ، (الميم (٣٢ بيتاً) ، (النون (٢٥ بيتاً) ، ولا نجد على باقي الأحرف غير أبيات قليلة : الألف (٦) ، (الميم (٣) ، (الجيم (٤) ، (الخاء (٨) ، (السين (١١) ، (الصاد (١) ، (الظاء (٢) ، (العين (١١) ، (الهاء (٨) ، (الياء (١٠) .

وعلى الباحث قبل الشروع في دراسة الشاعر ، التنبيه إلى اختلاف الرواية بين بيت وآخر في كل من الديوانين المطبوعين وكتب الأدب الأخرى . ففي حماسة ابن الشجري مثلاً بيتان ، أولهما غير موجود في الديوان ، والثاني موجود إلا أن فيه اختلافاً عن رواية الديوانين المطبوعين « ٧ » .

ب - الأخبار :

وهذه الناحية جديرة بالاعتبار لأنها تنير طريق الأشعار ، وتمهد سبيل الدراسة ، وهي كثيرة لا حصر لها . نصنفها في النقاط التالية :

١ — أخبار حياته

٢ — أخبار مأساته

٣ — أخبار مجونه

٤ — أخبار اجتماعه بدار بني هاشم في سلمية .

وقد سبق أن لاحظنا أن هذه الأخبار لا تفي بالغرض ، غير أنها هامة في هذا المجال . وننبه إلى تصنيفها زمنياً لمعرفة الخبر الأصلي والفروع الاجتهادية المأخوذة عنه . ولا غنى للباحث عن استعمال خياله في ربط هذه الأخبار ، كما فعل عبد الممن الملوحي حين ألقى محاضراته في السويداء عن ديك الحمصي .



مرة أخرى بعزو المرء غياب ديك الجن عن الدراسات الأدبية والنقدية إلى وعورة الطريق إليه ، ولعل في الذي فعلناه خيراً .

هوامش البحث

(١) ذكر القزويني في عجائب المخلوقات (ص ٣٢٥) ، والدميري في حياة الحيوان الكبرى (١ / ٦١٦) ، ان ديك الجن دويبة توجد في البساتين . وقال غيرها : سمي بذلك لاختضار عينيه . وأقرب الرأيين إلى الصواب الأول ، لكثرة اختلاف ديك الجن إلى البساتين وملازمته لها . انظر أيضاً شعراء الشام لتحليل مردم / ص ٥٨ .

(٢) : وفي رواية أخرى سنة ست وثلاثين .

(٣) : حاول الاستاذ عبد المين الملوحي سد هذه الثغرة ، فقسم مراحل حياة شاعرنا إلى ثلاث :

- أ : ولادته وتلقيه العلم بجمص ، وتنتهي عند حادثة المسجد
- ب : فزع الفتى إلى البساتين واعتكافه بها ، واطلاق لقب ديك الجن عليه .
- ج : جنوحه نحو المحبون والحرة ، وقصة حبه ، ثم مأساته التي مرت كذلك بثلاثة أدوار :

١ : الدور الذي كان فيه ما يزال يستقد أن ورداً خائنة

٢ : دور بقطة الضمير ، والشك في حياتها .

٣ : دور معرفة الحقيقة ، وفيه نرى الحزن العميق والالم الدفين .

(محاضرات الموسم الثقافي ص ٢٣٩ وما بعد)

(٤) : طبع على مطابع الفجر الحديثة - حمص ١٩٦٠

(٥) : طبع في دار الثقافة - بيروت - ١٩٦٤

(٦) : هذه القصيدة غير موجودة في الديوانين المطبوعين ، بل هي في قطب

السرور ص ٥٤٨

(٧) : انظر الحماسة ٢ / ٨٩٩ ، وديوان الملوحي ص ٣٦ ، وديوان الجبوري ص ١٦٥

النشاط العربي الواسع للجمعية التاريخية

في حمص بين ١٩٧١ - ١٩٧٧

تأسيس الجمعية التاريخية في حمص :

حيا الله تلك الأيام التي جمعتنا على الحب والوودة والاخلاص من عام ١٩٧١ وما قبله ، فقد كنا مجموعة من الشباب ، متفاهمين ، منسجمين ، مؤمنين بحقنا في الحياة ، نحاول اثبات هذا الحق وتأكيده بأية طريقة من الطرق ، ونحاول الاصلاح في ميدان اختصاصنا وفيما تطلاله أدينا من الفساد ، ما استطعنا من اصلاح ، فاجمعنا الرأي على الاجتماع ، مرة في الاسبوع ، في بيت كل منا بالتناوب ، نتباحث وتداول في أمور الحياة العامة ، حتى اقترح أحدنا - أحسن الله إليه الجزاء - أن تؤلف جمعية تاريخية نطلب لها الترخيص رسمياً فتكون لنا نعيم النادي العلمي والترفيهي ، فيه يذل هاوي العلم جهده حتى يحقق هواه ، ويجتمع من ينوء بثقل العمل وهموم البيت فيستجم بعض الساعة مع رفاقه المخلصين ، بعيداً عن أماكن الاجتماعات العامة التي ترهق الصدر والأذن والعين بجوها المشحون بكل مانكره . وفي هذا النادي نعمل جميعاً - أو على الأقل من يحب العمل - في سبيل غاية علمية نضمها مثلاً أعلى لنا هي أن ندرس تاريخ أمتنا القديم والحديث دراسة علمية موضوعية نصدق ونزد بها خطر أولئك الذين يلفون في تاريخ أمتنا فيحاولون فيه الدس والافتراء لظهاره في أسوء مظهر .

وبدأنا العمل لتحقيق تلك الفكرة ليل نهار وتم لنا بما يزيد بفضل الله ، وصدر الترخيص من وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل في ١٢/١٠/١٩٧١ بإنشاء الجمعية التاريخية في حمص . وتشمرت الزفود للنشاط وشحذت الأذهان للتفكير .

النشاط العربي بين ١٩٧١ - ١٩٧٤ :

كان من أول الأعمال التي قامت بها جمعيتنا بعد تأسيسها أن أرسلت كتباً عديدة إلى كبار

الآساتذة في الجامعات السورية والبنانية تدعوم لالقاء أبحاث في مقرها ، كما أرسلت كتباً إلى الجمعيات التاريخية في الوطن العربي تنبئها بتأسيس جمعية تاريخية في حمص وبأهدافها وترجو مراسلتها ودعمها بكل منشوراتها العلمية والتاريخية . وكانت أول جواب يأتي من الجمعية المصرية للدراسات التاريخية التي رأسها آنذاك - الدكتور أحمد عزت عبد الكريم - الذي تمهذ على يده طلاب التاريخ في كلية آداب الجامعة السورية بين ١٩٤٦ - ١٩٥٥ - فقد رد الأستاذ الكبير مهتاً بتأسيس الجمعية وواعداً بتقديم كل مساعدة ممكنة ، ثم بعد مرور سنة ونيف تقريباً وردت منه رسالة ثانية يدنو فيها الجمعية للاشتراك في الندوة التي يستعقدها بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية بمناسبة مرور / ١٥٠ / عاماً على وفاة المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي ورحلت الدعوة الجهة المدعوة بفقات الانتقال إلى القاهرة بينا تقدم مساعدة رمزية للإقامة مدة اسبوع فقط ، واجتمع مجلس الإدارة ودرس الدعوة وكنا آنذاك نشكو الافلاس ، فليس للجمعية إلا وارد بسيط من اشتراك بعض الأعضاء الذين يلتزمون بدفع ليرة سورية فقط في الشهر ، فكثيراً ما كنا تعاون من جيوبنا لتسديد بعض الواجبات الإلزامية للحاضرين والضيوف الذين يزورون الجمعية أو لدفع أجور مقر الجمعية ، وخرجنا من الدراسة بوجوب تلبية الدعوة فهي اراز لوجه الجمعية وإعلان عام لكل من يحضر الندوة ، إن هناك في حمص جمعية تاريخية ، وقرر مجلس الإدارة تكليفي باعتباري رئيسة بالسفر للقاهرة لحضور الندوة والقيام بما يجب من نشاط لتمثيل الجمعية .

وفي ١٥ نيسان ١٩٧٤ كنت في القاهرة وبدأت الندوة في اليوم التالي ودامت اسبوعاً وحضرها ممثلون من جميع جامعات العالم تقريباً من الشرق والغرب ، وبلغ عددهم حوالي / ١٠٠ / مندوب كما أرسل الذين تندر محيئهم إبحاثاً لتلقى بالنسابة عنهم مثل المؤرخ الانكليزي الكبير ارفولد تويني ، فقد قرأ كلمته الأستاذ فؤاد محمد شبل ، وكانت الندوة حافلة بالأبحاث القيمة عن عبد الرحمن الجبرتي وكتبه وعصره ، أقيمت باللغات الثلاث : العربية والانكليزية والفرنسية وكانت الأبحاث تلقى في كل مساء بين الساعتين ١٧ - ٢٠ ، وفي كل صباح تجتمع الساعة العاشرة لنخرج في زيارات موجهة إلى الجامعات والمتاحف والمناطق الأثرية ، وهكذا غطيت فترة الاسبوع تغطية علمية وسياحية وأثرية كاملة ، وأقيمت عدة حفلات عشاء من قبل وزير الثقافة ، والجامعات والمجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ، وكنت استغل هذه الحفلات

فأتحدث باسم جمعية التاريخية في حمص عن اهدافها ومشاريعها وآمالها ، كما ألقيت كلمة في مجلس ادارة كلية دار العلوم في الجامع الأزهر عن أهمية اللغة العربية واصالتها في كل العلوم وضرورة التمسك بها وواجب الدولة والمواطنين في المحافظة عليها ، وألقيت كلمة ثانية في جامعة الاسكندرية - وقد زرتها في نهاية المؤتمر - شكرت فيها القائمين على النهضة العلمية والراعيين لها وخاصة في ميدان التاريخ وتكلمت عن ضرورة الاهتمام بموضوعية البحث التاريخي وواجب الدولة في السماح للمؤرخين بمناقشة الحوادث التاريخية بموضوعية علمية وروح متجردة ، ودعوت المؤرخين أن يكونوا حياديين علميين أثناء بحثهم ، وأثناء احد تلك الاجتماعات اجتمعت بالوفد العراقي الذي يمثل الجمعية العراقية للتاريخ والآثار برئاسة الدكتور حسين أمين وحدثته عن جمعيتنا حديثي المهود فقال وهل يمكن ان تقبلوا دعوتنا للاشتراك في تكوين اتحاد للمؤرخين العرب ؟ فقلت انها فكرة حسنة تستحق المناقشة ونحن مستعدون لهذه الدراسة .

وانتهت ندوة الجبوتي وعدت إلى سورية بمجموعة قيمة من الأبحاث التي ألقيت فيها وبمعض الكتب التي حفظت في مكتبة الجمعية وقدمت للجمعية تقريراً شفويّاً عن الندوة .

وفي خلال أيام قلائل بعد العودة من القاهرة وصلت الجمعية بطاقة دعوة لحضور مناقشة فكرة تأسيس اتحاد عام للمؤرخين العرب في بغداد مع بطاقة طائرة ذهاباً وإياباً واجتمع مجلس الادارة فأقر وجوب ايفادي باعتباري حلقة الوصل التي كانت في الأصل في القاهرة .

واستمرت زيارتي هذه اسبوعاً من / ١٤ - ٢١ / أيار ١٩٧٤ وحضر ذلك الاجتماع مندوبون عن / ١٣ / قطراً عربياً هي حسب التسلسل الأبجدي : الأردن - البحرين - تونس - الجزائر - سورية - الصومال - العراق - الكويت - لبنان - ليبيا - المغرب - اليمن الجنوبية - اليمن الشمالية . ودامت المناقشات أربعة أيام / ١٥ - ١٨ / أيار وضع خلالها نظام أساسي لاتحاد المؤرخين العرب المقترح وتبرعت حكومة العراق بمشرين ألف دينار للاتحاد المؤسس ، وكانت أكبر صعوبة لاقاها الاتحاد العتيد عدم اشتراك القطر المصري فيه كما رأيب من ذكر اسماء الأنطار المشتركة فيه وقد ظهر من المناقشة أن العراق ومصر تتنازعان زعامة الاتحاد ومركزه الرئيسي .

وكان من الطبعي في الاجتماع ان يختار الامين العام للاتحاد مندوب العراق

الدكتور حسين أمين كما اختير خمسة أمناء عامون مساعدون روعي في اختيارهم تمثيلهم
لائحة العالم العربي الجغرافية المتباعدة . واعتبر الحاضرون جميعاً أعضاء للمكتب الدائم
لاتحاد المؤرخين العرب خمسة سنوات كاملة واوصى الجميع بأن يسموا لدى حكوماتهم
لمقد مؤتمر للاتحاد عندها في كل ستة مرة على أن يكون مؤتمراً علمياً موضوعياً .
وكان حضور ممثل الجمعية في تأسيس اتحاد المؤرخين العرب كسباً كبيراً للقطر
العربي السوري وللجمعية اذ اعتبر القطر عضواً في المكتب الدائم وسمع صوته إلى كل
الأقطار العربية . وليس هنا مجال البحث في قانون اتحاد المؤرخين العرب فلذلك
بحث خاص مطول .

مؤتمر بنغازي ١٩٧٥ :

وفي النصف الأول من شهر حزيران يونيو ١٩٧٥ تلقت الجمعية بشخص ممثليها
عضو المكتب الدائم لاتحاد المؤرخين العرب دعوة إلى حضور المؤتمر الأول للاتحاد في
بنغازي ضيفاً على الحكومة الليبية وبحث المواضيع الآتية :

١ (الموافقة على قبول الجمعيات التاريخية والباحثين في الحقول التاريخية الذين
تقدموا بطلبات للانساب للاتحاد .

٢ (النظر في ميزانية الاتحاد .

٣ (تنظيم عقد المؤتمرات العلمية في الوطن العربي .

٤ (مناقشة امكانية كتابة تاريخ الأمة العربية .

٥ (مناقشة توحيد مناهج تدريس التاريخ في مراحل التعليم المختلفة في الوطن العربي .

وعين يوم ١٨/١٠/١٩٧٥ موعداً لمقد المؤتمر .

وسافرت إلى بنغازي وعقدت الاجتماعات في كلية الآداب بين ١٨ - ٢٠ تشرين
الأول أكتوبر وحضرها اضافة إلى الاعضاء السابقين ممثل حكومة قطر الذي وجه
دعوة حكومته لمقد المؤتمر القادم في عاصمة قطر في تشرين الأول أكتوبر ١٩٧٦
وفي نهاية الاجتماعات اتخذ المكتب الدائم التوصيات الآتية :

١ (الموافقة على قبول الجمعية التاريخية السودانية والجمعية المغربية للبحث التاريخي
وجميع الباحثين العرب الذين تقدموا بطلبات انساب .

٢ (الموافقة على ميزانية الاتحاد .

٣ (الموافقة على انعقاد مؤتمر المكتب القادم في الدوحة - قطر في آخر ١٩٧٦ .
٤ (الموافقة على إعادة كتابة تاريخ الأمة العربية بروح موضوعية تهدف إلى بيان معطياتها الحضارية والدور الذي أسهمت فيه في بناء الحضارة الانسانية وتخويل الأمين العام القيام باتصالات مباشرة مع المسؤولين في الدول العربية لطلب مساعدتها في هذا العمل .

٥ (تخويل الأمين العام الاتصال بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم من أجل توحيد مناهج التاريخ في مراحل التعليم المختلفة في الوطن العربي .

ويجب أن أذكر أن الأمين العام نجح بإدخال عدد من المؤرخين المصريين في الاتحاد فمثّلهم الدكتور عبد النعيم حسنين وبذلك زالت الصوبية الكبرى التي كانت أمام الاتحاد بعدم انتساب القطر المصري اليه ، كما حضر ممثل الجمعية السودانية المتشعبة حديثاً وهو الدكتور عباس ابراهيم رئيس قسم التاريخ في جامعة الخرطوم .

وبعد عودتي إلى الوطن من بنغازي تقدمت بتقرير مفصل إلى الجمعية عن الاجتماعات ورفعت نسخة من ذلك التقرير إلى المسؤولين تنفيذاً لتوصيات المؤتمر ، أملاً بمساندة الدولة في الجمهورية العربية السورية للاتحاد في خطواته ومساعدته .

النشاط خلال ١٩٧٦ - ١٩٧٧ :

في آذار ١٩٧٦ وردت رسالة من حكومة قطر تستدر عن عقد المؤتمر في موعده في كانون الأول ديسمبر ١٩٧٦ نظراً لانشغال الدوحة بمقد مؤتمر الأوبك في نفس الفترة وتعين شهر آذار مارس ١٩٧٧ موعداً جديداً لمقد المكتب الدائم للاتحاد ، ولقد مؤتمر تاريخي كبير باسم مؤتمر الدراسات التاريخية اشرقي الجزيرة العربية يحضره مندوبون عن جميع الدول العربية وعن الجامعات الأجنبية في أوروبا وآسيا وأفريقيا المهتمة بتاريخ المنطقة .

وتتابع المراسلات في سبيل تنظيم المؤتمر حتى حان وقته فسافرت إلى الدوحة في منتصف آذار مارس ١٩٧٧ وكان تنظيم المؤتمر رائماً جداً إذ اشتركت فيه حكومة قطر واتحاد المؤرخين العرب وجامعة الدول العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم فجاء مؤتمراً عالمياً بتنظيمه ، كما شاركت فيه كل جامعات الوطن العربي بكبار علماءها ومؤرخيها وجاء ممثلون عن جامعات كندا والولايات المتحدة

الأمريكية وانكلترا وفرنسا وألمانيا وإسبانيا وتركيا واليابان وإيران والهند
والباكستان والجمعية التاريخية الدولية بشخص أمينها العام وكانت قاعة المؤتمر قد
جهزت تجهيزاً كاملاً فقيت فيها وسائل الترجمة الفورية / مع مكبرات الصوت /
باللغات العربية والانكليزية والفرنسية . ووزعت ملخصات للأبحاث التي تلقي كي
يدوسها من يشاء من الحاضرين ويستمدون لمناقشتها .

وفي يوم الافتتاح حضر مندوب أمير قطر ولي عهده وألقى كلمة رحب فيها
بالحاضرين وتمنى لهم طيب الإقامة والتوفيق في العمل على كتابة تاريخ شرقي
الجزيرة العربية كما يجب . وجاءت الأبحاث العلمية شاملة لتاريخ المنطقة شمولاً جيداً
منذ العصور القديمة حتى مابعد الحرب العالمية الثانية ووقتاً هذا واتصفت بموضوعية
وحيدة رائعتين من قبل الرب والأجانب حتى أن السيد ميشيل فرانسوا الأمين
العام للجمعية التاريخية الدولية أثنى على الندوة وعلى القائمين على تنظيمها وترتيبها ، وبلغ
عدد الأبحاث المقدمة نيفاً وثمانين بحثاً باللغات الثلاث سيكون طبعها ونشرها في مجلد
أو مجلدين (حسب الامكان) شاملاً لتاريخ شرقي الجزيرة العربية وباعثاً ومشجعاً
للباحثين على الاستزادة من البحث والمراجعة .

وإلى جانب تلك الندوة كان أعضاء المكتب الدائم يجتمعون اجتماعاتهم الخاصة
لدراسة نتائج جهود الامانة العامة خلال العام المنصرم وخلاصتها انضمام عدد كبير من
الباحثين التاريخيين وامامة عُمان ودولة الامارات العربية المتحدة والسعودية ، واعتذار
الصومال عن عقد المكتب الدائم في عاصمتها مقديشو في شتاء ١٩٧٧ - ١٩٧٨
لمعجزها المالي عن تمويله ، والدعوة للاهتمام بالمخطوطات العربية الكثيرة الموجودة في
امامة عمان ، ومحاولة الامانة بالتعاون مع جامعة الخرطوم اقامة مؤتمر عربي افريقي
في الخرطوم لدراسة العلاقات العربية الافريقية خلال التاريخ ، ولكن أهم بحث جرت
مناقشته هو اتصال الامانة العامة بالحكومة الاسبانية لنيل السماح منها لاقامة مهرجان
تراثي ثقافي عربي في الاندلس ، وكان الاتفاق على أن يتصل أعضاء المكتب الدائم
بحكوماتهم لبيان أهمية ذلك المهرجان وإمكانية استغلاله اعلامياً للقضية العربية الكبرى
- كما حدث في مهرجان لندن الاسلامي عام ١٩٧٦ وتشجيع كل الحكومات العربية
للاشتراك فيه .

وانتهى مؤتمر الدراسات التاريخية لشرقي الجزيرة العربية وعاد جميع الأعضاء إلى بلادهم حاملين معهم خلاصات للأبحاث التي القيت في المؤتمر وبعض نشرات عن إمارة قطر ، وقد أرسلت الأمانة العامة في الأيام القليلة الماضية نتائج اتصالاتها مع الدول العربية فيئنت نجاحها مع السعودية والكويت إذ تبرعت السعودية مقدماً منذ الآن بمائة وخمسين ألف دولار كدفعة أولى لتحضير مهرجان الاندلس ، كما أعلنت الكويت استعدادها للمساهمة فيه إلى أبعد حد ممكن والأمل كبير بمساعدة بقية الدول العربية .

ذلك عرض موجز لنشاط جمعيتنا التاريخية في حمص في الميدان العربي الواسع والأمل كبير جداً بأن يزداد ذلك النشاط ويتسع اتساع فكرة الوحدة الفكرية العلمية العربية ونسأل الله تعالى أن يزيل الخلاف والتنافر بين أبناء الأمة العربية جماهير وحكاماً حتى يستطيعوا الاتحاد النافع القاصي على أطمار أعدائنا ، أعداء الأمة الخالدة .

عضو الجمعية التاريخية في حمص
عضو المكتب الدائم لاتحاد المؤرخين العرب
محمد القروي

مجلة

البحث التاريخي

مجلة
البحث التاريخي
تصدر عن الجمعية التاريخية بحمص

العدد الثاني ذوالقعدة ١٣٩٩ هـ تشرين الأول ١٩٧٩ م

هيئة التحرير

سمير عبد الصمد

عبد الاله نبهان

عبد الحفيظ شما

فهمي خانكان

منذر حمودي

المدير المسؤول

محمد عبد الصمد الشاطر

رئيس التحرير

أسعد خالد الحسين

صمم الغلاف الفنان : أحمد دراق السباعي

العنوان :

مركز الجمعية

حمص - الجمعية التاريخية

شارع عبد الحميد الدروبي

٢٦٢٨٠ ٢٥

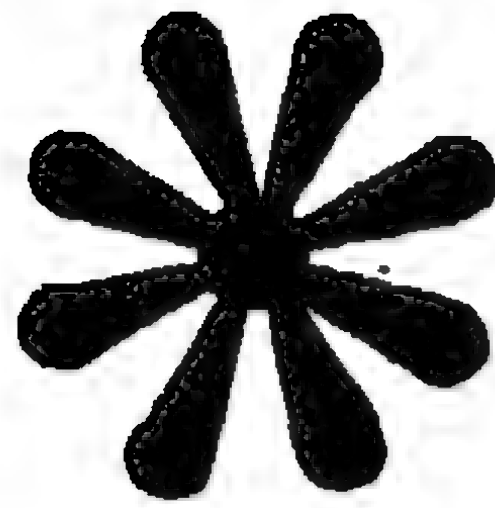
طبعت في

مطابع الروضة النموذجية

صحت طبعها في دمشق بتاريخ ١٢/١٠/١٩٧٩

ملاحظات

- البحوث والمقالات التي ينشرها الكتاب في هذه المجلة تعبر عن آرائهم الشخصيه.
- ترتيب مواد العدد يخضع لاعتبارات فنيه فقط .
- المراسلات باسم المدير المسؤول : حمص - الجمعية التاريخيه .



في هذا العدد

الصفحة	العدد	المدير المسؤول أ
١	شقيقة لأوغاريت في رأس ابن هانيء	الدكتور عدنان البني
٢٠	من دوار الحضارة . . .	الاستاذ سهيل عثمان
٣٧	البعثات الاثرية وتل الحديد . . .	الاستاذ محمد الخولي
٥٨	المعالم العامة لتاريخ سورية في العصر الهلنستي	الدكتور مفيد رائف العابد
٧١	اسم استانبول أقدم أم جديد . . .	الاستاذ عدنان قبطاز
٧٩	مع رواد اليقظة القومية العربية . . .	الدكتورة سهيلة زكية الرماوي
١٠٤	النظم الادارية في بلاد الشام . . .	الدكتورة أمينة بيطار
١١٥	ملاحظات حول صلة علوم الانثرو بولوجيا بعلم التاريخ	الاستاذ ماجد الموصلي
١٢٥	حصن - قلعتها ، اسوارها القديمة ، أبوابها	اعداد الاستاذين محمد الشاطر ومنذر حمودي
١٣٨	مسجد خالد بن الوليد . . .	الاستاذ رياض البدري
١٤٩	مارغريغويوس يوحنا ابو الفرج بن العبري	سيادة المطران ملاطيوس برنابا
١٧٥	رجال الفتوح	الاستاذ محمد كمال لطفي
١٩٠	ابن عساكر وتاريخ دمشق . . .	اعداد الاستاذ عبد الاله نبهان
٢٠٢	التاريخ العربي القديم . .	عرض وتلخيص الاستاذ خالد السباعي

كلمة العدد

محمد عبد الحميد السار
رئيس الجمعية التاريخية

تقرن اطلالة العدد الثاني من مجلة البحث التاريخي ببرز أحداث
جسام عـلى امتداد الوطن العربي جعلته يقف وجها لوجه أمام تحديات
مصرية من نوع فريد .

هذا الوطن العربي الكبير في امتداده الشامع الفسيح شرقا وغربا
شمالا وجنوبا سبق ان تزلت به نوازل قاصمة ، وأحرق به مسن الملهمات
والكوارث مالتوزل بغيره من الاوطان لرأيته متصدع البنيان مهدوم الاركان
وقد غاب رسمه وعفا اثره ولكن :

شـر الصحارى وسلها كلما يـبست من اين ينبع فيها الظل والشجر ؟ . . !
ان التاريخ يعيد نفسه ، نعم ، لكنه لا يعيد نفسه بكل التفاصيل
وانما يعيد ذلك ضمن خطوط عريضة وأطر عامة في كل زمان ومكان اللهم الا
في أحوال الطفرات ، وتلك لها حديث طويل . . . كما ان سعي الأمة العربية
نحو الوحدة له حديث اطول ، فعلى المدى البعيد من خلال القرون ، ومنذ ان
بدأ التصدع في وحدة الصف العربي بدأنا نرى المحاولات الجادة تسعى لتوحيد
الصف العربي بعد تمزق ، ولتم شمله بعد تشتت ، وفي التاريخ تبرق نقاط
مضيئة هنا وهناك ، وينطلق شعاع رائع لا يلبث ان يتلاشى ، ولننظر الى

الاضاعة التي تمثلها محاولة صلاح الدين الايوبي التي تعد استمراراً ومتابعة لما بدأ به سلفه العظيم نور الدين محمود زكي في توحيد الشمل المشتت ، ولكن هذا التوحيد على الرغم من الغرض الجليل الذي اداه الى العالم العربي والاسلامي في كسر شوكة الصليبيين وسحق جيوشهم واسترداد ما اغتصبوه وتطهير مادنسوه ، اقول : هذا التوحيد لم يكن وردة بلا اشواك سواء في بدايات الامور او نهاياتها او في اثنائها . لقد كان للعامل الشخصي « شخصية البطل » أثر كبير في توحيد القلوب واستمرار هذا التوحيد ، وان شخصية صلاح الدين بأفاقها الرحبة مقترنة بالامانة التي تحملها واعني واجب الجهاد المقدس ، كان لها بما اقترنت به اكبر الاثر في تجميع الامراء والقادة في كتلة واحدة وحول نقطة ارتكاز اساسية ، ومع ذلك فكثيراً ما رأينا بعض القادة والامراء يعصون امر صلاح الدين في لحظات حاسمة ، ولم يكن مجرد قتالاً ضدّهم لاعادتهم مقهورين الى الجماعة ، بل كان يلوح لهم بالخطر المهدق قارة ويمصّهم باللوم والعتاب تارة اخرى . . . وبمزيج من هذه الاساليب السياسية الجامعة للقوة استمر صلاح الدين يسير الامور كما تقتضي اصول السياسة والحزم والاخلاق وبذلك دفع الاذى عن الاوطان واسترد ما اغتصبه الصليبيون امدأ طويلاً .

وتعاقبت امواج الفزاة على العالم العربي ، وهجمت الظلمات امواجاً يركب بعضها بعضاً ، ومازال الفزاة يمتدون اذرع الاخطبوط الى عالمنا العربي ويعيشون فساداً ، وتناحلت الدول وترادف الملوك والسلاطين الى ان نام العثمانيون بكلّهم على البلاد ، وساءت احوال العالم العربي - او قل استمر سوءها على ما كان عليه وازداد - في ظل حكمهم ، ولما اعتراهم الوهن ودب اليهم الانحلال طمع بهم وبالعالم العربي الاستعمار الجديد الفتى آنذاك . وبلغت

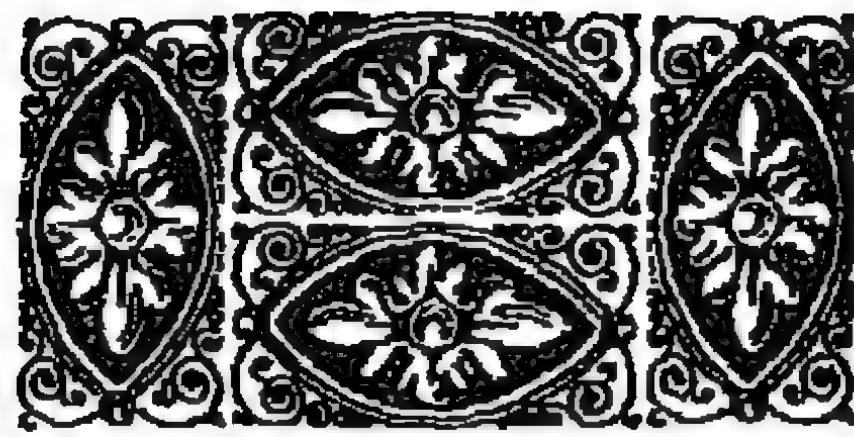
الامور من التسيب والانحلال وضياع التبعات درجة دفعت الناس او كادت تدفعهم الى اليأس من كل تحرر او اصلاح . . . ولكن .. هذا رجل الباني يجيء مصر ، رجل امي ، بدمائه وحكمته وذكائه المتوقد استطاع ان يحقق مسن الاصلاح ما عجز عنه سيده في الآستانة ، وكاد يحقق مشروعاً لوحدة العالم العربي او لرقعة فسيحة منه ، وظن الناس انه القوة التي لا تقهر بعد ان اصبحت الطريق الى الامتانة مفتوحة امام جيوشه وهدد البسفور . . . ولكن القوى الاستعمارية التقت بثقلها كله ضد محمد علي لاحباً بالسلطان العثماني ، ولكن خوفاً من تجمع قوة عربية فتية على ارض عربية موحدة ، ولذلك تصالح الحصان ، انكلترا وروسيا ، وانضمت اليها اطراف التآمر الأخرى ، وتمكن تحالف الشيطان هذا من قتل الوليد في مهده واتلاف الثمرة او ان جهلها . وامهانا منهم في سياسة - فرق تسد - عبثوا بعض القوى الوطنية ضد محمد علي ، وحرضوا الناس ليشثروا ضد ماسموه بالاحتلال المصري ، ونفروهم من قسوته في ادارة دفة الامور بسوط اشد عسفاً من سوط عساكر السلطان العثماني . . . زعموا . . .

وصدق المفرورون وذوو المصالح الخاصة الضيقة ، صدقوا مازينه شيطان الاستعمار لهم ، وراى على قلوبهم واسرجوا انفسهم في خدمة المستعمرين وكان ماكان فظن شراً ولا تسال عن الخبر ! ! . . .

هذالحن النشاز كرر عزفه بتوزيع جديد قبل تحطيم وحدة مصر وسورية سنة ١٩٥٨ م . والناس مازالوا يذكرون ويعرفون النكبات التي اصابت الوطن العربي في الحالين في القرن التاسع عشر والقرن العشرين . ولم يقصر المستعمرون اعداء العروبة جهدهم على اسقاط الماويلتين السابقتين

من محاولات التوحيد فقط ، بل انهم كانوا قد راشوا سهامهم واشروعوا
رماحهم ووجهوا لثورة العرب الكبرى بقيادة الشريف حسين ولثورة مصلق
في ايران ولغيرها مسن ثورات البلاد المشرقية سهامهم المسمومة لترسيخ
الفرقة والانفصال . وبعد :

ان الحل امامنا بات واضحاً ، ولاخيار لنا فيه ، اننا نراه بيناً جلياً ، انه
الوحدة العربية ، وان كان هناك من يلقي على هذا الحل طائفة من الشكوك ،
ويختلق امامه طوائف من العقبات ، من اجل مصالح شخصية وشهوات
خسيسة ، الا ان جبهة الناس في عالمنا العربي تدرك جيداً اهمية التوحيد
وضروته ولزومه ، والادراك بحذ ذاته ليس مهماً الا بقدر مايكون فعالاً في
الحركة والتحرك ، ان المهمة العاجلة امام الوطن العربي ان يبدأ خطواته
نحو الوحدة ، وليس المهم اصدار البيانات الرسمية بل المهم ان تبرز الوحدة
حقيقة الى عالم النور وتنتقل الى حيز التحقق والوجود .



شقيقة الأوغاريت في رأس ابن هاني

الدكتور عذران البني

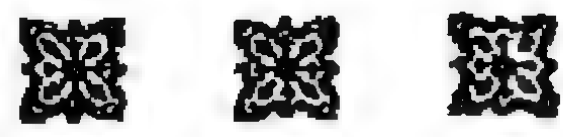
الآن بعد سنوات خصيبة حافلة بالأحداث الأثرية المثيرة في الفرات وتل مردوخ وتدمر وعلى شاطئ المتوسط ، تلك الأحداث التي تمت نتيجة للاهتمام الذي توليه الجمهورية العربية السورية للآثار وللتعاون العلمي النزيه مع المؤسسات الأثرية الأجنبية ، بدأ العالم يرد لسورية الأثرية مكانها كمركز الثقل في الهلال الخصيب ودورها البارز في تاريخ الحضارة ، ذلك الدور الذي يقوم ، من جهة على إبداع فكر وفن وعمارة وصناعة شعبية تتسم بالأصالة والذوق. ومن جهة ثانية ، على توطيد الصلات الثقافية والإنسانية بين مختلف اجزاء العالم القديم بإبداع الابداعية إحدى أبرز المكتشفات البشرية إن لم تكن أبرزها على الإطلاق . ويحضرني ، ونحن مازلنا في صدد الاصاله والتفرد - أن أورد مآثره في نفس العالمة الفرنسية السيدة « بورد » زيارة القطر العربي السوري .

قالت السيدة « بورد » :

« إن انطباعي قوي جداً (عن بلادكم) ففيها أصالة عميقة واستمرار تاريخي وحيوية معاصرة . وهذه الخصائص بذاتها تسبغ على سورية تفرداً رائعاً في عالمنا الذي يفقد روحانيته . »

النشاط الاثري في سورية يتسع وينتشر من الجزيرة إلى الفرات الى وسط البلاد وباديتها والساحل السوري حتى أقصى الجنوب ، والمديرية العامة للآثار

والمتاحف تبدأ منذ وقت بأسلوب جديد في عمليات التنقيب الاثري ، وهو أسلوب المشاركة ، أو ما يسمى بالبعثات الاثرية المشتركة العربية السورية والاجنبية ، وهي مرحلة انتقال بين البعثات الاجنبية الوطنية الصرفة ، وخطوة أساسية هامة لتبادل الخبرات وتطوير الكوادر الوطنية . إن كثرة مواقعنا الاثرية وحادثة عهد كوادرنا الوطنية نسبياً في عمليات التنقيب المعقدة ، تجعلنا نرحب بالتعاون مع كوادر تابعة لمؤسسات أثرية أجنبية عريقة في هذا المجال . وقد تكون المقارنة الإفرادية بين عناصرنا والعناصر الاجنبية إيجابية في أحيان كثيرة ، ولكننا نفيد كثيراً من جماعية العمل وتطوير التجهيزات والخبرات وتنوع الاختصاص . ومهما كانت الحال فإننا لاننسى ان أسلوب المشاركة يذلل بالنسبة للبعثات الاجنبية أيضاً عدداً كبيراً من الصعوبات المادية والادارية حتى التقنية في وقت يصعب فيه تأمين الاعتمادات واستجلاب معاونين حتى في الدول البالغة التطور .



وقد تهيأت ظروف مواتية لإنشاء بعثة مشتركة عربية سورية فرنسية في (رأس ابن هاني) شمال اللاذقية . ففي العام ١٩٧٤ كنا نجري في رأس الشمرة مع الزميل نسيب صليبي وطلابنا عملية مشتركة محدودة مع اثريين فرنسيين هما (جاك لاكارس) وزوجته (اليزابيت لاغارس) . وكانت التجربة مشجعة . وكانت على بعد خمسة كيلومترات مناساً إلى الغرب تجري أعمال إنشاءات سياحية في رأس ابن هاني . كشفت أوابد أثرية مغيبة وأظهرت في عام ١٩٧٣ مدفناً أوغاريتياً كشف عنه الزميل الاستاذ قاسم طوير .

ورأس ابن هانيء ابرز رؤوس الساحل السوري ، يقع على بعد ١٠ كم

شمال اللاذقية ، هوبقة جميلة جداً يكتنفها بحر ازرق وبلاجات بديعة ، ويطل من أفقه البعيد جبل الاقرع « كاسيوس » وقد اختير هذا الرأس موقعاً لفندق سياحي دولي المواصفات وللمدينة سياحية تخترقها طرقات عريضة ، وكان البدء بالفندق في أعلى نقطة من الرأس التي تبين أنها تل أثري كبير وتلان صغيران كان اشارة إلى وجودهما من قبل الاستاذ جبرائيل سعادة ، وارتطمت الآليات الثقيلة بجدران يصل سمكها إلى متر ونصف تشبه بنيتها الجدران المعروفة في رأس الشمرة فما العمل ؟ .

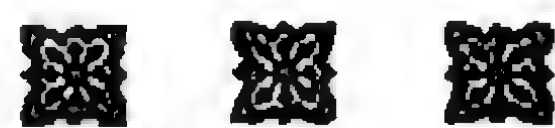
لقد نقل موقع الفندق إلى القسم الرملي الجنوبي من الرأس بإصرار من المديرية العامة للآثار والمتاحف ، وبتجاوب من السلطات المعنية ، وخصص التل الاثري وجواره بالمديرية العامة للآثار والمتاحف على ان يخضع إنشاء المدينة السياحية وطرقها لرقابة السلطات الاثرية التي كان عليها أن تتحرك بسرعة قبل أن تزيل الجرافات كل شيء ، كان الوقت عاملاً هاماً ، وثمة قطاع هام من التل الاثري نفسه مهدد بشق طريق دولية عريضة تمر من جنوبه بينه وبين الموقع الجديد للفندق ، ولابد من استجلاء خباياه قبل فوات الاوان .

وحدثت ظروف بالنسبة للعمل المشترك في رأس الشمرة لاجال التفصيل فيها حالياً ، وعرض علينا إنشاء بعثة إنقاذ مشتركة عربية سورية فرنسية ، ووقع السيد المدير العام للآثار والمتاحف الدكتور عفيف بهنسي اتفاقية بين المديرية العامة للآثار والمتاحف وبين لجنة البعثات الاثرية بالإدارة الثقافية بالخارجية الفرنسية بإنشاء بعثة أثرية عربية سورية فرنسية للعمل في رأس ابن هاني يديرها من الجانب السوري الدكتور عدنان البني مدير التنقيب والدراسات الاثرية . ومن الجانب الفرنسي الاستاذ جاك لاغارس الملحق في

المركز الوطني للبحث العلمي في فرنسا ، وتضم أعضاء عرباً سوريين وفرنسيين يتعاونون جميعاً في الدراسة الاثرية والجيولوجية والجيومورفولوجية والجيوفيزيائية لرأس ابن هانيء . وقد أدت البعثة في الرأس المذكور أربعة مواسم حتى الآن ١٩٧٥ ، ١٩٧٦ ، ١٩٧٧ ، ١٩٧٨ استغرق كل موسم ماعدا الموسم الاول حوالي ثلاثة اشهر (حزيران ، تموز ، آب) مع فترة متعة في أواخر عام ١٩٧٧ . اسهم في المواسم الآتفة الذكر من العرب السوريين من موظفين في الآثار وغير الموظفين السادة والسيدات والاونس :

د . عدنان البني ، نسيب صليبي ، بدر الدجاني ، رامز ديب حوش ، حنان المدرس ليلي بدر ، سحر الحسامي ، مي توما ، نابغة السيوفي ، محمد الرومي ، محمد مكّي حسن زرقش ، محمد فارس ، أنور عبد الغفور ، إحسان هندي ، وعدد من الطلبة خريجي قسم الآثار بجامعة دمشق وطالبتان لبنانيتان . . .

كما أسهم من الجانب الفرنسي السادة والسيدات والاونس : جاك لاغارس ، اليزابيت لاغارس ، بول غارزنسكي ، آني كوبيه ، يولاند دوبرتيسون ، جاك كلود دو كدر ، بيير لويش ، بيير بورد روي ، دوغلاس كينيدي ، وكذلك جول بوسويه وجان سانلا فيل . وليس المجال متسعاً لذكر كثيرين قدموا لعملنا الاثري ما كتب له النجاح وأولهم همالتا الذين وصل عددهم أحياناً الى قرابة مائة عامل وعاملة .



إن ما يسمى حالياً باسم رأس ابن هانيء (باسم القرية القريبة منه) كان في وقت ما يعرف أيضاً باسم « رأس الفنار » وهو عبارة عن شبه جزيرة ممتدة في البحر من الشرق إلى الغرب بطول يقرب من ثلاثة كيلو مترات ،

وعرض وسطي حوالي نصف كيلومتر يصل إلى حوالي كيلومتر من الجهة الشرقية .
القسم الغربي من شبه الجزيرة صخري مرتفع في الجهة الشمالية بشكل جروف
منكسرة . في أساس شبه الجزيرة أساس حواري ميوسيني أو ايويني سابق
للدور الرابع الطبقي وفوقه طبقة حوارية رملية صفراء مقاومة لاتصالح كثيراً
للبناء ، توضع على ما يظهر خلال الفترة ما بين الجودية المعروفة باسم
« مندل ريس » وتغطي هذه الطبقة تربة رملية حمراء غير سمكية . وفي القسم
الشرقي من شبه الجزيرة ، تختفي الطبقة الحوارية بخط جنوبي غربي وشالي شرقي ،
تحت رمال كثيفة نسبياً ترسم خليجين ، الشمالي المعروف بالقبان صغير نسبياً
محصور بين بروزين صخريين وهو محمي بشكل جيد وفيه على ما يرجح كان المرفأ
الرئيسي لموقع ابن هانيء . أما الجنوبي فهو واسع يتصل برأس الخضر وهو أكثر
تعرضاً للأواء وأقل صلاحية للملاحة بسبب الارصفة الصخرية القائمة فيه . وكانت
شبه جزيرة ابن هانيء بالاصل عبارة عن جزيرة اتصلت باليابسة بذراعين رمليين
(تمبولو مزدوج) كان أثرهما واضحاً حتى وقت قريب قبل عمل الجرافات
(ارتفاع الشمال حوالي ٩ م) وكان كل ذراع يحيط بأحد الخليجين وبينهما منطقة
واطئة تتلىء بالمياه شتاء .

ولقد وجدنا رصيفاً ممتداً من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي وأرصفة
متوازية بشكل السنة في البحر وهذه الارصفة كلها مشيدة من كتل الحوار
الرملية ، وقد غطست جزئياً فيما بعد وعمل فيها تحتات البحر حتى اقتطفها على
مستوى + ٨٠ سم فوق المستوى الحالي للبحر ، والتحمت كتلتها البحرية
بيولوجياً بالاشنيات والصدفيات الدقيقة ، ثم ارتفع مستوى البحر إلى
+ ١٥٠ م عن المستوى الحالي ، وقطع ذراع بحري القسم الصخري من ابن هانيء
عن اليابسة ثم ملأت الرمال البحرية هذا الذراع البحري ، ثم اخذ مستوى البحر

ينخفض مشكلاً الذراعين الرمليين وبينهما القسم المنخفض وهو الشكل الذي بقي حتى الآن .

لسنا الآن في صدد تفصيل الاسباب الطبيعية من بحرية وبرية الارتفاع وانخفاض مستوى البحر . إن الميل العام للشاطئ السوري - اللبناني يميل بشكل عام نحو الارتفاع ويتخلل ذلك فترات ينعكس فيها الامر . ومن المحتمل أن ارتفاع مستوى البحر من + ٨٠ سم عن المستوى الحالي إلى + ١٥٠ م قد حصل في مطلع العهد الهلينستي ، وتشكل ذلك التوضع الرملي الكثيف الذي احدث شبه الجزيرة (أو ما يسمى بالتومبولو) من جديد . و ثمة دلائل على معاودة طغيان البحر على القسم الرملي من شبه جزيرة ابن هانيء في القرون الميلادية الثلاثة الاولى .



وحوالي نهاية القرن التاسع عشر ، مر العالم الفرنسي الشهير (رينيه دوسو) قرأى في رأس ابن هانيء مسرحاً ومعبداً وقدر أن هذا الرأس هو مدينة «ديوسبوليس» المذكورة في «الستاديارم» وهو دليل للبحارة اليونان . أما الوضع الذي كان عليه موقع ابن هانيء في مطلع القرن العشرين فلا يتجاوز بعض أقسام مزروعة وبمالح محدودة على الشاطئ الصخري الشمالي . وكانت هناك بقايا أسوار ضخمة ظاهرة ابرزها في الجهة الغربية (حيث يقوم السور الغربي) كانت تقف وتنتقل على الجمال لبناء بيوت في اللاذقية والقرى المجاورة . وقد استقينا ذلك من بعض المسنين وأكد الامر احد النصوص . ولكن هل كانت البقايا التي ذكرها (دوسو) اوبقايا السور الغربي هي الوحيدة في رأس ابن هانيء ؟ لا . لقد كان ولم يزل حتى الآن المدفن الهلينستي الضخم المعروف بمدفن القبان ، وكان بالأصل تحت ركام ترابي (تومولوس)



« جانب من الأسوار المكتشفة في ابن هانيء »



« داخل من مدفن هيلينستي وجد في القسم الغربي من راس ابن هانيء »

على ما يظن وقد حول إلى كنيسة في العهد البيزنطي . ويضاف إلى هذا المدفن مدافن منقورة في الطبقة الصخرية ، منها مدفن ديمترياس غوثينوس المكتشف بطريق المصادفة عام ١٩٦٥ وقد رأينا في القسم الغربي من رأس ابن هانيء مدفين آخرين مماثلين منقورين في الصخر وفي كل منها معازب للدفن .



« جانب من الأسوار المكتشفة في ابن هانيء »

وعلى الشاطئ الجنوبي وعلى الشاطئ الشمالي بعض الارصفة الحجرية الممتدة داخل البحر التي المحنأ لها من قبل ولا يمكن تحديد زمنها حالياً . يضاف إلى ذلك آبار كثيرة ضخمة ويكون قسم من البئر صخرياً والقسم الآخر مشيداً بالحجارة على الراجع ولم تزل فيها المياه .

ولانتسى التل الاثرى والتلين الصغيرين وكذلك المدفن الاوغاريتى وكنا
أوردنا شيئاً عن ذلك في مطلع بحثنا .



وكانت الهيئات المختصة قد استملكت جل أراضي رأس ابن هانيء
لصالح العمل السياحي وخصت المديرية العامة للآثار والمتاحف بالقسم الاوسط
الذي يضم التل الاثرى وملحقاته . وبمناسبة تحديد القسم الذي يخص الآثار
تجمعت لدينا الوثائق اللازمة للبدء بالعمل من مخططات فوتوغرافية ومساحية
وعقارية وبدأنا أعمال المسح المفصل والتربيع في ١٣ تموز ١٩٧٥ ونظراً لطول
الرأس قسمناه إلى قطاعات طولانية عرض كل منها ٤٠٠ م وسميناها
(آ ، ب ، ج ، د ، الخ) وقسمنا كلا من هذه القطاعات إلى مربعات (١٠ × ١٠) م
وأشرنا إليها بالحروف A. B. C. D. E. الخ من الغرب إلى الشرق وبالارقام
١ ، ٢ ، ٣ الخ من الجنوب الى الشمال . ومن اجل الدقة قسمنا كل مربع الى
اربعة مربعات (٥ × ٥) م ميزناها بوضعها الجغرافى شمال - شرقى ، جنوب
غربى الخ .

وبعد ايام ، وفي السادس عشر من تموز ١٩٧٥ بالدقة اصبحتنا نستطيع
البدء بالتنقيب الذي سيستمر حتى غاية آب ، ويتجدد كما أسلفنا كل عام حتى هذا
العام ، وقد يستمر اعواماً كثيرة اخرى .

كان من البدهى ان نبدأ بالقطاع (هـ) الذي منه التل فهو اعلى اقسام
الرأس (حوالى + ٩ م) ولان فيه معالم ضخمة وصفات اثرية جديدة ظهرت
خلال التمهيد لإنشاء الفندق ولان الفندق يحواره مباشرة ، ولان الطريق الجديدة
جنوبه ستقطع منه قطعة كبيرة اعتباراً من ١٩٧٦ . وخلال هذه المواسم الاربعة

أنجز التنقيب جزئياً أو كلياً في حوالي ثمانين مربعاً (١٠ × ١٠) م من هذا القطاع ، والتل امتداده نحو الشاطئ الشمالي ونفذت اسبار عديدة . وعقب هذا الموسم يمكننا ان نلخص الوضع الطبقي والكرونولوجي بما يلي من الأدنى الى الأعلى :

— فصلات صوانية من نماذج الدور الحجري الجديد (حوالي الالف السابع قبل الميلاد) توجد غير متوضعة في تربة نهرية قد تكون مجلوبة من مكان آخر .
— كسرات فخارية من أوان بسيطة تعود لعصر البرونز القديم الالف الثالث قبل الميلاد ، وجدت مجتمعة في ركام الأسوار شرقي التل ، ولا يمكن حالياً معرفة ما اذا كانت مرتبطة بمنشأة معينة او أنها مجلوبة مع تربة منقولة من مكان آخر .

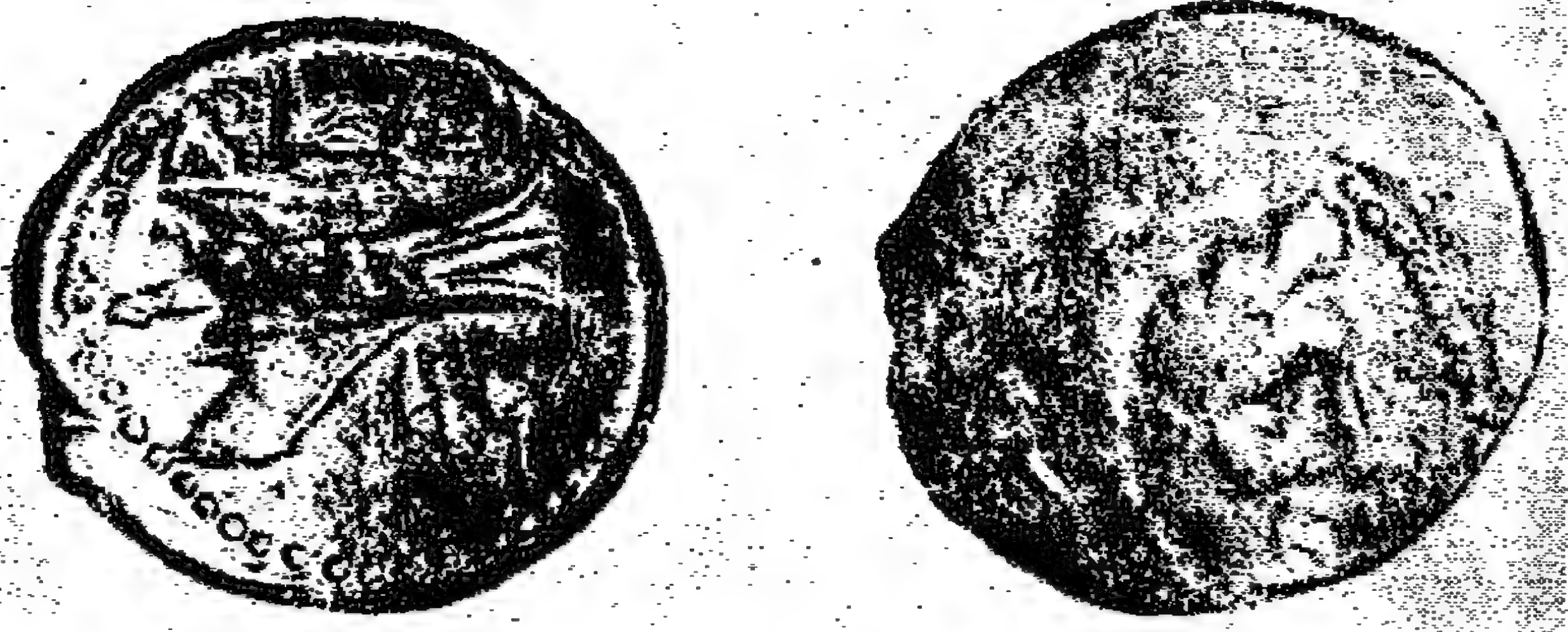
— سوية فيها منشآت معمارية ولقى ورقم أوغاريتية وبابلية تعود لعصر البرونز الحديث الثالث (١٤٠٠ - ١٣٠٠ - ١٢٠٠ ق . م .) مرتبطة بتربة حمراء غضارية . وهذه السوية التي تتميز فيها مرحلتان مبدئياً متوقفة بهجمة شعوب البحر .

— سوية فيها منشآت معمارية وفخار ولقى ، تعود لعصر الحديد الاول (١٢٠٠ - ٩٠٠ ق . م .) تتميز فيها ثلاث مراحل مبدئياً وهي مرتبطة بتربة سمراء .

— سوية كثيرة الفخار والمواد العضوية لم نتعرف فيها حتى الآن على معالم معمارية ، وهذه السوية تعود لعصر الحديد الثاني (٩٠٠ - ٦٠٠ ق . م .) وهي مرتبطة بتربة رمادية ضاربة للسواد . ويظهر أن هذه السوية قد توقفت بالاحتلال الفارسي للساحل السوري ، ولعل هذا العهد الفارسي ترك بعض الآثار في

أماكن أخرى من الرأس .

— سوية هيلينستية تمتد في التل وخارجة وهي ذات منشآت ضخمة حصينة دفاعية ومرفأية ومساكن ومدافن وفخار غزير نجده في حفر عميقة وفي كل مكان تقريباً ولقى كثيرة وخاصة العملة . ولاتخلو من النصوص المنقوشة وهي زمنياً تمتد من حوالي فتح الاسكندر (٣٣٣ ق . م .) حتى الفتح الروماني (٦٤ / ٦٣ ق . م .) وفيها فترتان إحداهما تم فيها الاحتلال البطلمي . وقد انقطعت هذه السوية بسبب طغيان البحر .



« نقد اروادي من ابن هانيء القرن الثاني قبل الميلاد »



« نقد لسوقوس مؤسس الدولة السلوقية في سورية »

— سوية رومانية متأخرة وبيزنطية تستخدم كثيرا البقايا المعمارية الهيلنستية ممتدة على التل وعلى أقسام كثيرة خارجية • معززة بالمنشآت والفخار واللقي

مع عملة كثيرة وهي مؤرخة من القرن الرابع الميلادي حتى عهد جوستنيان ويرجح أنها آخر مراحل سكن الرأس وأنها انقطعت بالزلازل الذي دمر انطاكية عام ٥٢٨ ويمكن أن تميز فيها فترتان بدلالة العملة وبعض الدلالات المعمارية. إن هذا التقويم المبدئي والتحليل الطبقي هو في الواقع حتى الآن صالح للتل وقطاعة (هـ) والمواقع المتبقية فيه ، وبالنسبة للعهد الهيلينستي والروماني البيزنطي صالح بالنسبة للموقع كله أو على الأقل للقطاعات (د - هـ - و) وسنحاول تلخيص أهم الاكتشافات في كل من القطاعات الثلاثة .

القطاع هـ

أهم شيء تم الوقوع عليه في هذا القطاع حتى الآن قصران الأكبر من عصر البرونز الحديث الثاني والثالث (الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد) موجود في الجنوب وهو الذي أحدث المرتفع الذي سميناه تلاً ولم ينته التنقيب فيه بعد ، ولكن يظن أننا عرفنا حدوده الجنوبية والشرقية ومخططه بشكل صحيح على الرغم مما عانى من نهب حجارته في العهود التالية له . والقصر موجه بزواياه إلى الجهات الأربع ، محاط من الجهة الشرقية على الأقل بسور يذكّرنا بسور رأس الشجرة وكان بناء القصر بالأصل على سطوح متدرجة مهيئة برمل مجلوب وتراب ، ومحصور بأساسات عميقة حسب تضاريس شبه الجزيرة وإشرافه إلى البحر الجنوبي ، وتأمين التمتع بالمنظر الجميل ونسيم البحر المنعش الذي يهب حوالى الظهر كل يوم . في القصر الجنوبي بالأصل الواسع (٨٥ × ٥٥ م) شبكة جدران عريضة (١٥٢٠ - ١٥٥٠ م) متعامدة فيما بينها ومشيدة بالحجر الغشم المغموس بالتراب الفصاري الأحمر البني . وأطراف الجدران المماثلة في أكثر تفاصيلها لجدران رأس الشجرة كانت مربوطة مثلها يجذوع خشبية زائلة حالياً كانت تؤلف مدماً كامتداً

من أول الجدار الى آخره . وهذه الشبكة من الجدران كانت تؤلف بالأصل بضعة مكشوفة مستطيلة واسعة « ١١ × ١٧ م » ، وأكثر ، محاطة بالممرات والحجرات ، وبعضها له مداخل مماثلة لمداخل الحجرات في أوغاريت المزودة بقاعدتي عمودين يضاف الى ذلك مجرورا مياه متجهان من الشمال الغربي ، إلى الجنوب الشرقي ، ومنتفعات كالمألوفة في رأس الشجرة وبيوتها . هذا وقد ظهرت في المواسم الاخيرة « ١٩٧٨ » الزاوية الجنوبية الشرقية وتبين أن حجارتها قد تآكلت بمياه البحر ، الامر الذي يدل على أن القصر كان مشيداً مباشرة على الماء .

وقد كانت نهاية حياة القصر ، على ما يبدو بنهب دقيق ثم حريق أتى على بعض أقسامه . ومن المحتمل أن يكون القصر قد هجر وأفرغ من محتوياته لاحد الاسباب كالإصلاح والتعديل أو اثر تهديد شعوب البحر لمنطقة شرقي البحر المتوسط في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي . وفي أوغاريت عثر على رسالة من ملك الآشيا « قبرص » إلى ملك أوغاريت ينصحه فيها ان ينسحب إلى مدن داخلية قد يكون حصنها .

والشيء الذي يلفت النظر في هذا القصر هو قلة اللقى حتى الفخار العادي ، الامر الذي قد يفسر كما ذكرنا بإفراغ القصر من محتوياته . على أن القليل المتبقي من اللقى والفخار هو واضح من حيث تأريخه فليس فيه شيء من البرونز الحديث الاول والثالث ، ومن ذلك الجرار الاوغاريتية الطراز ذات الرقاب القصيرة والقعر المحذب ، والطاسات القبرصية (التي كانت تعرف باسم طاسات الحليب) أو « وايت سليب » وبعض الاواني الميسينية وأباريق الزيت المدببة ، والفخار ذو القعر الحلقي « بيز رينغ » الخ . . . وأكثر النماذج من النوع المتأخر العهد ، ولا بد من التنويه بكؤوس فخارية وقدور لا تشبه أمثالها في رأس الشجرة .





« ختم جرة من جزيرة رودس »



« منظر عام لأحد أجنحة القصر الملكي الاوغاريطي في رأس ابن هانيء »

أما القصر الشمالي فقد هدانا إليه ، في الواقع ، وجود المدفن الاوغاريتي على الشاطئ الشمالي . فقد كان في برنامج العام ١٩٧٧ أن نقوم ببعض التحريات في موقع المدفن المذكور . لان المدافن الاوغاريية كما هو معروف تكون ضمن البيوت والقصور وتؤلف جزءاً أساسياً من اجزائها . كما أن بعض أعمال التسوية والتجريف الحديثة قد اظهرت بعض المعالم على السطح .

بدانا في موسم ١٩٧٧ بـدءة محدودة فافتتحنا ٣ أجزاء من المربعين « E85, E86 » وفي موسم ١٩٧٨ توسعنا على كامل سطح المربعين المذكورين فظهرت معنا في الموسمين بعض معالم هيلينستية سطحية وفخار هيلينستي وحفر ملأى بفخار عصر الحديد الاول . ولكن الشيء الاساسي هو عبارة عن جزء من قصر . وهذا القصر موجه بزواياه إلى الجهات الاربع كالقصر الجنوبي ، ومماثل له ايضاً من حيث نخطه العام ومن حيث عمارة جدرانه وتفاصيلها كالحجارة الغشيمة والمونة ، ومونه الارضيات ويبلغ سمك الجدران في القصر الشمالي حوالي المتر دون كسوة ويصل الى ١٠ و ١١ م مع الكسوة وهذه الكسوة كلسية بعض اقسامها ، ذائبة من شدة الحريق الذي قضى على حياة القصر والذي سنعود له فيما بعد . وفي كسوة الجدران اقسام مختلفة اللون ، إما بسبب الحريق وإما بنتيجة إصلاحات .

ما يزال امامنا بعض الوقت حتى نعرف تفاصيل القصر الداخلي وامتداده ولكننا نتصور انه اصغر من القصر الجنوبي مبدئياً . والتفاصيل المعروفة منه حتى الآن عبارة عن دهليز في الجهة الشمالية الغربية منه درج دائر ، محفوظ منه سبع درجات « L. I » وإلى الجنوب باحة سماوية لم يتم التنقيب فيها بعد « L. II » وهذه الباحة المبلطة اصلاً ينطلق من زاويتها الجنوبية الشرقية دهليز آخر ينتهي بدرج « L. VI » وقد يكون له باب يفتح على الباحة « ؟ » ، وهناك

الردمة التي يتوسطها المدفن « L. VI. » ومدخلها إلى الشمال وفيها سويتان واضحتان . يضاف إلى ذلك كله ثلاث حجرات واحدة ضخمة « L. IV » ومدخلها إلى الجنوب الغربي وقد كشف منها حوالي ستة امتار حتى الآن . وفي جميع هذه الأقسام تقريباً وجدت رقم مسارية كاملة أو أجزاء رقم أكثرها في غير موضعه متساقط من الجدران المنهارة ومتناثر هنا وهناك وبعضها واقع في موضعه ، كما هي الحال في الحجرة « L. VIII » حيث وجدت بعض الرقم ملتصقة بكلسة الجدران المحترقة وكانت على ما يبدو في طاقات أو على رفوف ومع الرقم كسر اواني من الالباستر وجرار فخار .

ويلاحظ ان كل ارضيات الحجرات نخرقة بحفر للبحث عن مطمورات او عن مدافن . وبدلالة الفخار نعرف ان هذا العمل قد تم في عصر الحديد الاول وعلى عدة مرات « خلال القرن الثاني عشر قبل الميلاد » . وكان هذا القصر الشمالي قد انتهب نهباً شبه منهجي ثم أحرق بحريق هائل ، فتداعت الأقسام العليا من جدرانه وسالت كسوة جدرانه على الأرضيات حاملة معها أحياناً خشب القوف المحترق كما في الدهليز « L. IV » والباحة « L. II » والحجرة . «
ويبدو ان محتويات القصر كانت غنية بالأصل ، وذلك من بقايا اواني الالباستر وغيرها من اللقى التي نجت من النهب فالحاتم الفضي المزين بحيوان راكض في « L. III » والرأس العاجي الصغير للربة حتحور في « L. IV » وغيرها .

اما الرقم واجزاء الرقم التي كشفت في موسمي ١٩٧٧ و ١٩٧٨ فقد قارب عددها الخمسين وهي محررة بالايجدية الاوغاريتية وبالمقطعية البابلية وبعضها في وضع سيء بسبب الحريق . وهذه الرقم ذات اهمية غير اعتيادية من حيث كونها اول مجموعة رقم اوغاريتية وجدت حتى الان خارج اوغاريت من



« بعض الدمي من حوالي القرن الثاني قبل الميلاد »

حيث محتواها وهي على فئات .

الفئة الاولى : مراسلات داخلية بين أهل هذه المدينة ومدينة أوغاريت .

الفئة الثانية : مراسلات مع ممالك خارج أوغاريت .

الفئة الثالثة : من النصوص والرقم ، دينية الطابع تعطينا معلومات

جديدة عن عوالم الأرباب الكنعانية وعن الطقوس وعن الاساطير التي كانت في

الواقع من مصادر التفكير الديني في هذه المنطقة من العالم . وبعضها طبية سحرية .

الفئة الرابعة : هامة أيضاً لأنها تختص بالعلاقات الاقتصادية ويمكن

إدراجها تحت فئة الرقم الاقتصادية .

إن مضامين الرقم في موسم ١٩٧٧ كانت تبعث على الدهشة ويمكن تلخيصها كما يلي :

إن جزء الرقم (هاني ٧٧ / ٢١) يذكر شد قاش (أي شد المقدس) وبذلك يضاف الى جمع الأرباب الاوغاريتي اسم رب جديد .

أما رقم ١٩٧٨ فقد فاقت على سابقتها في الموسم ١٩٧٧ وقد هنا الاختصاصي الكبير بالاوغاريتية الاستاذ اندره كاكوهذه الاكتشافات في رسالة بتاريخ ٢ آب ١٩٧٨ وذكر أن هذه النصوص الجديدة عناصر هامة جداً وأن بعضها يجب أن يتركه الإنسان تحت مخدته أسابيع .

ويمكن أن نجعل بعض محتويات الرقم الأوغاريتية في الموسم الاخير فنذكر أولاً رسالة ملكية (٧٨ / ١٢) من ملك أوغاريتي أو ولي عهد الى أمه (الملكة أمي) يذكر فيها شخصياً اسمه عبد الملك . ورسالة ملكية أخرى (٧٨ / ٣) تذكر أهل أوغاريت (أغوتيم) وملك مصر (ملك مصرم) كما تذكر البيت المالك في اوغاريت وانف (حوت اغرت وأف) ومن المحتمل ان رأس ابن هانيء هو موقع انف ، خاصة وان شكل شبه جزيرة ابن هانيء هو اشبه بالأنف منه بالرأس .

وقبل أن ننجز الحديث عن سورية عصر البرونز لابد أن نذكر أن سيرا تم إجراؤه في المربع (076) قد أوقعنا على بناء من عصر البرونز الحديث أيضاً ، جدرانه حسنة الحفظ عرضها متر وهي مكسوة كالارضيات بمونة نظيفة صقيلة ، وقد توضح التنقيبات المقبلة دوية هذا البناء الذي تخترقه حفر ملأى بالفخار الهيلينستي وسنعود لذلك مرة ثانية .

يمكننا أن نلخص الوضع في سوية البرونز الحديث المتركة كلها تقريباً في

القطاع هـ E باكتشاف مدينة معاصرة لأوغاريت ممتدة إلى ١٠ - ١٥ مكتاراً
(تتألف من ٦ أمتار عن سطح البحر) وهذه المدينة التي تتكلم لغة
أوغاريت متحدة معها بطراز العمارة والتنظيم الداخلي وقد تكون المقر الصيفي
للملوك أوغاريت أو مركزاً متقدماً لهم لمراقبة التجارة البحرية أو لاهداف
استراتيجية . وليس من المستبعد بل من المرجح حتى الآن أن تكون هذه المدينة
هي مدينة الانف (آفو) المذكورة مراراً في النصوص الأوغاريتية
والمقرونة مع أوغاريت حيث تذكر « سلالة أوغاريت وآفو » .



من دار الحضارة

الاستاذ
سهييل عيمان

لعل التجمعات الانسانية ثلاث بالنسبة لامتلاك الحضارة ، منها المجتمعات المتحضرة تحضراً متقدماً . ومنها المجتمعات التي عرفت التقدم الحضاري في عصر من العصور طال أو قصر ، ثم ارتدت الى حال هي إما مختلفة عن حال الحضارة أو تمثل مستوى غير رفيع من مستوياتها ومع ذلك لم تندثر بل ظلت تحيا وتتفاعل . والتجمع الثالث هو التجمع الذي يمثل البشر الذين لم يتحضروا بعد ، أو لم يبلغوا عبر التاريخ الانساني شأواً عالياً في الحضارة .

وإن كلا من هذه الجماعات الثلاث يمكن أن تتلىء بالقلق حول المسألة الحضارية . فالزمرة الاولى وهي زمرة المتقدمين ينشغل تفكيرها بقيمة الحضارة ومدى استمرارها وكيفية الاحتفاظ بها وتطويرها ، على الرغم مما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة من ان الحضارة المتقدمة مطمئنة إلى تفوقها ومكانتها اطمئناناً يحول بينها وبين القلق على مصيرها وقيمتها فالغرور الحضاري ليس مطبقاً بشكل دائم على تفكير المتقدمين أجمعهم . .

وأما الزمرة الثانية وأعني بها زمرة الذين ارتفعوا ثم تدنوا مع احتفاظ تجمعهم بوجوده ، فهي أشد قلقاً وبخاصة اذا حاولت النهضة من جديد لتستعيد دورها الحضاري الرائد ، بل يدل هذا القلق حين تعاني منه على بداية النهضة .

وهي في هذه المرحلة تطرح على نفسها أسئلة عديدة تتعلق بالنشاط الحضاري ،
منها أسئلة المتقدمين أنفسهم ولكنها مأخوذة من وجهة نظرها أو من الناحية التي
تهمها ، ومنها قضية العود الحضاري وهل يمكن أن يتم وما شروطه وما
مضمونه ؟ هل هو تكرار للمضمون السابق الذي قدمه التجمع أم أخذ عن
الحضارات المستجدة أم مضمون أكثر من هذا وذاك جدة . . . ؟ . واما التجمع
الثالث المتأخر دون ان يعرف التقدم الحضاري سابقاً فهو يقلق عندما يستيقظ
او عندما تفرض عليه الظروف أن يتخذ موقفاً من الحضارة وقيمتها وشروط قيامها .
ولعل تجمعات الزمرة الثانية هي اشد التجمعات قلقاً حول المسألة الحضارية .
وبخاصة عندما تهم بالعودة الى متابعة التقدم لأنها تحس بالذنب والمهانة وتعذيب
الضمير مع الفخر والاعتزاز بالقدرة الحضارية التي تثبتت لأسلافها وهي موضوع
للجذب والشد بين ماضٍ تنتمي اليه وتشعر أنه قد انقضى ، وحاضر تراه دون
هذا الماضي بكثير ولا يعبر عن كامن قدرتها ومستقبل تتطلع الى سموه فيحول
غموض الرؤية بينها وبين الحركة المطمئنة نحو تحقيقه . ولعلي لا اواجه بكثير من
الاعتراضات اذا قررت ان المجتمع العربي مثل على جماعات الزمرة الثانية هذه
فهو قد عرف الارتفاع الحضاري في مرحلة سابقة ثم اصاب بالتدهور ، ثم عاد
عن طريق الصعود مرة اخرى ولم يزل في مرحلة المحاولة الآن ولذلك تكثر بين
ابنائنا التساؤلات حول الحضارة والتقدم .

من هذه التساؤلات كيف تقوم الحضارة ؟

سؤال اجاب عنه ابن خلدون بان اعتبر الحضارة احد الشكلى اللذين تبدى
عليها التجمعات البشرية وهما : الشكل البدوي و الشكل الحضري . الحضارة
عند ابن خلدون مرادفة للتحضر وترك حياة البداوة وهي ظاهرة اجتماعية

متعددة الوجوه إلا ان القابلة التي تخرجها الى مجال التحقق هي الفاعلية السياسية
لعشيرة من العشائر البدوية ، نشطت فيها رابطة العصبية فحملت ابناءها على
التناصر فتغلبت على ماحولها من عشائر والحققتهم بنضالها ثم استولت على المدن
او اسست المدن فبدأت حضارتها ناقلة شيوخاً من مستوى الرئاسة العشائرية الى
مقام ملوك الدول . فالحضارة والدولة توأمان في الولادة تكن وراءهما قوة العصبية
وهي قوة وهمية كما يرى ابن خلدون ، ولكنها فعالة لتأثيرها على قناعة ابناء
العشيرة ومواليها وحلفائها . وتوجد الى جانب العصبية عوامل مساعدة كالدين
والاقليم المعتدل وحسن القيادة إلا ان الاساس الذي لا بد منه هو فاعلية الجماعة
تحت دفع النابض العصبي .

واما تويني فيري ان الحضارة تشرق عندما يواجه مجتمع من المجتمعات
تحدياً معقولاً لا يكون على درجة من الشدة بحيث يسحقه ولا يكون في الوقت
نفسه ثقافياً ، امام مثل هذا التحدي يعمل المجتمع النشاط المبدع فيجد حلاً
للمشكلة من هذا المستوى او ذاك ويجعله الحل احد المجتمعات الحضارية او المرشحة
للحضارة إلا ان الحل الامثل الذي يدخل المجتمع في حضي الحضارة الحقيقية
الفعالة هو الحل الذي يحمل إمكانية استمرار الإبداع ، لان المجتمع ، حين يحل مشكلته
الاولى تنبثق امامه مشكلات جديدة عليه ان يحلها ، فإذا استمرت قوة الإبداع
قادرة على مواجهة تتابع المشكلات بتتابع الحلول المبتدعة دامت حضارة المجتمع
فترة زمنية كافية ووصلت إلى رقي رائد وعدت من بين الحضارات المتكاملة . .
والمشكلات التي تتعرض لها المجتمعات متنوعة فمنها مشكلات طبيعية ومنها
مشكلات إنسانية بحتة . ومن المشكلات الطبيعية التي يمكن ان تتعرض لها
المجتمعات مشكلة الجفاف ونقص النباتات والحيوانات المغذية لابناء المجتمع ، وقد

وقعت هذه المشكلة في بداية الحضارة بشكل عام حين ادى انسحاب العصور المطيرة إلى جفاف مناطق واسعة تقع بين إفريقيا وآسيا ، ونقص الغذاء على الجماعات التي كانت تعيش هناك فاجتهدت للحل فمنها من اخفق في حل مشكلته فانقرض ومنها من نجح نجاحاً جزئياً بأن تراجع إلى المناطق المحتفظة بخصبها ، ومنها من نجح نجاحاً تاماً بأن تحصل من مكانه لا يلحق المناطق المطيرة ولكن ليتمكن من إجراء عملية هامة جديدة وهي الحصول على موارد العيش عن طريق الزراعة القائمة على الري المنظم عند السومريين والفراعنة او كسب العيش عن طريق طريق البحر كما هو الحال عند المينويين الذين اتجهوا إلى كسب رزقهم عن طريق البحر ، وقد عرف التاريخ الحضاري تحديات إقليمية أخرى في الشرق الأقصى والقارة الأمريكية . واما التحدي الذي هو من طبيعة بشرية فمثل تحدي الحضارة الهيلينية ثم المسيحية للمجتمع السوري القديم ومجتمعات الشرق الأوسط القديمة بشكل عام ، وقد ادى هذا التحدي إلى عدة ردود فاشلة ثم جاء الرد الناجح المتمثل في الإسلام فنشأت على يد العرب الحضارة الإسلامية التي مالبت ان شاركهم فيها شعوب شرقية أخرى كثيرة . ويفرد توينبي للدين منزلة رفيعة في نشوء الحضارات وبخاصة في نشوء جيل من الحضارات تلا الجيلين الاول والثاني ، وهو حضارات الجيل الثالث مثل الإسلامية والمسيحية الغربية والمسيحية الشرقية ، وهو يصل احياناً إلى درجة التعميم حتى يجعل الحضارات ادوات للديانات ، ولكن الأثر الفعال للدين يظهر عنده أكثر ما يظهر في حضارات الجيل الثالث . ومادام توينبي قد تحدث عن تحديات البيئة الجغرافية فهو كإن خلدون انتبه إلى دور العوامل البيئية في تكوين الحضارات إلا أنه مثله أيضاً لم يتخذها العامل الوحيد أو الرئيسي ، واذا كان العامل الاول عند ابن خلدون في قيام

لدولة والحضارة هو العصبية فإن المحرك الأول للفوز الحضاري عند توينبي هو الابداع المواجه للتحدي ، وإذا كانت العصبية أمراً اجتماعياً يعم أفراد العشيرة فإن الابداع ينشأ عند القلة المتفوقة ذات المعاناة والذكاء ، ولهذا نعد توينبي أقرب إلى نظرية الصفوة من ابن خلدون الذي نعهده اجتماعي النظرة أكثر منه ، وقد ربط ابن خلدون بين الحضارة والدولة ربطاً وثيقاً على عكس توينبي الذي لم يجد هذا الارتباط ضرورياً في كل حين وإن لم يهمله إهمالاً تاماً . وعلى كل حال فإن توينبي لا يوحد بين مجال الحضارة ومجال الدولة ، فقد توجد في الحضارة الواحدة في الزمن الواحد عدة دول .

وتحضرني إجابة (أنجلز على تساؤلنا الأول ، وهو يرى أن البشرية تبدأ بالوحشية والبربرية كما يرى مورغان ثم تصل المرحلة الحضارية . والفرق بين المراحل الثلاث فرق اقتصادي راجع إلى تطور الإنتاج وأدواته وعلاقاته . الجماعة الوحشية تعيش على تحصيل المنتجات الطبيعية فهي قاططة للثمرة صائدة للحيوان والسمك نظراً لبساطة أدواتها وليس عندها ادخار ولا طبقات إذ لا يمكن تجميع الثروات ، وفي المرحلة البربرية يكرر الإنسان إنتاج المنتجات الطبيعية عن طريق تربية الحيوان والزراعة وفي هذه المرحلة تبدأ الثروات المتمثلة في القطيع والأرض والمحصول ، ويشرع المتنفذون بالاستئثار فتبدأ الملكية الخاصة غريبة في أول الأمر ثم يشتد عودها بالتدريج وتنتهي الأمور إلى المرحلة الثالثة وهي الحضارة حيث تتطور أدوات الإنتاج فيصنع الإنسان المنتجات غير الطبيعية أو يتوسع في إنتاج ما لم تنتجه الطبيعة من لباس وبناء طعام وأثاث ويستخدم المنتجات الطبيعية كمواد خام لمصنوعاته . ومن ثم تتطور علاقات الإنتاج فتزداد الحاجة إلى تشغيل الآخرين واستثمار جهدهم فتعمل الطبقات

المالكة مستعينة بالقوة المسلحة على إقامة الدول التي هي بحكم نشأتها حامية
 للنظام الطبقي القائم على استغلال الانسان للانسان مادامت غير اشتراكية .
 والحضارة يرافقها التوسع في استخدام معدن الحديد كما ترافقها الكتابة ، ويضرب
 أنجاز الامثلة من تاريخ اليونان والرومان والجرمن وسوام ليؤكد نظريته التي
 هي جزء من الماركسية طبعاً وليبين كيف ابتدأت الملكية مشاعاً ثم تخصصت
 ومع تخصصها ظهر الاسترقاق وانتهت الدساتير العشائرية لتحل محلها الدساتير
 الحزبية المرتبة لخدمة أصحاب المصالح الواسعة . . ويتفق أنجاز مع ابن خلدون
 في التأكيد على دور القوة في ولادة الدولة والحضارة وفي الربط المتين بين ظهور
 كل منها ، وفي إقامتها على عوامل اجتماعية هي العصبية عند ابن خلدون ،
 والمصالح الطبقية عند أنجاز ، فكان الطبقة الماركسية تقابل العشيرة الخلدونية .
 وعلى كل حال فان ابن خلدون لم يكن مهملًا لقيمة الظاهرة الاقتصادية وعلاقتها
 بالحضارة فهو قد عرّفها بها إذ رأى ان البداوة تعتمد على الرعي والزراعة فقط
 وأن الحضارة تعتمد على الصناعة فكان تصنيف ابن خلدون للمراحل هو التصنيف
 الذي نادى به بعدئذ مورغان وأنجاز مع تغيير الاسماء كالبدواة الخلدونية
 والوحشية والبربرية عند الآخرين وأما اسم الحضارة فمشارك .
 وثمت اجابات أخرى عديدة عن تساؤلنا الاول المتعلق بقيام الحضارة ، منها
 إجابة اشبنغلر الذي يرى ان الحضارة تبدأ حين تستيقظ الروح الانسانية
 من خلال أحد جوانبها ، اي حين تستيقظ روح امة من الامم في مواجهة
 مصيرها ، ومن ثم تشع في العطاء لمدة من الزمن ، ويعد كتاب اشبنغلر من الأصول
 التي اعتمد عليها توينبي في آرائه الحضارية إلا أن اشبنغلر يكاد يتميز بغيبيته الشديدة
 في هذا المجال .

وأفضل الآن ان اقتصر على هذه الاجابات عن السؤال الاول لانتقل الى

السؤال الثاني وهو ما مسيرة الحضارة بعد ولادتها ؟

أما صاحبنا ابن خلدون فيرى ان الحضارة تزدهر فترة ثم ماتلبث ان تذوي وتموت . وآلية ذلك لم تعد بجهولة ، فأصحاب العvisية او العشيرة الحاكمة يميلون إلى نعيم الحياة بعد ان استقروا ، إلى الكماليات والمعشية الراضية ، فينفقون المال لشراء السلع المصنوعة على يد الحرفيين المهرة ، ويستدعون البنائين لإقامة القصور والنقاشين لزخرفتها ، ويميلون إلى الغناء والموسيقا ويتبارون في اقتناء الكتب وضم العلماء إليهم ، فتزدهر الحضارة بجوانب نشاطها المختلفة ويزداد عدد السكان فيزداد الانتاج والتبادل .

ولكن هذا النهوض يحمل في أحشائه الجنين الذي سيقتله ، إذ تشتد حاجة الجميع الى المال ويشتد الطمع من أجل التحصيل ، ويسبق الحكام غيرهم في نمو الحاجة الى المال لأن الملك منهم يتخلص من اعسوانه السابقين الذين كانوا يرون أنفسهم أنداداً له ، ويحل محلهم المرتزقة الذين يطالبون دائماً بالمزيد ، فيسرف الحاكم في فرض الضرائب ، وقد يدخل السوق - بشركائه - تاجراً يشتري رخيصاً ويبيع غالياً فتختل الموازين الاقتصادية ويهرب الناس بمهاراتهم وأرزاقهم ، ويضطرب جبل الامن فضلاعن ان ازدحام السكان واكتظاظهم في المدن دون تنظيم يؤديان إلى انتشار القذارات والأوبئة فتميل الحضارة إلى السقوط ، ولكنها لا تسقط الا بسقوط زميلتها الدولة وهي حتماً ساقطة لان الحكام المتعاقبين ضعفت عصبيتهم واهتمهم عن احتمال الكفاح فتنهار الدولة ، وتنهار معها حضارتها لينتقل الزمام إلى دولة وحضارة فتييتين . وهكذا نلاحظ وجود نوع من التفكير الجدلي عند ابن خلدون لان الشيء يحمل نقيضة ، كما أنه يربط هنا أيضاً ربطاً وثيقاً

بين الحضارة والدولة . وعمر الحضارة عند ابن خلدون قصير ، فكل حضارة تعيش عمر دولتها الذي لا يتجاوز غالباً الأجيال الثلاثة أو المائة وعشرين عاماً ، ويتساهل ابن خلدون فيقبل ان تختصر إلى مائة سنة ، فحديث ابن خلدون في معظمه ليس عن الحضارات الكبيرة الواسعة كحضارة العرب أو الفرس بشكل عام ، بل عن حضارات ودول ذات أصل عشائري قصير النفس وإن صدر عنه ما يدل على إدراكه وجود استمرار حضاري أطول وأعمق . ان ابن خلدون قصر أكثر بحثه واستقراآته على ما شاهده أو سمع به عن قرب ولذلك منح كل تلك الأهمية لدول العشائر . . ويظل ابن خلدون اجتماعياً إذ يذكر ان بعض الحكام الطموحين يحاولون في أواخر عمر الدولة ان يعيدوا لها سابق قوتها ، ولكن تأثير محاولاتهم يظل ضعيفاً إذ ان عوامل الهرم قد فعلت فعلها في الدولة والحضارة ولن يستطيع فرد أو أفراد ان يعيدوا الفتوة إلى عبوز . . ولا يرى ابن خلدون طريقاً حضارياً صاعداً تقدماً مستمراً من حضارة إلى أخرى فكل حضارة تنتج عنده بحسب ظروفها وعصبيتها ، وقد تكون الحضارة الاحداث أدنى مستوى من حضارة سبقتها زمنياً ، وابن خلدون صاحب عقل حتمي . ويشبه اشبنغلر ابن خلدون في حتميته إذ يرى ان الحضارة بعد ان تبدأ تزدهر فتعمر أولاً بمرحلة الحضارة بالمعنى الدقيق حيث يكون العطاء السخي في اوجه ، ويكون النتاج مترعاً بالبراءة والرجولة والطموح المرفه الذي لا يقيم كل شيء على حساب الارباح والخسائر أو على منطق المصلحة ، في مرحلة الحضارة ينتشر الدين الوجداني والشعر الذي تحتلج به الصدور والفلسفة المرافقة للإنسان وامانيه وآلامه ثم تنقضي هذه المرحلة لتحل محلها مرحلة المدنية حيث يبدو الحصول وفيراً الا أنه سطحي ، فالقدرة التقنية في ازدياد والانتاج المادي في تحسن

ولكن المنصر الوجداني البريء يضر ويصبح المال معبوداً حقيقياً ، وينتشر
الاستعمار وتراجع تقاليد النبالة لتحل محلها طبائع التجار واصحاب المصارف
وتمضى المدينة الصغيرة أو المعقولة وتحل محلها مدينة كبيرة مكتظة بأناس غير
منصهرين في جماعة واحدة فكانهم في معسكر او محطة مثل نيويورك . ولا بد في
النهاية من سقوط الحضارة لان الروح التي أنتجتها تجف وتذوي وتموت .
ويستخدم اشبنغلر كائن خلدون العبارات الحيوية مثل الشباب والشيخوخة كما
يستخدم التشبيهات المستمدة من تعاقب الفصول فيقول : ربيع الحضارة وصيفها
وخريفها وشتاؤها . إلا ان عمر الحضارات التي يهتم بها طويل كالحضارة المصرية
القديمة والهلينية والعربية والغربية . . . وهي على كل حال ليست كثيرة العدد . .
وعنده ان الخطوات التي تمر بها الحضارات هي ذاتها حتى أننا نستطيع ان نجد في
مختلف الحضارات شخصيات وظواهر متناظرة التوقيت متشابهة الدور مثل
روما ونيويورك ومثل الإسكندر ونابليون ومثل أرسطو وكانت .

واما توينبي فهو ايضاً يعتقد بالازدهار ثم التراجع الذي يعاند ثم ينتهي
بالموت غالباً . والازدهار في نظره واقع مادام في مقدور الاقلية المبدعة ان
تبتكر حلولاً للمشكلات التي ماقتفك تتوارد على المجتمع ، ويبدأ الانهيار حين
تفقد تلك الأقلية القدرة على الابداع ويملؤها الغرور والطمع في السيطرة ،
فتحاول ان تلتف على الواقع وتحاول فرض الحلول القديمة على المشكلات الجديدة
فتخفق ولا تعترف بالإخفاق ، بل تفرض نفسها على المجتمع حيث تتقلب من
أقلية مبدعة مرغوبة متبعة بقناعة الى اقلية مهيمنة مستبدة تحكم على الرغم من
من عدم اقتناع شعبها بها ، وتكثر الخلافات والحروب لغير الاغراض الدفاعية
فتفسد الحضارة وتكاد تنهار ، ولكنها لاتنهار مباشرة اذ يقيض لها
من يحمون شملها بالسقوه ويؤسسون لها دولة شاملة يسميها بدولتها

العالمية تعيش في ظلها متخذة موقف الدفاع الحريص على الدقائق والتفصيلات والترتيبات الطقسية والآلية دون الإبداع ثم تحمل نهايتها . ويختلف تويني عن ابن خلدون وعن اشبنغل بتأكيد أن الحضارة التي لا يشاء لها ابتؤها ان تموت فانها لن تموت لان تويني يتبنى موقف الحرية والامل ويفضلها على الجبرية التي أثرت عن اشبنغل ، غير ان بعض الباحثين رأوا ان يحمل مذهب تويني ميل إلى حتمية الانهيار وان ردد في نهاية البحث كلمة الحرية السابقة .

واما عمر حضارات تويني فهو اطول من اعمار حضارات ابن خلدون وإذا كانت الحضارات البارزة عند اشبنغل دون العشرة فإن حضارات تويني دون الثلاثين ، وقد بقي منها حتى الان الحضارة المسيحية الغربية والمسيحية الشرقية والإسلامية والهندية والصينية . ويعتقد تويني بالتقدم فكل حضارة تقدم بعض مايعلي صرح الحياة والقدرة الإنسائيتين ، كما يميل إلى ضرب من التفاؤل الحذر بمستقبل الانسان الذي قد يصل إلى إنشاء حضارة إنسانية واحدة . وهو يرى ان الحرب قاتلة للحضارة إذا زادت عن الحد المشروع لانها تستهلك الانسان وما ينتج ، وهذا الموقف مغاير لموقف اشبنغل الذي يرى في الحرب ظاهرة تجدد الروح وتكملها وهو في ذلك - أي اشبنغل لا تويني - شبيه بهيجل .

واما انجاز فهو لا يبحث الامور بهذه الطريقة لان الحضارة عنده طبقية وتستمر حضارة الطبقة مادامت الطبقة قادرة على توجيه الامور والانتقل الزمام إلى يد طبقة أخرى ولكن الماركسية عموماً تعتقد بوجود تقدم يطرد في مجرى التاريخ البشري إلا أنه ليس تقدماً عادياً يسير على خط مستقيم لانه تقدم جدي يقوم على تصارع الأضداد ، وهكذا تجد كل طبقة تقود الحضارة طبقة أخرى تنافسها ومن موت الاول مع الحصول على مكتسباتها تقوم حضارة طبقة جديدة تقدم عطاء جديداً .

ولا يستغرب ان يقف شعب في بعض المراحل عند مرحلة معينة لا يتجاوزها فيتابع الطريق أمامه شعب آخر او الطبقة الصاعدة في هذا الشعب فيحافظ الركب على تقدمه وإن اختلف المنفذون .

ومن الاسئلة التي تدور في ذهن عند البحث الحضاري السؤال المتعلق بقيمة الحضارة أهى خير أم شر ؟ وقد يجب بعضنا لهذا السؤال لان خيرية الحضارة أصبحت عندهم أشبه بالمسلمات . ولكن رجال الفكر بتشريحاتهم المدققة التي تتجاوز الظاهرة ذهبوا مذاهب شتى فابن خلدون مثلاً يذكر خصائص البداوة والحضارة ولا يبدو من كلامه أنه يعطي للحضارة قيمة تفوق قيمة البداوة فالحضارة إن كانت أحق تبقى البداوة أكثر طيبة وبراءة وسخاء واحتمالاً وشجاعة وصفاء ذهن . ويقترن صعود الحضارة بمناعب عديدة اشرنا اليها سابقاً ووجدنا أن الحاكم لا يعاني منها وحده بل يفرض على شعبه ما يرهقه فكأن الحضارة تسترد بيد ما أعطته بأختها . فابن خلدون إذاً من أنصار الاعتقاد بالطيبة في حياة البشر المبكرة حيث كانت العصور الذهبية والاخلاق النبيلة . وقد كرر هذا الاعتقاد روسو الذي أشاد بطيبة الانسان الاول وكشف عن الماوى التي تعلمها الحضارة للناس .

ولم يكن انجلز من المعتقدين بأن الحضارة خير ونعمة دائماً فهي قائمة في نشأتها على الاستغلال الطبقي وظلم الإنسان لأخيه الإنسان في سبيل الثروة . وإذا عدنا قيام الحضارة خيراً فمن ناحية نسبية ، بمعنى أن المراحل الاولى منها تسبق المراحل المتأخرة التي سوف يتحقق فيها المدل ، فقيمتها آتية من كونها طريقاً لما نريد ان يحدث . وتصبح الحضارة خيرة عندما ينتهي الاستغلال الطبقي ويتعاون الجميع من اجل الهدف المشترك واما اشتغلار فيعطي قيمة ايجابية كبيرة لمرحلة

الحضارة بالمعنى الدقيق ويمتدح عطاء الانسان فيها ، ويقف من مرحلة المدنية موقفاً متجهماً لانها اسر للإنسان وتقييد وضياع وان برز التفوق التقني وتحسنت ادوات الرفاه . وفي مقابل هؤلاء المتحفظين نحو قيمة الحضارة او الذين لا يرون في الحضارة لمجرد كونها حضارة او مدنية خيراً للإنسان ، توجد جحافل ممن يوقعون للحضارة وقيمتها الايجابية بالاصابع المشر ويعتقدن بشكل خاص بفضل الحضارة الحديثة التي يكفيها فخراً علمها وصناعتها فيذكرهم توينبي بأن العلم والصناعة إذا لم يوجهها الانسان لخدمة حاجات الانسان وسموه يصبحان بلاء وتدميراً ولربما قضيا على النوع الانساني او استخدما أداتين طبيعيتين من اجل ذلك

وارجو الا اخرج عن موضوع البحث إذا تساءلت عن الحضارة أهى حضارة انسانية واحدة أم عدة حضارات مختلفة نوعياً . ؟

اما حضارات ابن خلدون فهي كثيرة عدداً ، اذ لكل دولة عنده حضارتها على المستوى الفعال عنده ، وقد تتباين نسبياً في طول العمر ضمن الحدود التي عينها لذلك . واختلاف أعمارها راجع إلى كثرة عدد المتعصبين لها عند قيامها وقوة عصبيتهم فمرحلة التأسيس ذات اثر يمتد الى بقية المراحل ، وقد يكون اختلاف اعمار الدول والحضارات راجعاً إلى خصائص الشعوب التي انتجتها وتلك الخصائص اجتماعية غالباً ناتجة عن ظروف الشعب الطويلة وتفاعله معها . فحضاره شعب كان في الاصل ممعناً في البداوة والبعده عن العمران ينقص عمرها عن حضارة شعب آخر بعد عهده بالبداوة او كانت بداوته خفيفة نسبياً لأنه يعيش في اثنائها في مناطق قريبة من مراكز الحضارة والعمران ويحتك بها . ويختلف المستوى الذي تصل اليه حضارة عسنة حضارة بسبب خصائص شعبها التي نوهنا بها منذ قليل .

ويتجه اشبنغلر الى تخصيص أشد فهو يرى ان الحضارات مختلفة نوعياً بشكل

صريح وإن تشابهت في المراحل التي تمر بها . كل حضارة لها نظرتها إلى الوجود وتذوقها للأمور ولها تصور لها لموقف الإنسان وطموحه وعلاقاته بالكون والحياة والموت . ويعبر روح الحضارة الباطن عن نفسه بالرموز الخارجية مثل تصور المكان ، فالمكان في الحضارة الهلينية محدود سكوني يتجلى في تمثال أبولون مثلاً ، وأما المكان في الحضارة العربية فهو ذو ثلاثة أبعاد إلا أن بعده الثالث يفوص في الأعماق ويمثله الكهف حيث يتصارع النور مع الظلام والخير مع الشر . وأما الحضارة العربية التي يسميها بالحضارة الفاوستية - نسبة إلى بطل رواية الشاعر الألماني غوته - فكانها مجال واسع غير متناه يمتد بعده الثالث في الفضاء وتعبير عنه الموسيقا وحساب اللانهايات ثم الأرقام والهاقف واللاسلكي والاستعمار ، على حين تميل الحضارة العربية إلى الزخارف المجردة ، وكذلك يختلف تصور الإله من حضارة إلى أخرى وإن تشابهت أسماء الديانات أحياناً . وعنده إن كل حضارة مستقلة بشخصيتها ، وهي إذا تأثرت بسواها فإنها لا تقبل التأثير على علاقه بل تمثل الأثر وتحيله إلى طبيعتها الخاصة قبل أن تدخله في سياق وجودها . وإذا ما أكرمت الحضارة على الخضوع لسواها فإنها تعيش فترة من التشكل الكاذب الذي لا يدل على حقيقتها إلى أن تتاح لها فرصة الانطلاق الحر المعبّر عن روحها . ومن الأمثلة على ذلك أن معركة أكتيوم التي خسرتها كليوباترة وحليفها أنطونيوس أمام جيوش روما التي يقودها أغسطس كانت معركة بين الحضارة الهلينية وبين الحضارة العربية النامية ، وقد انهزمت فيها الحضارة العربية ، انهزم فيها الخليفة أمام الإمبراطور ، والاعتقاد بالإله الواحد أمام التعدد ، فانكفأت الحضارة العربية على ذاتها ولم تظهر منها غالباً إلا التشكلات الكاذبة المناسبة لغالبها كانت بين الحين والحين تنتفض محاولة استرداد طبيعتها المستقلة

بدون جدوى إلى أن استطاعت ذلك عن طريق الإسلام . ونلاحظ في هذا المثل النظرة الواسعة التي ينظر بها اشبنغلر إلى الحضارة العربية ، كما نلاحظ التشابه في هذا المجال بين اشبنغلر وبين معاصره الأصغر منه قليلاً وهو توينبي مع بعض الخلاف في المصطلحات . ويعلل اشبنغلر بهذا الكبت الطويل للطبيعة العربية اندفاع الحضارة العربية وسرعة امتدادها ، كما يحدها في تعجلها تتمثل شيخوختها وهي في الشباب . وإذا طرحنا السؤال المتعلق باختلاف الحضارات على توينبي نجده ممن يذهبون إلى اختلافها نوعياً . وهوية كل حضارة تبدأ منذ التحدي الذي يواجهها ، فحضارة واجهت في المهد تحدي الجفاف ، وأخرى تحدي بيئة الهضبة وأخرى تحدي بيئة الغابة . ثم تختلف بالحل الذي أبدعته لمواجهة التحدي سواء أكان جغرافياً أم بشرياً ثم في نوع الحلول المتعاقبة للمشكلات التالية . وحين يبحث مثلاً في الحضارة الغربية يذكر من خصائصها استقلال المؤسسة الدينية عن المؤسسة السياسية بحيث تطور جانب من حياة شعوبها تطوراً حراً إلى حد كبير قام على جهود فردية ولم يحدث نتيجة للتعليمات الرسمية ، ولذلك نجد الحرفيين والتجار يلعبون دوراً كبيراً في تطور الحضارة الغربية ، وتلعب الكنيسة دوراً متميزاً عن دور الدولة هو غالباً أقرب إلى الجمهور . ونتيجة لهذه المقدمات انتشرت الديمقراطية البرلمانية الليبرالية في أكثر أنحاء الحضارة الغربية وتطور علمها وصناعتها وبرامجها على نحو معين ، وهي تعاني الآن من المشكلة الاجتماعية الطبقيّة ومن علاقاتها الاستعمارية ومن تنافس أجزائها . وأما الحضارة المسيحية الشرقية التي تمثلت في روسيا القيصرية فقد كانت المؤسسة الدينية فيها مقرة بسلطة المؤسسة السياسية عليها ولذلك جاء التطور من الأعلى بقرارات من الحاكم ولعبت الطبقة المثقفة الموظفة فيه دوراً يفوق دور الطبقة البورجوازية التي كانت أقرب إلى القيادة في الجانب الغربي .

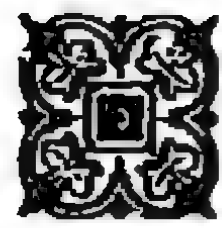
وقد كانت الحضارة الشرقية على الدوام في تنافس مع الحضارة الغربية وانهزمت أمامها في أواخر أيام القيصريّة ، فتبنّت مذهباً جديداً متطوراً هو الماركسية التي افرضها المجتمع الغربي ، ولكن الحضارة الشرقية على يد لينين طورت المذهب الماركسي حتى جعلته يلائم عقليتها فأصبحت به أقدر على مواجهة الغرب ، وأصبحت أبعد منه عن الصراعات الطبقيّة الداخليّة وعن الأحقاد الناتجة عن الاستعمار وان ظل على اعتقاده ان الحضارة الغربية مازالت في المقدمة بالنسبة الى هذا العصر .

ويندد كل من اشبنغلر وتويني بجمهور المؤرخين الغربيين الذين كانوا يعتقدون ان الحضارة الغربية وحدها هي الحضارة الحقيقيّة وان الحضارات السابقة ما هي الا تمهيدات لها ، والذين لا يقرون بخصائص حضارية الاختصاصها وقيسون كل امر حضاري عليها فهم ضيقو الأفق غير موضوعيين ، وقد جرفهم غرور حضارتهم البارزة في عصر من العصور ، مع ان حضارات اخرى عرفت التفوق في عصور أخرى ، وليست الحضارة الغربية هي الكلمة الأخيرة في التاريخ . وان تنوع الحضارات عندهما لا ينفي استمرار التقدم من حضارة إلى اخرى على الأقل من بعض النواحي .

وأما أنجلز في كتابه عن اصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة فتظهر الحضارة عنده حضارة إنسانية عامة تتطور حسب تقدم ادوات الإنتاج وبالتالي علاقاته من مرحلة غير طبقيّة سابقة على الحضارة إلى مراحل طبقيّة متحضرة تقوم على استغلال الإنسان تسيطر فيها الطبقة المالكة للرقاب أو للأرض أو للمال فتتطبع الحضارة كما تتطبع الدولة بطابع الطبقة المسيطرة

أولاً وبطابع الطبقات المنافسة ثانياً ثم بطابع الطبقات المسحوقة ، فكان كل مرحلة حضارية فيها ملامح عامة وملامح خاصة بحسب التكوين الطبقي والمستوى الذي وصلت اليه ادوات الانتاج ، فمثلاً مر وقت على الحضارة اليونانية سيطرت فيه الطبقة الرأسمالية التاجرة والمسيطرة على الحرف الكبرى فأعطت تلك الحضارة في ذلك الظرف شكل التكوين الرأسمالي ، إلا ان الحضارة الغربية حين سيطرت عليها الطبقة الرأسمالية عرفت هذه السيطرة في ظرف متقدم علمياً وصناعياً على الظرف الرأسمالي اليوناني فاتخذت ملامح خاصة تميزها عن تلك الفترة اليونانية وان تشابهتا في الطابع العام . ولايعدم كتاب انجاز المذكور حديثاً عن خصائص الشعوب وهي طبعاً خصائص مكتسبة نتيجة التفاعل مع الظروف على انه يذكر رأي مورغان القائل بأن الشعوب السامية والآرية قد سبقت غيرها إلى الرعي فازدادت كمية اللحوم التي تتناولتها ففما دماغها أكثر من الشعوب الاخرى وسبقتها إلى الحضارة ، إنه يذكر هذا الرأي دون ان يرفضه فالتعليلات البيولوجية واردة على الاقل في المراحل المبكرة ، ولا تنسى ان انجاز يتطلع إلى حضارة جديدة خالية من الاستغلال الطبقي . وقد وجد آخرون غير انجاز يرون الحضارة واحدة بل قد يصورون وحدتها أكثر مما صورها ولكن البحث طال ونأمل ان تكون لنا عودة إلى الموضوع لنلقي اسئلة لم نلقها بعد ونستمع إلى الاجابات المتعدده ثم نحاول ان نعبر عن قناعة متواضعة .

سهيل عثمان



بعض المراجع

مقدمة ابن خلدون

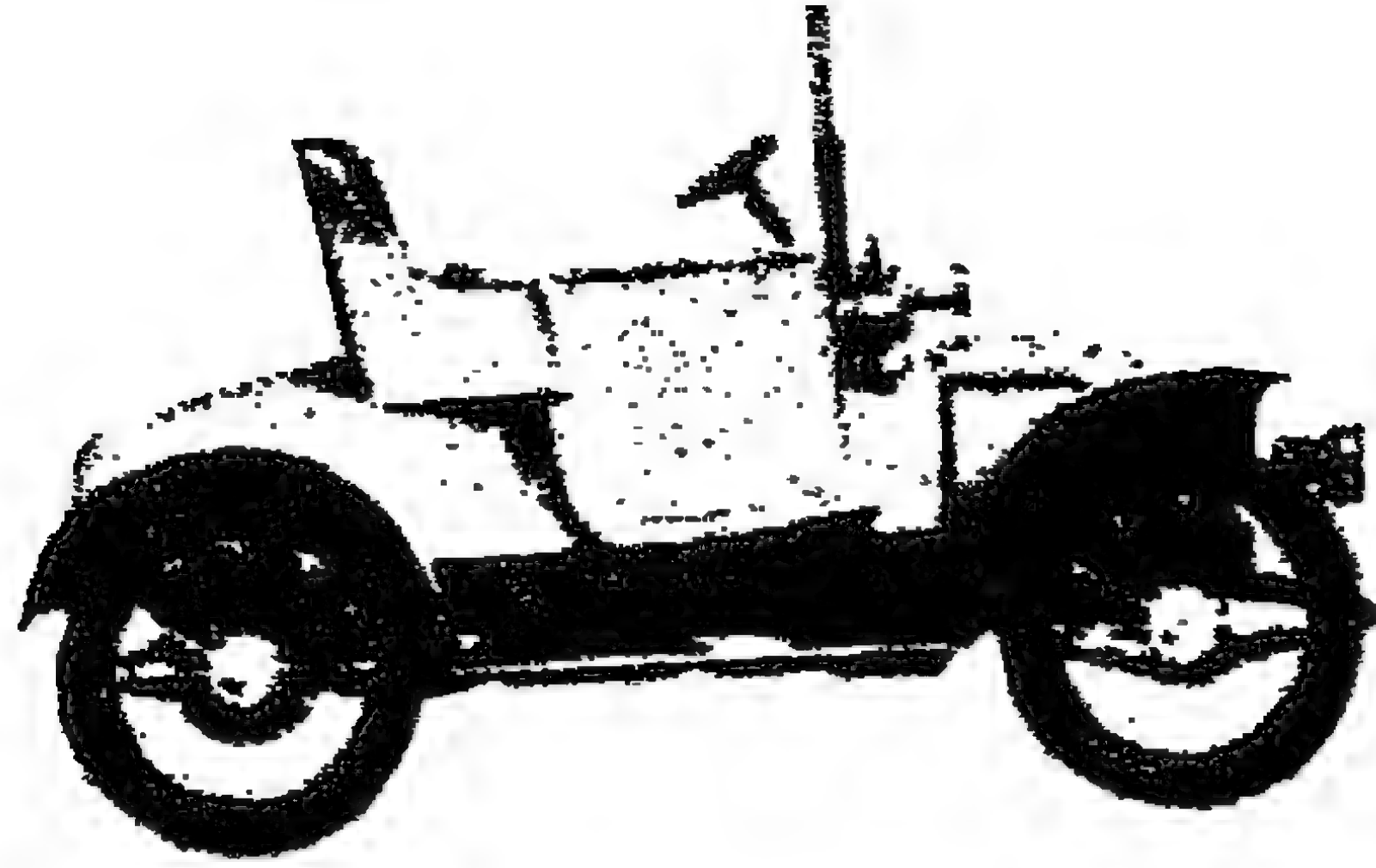
موجز دراسة التاريخ (ارنولد توينبي)

تدهور الحضارة الغربية (ازوالد اشنينفلر)

أصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة (فريدريك أنجلز)

من مقدمة ابن خلدون (سياسة واقتصاد) سهيل عثمان ومحمد درويش

مجلة البحث التاريخي - حمص - العدد (١) ١٩٧٧



البعثات الأثرية وتل الحديدي

بقلم الأستاذ: محمد الخولي
محافظة نجف - العراق الإسلامية

هذا هو المقال الثاني في سلسلة اخبار منطقة أعالي بحيرة الاسد من حوض الفرات ، وكنت في المقال الاول الذي نشر في العدد الاول من هذه المجلة قدمت فكرة سريعة عن المنطقة من النواحي التاريخية والجغرافية وعن المقدمات التي استهوت البعثة الامريكية للسعي بالترخيص للعمل في هذا التل ، ثم تحدثت عن المدافن التي اكتشفت في تل الحديدي بأنواعها وعن المدافن الاخرى الموجودة في المنطقة وعن مرقعة المدافن وسأقصر حديثي في هذا المقال على البعثة التي نقت في تل الحديدي ثم على جزء المرتفع وهو الجزء الاهم في التل مع استعراض مقتضب لعمليات التنقيب وأهم الاكتشافات . (١)

(١) إن المعلومات الأثرية التي اوردتها في المقال السابق وفي هذا المقال وما يليه هي مما ثقفته من مرافقي للبعثات الأثرية كممثل للمديرية العامة للآثار والمتاحف . وهذه الوظيفة تقتضي ملازمة دائمة لهذه البعثات خلال مراحل العمل الميدانية وبطبيعة الامر كنت على صلة بجميع المباحثات النظرية الاولى . هذا بالإضافة الى ممارستي شخصياً العمل الميداني فكنت لا أضيع اية فرصة من المناقشات العلمية التي تدور ما بين رئيس البعثة وأعضائها الآخرين من ذوي الاختصاصات المتنوعة ، وكذلك حضرت تقريباً جميع المناقشات التي جرت خلال الزيارات العلمية للموقع من قبل البعثات الأثرية الاخرى العاملة في الموقع الآخر من حوض الفرات ، ولم تفتني الزيارات الخاصة التي يقوم بها بعض المختصين الذين يحضرون خصيصاً لمعاينة الموقع ومشاهدة مكتشفاته ، وشهدت جميع المحاضرات التي قدمها المختصون في مدينتي دمشق وحلب حول هذا الموقع وكنت اقوم بالترجمة الفورية لهذه المحاضرات كما أسهمت بترجمة بعض الابحاث الأثرية والمحاضرات للاختصاصيين الذين عملوا في مواقع هذه المنطقة من الهولنديين والامريكيين،

بعثة تل الحديدي :

إنها بعثة أمريكية تنتمي الى متحف ميلووكي وجامعة ميتشغن يرأس البعثة الدكتور رودولف دورنمان Dr. Rudolph H. Dornemann محافظ دائرة الآثار الشرقية في متحف ميلووكي وتحتوي في عضويتها التي تصل في بعض المواسم إلى عشرين شخصاً شخصيات علمية كبيرة تنتمي الى جامعات ومعاهد علمية أمريكية شهيرة ، كجامعتي ميتشغن وديسكاونسن امثال الدكتور جورج مندنهول والدكتور يوب روس والدكتور توماس ماكليان . اما بقية الاعضاء فهم من ذوي الاختصاصات الفنية والتقنية العلمية التي تحتاجها البعثة كالمصورين والرسمين والطبوغرافيين والمرممين ، بالإضافة الى مجموعة من الطلاب الجامعيين الذين أسهموا في أعمال البعثة المختلفة لان ذلك من مقتضيات دراستهم الجامعية . وقد صعب البعثة عالم انثروبولوجي كما اعتمدت البعثة في بعض المجالات الاخرى كدراسة العظام ونماذج التربة والعناصر النباتية على خبرات الجامعات والخبراء في هولندا .

اسلوب البعثة في التنقيب :

اعتمدت البعثة في التنقيب الاسلوب الكلاسيكي التقليدي في الكشف الافقي عن الطبقات حسب طريقة المنقب الانكليزي مورتيمر هويلر Mortimer wheeler (١) . ومن الناحية العلمية اعتمدت اسلوب التشابه والتماثل وذلك بربط الاكتشافات بنتائج الاكتشافات السابقة التي درست وصنفت وعرضت نتائجها بالمتاحف والكتب ، وتعطي مكتشفاتها تعريفاتها على هذا الاساس ، لذلك اعتنت بالدرجة الاولى بدراسة الاشكال Typology وهي تختلف

(١) للاستزادة انظر د . عدنان البني - التنقيب الاثري الحديث - منشورات وزارة

الثقافة والارشاد القومي - دمشق ١٩٧٦

في هذا المجال عن بعض البعثات التي تعتمد أسلوب البحث والتحري الحر الاصيل غير المنتمي معتمدة في سبيل ذلك الوسائل التقنية الحديثة من تحاليل مخبرية وفحوص مجهرية تساعد على معرفة عصر الموضوع بعيداً عن الاختلاطات التي يوقع بها أسلوب دراسة الاشكال . وعيب الطريقة الكلاسيكية في أنها تستقري الاكتشافات والمعلومات من الاعلى الى الاسفل شأن من يقرأ كتاباً مبتدئاً من صفحاته الاخيرة ، وعلى عكس ذلك المدرسة الحديثة التي تأخذ مربعات من التل وتقوم بتنقيبها طبقة اثر طبقة حتى تصل الى الارض الحرة وفق الأسلوب المعروف بالستراتيغرافي Strtigraphy وميزة هذه الطريقة أنها تساعد على تبين تأثير الحضارات المتتالية على الموقع ابتداء من أقدمها وانتهاء بآخرها ، وعيبها صعوبة الاطلاع على قطاع مكثي واسع يعود لطبقة واحدة .

طبيعة البعثة ومصادر تمويلها :

تختلف طبيعة البعثات الاثرية بحسب الجهات العلمية المنتدبة لها ، والاهداف التي تسعى إلى تحقيقها وتتأثر أحياناً بانتماءاتها القومية والعقدية ومصادر تمويلها فإن كانت هذه الجهات مؤسسة علمية كالجامعة فإنها تلتزم غالباً بالاساليب المنهجية النموذجية ولا تبالي كثيراً بموضوع الاكتشافات واللقى ، فإن وجدت شيئاً ابتهجت وسعدت به ، وربما أقامت حفلة شراب تتبادل خلالها الانخاب . وإذا لم تعثر على شيء ذي أهمية كالكسرات الفخارية والمصنوعات الحجرية البسيطة فهذا لا يحزنها لانه يكفيها ان تكتشف آثاراً تساعد على تأريخ أو تعريف السوية أو الطبقة التي تعمل بها . ويكفي ان تكون الكسرات الفخارية تساعد على استكناه الاشكال وعناصر الزخرفة والتعرف على طبيعة الصناعات وميزاتها الفنية ، هذا النوع من البعثات هو اصلح الانواع اذ أنه لا يضطر الى الخروج عن

الأسلوب العلمي المنهجي الذي يساعد على استمزاز الموقع الاثري بتؤدة وروية ولا يضيع الفرصة في التعرف على الدقائق في شتى المجالات . هنا يحضرنى موقف لاحد علماء الآثار في هولندا (١) إذ سأله مدير مركز الابحاث في هولندا (هذا المركز الذي يعد ويمول جميع البعثات الهولندية التي تنقب في هولندا وخارجها) سأله هل اخترت موقعك الذي تود العمل فيه ؟ فأجاب نعم ، سأله ثانية ماذا تتوقع ان تكتشف فيه ؟ ؟ فأجاب العالم أتوقع الايخيب املي في ان أجد تراباً كان للإنسان في القديم صلة به . ثم اضاف إذا كنتم تقبلون مني نتيجة بهذه الحدود فأنا ذاهب إلى عملي ، وإذا كنتم تحملون باكتشاف النفائس الباهرة والاكتشافات النادرة فإني اعتذر عن المهمة .

هناك بعثات تختار مواقع معينة أملاً في ملاحقة افكار محددة ربما كانت ذات مغزى حضاري بحث ، وربما كانت ذات مغزى تاريخي او قومي ، وربما كانت للحفاظ على تقاليد مؤسسة علمية اعتادت ان يكون لها شأن في مجال السبق العلمي ، وأخيراً وليس آخراً هناك بعثات تضع نصب عينها اكتشاف النفائس والآثار القيمة النادرة لتبرهن للجهات الممولة عن جدوى مهمتها وغالباً ما تكون هذه الجهات الممولة لا تستطيع ان تقدر المشروع الا بقدر مردوده الملموس ، وهؤلاء لا تجدي معهم الاكتشافات العلمية مهما كان شأنها مالم تقترن باللقى الثمينة التي تساعد على اخراج مطبوعات هامة تخلد ذكر المسهمين كما تساعد على إقامة محاضرات جذابة تعجب الجميع ، لذا يضطر العاملون في البعثة حرصاً على إذكاء حوافز الممولين والفوز برضاهم الى اتباع أساليب غير علمية احياناً وتلك

(١) هو الدكتور فرانكين مدير معهد الدراسات الفلسطينية في جامعة لايدن وهوراند مدرسة حديثة في التنقيب اسلوبها الكلي هو السترايتغرافي .

هي أسوأ أنواع البعثات لان قلقهم على اكتشاف اللقى يكون على حساب التنقيب العلمي المنهجي الجاد ، وكثيراً مايكون العلماء والمسؤولون في هذه البعثات لايشاطرون الممولين نظرتهم للأمور ولكنهم لايجدون خياراً آخر إذا ماأرادوا الاستمرار في متابعة كشفهم وابحاثهم ،والممولون في هذه الاحوال لا يحملون بالحصول على الآثار نفسها كما يتبادر الى الذهن ، بل ستكون الاكتشافات الهامة وسيلة للتحدث عن مآثرهم في تمويل المشاريع العلمية ، وستكون كذلك مادة للصحافة ودور النشر التي تشيد بذكرهم وترفع من شأنهم . ومعلوم مالهذا العلم من جاذب شديد لدى المجتمعات المتطورة الراقية . وإذا كان للعالم والمتاحف شأن لدى مثل هذه البعثات فستكون فائدتها كبيرة إذ سيكون لها نصيب - في بعض الاحوال - من اللقى تشغل فيه جانباً من معروضاتها ويساعدها على تقديم انجاث جديدة تحملها مطبوعاتها إلى مكتبات العالم ، بالإضافة إلى انها تفتنم مثل هذه القرص لإعداد كادر علمي وفني إعداداً ميدانياً يكون عائده المؤسسة والوطن .

أما بعثتنا التي نحن بصدد التعريف بها فإنها على مذهب البعثات الامريكية الاخرى التي تنقب في منطقة الشرق الاوسط ، وهي تدين بتمويلها إلى عدد من المصادر أهمها مجلة (ميلودكي) ثم جامعة (ميتشغن) ثم المجلة الجغرافية في الولاية ، ولا ادري فيما اذا كان لبعض الشخصيات البارزة في الولاية دور في التمويل . وما تجدر الاشارة اليه أن رئيس البعثة يقوم بالدعاوة بشكل حثيث لموقعه من حين انتهاء موسم وحتي يبدأ الموسم الجديد لدى الهيئات التي يتوقع منها الدعم المادي ، لذا فهو يعلم تماماً أيستطيع أن يتابع التنقيب في الموسم القادم ام لا ؟ لانه لا يستطيع ان يقدر نتيجة مساعيه سلفاً .

برنامج البعثة اليومي والاسبوعي :

اتبعت البعثة في الموسمين الاخيرين اسلوباً مشوقاً ومفيداً جداً من اجل تثقيف عناصرها فنظمت زيارات دورية يومية إلى مربعات العمل تقوم بها جميع عناصر العمل الميداني ، ويقدم المسؤول عن المربع المزار شرحاً عن سير العمل في مربعه ، ويطرح مشاكله التي يتناقش بها الجميع ويخلصون إلى حل معقول لكل مشكلة ، وفي اليوم التالي يقصدون مربعاً آخراً ، وهكذا يكون جميع مشرفي المربعات على اتصال تام بالمعلومات التي تعطيها هذه المربعات ، وهذا مايجعلهم قادرين على المشاركة في المناقشات التي تدور حول مشاكل العمل التي تحدث كل مساء بعد تناول العشاء . هذا بالإضافة إلى برنامج ثقافي يومي تقدمه عناصر البعثة الذين توزع عليهم مواضيع من أجل إعدادها وتقديمها كل بدوره ، وهذه المواضيع ينبغي ان تكون ذات صلة بالعمل ، مثلاً كلف احدهم باعداد محاضرة عن (إبله) وآخر عن (ماري) وآخر عن (نوزي) وآخر عن (الالاخ) ، تقدم هذه المحاضرات بعد العشاء حيث يتواجد الجميع فوق سدة تشرف من ناحية على نهر الفرات ومن جهة ثانية على سهل رحيب ، هذا بيده كأس وآخر يلوك سيجاره وآخر ينفث دخان غليونه . وهناك يجلسون على الارض وبعد سماعهم للمحاضرة يتصدى المحاضر للاجابة عن الاسئلة وبعد الانتهاء من المحاضرة يقومون بالاستماع إلى أشرطة تحتوي مواد فنية متنوعة تذكّرهم بالوطن ، وأحياناً يقوم الجنس اللطيف المرافق للبعثة بتقديم أغنيات أو رقصات ، وبما يدعو للدهشة ان بعضهن يجدن الرقص العربي بشكل يلفت النظر . ويحدث ان تجهز مراكب صيد السمك في بعض الامسيات وتزين بالشموع وتقوم البعثة مع بعض المواطنين بقضاء سهرة فوق صفحة الفرات لا يخالط سكونها سوى صوت المجاذيف

تصفع سطح الماء برفق وصوت غناء رخيم يصدر من هنا وضحكات
مرحة تصدر من هناك .

في نهاية كل اسبوع من العمل الجاد تعد البعثة رحلة للاستجمام والراحة
ومزيد من الاطلاع والفائدة وتستهدف رحلاتهم المواقع الاثرية بالدرجة الاولى



« زيارة اعضاء البعثة الى موقع السلنكية من حوض الفرات »

وبشكل اخص المواقع التي تعود لنفس الحقبة الزمنية التي يعملون ضمنها ،
فيقومون بجمع الكسرات الفخارية واللقى الاخرى ، ويلتقون مع رئيس
البعثة ويضعون كل ما جمع أمامه ويشرعون في مناقشة النواحي الاثرية والتاريخية
معتمدين على المعطيات التقنية والفنية لما جمعوا من مواد . وعندما
يحين وقت الغداء يبحثون عن مكان ترتاح اليه النفس ويجلسون لتناول الطعام
الذي يكون غالباً بشكل سندويشات وبعد قضاء وقت من اللهو والاستمتاع
يشدون رحالهم ويعودون إلى الموقع .

وعندما يشعر بعضهم - وغالباً يكون هؤلاء من الشباب اليافعين - انه
لم يعد شيء يغني عن إقامة ليلة في فندق مريح ، والتمتع بمباهج المدينة ولذائذ

الحياة فيها او قضاء سحابة نهار في احد المسابح ، او على شاطئ بحري ، يحدث ذلك ، ولكنه لا يخلو في أية حال من الاحوال من زيارات اثرية ؛ ففي حلب يقصدون القلعة أو المتحف او الاسواق وفي اللاذقية يقصدون اطلال مدينة رأس شمرة او إحدى القلاع الاثرية القريبة .

من خلال معاشتي لهم وللبعثات الاخرى أستطيع ان أعمم انه لا أثري من غير ما مهمة اخرى ، إما ان يكون مكلفاً بها أو يكلف نفسه بمهمة حق لا يضيع وقته سدى ، وبعض هذه المهات نافع جداً ومكمل لاعمال التنقيب مثل الدراسات الاجتماعية والفولكلورية للمجتمع الذي يقيم الى جوانب الموقع ، وكثيراً ما تساعد هذه الدراسات على التعرف على بعض مظاهر الحياة لدى الاقدمين وبالتالي يكتسبون ثقافة قد تساعدهم في ميدان عملهم ، مثلاً طريقة اعداد الخبز وبناء التتور لم يطرأ عليها تغير جوهري فهي نفس الطريقة تقريباً ، ومعظم المنازل في المواقع الاثرية القديمة لا تخلو من مثل هذه الضروريات وكذلك عملية خزن الحبوب في المنازل ، اصف الى ذلك الاوعية التي تحفظ بها مواد البيت مثل جرار الماء وجرار الزيت ، المطاحن ، الاجران ، ادوات الزينة الخاصة بالمرأة ، ديكورات المنازل ومادة العمارة - كالأحجار غير الموجهة - والطوب - والاشباب . جميع هذه المظاهر تجعلها صلة ما بحياة المجتمعات القديمة ، لذا توزع على الاعضاء المهات فقد يكلف احدهم بإعداد دراسة عن الزواج وحفلات الافراح والأتراح ، ويكلف آخر بإعداد دراسة عن حياة الحل والترحال وما يتبع ذلك من تقاليد مختلفة ، ويكلف عضو آخر بإعداد دراسة عن سكن المواطنين قرية - مجمع - بيت ، مع ديكورات المنازل وأنواعها المختلفة ، وهم يشفعون هذه الدراسات بالصور واشربة التسجيل . ومهمة ناجحة من هذا القبيل

يمكن ان تساعد على إقامة معرض رائع في بلد البعثة يمثل قطاعاً من حياة المجتمع المذكور تشترك فيه الصورة والمجسم والصوت وبعض الادوات والاعية والملابس ، وعندما تقصر الصورة الفوتوغرافية عن اداء المهمة تقوم الكاميرا السينائية بإكمال المهمة . وبمثل عنايتهم بالحياة الاجتماعية تكون عنايتهم بالحياة الاقتصادية من رعي وزراعة وصيد أسماك وتربية الحيوان الى غير ذلك . وبكلمة اخرى عندما تنتهي مهمة البعثة من التنقيب في الموقع يكون الاعضاء قد أنهوا عملية مسح شاملة ودقيقة لقطاعات الحياة المختلفة ، ولكي ينجح هؤلاء الاعضاء بمهامهم هذه تراهم يتحلون باستعدادات نفسية عجيبة تتجلى في مرعة تكيفهم مع المجتمع الذي يحلون فيه ، فلا يلبث الفرد منهم إلا الوقت القصير حتى يتعلم شيئاً عن تقاليد القوم ويمرس نفسه على مجاراتهم فيلبس ملابسهم ويتعرف على فنونهم ويشاركهم في رقصاتهم الشعبية فينضم الى حلقات الدبكة ويؤاكلهم على طريقتهم بيده ومن المنسف ، لذلك ترى هؤلاء الاعضاء خلال وقت قصير يصبحون في قلب القوم .



« اختلاط افراد البعثة مع المواطنين والمساهمة في افراحهم »

مما يلفت النظر ان نجد مجموعة مؤلفة من عشرين شخصاً تتحرك بارادة واحدة وتتبادل فيما بينها الاحترام المتبادل على الرغم من تفاوت السن وتباين الامزجة واختلاف المستويات ، على الرغم من ان الفرد منهم قد لا يكون على معرفة مع اي من عناصر البعثة الآخرين ولكننا نلاحظ كأنهم قدموا من بيت واحد ، وإن اختلفوا في أمر يصلحون ذات بينهم بطريقة عجيبة حتى لا يكاد الغريب يشعر ان خلافاً حدث فيما بينهم .



« اليزابيت سافج »

تمنت لو تتاح لها فرصة لقضاء بقية حياتها في الوطن العربي .
تقوم الآن بدراسة اللغة العربية في جامعة القاهرة
وأملها ان تصبح قادرة في المستقبل القريب على الاطلاع على تراث امتنا الحضاري



من نحن في نظر شعوب الغرب ؟

ان معظم هؤلاء الذين يقدمون إلينا من الغرب يحملون في أذهانهم صوراً مشوهة عن حياتنا ، فهم يتصوروننا شعباً يتخبط في ظلام الجهل والهمجية وليس لنا أي نصيب من حياة التمدن والرفق . إنها الصورة التي ترسمها ريشة اعدائنا عنا في ديار الغرب . اعتقد أنه لآخريرة للمجتمع الغربي لأنهم يستمعون لكلمة الاعداء فقط ، اما كلمتنا فهي ضعيفة خافتة إن وجدت ولا تكاد تصل إلى آذان احد .

سأضرب لكم مثلاً بأحد اعضاء البعثة الهولندية العائدة لجامعة (لايدن) ويدعى ماريشال مارتن من أصل تكساسى من الولايات المتحدة كان قدم إلى هولندا ليحصل على درجة الدكتوراه من جامعة لايدن وشاءت الظروف ان يختار للعمل مع البعثة في بلدنا . كان اول لقاء لي به في مطار دمشق عام ١٩٧٤ ، عندما كنت استقبل البعثة الهولندية هناك ، وكان عضواً جديداً لم تسبق له زيارة اي من الاقطار العربية بعد . أثناء عودتنا من المطار ركب هو في المقعد الاول من السيارة إلى جوار السائق وكان مقعدي خلف مقعده تماماً . لاحظت خلال الطريق انه كان يحرف وجهه بحذر وانا ابادل الحديث مع الآخرين ، تكرر ذلك منه عدة مرات وكانت كل مرة تسهل نظرتة إلي ، وعندما وصلنا البلد ذهبنا إلى بيتي أولاً للتعرف - بشيء من الراحة - إلى الاعضاء الجدد ثم غادروا جميعاً إلى الفندق . في اليوم الثالث مضينا إلى موقع العمل في « تل الحديدى » وقد رافقتهم بصفتي ممثلاً للمديرية العامة للآثار والمتاحف لدى البعثة شأن الاعوام السابقة وبعد بضعة أيام من اقامتنا هناك دعينا خلالها إلى عدة ولائم من قبل المواطنين ، وجدت هذا الإنسان بالذات « مارشال » يحاول الدنو مني أكثر فأكثر ، وذات أمسية بعد تناول العشاء ترك

مقعده الى كرسي مجاور لي ومال إلي يرجو ان أتريث قليلاً
بعد ذهاب الجميع ، فأجبتة الى ذلك . أحضر الى الطاولة بعض الشراب وأحضر
الى زجاجة من الاشربة الملونة وبيعض الارتباك قال انني أود ان أعرض عليك
صداقتي ، ولكن بعد ان أعتذر اليك عما كنت اكنه لك ولقومك في نفسي
وتابع حديثه قائلاً : قبل قدومي الى بلدكم اتصل بي اكثر من صديق ممن أعرفهم
واوصوني ان اكون حذراً جداً منكم ، وأكثر من ذلك اوصاني احدهم ان
اودع ميلودي « زوجته » وآدم « ابنه » وكانا في مدينة جرونتكن (البعيدة
عن لايدن) عندما همت بالقدوم مع البعثة ، فذهبت فعلاً اليهم وكنت في
أثناء وداعي لهم أشعر بخوف يلاً قلبي مما جعلني أهم بالاعتذار اكثر من مرة لولا ان
اعتذاري يربك البعثة ولا سيما وهي في اللحظات الاخيرة من عزمها قبل السفر ، وقد
حضرت وأنا اكنتم ذلك في نفسي وحينما جلست أمامك في السيارة العائدة من المطار
كان شعوري انك ستغمد سكيناً في نقرتي في أية لحظة ولكن حديثك مع
الآخرين وانفتاح قلبك للبعثة بدأ يبدد ما في قلبي ويضفي برد الراحة إليه شيئاً
فشيئاً وبعد خروجنا من بيتك بت اعتقد ان ماتفعله من اجلنا لا يمكن ان
يكون تمثيلاً ولا خداعاً ، وانما هو عطاء كريم يدل على اصالة . والان بعد ان
التقيت بمجتمعكم ايضاً في الحديدي لم اعد أبرء ساحتك وساحة مجتمعك مما
يقولون عنكم في الغرب فقط بل اصبحت افكر في تعلم لغتكم فأجبتة انني على
استعداد لتقديم العون الممكن مقابل مزيد من المعرفة باللغة الانكليزية واتفقنا على
ذلك ، واستطاع الرجل بعد مضي شهر على مقدمه ان يتحدث بالعربية الى العمال
الذين يعملون في مربعه في معظم ما يحتاج إليه منهم في شؤون العمل ، وذات
يوم ذهبت إليه في مربعه خلال فترة راحة العمال فلم أجده وقد ملكتني الدهشة

عندما رأيتُه يحاول التوضؤ من الفرات مع العمال ولم تكذ تنضي ثلاثة الشهور
- مدة موسم العمل - حتى أصبح اسم «أبو آدم» يتردد على السن الكبار والصغار كاسم
أبي علي وأبي جاسم وأبي حسين ، وأصبح أبو آدم يمازح القوم ويمازحونه ، وفي



« مارشال ما بين العمال فكأنه واحد منهم »

الايام الاخيرة لم يكن يغيب عن مجالسهم أبداً وكان هذا شأن اعضاء البعثة
الآخرين الذين أخذوا يطوفون على بيوت العمال ليودعهم وليتبادلوا معهم الهدايا
الرمزية كقرط بقرص وسكين بمسبحة وكوفية بقلم ، وعند ساعة الوداع الاخيرة
رأيت الاعين تفيض بالدمع من كلا الجانبين وسمعت من بعضهم صوت البكاء المرتفع
عندما كان بعضهم يعانق بعضهم الآخر . واثناء الغياب اصبحت سفير الجانبين
أقوم بإيصال رسائل بعضهم الى بعضهم الآخر وكنت مسؤولاً عن الترجمة
ومازلت مسؤولاً حتى الان عن بعض العلاقات .

هناك مثل ثان أمرده بسرعة وهو عن احد الهولنديين ويدعى (ياب)
الذي قام بضرب أحد الهولنديين في هولندا بقبضة يده فأسقط له سنين
ونال الجزاء القانوني في بلده على فعلته ، وذلك لأنه سمع ذلك الشخص يسب

العرب في احدى المناسبات ، فأجابه (ياب) ان العرب افضل منه ومن مجتمعه وذلك لانه لو غرق هو وسيارته في هولندا لعز عليه أن يجد من يبادر إلى انقاذه من المواطنين كما فعل العرب في حوض الفرات ، وملخص الحادثة أن هذا الرجل كان يحتاز بسيارته منطقة واطئة تقع مابين السلنكجية ومحطة المياه الثانية وهطل المطر بغزارة فائقة وما ان وصل إلى منتصف هذه المنطقة حتى ارتفع الماء ولم تعد السيارة قابلة للسير ، وانتظر خمس دقائق فقط راجياً ان يسكن المطر أو يخف ولكن العاصفة اشتدت اكثر فأكثر وأصبح المطر يتدفق كأنه من أفواه القرب - على حد تعبيره - وانحدرت السيول من سفوح الجبال القريبة ، وصارت تدخل من باب السيارة وتخرج من الباب الثاني وأيقن الرجل الأوفر من الهلاك ، وفي تلك اللحظات العصيبة لاحت سيارة « لاندروفر » قادمة من محطة المياه وأصبحت تدنو منه حتى وصلت رأس المنطقة المنحدرة وخرج منها رجل مدني أخذ يقوم بتوجيه ثلاثة رجال كانوا إلى جانبه ، فربط احد الرجال نفسه بطرف حبل وربط الطرف الآخر بالسيارة وألقى نفسه مع الماء واخذ ينحرف والتيار يحرفه حتى وصل إلى السيارة الفارقة ، وهناك ربط (ياب) معه بالحبل وقاما بربط السيارة الفارقة ، وبعد ان أنقذ الرجلان سحبت السيارة الغريقة ، ولم يكذ الجميع يغادرون المنطقة حتى ارتفع الماء الى حد لا يمكن معه ان تثبت السيارة لوبقيت مكانها ، وذهب الجميع إلى بيت الاستاذ محي الدين النوري مدير محطة المياه وهو الرجل الذي قاد عملية الانقاذ وهناك غير « ياب » ملابسه وتدفأ وأخذ مشرباً ساخناً وعاد إلى بعثته بعد ان اعيدت سيارته من طريق عال ، ونفسه مترعة بالتقدير والاعجاب بهؤلاء الناس الذين انقذوه وانقذوا سيارته على غير معرفة .

لو كان المجال يتسع لحدثكم عن أمثلة أخرى ، ولكن اكتفي بما اوردت
لاشير إلى أن لهذه البعثات منافع غير المنافع التي تجنيها من استخراج آثارنا
من باطن الارض ، وهنا قد يخطر ببال بعضنا أن يكون لبعض هذه
البعثات أو الاعضاء دور مشبوه ، إنني لأنفي احتمال وجود بعض المفرضين
ولكنني أجزم بأن الممثل الكفء الذي يصحب هذه البعثات يمكن أن يحول
تماماً ما بين المفرضين وبين ما يصبون اليه وذلك بقليل من اليقظة والحذر
وربما نجح بلباقته في كسب هؤلاء إن وجدوا وجعلهم أصدقاء يعملون لنا
بدل أن يكونوا علينا .

الاعمال الاثرية :

أولاً يحسن أن نأخذ فكرة عن هذا الجزء الهام من الموقع الذي نحن
بصدده التعرف إليه ، يقع التل الاعلى في الجهة الغربية من الموقع ويمتد إلى
مسافة (١٥٠٠ م) طولاً مصاقباً لنهر الفرات وإلى مسافة (٥٠٠ م) عرضاً ،
أي تبلغ مساحته حوالي ٧٥ كم^٢ ويرتفع عن سطح البحر حوالي (٣٢٥ م)
وعن سطح النهر بحوالي (٢٥ م) ، تتوضع الذرا العليا من التل في الجهة الشمالية
منه وينحدر نزولاً نحو الجنوب إلى النهر محدداً بأودية حفرتها سيول الامطار
التي تنصب على التل في مواسم الشتاء .

يبدو التل للرائي من عل كشامة توضع على الخد الثاني من حوض الفرات
محاطة بسوار من الجبال الكلسية ، يقطعه النهر من فجوة ضيقة عند مدخله
ويخرج منه منفثاً على مساحة عريضة تتخللها الجزر الخضراء (الحوائج)
باللهجة المحلية (١) . يحاور الموقع مباشرة من الجهة الشامية سهل لحقي

(١) مفردة حويجة وهي تعني باللغة العربية الفصحى الحديقة ويقصد بها المواطنون هناك

خصيب مما أعطى الموقع أهمية اقتصادية بالإضافة إلى أهميته الاستراتيجية لتوضعه على رأس منحني قاس لمسار النهر ، الأمر الذي يجعل النهر تحت اشراف الموقع إلى مدى بعيد في اتجاهي الشرق والجنوب . واعتقد أن شعوب المنطقة القديمة قد فطنت إلى هذه الاعتبارات الهامة فكان الموقع محط أنظارهم ، لذا أغنيت طبقات الاستيطان فيه التي امتدت من الألف الخامسة قبل الميلاد وحتى القرن ١٢ بعد الميلاد . وكذلك فإن الاعتبارات الآتية الذكر جعلت من التل هدفاً لبعثات التنقيب تتسابق إلى العمل فيه . وقد توالت على التل بعثتان الأولى هولندية وقد حصلت على امتياز بإجراء أسبار في جنبات هذا التل وقد شملت



« تل السويحات »

مشهد لأحد الأسبار الذي تستعرض من خلاله طبقات التل .

هذه الأسبار الارتفاعات المختلفة ، ودلت على أن التل كان معموراً في بعض أجزائه منذ الألف الخامسة قبل الميلاد ، وتوالت العمران عليه حتى العهد الآيوبي ، مع حدوث بعض الفجوات الزمنية التي قد لا تكون فيما لو نقب التل بكامله . وكان الهدف من هذه الأسبار التي أجرتها البعثة الهولندية التابعة لجامعة لايدن مع الأسبار الأخرى التي قامت بها في منطقة حوض الفرات

الواسعة ، هو إعداد دراسة كرفولوجية للصناعات الفخارية تكون بمثابة
أبجدية لصناعة الفخار في هذه المنطقة الهامة جداً وسيكون لهذه الدراسة شأن
هام في تأريخ المواقع الاثرية التي تجري فيها عمليات التنقيب ، بالإضافة الى أنها
تساعد في التعريف بالمواقع الاخرى من خلال مقابلة محتوياتها من الفخار بالنماذج
التي شملتها هذه الدراسة ، ومن المعلوم ان الفخار يتواجد بوفرة في معظم المواقع
لانه يمثل المادة الشعبية الرخيصة والصناعة اليومية الدائمة التي تعبر عن ذوق
المجتمع وعن تقدمه الحضاري ، وهو المادة التي تحتل المكان الثاني في تأريخ
السويات والطبقات إذا ما غابت الوثائق المكتوبة مثل الرقم ، الاختام ، النقود .
هذا يعني ان البعثة الامريكية عندما قدمت في الموسم الاول عام ١٩٧٤
وجدت ان جزءاً هاماً من مهمة العمل قد أنجز من قبل البعثة الهولندية مثل
المسح الطبوغرافي ، المسح الاثري ، عمل المخططات واجراء الاسبار ، والاهم من
ذلك أنها تمكنت ان تضع إشاراتها على النقاط الهامة من التل ، وكان على البعثة
الامريكية أن تباشر التنقيب الفعلي منذ اللحظات الاولى من وصولها ، وقد
أبقت على المربعات الواعدة التي بدأت بها البعثة الهولندية وتابعت العمل فيها ،
وفتحت مربعات جديدة حتى بلغ عدد مربعاتها حوالي ثمانية مربعات استخدمت
في كل مربع حوالي ستة من العمال المحليين يعملون تحت إشراف عضو منها يدعى
المشرف (Plat Supervisor) . كانت البعثة قنصحب من بعض المربعات
عندما لا تأمل منها خيراً وتفتح مربعات جديدة بديلة ، حتى استقرت على
عدد منها تتوزع كمايلي : ثلاثة فوق أسوار المدينة ، اثنان في سويات
هلنستية ، واحد في منطقة الافران الخاصة بصنع الفخار ، اثنان في مناطق لم
تؤثر بها عوامل التعرية كثيراً ولم يصبها اضطراب من جراء احداث حفرة او حفر



« تل الحديدي »

« مشهد للعمل في احد المربعات »

قبور حديثة ، وذلك من أجل القيام بدراسة استرايتغرافية منظمة للتوضعات الحضارية التي تناوبت على التل المذكور ، هنا اسمح لنفسي بتجاوز التفاصيل التي تمر بها مراحل العمل في المربعات المختلفة ، والتي تعني المختصين فحسب لاقوم بالتحدث عن حصائل الاكتشافات ملخصة بمايلي :

- ١ - إن التوضعات السكنية في المواقع خلال العصور التي سبقت عصر البرونز الاول لم تكن هامة ، لانها على ما يبدو كانت تشغل مكاناً محدداً من التل مجاوراً للنهر وفق نموذج الاستيطان العشوائي غير المنظم .
- ٢ - بلغ الموقع ذروة أهميته في عصر البرونز الاول ، عندما قامت مدينة هامة ذات اسوار تجاوز عرضها في بعض النقاط ثلاثة الأمتار وهي مبنية من الاحجار غير الموجهة ، وخلال تفحص أحجار السور المذكور تبين أن بعضها يعود لعمران سابق ، إذ وجد بينها اجزاء من مطاحن او أجران وثقالات كانت تستعمل في أنوال النسيج . وقد تميز ظاهر السور بأنه كان مطيناً

بطبقة طين سميكة ممزوجة بالحشائش ومسيماً بالحوار الأبيض الذي
مازال المواطنون حتى الآن يعرفون مصدره الكائن في سفح جبل
(عرودا) ويستعملونه في تسييع دورهم . وقد أوجدت ما بين السور
والمنحدرات المحيطة بالتل خنادق عميقة لم تكن تملأ بالماء كما هي الفكرة
عن الخنادق لأنها كانت أعلى بكثير من مستوى النهر وإنما استحدثت
لإعاقة تدافع أعداد المهاجمين للأسوار ، وجعلت بشكل مسنات ذات
انحدار نحو الخارج وانحدر مثله نحو الداخل ، وقد غطيت هذه المنحدرات
بالحصى لتتزلق تحت أقدام المتسلقين وسنابك خيلهم (١) . شغل مدخل
المدينة الشمالي ببرجين أقام بشكل يسد ثلثي الخندق من الجانبين
ولوظيفة الدفاع المطلوبة ، ولكن الملاحظ أن البرجين المذكورين لم يكونا
من الاتقان بمستوى بناء السور . لقد عفت مخلفات هذا العصر بسبب
استعمال مواد بنائه من قبل سكان العصر اللاحق ، وأهم ما تبقى من معالم
العمران في الداخل هو جزء صغير من سوق كان يتبع المدينة ، وقد عثرنا
في الدكاكين وعلى المساطب التي تشتمل عليها على مواد الخزف والقار
والصدف والمصنوعات العظمية بالإضافة إلى بعض الأدوات البرونزية .

٣ - في عصر البرونز الوسيط أقام السكان سوراً غير السور الآنف الذكر
الذي هدمته صروف الدهر ، والمرجح أن الأعداء هدموه لأن تأثيراتهم
تتمثل في تباين نقاط الارتفاع والانخفاض ، كما عثر تحت بعض انقاضه
على جثة إنسان متجمعة ربما قتل صاحبها أثناء الهجوم ثم انهدم السور

(١) الخيل كانت معروفة منذ غزوة الهكسوس فقط إلى هذه المناطق وقبلها كان يعرف

حيوان شبيه وحجمه ما بين الفرس والحصان ويدعى بالاونجر Onager

فوقها وبقيت حتى يومنا هذا ، ومما يشجع على الاخذ بهذا الراي ان اصول الدفن تختلف عن الوضع الذي وجدت عليه الجثة المذكورة . وأما السور الخاص بهذا العصر فقد بلغ في أعرض نقاطه ١٢٠ م وقد انحسر نحو الداخل في معظم اجزائه مسافة مترين وفي بعض النقاط ركبوا به السور الاول ،



« مشهد لقطع من سور عصر البرونز الوسيط وخلفه عمران من نفس العصر »
وقد استفادوا من احجار السور القديم في بناء سورهم وأساسات دورهم اما بقية الدور فقد بنيت بالطوب المخلوط بالتبن والاعشاب ، وليست هناك مظاهر عمرانية متميزة في هذا العصر . اما الظاهرة الاجتماعية التي تلفت النظر فهي ان مجتمع هذا العصر ذو تقاليد هيكلوسية ، وقد تجلى ذلك في دفن الاطفال في جرار وقد عثرنا في أرض احدى الغرف المصاحبة للسور جرة تحتوي على ثلاث جثث لاطفال لا تتجاوز اعمارهم ست سنوات اما مكتشفات هذا العصر من اللقى فهي متنوعة جداً ، ويكفي لاختذ فكرة ان نعلم ان البعثة الهولندية رمت من بقايا قبر منهوب يتوضع



« قاع جرة يحتوي على ثلاث جاجم لاطفال ، وقدر فخارية تمثل
تقاليد الهيكسوس في المنطقة . »

في الزاوية الغربية الجنوبية من هذا التل ، ويعود لنفس هذه الحقبة
- مثاقطعة منها (٩٠) شكلاً فخارياً متنوعاً ما بين قدر وصحن وطاس
وقارورة وفأس .

من خلال المشابهة ما بين محتويات طبقات الموقع ومحتويات الطبقات
المعاصرة في السلنكحية وماري وآشور وإبلة ، يمكن أن نستدل على وجود
وحدة حضارية ما بين منطقتي ما بين النهرين وسورية . وهذا بدون شك
سوف يغير في النظريات التي تفصل بين حضارة ما بين النهرين وحضارة سورية
ويقود إلى نظرية جديدة تعرف حضارة المنطقة بالحضارة الرافدية السورية
او العكس .

٤ - اما الكشف الهام جداً فهو في طبقات عصر البرونز المتأخر ، فقد عثر خلالها
على مدينة ميتانية ضائعة تعرف بمدينة « آزد » كانت ذكرت في رقم نوزي
وهو موقع عراقي وفي رقم الاالاخ وهو موقع تركي ونظراً لطول البحث
سوف ندخر الحديث عن هذا الاكتشاف الهام الى مقال قادم إن شاء الله .

محمد الخسولي

محافظ متحف الآثار الإسلامية بدمشق

المعالم العامة لتاريخ سورية في العصر الهلنستي

(الدكتور: مقيّد الفتّاح العابد)

نظراً لقصور الدراسات العربية عن تعريف القاريء العربي بالمراحل السياسية الرئيسية لتاريخ سورية في العصر الهلنستي ، ونظراً لأهمية الإلمام بهذه المراحل قبل البدء في عرض أهم المعالم الحضارية للعصر نفسه ، يبدو من المناسب أن نهد لدراستنا عن تاريخ سورية في العصر الهلنستي بصورة خاصة أو تاريخ الإمبراطورية السلوقية عامة بالتعرض بإيجاز إلى إنشاء الامبراطورية المقدونية ذلك أن سلوقس (مؤسس الامبراطورية السلوقية) كان أحد الضباط الذين شاركوا الإسكندر في بناء الامبراطورية المقدونية فضلاً عن أنه كان من أبرز الذين أسهموا فيما بعد في قسم عراها . هذا إلى أن تتبعنا الموجز لبناء هذه الامبراطورية يتيح لنا إلقاء نظرة عاجلة على المسرح الذي جرت عليه أحداث تأسيس سلوقس الامبراطورية ، كما يهيء لنا الفرصة لأن نبسط أفكار الإسكندر السياسية ولأن نتبين إلى أي مدى سار ملوك سورية من خلفاء الاسكندر على نهجه أخرجوا عليه .

أولاً - تأسيس الامبراطورية المقدونية :

كانت من نتيجة إيمان الاغريق في بلاد اليونان القارية بأفضلية نظام المدينة الدولة (Polis) على غيره من الانظمة السياسية الأخرى ، وشدة تعلقهم

بحريتهم الشخصية أولاً ، واستقلال مدنها الذاتي والخارجي ثانياً ، أن تعاضمت مشاكل التشيع الحزبي داخل المدينة الواحدة وبين المدن المتعددة ، كما عزف الجميع عن القيام بأية خطوة جادة على طريق الوحدة السياسية وانجلت بعض أفانياتهم التي غلفوها بستار من وهم الحرية المزيفة عن تحطيم الاحلاف المرحلية التي أقاموها تحت ضغط الظروف الخارجية (١) . وفي النهاية كانت نتيجة المغالاة في التمسك بالحرية الوقوع في عبودية دولة ناشئة شمال بلادهم ، كانوا حتى فترة قريبة يعدونها دولة تدخل في دائرة دول البرابرة (غير الاغريق) رغم بعض روابط اللغة والدم التي ربطتهم بها ، وهذه الدولة هي (مقدونية) .

والمقدونيون كما تبين مصادرها أفراد من القبائل الهندية الأوروبية عاشوا في بلاد البلقان وشابهوا في أنظمتهم السياسية والاجتماعية المتخلفة الاغريق في العصر الهومري ، من حيث وجود الامراء الاقطاعيين والنظام العقاري الوسط الذي يجمع بين الملكية المشاع والفردية ، في حين لم يكن حكمهم الملكي يرتبط بقانون يحدد الخلافة ، كما لم تكن قوتهم الجسدية وشجاعتهم تلتزم بأي انضباط أو تخضع لأي تدريب .

ولا يعرف الكثير عن تاريخ المقدونيين قبل فيليب والد الاسكندر الذي تذكر المصادر أنه كان ابناً للملك أمونتاس « Amyntas » الذي توفي عام ٣٦٩ (٢) عن ثلاثة أولاد انجلت منازعاتهم الخاصة عن استيلاء اصغرهم فيليب على العرش (٣) . وكان فيليب الذي تسلم الملك وهو لم يتجاوز بعد العشرين من عمره شاباً مقتدراً

(١) أنشأ الاغريق خلال تاريخهم الطويل عدداً من الاحلاف أشهرها (حلف ديلوس حلف البلبونيز - والاتحاد الكونفدرالي والحلف الايتولي والأخي) انظر :

Oxford Classical Dictionary . S. V. Leagves.

(٢) جميع التواريخ الواردة في هذا البحث سابقة ليلاد مالم ينوه صراحة بغير ذلك

(٣) W. Pickard, " The Rise of Macedonia " C. A. H. , VI, p. 203

في الحرب والسياسة ، تتلمذ في أثناء اقامته في مدينة طيبة على أيدي مشاهير القادة الطيبين ، وتعرف في أثناء تجواله بعدد من أشهر مثقفي الاغريق وفلاسفتهم منهم أفلاطون وايسوقراط وأرسطو . كما تمكن بعد التغلب على جميع منافسيه في المجال الداخلي من إعداد جيش قومي محترف على أسس مبتكرة قوامها نظام الفيلق « Phalanx » الذي أثبت قدراته القتالية ضد أعداء مقدونية شمالاً وشرقاً ، ومن إعداد أسطول ينافس فيه الاسطول الأثيني فيما لو دعت الحاجة (٤)

وكانت أثينا في الواقع من أقوى الاعداء الذين خشي فيليب شرهم ، وذلك نظراً لقوتها البحرية المتميزة وقوة الحزب المناويء لفيليب داخل المدينة العريقة ، وعلى الرغم من ذلك فقد استغل فيليب انشغال الاغريق في حربهم المقدسة الثالثة (٥) ، وحالف اسكندر ملك « ابيروس » (٦) وتزوج اخته أولمبياس ، وقام بتأكيد سيطرته على أصقاع بلاد الاغريق الشمالية كافة ، وعندما حاولت أثينا الانتصار لبعض حليفاتها التي هاجمها فيليب والتصدي له أوقع بجيشها وجيوش حليفاتها في موقعة خايرونيه « Chaeronia » عام ٣٣٨ ق . م ، وهي الموقعة التي شارك فيها الاسكندر الاكبر قائداً لمسيرة جيش أبيه . (٧) وفي عام ٣٣٧ ق . م لبت جميع المدن الاغريقية باستثناء إسبرطة دعوة

(4) Pickard, on cit , pp. 204- 9

(٥) جرت الحروب الثلاثة متقطعة خلال الفترة (٥٩٠ - ٣٤٧) بين بعض أهم دويلات بلاد اليونان وذلك نتيجة للخلاف بين مدينة (دلفي) المقدسة ومينائها (كيرها) حول أحقية الميناء في فرض رسوم على الحج القادم عن طريقه .

(٦) ابيروس مملكة تقع في الشمال الغربي من بلاد الاغريق « البانية حالياً » ، لعبت دوراً سياسياً بارزاً في تاريخ بلاد الاغريق بعد اسكندر سابق الذكر .

(7) Pickard , on cit , pp. 209 - 63

فيليب إلى مؤتمر عام ، كانت من أهم مقرراته إقامة حلف هيليني بزعامة مقدونية ، وتكليف الأخيرة بالاعداد لحرب الإمبراطورية الفارسية للرد على الاهانة التي لحقت بالاغريق في الحروب الفارسية « ٤٩٠ - ٤٧٨ » ، وحدد المؤتمر مساهمة كل عضو من أعضاء المؤتمر . وعلى هذا حقق فيليب أول هدف من أهدافه وهو توحيد بلاد الاغريق وإرغامها على تأييده ، ولكن القدر لم يمهله .

الهدف الثاني وهو محاربة الفرس إذ اغتيل في عام ٣٣٦ وخلفه ابنه الاسكندر ملكاً على مقدونية وزعيماً للحلف الهيليني وكان لا يتجاوز العشرين من عمره (٨)

ثانياً - الاسكندر الاكبر :

ورغم السمعة العسكرية الكبيرة التي خلفها فيليب الثاني ، فإنه ما إن قضى حق استهانت معظم المدن التي خضعت له سابقاً بنخبة ابنه الاسكندر وثارت عليه في محاولة للتخلص من التزاماتها تجاه مقدونية بموجب المعاهدات المبرمة معها . وأثبت الاسكندر للجميع مالم يكن أحد يتوقعه من حزم في معالجة الامور وكفاءة عسكرية هائلة . وبعد جولة عسكرية مثمرة في الشمال والجنوب قضى فيها على ثورات القبائل المتمردة شمال مقدونية و ثورة تساليه و ثورة طيبة عاد إلى مقدونية لاستكمال استعدادات أبيه لغزو الشرق (٩) .

والواقع أن فكرة قيام ملك غربي ولأول مرة في التاريخ بغزو الشرق على رأس جيش صغير نسبياً كانت خرافية الطابع في أذهان الكثيرين ، ولهذا فإن محاولة إيجاد مسوغ لهذا الغزو تبدو منطقية للحفاظ على التسلسل الموضوعي للبحث . فمن المؤكد أن الاسس القوية التي أقام عليها فيليب صرح مقدونية

(8) Pickard, on cit , pp- 268 - 9

(9) Arrian. , Anabasis, 1 - 2 - 8 , Diodorus,, xvii , 14 , 4 , W . Tarn ,

Alexander the Great (Cambridge 1951) pp.4 - 6

والاستعدادات التي جهزها قبل اغتياله قد سهلت كثيراً من المصاعب العسكرية أمام الاسكندر ، وكانت عاملاً مادياً هاماً جداً يضاف إلى عامل فوزه برئاسة حلفي تساليه وكورنثة - وكانا من اقوى الاحلاف العسكرية في بلاد اليونان - ولاشك أن الاسكندر ورث فيما ورث عن أبيه عزمه على محاربة الفرس تحقيقاً لدعوة معظم فلاسفة وخطباء الاغريق بما فيهم افلاطون وأرسطو وكذلك ايسوقراط ، وكان من أشهر فلاسفة وخطباء الاغريق في القرن الرابع ذلك ان هذا الفيلسوف اتجه إلى فيليب مطالباً اياه بتحقيق دعوته التي رددتها على مدى نصف قرن تقريباً ولكنها ذهبت وسط انهالك المدن الاغريقية في صراعاتها التقليدية . وفحوى هذه الدعوى أن خير وسيلة لانتقاذ بلاد الاغريق من صراعاتها كانت تكاتف الاغريق للثأر من البرابرة وحكمهم بحق سمو الحضارة الاغريقية على ماعداها . والواقع أنه إذا كان الاسكندر قد تأثر بأفكار ايسوقراط من حيث انه يمكن علاج مشاكل الاغريق بمحاربة الفرس ، فإننا سوف نلاحظ كيف انه اي الاسكندر طرح أفكار افلاطون وارسطو وايسوقراط بوجوب معاملة الشرقيين معاملة قاسية (١٠)

ولاشك في ان رغبة الاسكندر في الاطلاع وحب المعرفة وهي التي بثها في نفسه استأذه ارسطو ، قد كونت دافعاً هاماً من دوافع الحملة بدليل اصطحابه عدداً كبيراً من الادباء والعلماء المتخصصين في مختلف فروع المعرفة وهو الامر الذي لم نعهده في حملات من سبقه من الغزاة (١١) . ولايفوتنا هنا

(١٠) مفيد رائف العابد ، عصر سلوقس الاول ، رسالة جامعية غير مطبوعة « القاهرة -

١٩٧٥ » ص ٧

(١١) جورج سارتون ، تاريخ العلم « القاهرة - ١٩٥٩ » ج ٣ ، ص ١٨٠ - ١٨١ ؛ ص

٢٥٨ - ٢٦٠

أن نذكر ان موارد الامبراطورية الفارسية من الاموال والرجال كان يقلل من شأنها افتقارها إلى القادة المجربين وما احرزه الاغريق والمقدونيون من تقدم هائل في فنون القتال خلال النصف الاول من القرن الرابع (١٢) . وإذا كان بعض المؤرخين المتعصبين لغربيتهم يهونون من قيمة هذه التفاتص في محاولة لإضفاء المزيد من صفات العظمة الحارقة على انتصارات الاسكندر السريعة . فإن أي منطق سليم يجعلنا ننكر على هؤلاء اعتقادهم ، فمن غير المعقول إطلاقاً ان يقوم غاز مها تبلى درجة تهوره بتدبير هجوم على دولة تتفوق عليه عدداً وعدة دون الوقوف على ما يؤكده انه يكمن في هذه الدولة من عناصر الضعف ما يهيء له فرصاً معقولة للانتصار (١٣) .

ثالثاً - الحملة :

تذكر المصادر القديمة أن الاسكندر تحرك في ربيع عام ٣٣٤ ق.م باتجاه آسية الصغرى على رأس جيش بلغ تعداده ثلاثين ألف من المشاة وخمسة آلاف فارس ، وان الملك الفارسي « دارا » لم يقدر الخطر الذي وفد عليه من وراء البحر فكلف عدداً من ولاته في آسية الصغرى بصد هجوم الفزاة ، وعهد الى احد المرتزقة الاغريق ويدعى ممنون « Memnon » بقيادتهم . والتقت في معركة نهر « جرانيكوس » قلة الكفاءة العسكرية والاستهانة في مواجهة احدث التقنيات العسكرية والخبرة المشوبة بالكثير من الحماس ، ولم تفلح المقاومة اليائسة التي ابداهها الفرس في تقليل حجم الخسائر التي منوا بها فعادوا شرقاً يلحون

(١٢) ابراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالمة « القاهرة - ١٩٦٦ » ج ١ ، ص ١٦

(١٣) لطفي عبد الوهاب يحيى ، دراسات في تاريخ مصر « البطالمة » « الاسكندرية

اذيال الحبية ويمنون النفس بنصر في معركة قادمة يكونون فيها اكثر استعداداً (١٤)
 وكان الفرس يعتمدون في حكمهم مدن آسية الصغرى على الطغاة (١٥)
 والحكومات الاوليجاركية « = حكومات الأقلية » ، وبحكم الصوالح
 المتبادلة ، فقد قام الاسكندر بتأييد الديمقراطيين الذين تمكنوا بسهولة من
 السيطرة على مقاليد الامور في مدن آسية الصغرى كافة وبذلك ضمن الاسكندر
 مؤخرته وتابع المسير باتجاه الجنوب . وفي معركة « اسوس » عام ٣٣٣ ق . م
 بالقرب من انطاكية أثبت الفيلق المقدوني مرة أخرى قدراته القتالية ضد
 الانماط التقليدية للحرب القديمة وهزم الجيش الفارسي مرة أخرى هزيمة قاسية
 وتفرقت فلوله في كل حذب وصوب (١٦) .

ودلل الاسكندر مرة أخرى على كفاءته العسكرية بعدم تعريض اسطوله
 لمجازفة الاشتباك مع الاسطول الفارسي وكان ثلاثة اضعاف أسطوله ، بل قرر
 الاستيلاء على قواعد هذا الاسطول في آسية الصغرى وسورية ومصر . وبعد
 استيلائه على أهم موانئ آسية الصغرى سرح اسطوله المرافق وتابع مسيره
 مساحلا الساحل السوري الذي فتحت مدنه أبوابها باستثناء صور ، فحاصرها

(14) Arrianus. , Anabasis , I , 13 - 14 , Diodorus . , xvll ; Quintus
 Curtius . , Alexander . II ; Justin . , xl , xll

(١٥) كان الاغريق يطلقون على كل من يستولي على الحكم بالقوة أو يفرض نفسه حاكماً
 مطلقاً كلمة (Tyrannos) أو طاغي ، وكان الطغاة يظهرون عادة بتعقد امور
 الحياة نتيجة انتفاضة اقتصادية معينة وينصبون انفسهم اوصياء على الطبقات
 المستضعفة ليكسبوا من اعداد افراد هذه الطبقات دعماً . وكان معظم الطغاة حكاماً
 مستنيرين حققوا الكثير من الانجازات الاجتماعية لصالح الجماهير في حين كان بعضهم
 (وبخاصة العملاء لدولة أجنبية) دمويًا وعنيفاً ارتكب مجازر شنيعة حتى اصبحت
 كلمة طاغية في المفهوم الحديث تعني الحاكم الذي لا يتورع عن القيام بأي عمل لا أخلاقي
 في سبيل دوام حكمه .

(16) Arrian . , I , 17 - II 11 ; Diodorus . xvll, Curtius . , II - III

الاسكندر سبعة اشهر ثم استسلمت له كما استسلمت فيما بعد غزة التي قاومت مدة شهرين كاملين غير متمعة بمصير صور المفجع (١٧) . وفي خريف عام ٣٣٢ ق . م وصل الإسكندر إلى مصر التي استقبلته أيضاً استقبال المنقذين . وبعد تقديمه فروض الاحترام للآلهة المصرية في العاصمة « ممفيس » اتجه إلى موقع الاسكندرية حيث وضع أساسات أعظم مدينة حملت اسمه ، وبعد زيارة سريعة قام بها إلى معبد آمون في واحة سيوه في صحراء مصر الغربية اتجه الاسكندر شرقاً للملاقاة للجيش الفارسي الثالثة ، بعد ان أعاد تنظيمه وتولى قيادته الملك الاكبر بنفسه (١٨) .

وفي دمشق عين الاسكندر والياً عاماً على سورية الكبرى ، وجعل له معاونين في إدارة المال والجيش ، لكنه قبل أن يرحلها خشي من طموح من يحكم مثل هذه الرقعة الهائلة من الارض ، فجعل من أراضي الجزيرة « الحالية في سورية » ولاية جديدة واستبقى للندن الفينيقية حكمها ونظامها الذاتي ونظامها الملكي (١٩) .

وفي صيف عام ٣٣١ لحق الاسكندر بقواته الاستطلاعية التي كانت قد عبرت الفرات ثم اتجه صوب قرية صغيرة تدعى جاو جميل (Gaugamela) عسكر بالقرب منها جيش دارا . ولم يكن صعباً على الاسكندر استغلال المعنويات المرتفعة التي تمتع بها جنده بعد نصرين سابقين ، ولا الإمكانيات العسكرية الممتازة لفيالقه فاحرز بالتالي نصراً كبيراً بعد معركة ضارية فر على أثرها دارا وزحف الاسكندر إلى مدينة بابل « مستودع التجارة الهندية »

(17) Arrian. , II , 13 - 26

(١٨) نصحي ، المرجع السابق ، ص ص ١٨ - ٢٦

(19) Curtius. , IV , I , 19 ; Justin . , xi , 10 ; F. Eiselen , Sidon , A Study in Oriental history (N. Y. 1907) P. 70 ff .

فاستسلم قائدها كما استسلمت بعد ذلك مدينتا برسبوليس واكبائانا والعواصم
الفارسية الاخرى كافة ويبدو أن قواد دارا يئسوا من قتال الاسكندر فتآمروا
على ملكهم وقتلوه في خريف العام نفسه (٢٠) وبذلك طويت آخر صفحة من
صفحات الإمبراطورية الفارسية « القديمة » وبدأ حكم جديد في الشرقين الأدنى
والاوسط تحت رعاية ممثلين جدد يحملون رايات حضارية جديدة .

وبعد جولة عسكرية تلامس أحداثها أحداث المغامرات الشائقة في
مناطق الهضبة الإيرانية ومناطق شمال الهند وبخاصة منطقة البنجاب استغرقت
الفترة ما بين ٣٣٠ - ٣٢٤ تمكن الاسكندر من فرض سيطرته على الاقاليم التي
لم تخضع له سلفاً ، كما عقد معاهدات مثمرة مع بعضها الاخر وبخاصة معاهدته مع
بوروس « Poros » حاكم البنجاب ، عاد الاسكندر إلى الشرق وسط تهليل
جنده الذين لم يجدوا مسوغاً لملتهم الهندية بعد تحطيمهم الامبراطورية الفارسية
وكانت غايتهم الرئيسية (٢١) . وفي مدينة « سوسا » أقام الاسكندر وليمة كبرى
احتفالاً بإتمام غزو الإمبراطورية الفارسية ، وفي الحفل نفسه عقد قرانه وقران
عدد من ضباطه على نبيلات فارسيات ، كما عقد قران عدد كبير من جنوده
على فارسيات . وكان هذا الاجراء أكبر خطوة من الخطوات التي خطاها
الاسكندر في سبيل تقوية أواصر الرباط بين الشرق والغرب عن طريق
المصاهرة التي لم يكتب لها النجاح بوجه عام ، نظراً لعدم إيمان معظم إن لم
نقل كل الذين تزوجوا - باستثناء سلوقس - يحدوى مثل هذه الفكرة (٢٢) .

وفي ربيع عام ٣٢٣ وصل الاسكندر إلى مدينة بابل وأنقذ هراكلیدس

Arrian. , III ; 7 , 21 ; Diodorus, , xvii , 56 (20

Tarn , Alexander , pp. 99 ff (21

Arrian. , VII ; 4 & 2 . 7 ; G. H. Macurdy , Hellenistic Queens (Oxford (22

1932) pp. 77 ; E. Bevan . The house of Seleucus (Chicago 1902)

IVol I , p , 31

« Heraklides » لمحاولة التأكد أية النظريتين أصح : نظرية أرسطو القائلة بأن بحر قزوين لم يكن إلابحيرة كبيرة ، أم النظرية القديمة القائلة بأن هذا البحر ليس إلابحيرة في محيط كبير (٢٣) . وحين كان معنياً بوضع مخططاته الحربية لغزو بلاد العرب (٢٤) دهمه مرض أقعده عن الحركة وأدى إلى وفاته في تموز من العام نفسه وكان وقتها يناهز الثالثة والثلاثين من العمر .

رابعا - الصراع بين القادة :

وعقب وفاة الاسكندر عقد قادته في بابل مؤتمراً لبحث مشكلة وراثة العرش والنظم الواجب اتباعها في حكم الامبراطورية ، وقد تفتحت امام كل منهم الآمال والمطامح بموجب الموقف الجديد والمفاجيء . وبعد بحث مشكلة ولاية العرش بحثاً مستفيضاً تم الاتفاق على ان يرتقي المعتوه فيليب « ارهيدايرس » أخ الاسكندر غير الشقيق والطفل اسكندر بن الاسكندر العرش مشاركة تحت وصاية أحد الضباط ويدعى كراتوس « Krataos » كما قرر المؤتمرون تعيين القائد برديكاس في منصب القائد العام للجيش ، وتوزيع ولايات الامبراطورية على القواد الكبار لحكمها باسم العرش المقدوني (٢٥) . وعندما انصرف كراتوس الوصي من بابل إلى مقدونية اغتصب برديكاس القائد العام للجيش الوصاية لنفسه وأخذ يصدر الاوامر إلى حكام الولايات باسم العرش ويطلب إليهم الامتثال إلى هذه الاوامر . ولما كان معظم هؤلاء الحكام ينتمون إلى اهل اسر المقدونية النبيلة ويعتزون أشد الاعتزاز بأصلهم العريق وانتصاراتهم الباهرة وكان بعضهم يعتبر نفسه جديراً بأن يخلف

(23) nraT , op cit , p . 118

(24) Diadorus . , xviii , 3 - - 48

(٢٥) مفيد رائف العابد ، المرجع السابق ، ص ٣٥

الاسكندر بل إن اقلهم اعتزازاً بنفسه كان لا يمكن أن يسمح بأن يعامل غير معاملة الندلند . ولما كان لكل من هؤلاء الحكام أطباع شخصية فإنه لم يكن هناك مفر من أن يؤدي تضارب الاطماع إلى صراع عنيف . ولم ينقض وقت طويل حتى خرج كثير من حكام الولايات على طاعة برديكاس (٢٦) وبدأت سلسلة من المحالفات والمعارك استغرقت الفترة ما بين ٣٢٣ - ٣٠٢ برز فيها قادة من الصف الثاني على مسرح الاحداث التي انجلت عن سيطرة ثلاثة قواد من قواد الاسكندر على امبراطوريته فحكم بطلميوس مصر وليبية وبعض جزر آسية الصغرى ، في حين حكم دمتريوس بن أنيتجوفوس - وكان الاخير من اقوى القواد نفوذاً في فترة الصراع الرهيب بين القادة - بلاد اليونان ومقدونية . وآلت منطقة آسية الغربية بكاملها من البنجاب حتى البحر المتوسط ومن البحر الاسود حتى الصحراء العربية إلى سلوقس الاول .

خامساً - سلوقس الاول مؤسس الامبراطورية السلوقية :

هو واحد من الشباب المقدوني الذين صاحبوا الاسكندر في حملته الشرقية ، ولكنه لم يلعب دوراً في أثناء الحملة يضاهي الادوار التي لعبها بقية القادة الذين شاركوا في الصراع السابق . ولد سلوقس في مدينة يوروبوس « Europos » في مقدونية بين عامي ٣٥٨ - ٣٥٤ ، وهو ابن لانطيوخس ولاوديكي . قاد اثناء حملة الاسكندر بعض الفرق الصغيرة التي اثبتت في قيادتها كفاءة عسكرية دعت القادة المجتمعين في بابل بعد موت الاسكندر إلى أن يسندوا إليه قيادة فرقة « الفرسان الرفقاء » وكانت تضم نبلاء مقدونية ، وتعد قيادتها شرفاً عظيماً وتكسب شاغلها مكانة سامية لاتفوقها إلا مكانة القائد العام للجيش . ولاشك

(٢٦) نصحي ، المرجع السابق ، ص ص ٤٦ - ٥٨

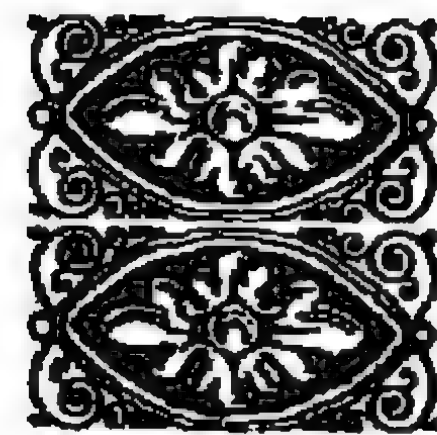
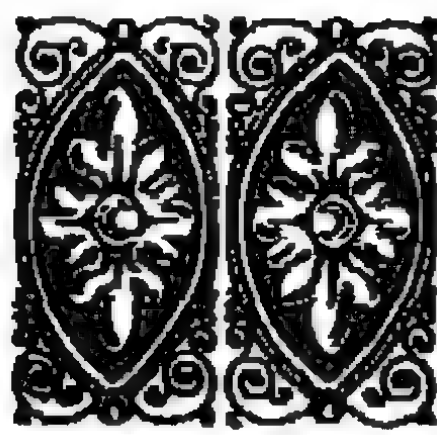
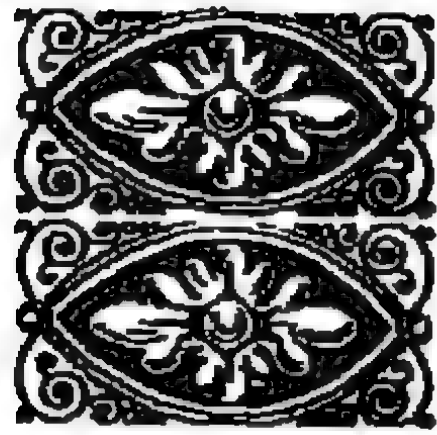
في أن رجلاً مثل سلوقس عريق الأصل ومحارباً شجاعاً كان واسع الأطماع ويعد نفسه جديراً بأن تسند إليه واحدة من الولايات الهامة في الامبراطورية . ويبدو أن قناعته بعدمؤتمر بابل بتولي قيادة فرقة الفرسان الرفقاء لم ترهن هذا الطموح فبدأ يعمل حثيثاً حتى اعترف له القادة في مؤتمر تريباراديسوس « Triparadisos » عام ٣٢٠ (٢٧) . بولاية بابل وكانت من أهم ولايات الامبراطورية ، واستمر في حكم هذه الولاية حتى عام ٣١٦ حيث أجبرته ظروف الصراع على الهروب منها إلى صديقه بطليموس والي مصر ، وبدأ من هناك العمل على استرداد ولايته السليبية حيث تمكن في عام ٣٢١ من استعادتها بتأييد من أهاليها وبمساعدة عسكرية متواضعة قدمها له بطليموس . ومنذ ذلك التاريخ وحتى عام ٣٠٢ صرف سلوقس جهوده لاعداد قواه لمواجهة الصراع المتوقع بين القادة لامتلاك سورية ، وبعد احتلاله معظم مقاطعات الهضبة الإيرانية عقد معاهدة مع الملك الهندي تشاندراجوبتا « Chandragaputa » حصل بموجبها على فوائد اقتصادية جمة وعلى عدد من الافيان الحربية ، وفي معركة ايسوس « Ipsos » عام ٣٠٢ حقق سلوقس نصراً على أقوى هؤلاء القادة وهو انتيغونوس وآلت إليه سورية بكاملها . وكان سلوقس قد عقد اتفاقاً مسبقاً مع بطليموس على ان يحصل الاخير على سورية الجنوبية لقاء مشاركته سلوقس في معركته ضد انتيغونوس ، ولما لم يشترك بطليموس في معركة ايسوس فقد اعتبر سلوقس اتفاه السابق معه وكأنه لم يكن وانكر عليه زعمه في الحصول على أية مكاسب إقليمية . ولكن بطليموس تجرأ رغم خيانتة صديقه في أحلك ساعات الحاجة إلى مساعدته واحتل منطقة جوف سورية (٢٨) تشياً

(٢٧) وهو مؤتمر عقد في فاتحة الصراع بين القادة في احد مواقع جنوب لبنان .
(٢٨) (Coele Syria) وتشمل سورية الجنوبية والساحلية حتى نهر الكبير الشمالي جنوبي اللاذقية .

مع اتفاقه السابق الذكر . بيد أنه رغم استياء سلوقس من تصرف بطليموس واتجاهه على رأس جيشه جنوباً للرد على عماله ، فإنه وقد كان يدين لبطليموس بما قدمه من مساعدة مكنته من استرداد بابل على نحو ما أسلفنا رفض الاشتباك معه مكتفياً بالتصريح بأنه « من أجل الصداقة فقط سيؤجل البت في هذه القضية وسيأخذ بعين الاعتبار فيما بعد كيف يعامل صديقاً اقتنص أكثر من حقه (٢٩) . وسنرى فيما بعد كيف سيؤدي تعليق البحث في هذه المشكلة إلى نتائج وخيمة على البيتين المالكين في سورية ومصر . ورغم النجاح الذي حققه سلوقس في السنوات التالية في مجال السيطرة على منطقة آسية الصغرى وإقليم تراقية « شرق البلقان » فإنه لم يتمكن من العودة مرة أخرى إلى مقدونية وضمها إلى امبراطوريته إذ اغتيل في عام ٢٨٠ عن عمر يناهز الخامسة والسبعين بعد أن خلف امبراطورية امتدت من الهند الى البلقان ومن البحر الاسود حتى العقبة جنوباً وحكها من ذريته سبعة وعشرون ملكاً قسم المؤرخون فترة حكمهم الى عصرين : التوسع والقوة ثم التفكك والانهار وهذا ما سنتناوله في القسم الثاني من هذا البحث بإذن الله .

دكتور مفيد العابد

جامعة دمشق



(٢٩) مفيد رائف العابد ، المرجع نفسه ، ص ص ٢٩ - ٨٢

اسم استانبول أقدم أم جديد

الكاتب: عز الدين قسطان

القسطنطينية مدينة تربط بين حضارتين ، وجسر يصل بين قارتين ، تربط بين حضارة الشرق والغرب ، وتصل بين آسية وأوربة . وقد بنيت في موقع بيزنطوم (١) القديم على سبعة تلال تطل على القرن الذهبي ذراع البوسفور عام ٣٢٤ م ، تماماً كما بنيت مدينة روما على سبعة تلال وأطلق عليها أول الامر اسم « روما الجديدة » . وهذه التسمية أقدم تسمية عرفت بها مدينة القسطنطينية ، غير أن هذه التسمية لم تدم أكثر من اثني عشرة سنة ، أي حتى سنة ٣٣٦ م (٢) .

ويرى المؤرخ « مير » في كتابة « التاريخ العام » أن اسم بيزنطة تحول إكراماً لبانيها إلى اسم القسطنطينية نسبة إلى الامبراطور قسطنطين ، وهو أول من تقصر من أباطرة الرومان . وقد دفعه لبنائها اسباب متعددة :

أ - دينية : وتتلخص في اعتناقه دين النصرانية ونبذه آلهة روما الوثنية ،

ب - حربية : لان أشد أعداء الامبراطورية خطراً كانوا في الشرق ، وهم الفرس .

ج - اجتماعية وسياسية : وتتعلق بالفتوح الرومانية في الشرق ، والتي

١ - نسبة إلى مؤسسها الأسطوري بيزانس ، (الموسوعة الفرنسية) .

٢ - انظر الموسوعة الفرنسية - مادة استانبول

نقلت غنى الامبراطورية وآدابها إليه (١) .

وقد طغى على القسم الشرقي من الامبراطورية الطابع اليوناني ، والذي أصبح يعرف فيما بعد باسم الإمبراطورية البيزنطية ، وهي التي وردت في المصادر العربية باسم « دولة الروم » وكانت القسطنطينية عاصمة لها ، وقد وأخفت في العصور الإسلامية كل محالوت العرب المتكررة لفتحها وبسط سيادتهم عليها أيام الامويين والعباسيين ، وبقيت القسطنطينية مدينة شاذة طوال احد عشر قرناً من الزمن كعاصمة للإمبراطورية البيزنطية ومركز ديني للطوائف المسيحية وكانت اكبر مدينة أوروبية في العصور الوسطى حتى تضاعف شأنها إثر هجمات الأتراك العثمانيين مما أدى الى هجرة الاغريق عنها ونزوحهم الى ايطالية ، وبخاصة علماءهم . . فكانت هجرتهم عاملاً من عوامل النهضة الأوروبية . وما كاد عام ١٤٥٣ الميلادي يسطع حتى سقطت المدينة بيد السلطان العثماني محمد الثاني الذي أصبح يعرف في التاريخ باسم محمد الفاتح تخليداً لهذا الفتح المبين . وكان سقوطها إيذاناً بانتهاء العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة ، على رأي بعض المؤرخين ، وآخر أباطرتها قسطنطين الحادي عشر (١٤٤٨ - ١٤٥٣) م الذي سقط صريعاً على ارض المعركة دفاعاً عن القسطنطينية .

لكن المدينة سرعان ما ازدهرت في ظل سلاطين بني عثمان ، واصبحت مركزاً سياسياً وتجارياً عظيماً في أوربة ، كما ازدهرت عمرانياً ، فهي تزخر بالعمائر الإسلامية من مساجد ومدارس وأضرحة أهمها المسجد السلطاني وهو اجمل وافخم مساجدها ، ومسجد السلطان سليم . . ويعد منبره ومحرابه آيتين في فن النحت الاسلامي ، ومسجد السلطان أحمد وهو اعجوبة في فن العمارة العثمانية . . كما يتفرد بين مساجد تركية بما آذنه الست ، ويعرف بالمسجد

الازرق لان جدرانہ مغطاة بالقاشاني الأزرق والاخضر (١) .. بالاضافة الى مسجد أبي أيوب الانصاري الذي جرت العادة فيه ان كل من يتولى السلطنة من آل عثمان يتقلد سيف عثمان خان الغازي الاول بهذا المسجد تيمناً وبركة ، وهذا الاحتفال يعد بمثابة التتويج عند ملوك الافرنج (٢) . ولم تزل هذه العادة متبعة حتى انقضاء عهد السلطنة وقيام الجمهورية وانتقال العاصمة إلى أنقرة أيام مصطفى كمال أتاتورك عام ١٩٢٣ .

ولفظه « القسطنطينية » تعرف حيناً وتنكر حيناً آخر ، فقد ذكرها الطبري في تاريخه بدون « أل » التعريف ، وذكرها المسعودي في « التنبية والاشراف » معرفة . بينما نجد ياقوتاً الحموي في معجم البلدان يعرفها تارة وينكرها أخرى . ووردت عند أبي الفداء في « تقويم البلدان » معرفة . و « أل » التعريف هنا زائدة غير لازمة كزيادتها في بعض أسماء الاعلام كقولنا : النعمان والرشيد . . ولذا يجوز فيها الحذف والاثبات .

وهناك اعتقاد سائد لدى طائفة من الباحثين العرب ان اسم « استانبول » هو الاسم الجديد لمدينة القسطنطينية ، ولم تعرف به إلا بعد الفتح العثماني عام ١٤٥٣ م حتى أن الموسوعة الفرنسية تذكر بأن القسطنطينية هي الاسم القديم لمدينة استانبول .

كما يرى بعضهم أن السلطان محمد الثاني بعد انهيار الإمبراطورية البيزنطية وسقوط القسطنطينية على يديه قد عمد إلى تغيير ملامح المدينة القديمة وإضفاء الطابع الإسلامي حتى على اسمها فأطلق عليها « اسلام بول » أي مدينة الاسلام ، ومع الزمن تحولت التسمية وانقلبت إلى استانبول او اسطنبول .

غير أن هذا الاعتقاد لا يقوم على حقيقة ، ولم يثبت أمام الأدلة التاريخية

١ - الموسوعة العربية الميمنة - مادة استانبول

٢ - انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٥٩

التي عثرت عليها في بعض المصادر العربية القديمة والاجنبية الحديثة :

١ - يذكر المسعودي (٣٤٦) هـ في تاريخه « التنبيه والاشراف » : ان الروم يسمونها إلى وقتنا هذا المؤرخ به كتابنا (بولن) واذا أرادوا العبارة عنها أنها دار الملك لعظمها قالوا (استن بولن) ولا يدعونها القسطنطينية ، وإنما العرب تعبر عنها بذلك .. (١)

٢ - ويذكر ياقوت الحموي « ٦٢٦ » هـ في كتابه « معجم البلدان » مانصه : « اصطنبول بسكون النون وضم الباء الموحدة وسكون الواو هو اسم لمدينة القسطنطينية » (٢)

ويشير ياقوت في مكان آخر بأن قسطنطين الاكبر انتقل الى بيزنطة وبنى عليها سوراً وسمّاها قسطنطينية ، وهي دار ملكهم الى اليوم ، واسمها اصطنبول . (٣)

٣ - كما يذكر أبو الفداء صاحب حماه « ٧٣٢ » هـ في كتابه « تقويم البلدان » بأن القسطنطينية هي اسطنبول . (٤)

وقد أخذت بعض المصادر الحديثة بهذه المقولة ، إذ جاء في الموسوعة البريطانية ان القسطنطينية أطلق عليها اسم « استانبول » قبل عام ١٤٥٣ م أي قبل الفتح العثماني للمدينة (٥) خلافاً لما ورد في الموسوعة الفرنسية التي تقول بأن القسطنطينية هي الاسم القديم لمدينة استانبول كما مر آنفاً (٦) .

١ - انظر التنبيه والاشراف ص ١٢٠

٢ - انظر معجم البلدان ج ١ - ٢٧٧

٣ - المرجع السابق ج ٧ - ٩٤

٤ - تقويم البلدان ص ٣٢

٥ - المجلد الثاني عشر - مادة استانبول

٦ - المجلد السادس - مادة استانبول

ويستفاد من عبارة المسعودي أن كلمة « استانبول » مركبة من لفظتين :

— « استن أو استان » وهي فارسية دخيلة على اليونانية وتعني « موضعاً أو مكاناً أو بلاداً » . وقد ورد في تاريخ الطبري أكثر من مكان باسم « استان » فهناك « استان العال » قرب المدائن (١) « و استان بهر سير » إلى جانب دجلة (٢) .

— « بولن » وهي من أصل يوناني وتعني « مدينة » .

وبذلك يكون معنى كلمة « استانبول » مدينة البلاد ، وفي هذه التسمية إعظام للمدينة ، ومثل هذه التسميات أمر مألوف ، فنحن نقول مثلاً عن مكة المكرمة أم القرى ، في القرآن الكريم قوله تعالى « لتنذر أم القرى ومن حولها » (٣) أو نقول عن لندن عاصمة المملكة المتحدة عاصمة العواصم .

وفي الموسوعة البريطانية خلاف ذلك ، فهي تقول بأن كلمة استانبول تحريف للكلمة العامية اليونانية « استنبولي Stinboli » وتتألف من ثلاث مقاطع « Eis - Tin - Polin » ولا تعني أكثر من « في المدينة in the City »

كان نقول لأحدهم إذا حضر من غياب أو سفر : أين كنت ؟ فيجيب في المدينة .. مشيراً بذلك إلى مكان معلوم ولا يحتاج إلى تسمية لشهرته .

وقد نقل العرب عن اليونان اسم « استانبول » ووردت في آثارهم كما ذكرت سابقاً . وهذا يعلل قول المسعودي : « . . وإنما العرب تعبر عنها بذلك .

وسواء أصدقت عبارة المؤرخ والجغرافي العربي المسعودي أم عبارة الموسوعة البريطانية فإن اسم « استانبول » مرافق لاسم القسطنطينية منذ القديم

١ — تاريخ الرسل والملوك ج ٦ - ١٢٢

٢ — المرجع السابق ج ٥ - ٢٠٤

٣ — سورة الشورى الآية ٧

وليس اسماً جديداً شاع بعد الفتح العثماني . والخطأ التاريخي أولى بالتصويب .
نعم .. هناك حقيقة تاريخية لا بد من ذكرها ، وهي أن السلطان العثماني
مهداً الثاني فاتح القسطنطينية أطلق على المدينة اسم « اسلام بول » أي مدينة
الإسلام حسب ما ذكر محمد فريد بك في تاريخه (١) . ومن كلمة « استانبول »
أخذ العثمانيون كلمة « الآستانة » ، كما أطلق عليها في العصر الحميدي اسم « فروق »
ودار السلام وقبل كانوا يسمونها دار السلطنة ودار الخلافة .
قال أمير الشعراء أحمد شوقي وهو في طريقه الى الآستانة قادماً من أوربة :

تاهت (فروق) على العواصم وازدهت

بجلوس أصيد باذخ المقـدار

أخذت على (البوسفور) زخرفها دجى

وتلألأت كمنازل الأقمـار (٢)

وقال الشاعر اللبناني الدكتور نقولا فياض في حريق الآستانة عام ١٩٠٨
وفي قوله إشارة إلى أن استانبول هي « إسلام بول » مدينة الإسلام ودار السلام :

أحريق (إسلام بول) هجت لواعباً

وجعلت أيام السرور قصـاراً

دار السلام سلمت للعليا ولا

أخلى الزمان من الرضى لك داراً (٣)

١ - تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٦١

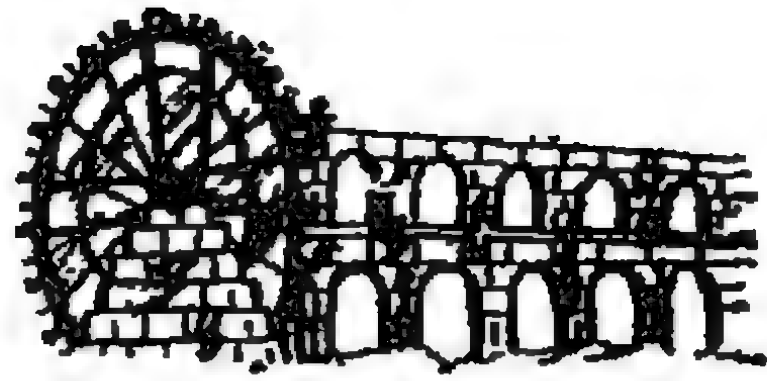
٢ - الشوقيات ج ٢ ص ٢٩

٣ - ديوان رفيف الاقحوان ص ٢١

وسوف تبقى استانبول مدينة مجيدة ومركزاً عالمياً ، وسوف يظل صوت
الشاعر الفرنسي جيلياس « Gyllias » في أنشودته القادمة إلينا عبر
القرون :

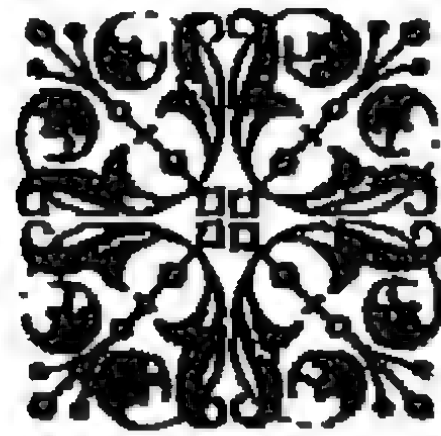
« بعض المدن يمكن أن تموت ، أما استانبول فستبقى مابقي على
الأرض بشر » .

عدنان قيطاز - حماة



★ مصادر البحث ★

- تاريخ الرسل والملوك للطبري : تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - الطبعة الثانية دار المعارف بمصر - ١٩٦٧
- تاريخ التنبيه والاشراف للمسعودي : طبعة دار التراث بيروت - ١٩٦٨
- معجم البلدان لياقوت الحموي : الطبعة الأولى - مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦
- تقويم البلدان لأبي القداء : طبعة مصورة عن الطبعة الباريسية - ١٨٤٠
- تاريخ السولة العلية المثنائية لمحمد فريد بك : الطبعة الثانية - مصر - ١٨٩٦
- السلطان محمد الفاتح للدكتور محمد مصطفى صفوت : دار الفكر العربي مصر - ١٩٤٨
- التاريخ العام للمؤرخ الامريكي فيليب فاننس مير - ترجمة المرسلين الامريكيين في بيروت - الطبعة الاولى - المطبعة الامريكية - ١٩١٢
- الموسوعة البريطانية - المجلد الثاني عشر - ١٩٧١ مادة استانبول Istanbul
- الموسوعة الفرنسية - المجلد السادس - ١٩٧٤ مادة استانبول Istanbul
- الموسوعة العربية الميسرة - الطبعة المصورة - دار الشعب - مصر ١٩٦٥
- ديوان الشوقيات - الجزء الثاني - طبعة مصرية - ١٩٥٨
- ديوان رفيف الاقحوان للدكتور نقولا فياض - المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٥٠
- مجلة العربي الكويتية : العدد ٢٣٢ آذار ١٩٧٨



معركة اليقظة القومية العربية

النتهيك
عبد الحميد الزهراوي

الدكتورة

سهيلة زكية الزماوي

يعد الشهيد عبد الحميد الزهراوي (١) ، من أوائل الذين عرفهم الوطن العربي في عصر اليقظة القومية .

فقد شهد النور في مرحلة « التفتح » الفكري العربي ، بل والنهضة في مجالاتها المختلفة ، في القرن التاسع عشر .

كما عاش وساهم في ازدهار مرحلة « التكون » الثوري القومي العربي التي بدأت مع مطلع القرن العشرين ، وقدم روحه الطاهرة لتثيبتها ونموها .

فمصره إذاً هو العصر الذي شهد تفاعل الحركتين التاريخيتين الضخمتين :
الاولى . حركة اليقظة العربية من مواجهة التسلط والاستبداد والتخلف التي كان

(١) عبد الحميد الزهراوي ، ولد بحمص عام ١٢٧٢ ١٨٥٥ م ودرس على علمائها ، وقام للسياسة الحميدية قبل الدستور العثماني ، وسافر الأستانة فنفته السلطة إلى دمشق ثم عاد إلى حمص وفر منها إلى مصر ، وعاد بعد اعلان الدستور ١٣٢٧ هـ - ١٩٠٨ م إلى سورية وانتخب مبعوثاً عن « حماة » فذهب إلى الأستانة واشترك في تأسيس احزاب مناوئة للاتحاديين . أعده جمال باشا السفاح في قافلة الشهداء الثانية في دمشق عام ١٣٣٤ هـ - ١٩١٦ م وله مصنفات منها رسالة في الفقه والتصوف وكتاب عن خديجة وقد طبع له المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ما وجد من مقالاته بعنوان « الارث الفكري للمصلح الاجتماعي عبد الحميد الزهراوي عام ١٩٦٢ .

« هيئة التحرير »

الحكم العثماني قد فرضها على ربوع هذه الامبراطورية .

والثانية : حركة نشوء ونمو الرأسمالية الاوربية وتطورها السريع الى حركة استثمارية ، تبحث لاهثة عن المواد الخام والاسواق لتستغل - بمنهجية العصر الفيكتوري - الثروات الطبيعية والبشرية اسوأ استغلال .

لذلك فانه امر طبيعي ، أن نجد نشاط هؤلاء الرواد الفكري أو السيامي والصحفي . . تجسماً لتفاعل الحركتين التاريخيتين الرئيسيتين .

وغير غريب أن نجد انعكاس هذا التفاعل في انتاج هؤلاء الرواد الثوار منهم والمصلحين ، فتراه في ادبياتهم ، وفكرهم السياسي ، بل وفي الصيغ والشعارات التي رفعت ، سواء أكانت اصلاحية ام ثورية ، تدعو للانفصال عن جسم الدولة أو تطالب بحقن هذا الجسم بمغاني التقدم ليصبح قادراً على مواكبة حركة التطور . .

لذلك فان تحرك هؤلاء الرواد ، كان يتسم بسمة التحرك التاريخي دون شك ، ويتجه بشكل مباشر « للتراث » بحثاً عن اسس الثورة أو الاصلاح وقيمها ، فيحاول ان يجد في هذا التراث ، مضامين الحياة السليمة ودوافع التمرد والثورة على ما هو قائم من الجمود الحياتي والحضاري ، وما كان يتجسم من تسلط وتأخر واستبداد من جهة ، وان يصمد لمقاومة الاستعمار الغازي الذي بدأ يتسلل تسلاً خبيثاً الى بعض اجزاء الوطن العربي .

ويتجه الباحث عن « الرواد » من مفكرين وصحفيين ومصلحين وقادة سياسيين إلى المصادر التي تزود البحث والباحث بالحقائق الموثوقة عن كل منهم ، وهذه المصادر نوعان ،

اولاً : السيرة السياسية وما تنطوي عليه من فعاليات ونشاطات ومسالك ،

ذات على دلالة الفكر السياسي سواء في الأهداف أو في الأسلوب عند هذا الفكر .
ثانياً : آثاره الكتابية التي يتحدث فيها عن افكاره السياسية بصورة مباشرة
أو ضمنية ، سواء أكانت هذه الآثار في صورة مؤلفات أو مقالات أو رسائل .
ونجد من تتبع سيرة عبد الحميد الزهراوي انه اختار الصحافة ميداناً
لافكاره ، وتقدم مراكز ذات مسؤوليات سياسية - كعضو في « مجلس المبعوثان »
العثماني - فاتخذ من ساحة المجلس ميداناً لنشر افكاره السياسية ، كما أدرك
قيمة « التنظيم » فكان عضواً في عدد من المنظمات التي التزم بميثاقها وافكارها بل كان
من الاعضاء المؤسسين لهذه المنظمات في كثير من الاحيان ، ولذلك يتطلب منا
البحث ، ان نلقي نظرة على هذه الساحات ، ونتابع - بقدر الامكان - فعاليات
ونشاط الزهراوي من خلالها .

عبد الحميد الزهراوي والصحافة السياسية :

لقد ثار الزهراوي على الاوضاع التي كانت تتجسم في الدولة العثمانية ،
واختار الصحافة ميداناً للدعوة إلى افكاره والتعبير عنها ، فكان من رواد
الصحفيين السياسيين المناضلين العرب .

وكانت جريدة « المنير » التي أنشأها في مدينة حمص ، من اوائل الصحف
العربية السرية التي تحدث السلطان عبد الحميد وسياسته الاستبدادية ، إذا كانت
ابحاثها تتناول موضوعات متعلقة بشخص السلطان نفسه وتعالج القضايا التي تدور
حولها محاور العصر ، كقضية الامامة والخلافة والاستبداد . . . وغيره .

وكانت الصحافة في سوريا خاضعة « للمكتويجي » - مراقب المطبوعات ببلغة
عصره - ولذلك لم يطل الامر بهذه الجريدة الثورية ، فقد شددت السلطة
الحصار عليها ، ووضعت المراقبين لمصادرتها ، وعاقبت بشدة كل من وجدت

لديه نسخة منها ، فاضطر الزهراوي إلى التوقف عن إصدارها ، وفضل الهجرة إلى مصر سنة ١٩٠٠ تعبيراً عن تحديه لهذا الموقف الغاشم وطلباً لموقع يتمكن من خلاله أن يعبر عن فكره السياسي ، الذي يتركز أساساً في دعوته للإصلاح والتقدم ، ومقاومة الاستبداد سبيلاً لتحقيقها .

وقد ساهم الزهراوي بتحرير جريدة « المؤيد » في القاهرة ، ثم تولى تحرير جريد « الجريدة » وظهرت مقالاته إلى جانب عدد كبير من مقالات الصحفيين العرب الأحرار من السوريين والمصريين ، وحذا حذو الذين سبقوه إلى الكنانة أمثال عبد الرحمن الكواكبي ورشيد رضا وغيرهما . .

ومن أهم المقالات التي كتبها الزهراوي ، مقالة بعنوان « إلى اليقظة يا قومي » نشرتها جريدة المفيد البيروتية بتاريخ ١٨ / ١ / ١٩١٢ كان الزهراوي ينبه فيها إلى خطر الغزو الأوربي الذي تسلل إلى المغرب العربي ، وعلا صوته منادياً . « لكم أيها الأخوة العرب » انتم في هذه المملكة جزء عظيم فانظروا ما شأنكم فيها أمس وما خطبكم فيها اليوم وامركم فيها غداً . . ويشير الزهراوي إلى الواقع المؤلم في الوطن العربي بقوله : (أمس لم يكن في مصر وتونس يد اجنبية وهما من امهات بلادكم ، واليوم فيها تلك اليد ، أمس كانت طرابلس الغرب آمنة مطمئنة واليوم يفعل فيها الاجني ماقد سمعتم ، أمس قد كانت سواحل نجد والعراق خالية واليوم هي شجية به ، وقولوا لي : هل سوريا اليوم هنيئة البال فارغة الفكر من المخاوف ؟ ؟ .)

واضح بغير عناء ان الرواد العرب كانوا يؤمنون بوحدة الاقطار العربية ، وانها تمثل بجموعها وطناً عربياً واحداً ، بالرغم من كونها تقع في اطار الامبراطورية العثمانية ، وهذا ما تؤكد دساتير الاحزاب والتنظيمات التي قام

على تأسيسها وصياغة دساتيرها هؤلاء الرواد ، وفي مقدمتهم عبد الحميد الزهراوي ، الذي شرح في جريدة الحضارة التي كان يصدرها في الآستانة مبادئ حزب الحرية والائتلاف . فقد وجدناها في وثيقتين منشورتين في العدين (٨٦) و (٨٧) المؤرخين ٣٠ تشرين الثاني و ٧ كانون الاول ١٩١١ . وهما من أهم الوثائق الصحفية التي عثرنا عليها (١) وهما تقدمان لنا فكرة عن جرأة الزهراوي الصحفية وإيمانه العميق بمبدأي الحرية والمساواة بالإضافة إلى الاسلوب الصحفي الذي كان يتميز به رائدنا ، وسأقدم شرحاً وافياً عنها في الصفحات التالية .

عبد الحميد الزهراوي والتنظيمات الحزبية :

ساهم الزهراوي في التنظيمات الحزبية التي تأسست إثر الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ ، ومناداة الاتحاديين - بعد تسلمهم الحكم - بعودة الحياة البرلمانية إلى البلاد ، وفي الوقت نفسه بامتصاص جميع الأحزاب التي وجدوها أمامهم أو حلها مثل حزب الشورى العثماني ، وحزب التثبيت الشخصي واللامركزية الإدارية الذي كان ينادي باللامركزية ، وجمعية النهضة العربية ، التي يبدل اسمها على عروبتها وقوميتها .

وكان أول هذه الأحزاب حزب الإخاء العربي العثماني الذي تأسس في (٥ آب اغسطس سنة ١٩٠٨) وقام على تأسيسه عدد من العرب في مقدمتهم عبد الحميد الزهراوي وصادق المؤيد وشفيق المؤيد من سوريا ، وشاكر الألوسي وعبد الله الحيدري من العراق ، والشريف جعفر باشا من اشراف الحجاز ، وشكري الحسيني من القدس ، ونجيب الاسعد من لبنان ورسف شتوان من

(١) الوثيقتان المذكورتان منشورتان في كتاب « الارث الفكري للمصلح الاجتماعي عبد الحميد الزهراوي » ص ٤٨٠ - ٤٨٢ والاولى بعنوان « حزب الحرية والائتلاف » والثانية بعنوان « الحزب الجديد الحرية والائتلاف » وقد نشرتا في الحضارة من غير توقيع ، ويرجح أنها للزهراوي .

« هيئة التحرير »

طرابلس الغرب . . . وغيرهم .

ولابأس من مرد ما قصه علي السيد احسان الجابري لوضع القارىء في

الصورة وفي الظروف التي تأسس فيها هذا الحزب قال :

بعد يومين من اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ اجتمع عدد كبير من العرب
الموجودين في الآستانة وقرروا أن يوجهوا دعوة يطالبون فيها اخوانهم العرب
بمقد اجتماع في تياترو (١) « الفاريتي » وكان نص البرقية التي تشروها
ووزعوها كالآتي :

« اخوانكم العرب يرجون حضوركم في الساعة الحادية عشرة إلى تياترو الفاريتي »
ثم يضيف السيد الجابري قائلاً « لم أر في حياتي حشداً عربياً هائلاً مثل هذا
الحشد ، وامتلاً الفاريتي الذي يسع أكثر من ألفي شخص ، وقام ندرة مطران
وألقى كلمة شكر فيها الحضور ثم قال : لقد قررنا ان نشكل جمعية عربية نطلق
عليها اسم جمعية الاخاء العربي العثماني .

وتوالى الخطباء مؤيدين فكرة تشكيل الجمعية ، واخيراً قام عبد الحميد
الزهرابي ليعلن مبادئ الحزب . .

ويؤكد الجابري ان ما شاهده في ذلك اليوم يفوق أي وصف قائلاً : لأول
مرة في حياتي سمعت الهتافات التي تعالت في ارجاء المكان ، كنا نعرف اننا
جميعاً عثمانيون ، ولكن كانت هذه هي المرة الاولى التي نقول فيها تحيا الامة
العربية ويحيا العرب . . . وكان اعلان الدستور قد فجر فينا عروبتنا وقوميتنا
وحبنا الدفين لا متنا .

(١) Theater ، المسرح



ماذا قال الزهراوي في خطابه ؟

أعلن الزهراوي في كلمته ، تأسيس « جمعية الاخاء العربي العثماني » ونص دستورها على انها مؤلفة من أبناء العرب العثمانيين على اختلاف مللهم وعملهم ومصادرهم ، وانه يحق لكل فرد من أبناء العرب أن يكون عضواً فيها .

وعرف العربي بقوله : هو كل من انتسب الى العرب مولداً وموطناً . .

وان هدف الجمعية هو المحافظة على الدستور والحريات وضرورة حمايتها .

وعلى الرغم من ان مؤسسي الجمعية لم يعلنوا عن مطالبتهم بتحقيق

اللامركزية أو الاستقلال ، ولم يطرحوا هذا المفهوم صراحة ، ولم يتخذوا

لجمعيتهم العلنية اسماً عربياً قومياً ، فإن دستور الجمعية نادى « باعلاء شأن الامة

العربية واتخاذ جميع الوسائل والتدابير لنشر انوار العلوم والمعارف بين ابنائها

كتأسيس المدارس وطبع الكتب والجرائد وغير ذلك .

فإذا انتبهنا جيداً الى هذا الاستدراك ، والى اشتراط الجمعية ان يكون

اعضاؤها من « أبناء العرب » ادركنا ان جمعية الاخاء كانت أول خطوة على

طريق نشوء احزاب عربية علنية « قومية التكوين والهدف » وان مؤسسيها

كانوا يؤمنون بأن حماية الدستور والحريات ، السبيل السليم لتحقيق اعلاء شأن

الامة العربية .

وقد خاض اعضاء الجمعية معركة الانتخابات ، وفاز منهم - بعد معركة

انتخابية مريرة - يوسف شتوان مبعوث طرابلس الغرب ، وعبد الحميد

الزهراوي مبعوث حماة ، ونافع المؤيد ورشدي الشفعة مبعوثا مدينة دمشق ،

هذا الى جانب عدد كبير من أبناء العرب الاتحاديين . .



نشاط الزهراوي تحت قبة البرلمان

يصف احسان الجابري استقبال العرب في الآستانة للمبعوثين العرب بقوله : كنت في هذه الفترة من انصار الاتحاديين بسبب وظيفتي - مفتش شرطة - دعيت لحضور الجلسة الاولى لمجلس « المبعوثان » حيث كان السلطان عبد الحميد سيد شنه ، ودهشت عند حضوري للنظر الذي رأيته قبل الاجتماع ، فقد كان العرب متكئين في ناحية واحدة ، والأتراك في ناحية ثانية « أي بدأنوع من الانقسام القومي » حسب رأيه ، وسمعت نداءات واقاويل تلح على المبعوثين العرب بتحقيق المطالب القومية ، فرجوت اخي نافعاً - مبعوث حلب - ان يدعوهم للاجتماع في مكان ما ، ليتمكنوا من تنسيق مطالبهم ووضع خطة يسرون عليها في اثناء الاجتماعات فلي طلي . . .

نستدل من كل ماتقدم ، انه في هذه الفترة ، لم يكن هناك ازمة بين الاتحاديين والعرب ولكن كان هناك ريبة وعدم ثقة وتربص اوبالاحرى صراع من وراء ستار ، كشفت عنه الحوادث تحت قبة البرلمان .

وكانت البداية ان طعن الاتحاديون في شرعية انتخاب نائب البصرة « طالب النقيب » ، و « شفيق المؤيد » نائب دمشق ، ولما احتج « يوسف شتوان » نائب ليبيا قام في وجه النواب الترك وطردوه من المجلس ، فانسحب معه النواب العرب وآزرهم عدد من نواب القوميات الاخرى ، وعندما قننه الاتحاديون الى هذا التكتل بين ابناء القوميات تساهلوا في تثبيت انتخاب النواب العرب . .

وعندما أخفق الانقلاب المضاد في ٣١ مارس سنة ١٩٠٩ ، عاد الاتحاديون الى الحكم في ١٣ ابريل نيسان سنة ١٩٠٩ وهم أشد شراسة واتهموا نواب القوميات الاخرى في المساهمة بهذا الانقلاب واغتنموها فرصة واعلنوا حل

جميع الاحزاب السياسية ، وفي مقدمتها حزب الاخاء العربي العثماني ، وبقي المجلس للاتحاديين ، بينما كانت يسود الوجوم نواب القوميات الاخرى الذين كانوا يتربصون ريثما يستقر مناخ الامبراطورية بعد اضطرابه إثر الانقلاب المضاد . وجاء أول اصطدام في البرلمان بعد الانقلاب ، عندما بحث المجلس إعادة انتخاب « جامي بيك » مبعوث الفزان - بطرابلس الغرب - فلما استشير ناخبوه مرة ثانية انتخبوه فثبتت مبعوثيته بينما رفض الاتحاديون تثبيت مبعوثية النائب العربي يوسف شتوان نائب بنغازي ، بالرغم من ان ناخبه اعدوا انتخابه مرة ثانية عندما استفتوا . . .

اجتمع النواب العرب ، وسأل عبد الحميد الزهراوي الاتحاديين عن معنى قصرهم هذا ، ولماذا تحفظ اوراق يوسف شتوان العربي ، ابن المنطقة العربية ، دون عرضها على المجلس للتصديق بينما تثبت مبعوثية جامي بيك وهو ليس من ابناء المنطقة ؟ ؟ .

وتطورت المناقشة عندما تحول الزهراوي المبعوثون العرب ، وتكلم عدد من النواب الاتراك قائلين بأن العثماني ينتخب في أي مكان تابع للدولة ، وبدأت خطورة الموقف تتجلى عندما بدأت المناقشة تأخذ صيغة قومية بين العرب والترك ، فما كان من طلعت بك - وكان نائباً لرئيس المجلس - إلا أن أمر بانهاء البحث واقفاله ، دون اخذ رأي المبعوثين ، وهنا هدد النائب العربي خضير بك نائب دير الزور بالخروج من الجلسة وأيده سائر النواب العرب بالاحتجاج معه على هذا التصرف . .

أما الاصطدام الثاني فكان في جلسة ٧ / ٧ / ١٩٠٩ ، حيث أثارت مناقشة المادة الرابعة من نظام الاجتماعات العامة وتنص على انه : « يمنع قيام الجمعيات

ذات الاهداف السياسية والتسمية القومية في الدولة العثمانية .

وقد ناقش هذه المادة عدد من المبعوثين الارمن والاغريق والعرب وبرهن الجميع على تمسكهم بجنسيتهم ، وتساءل المبعوث العربي عبد الحميد الزهراوي فيما اذا كانت الاجتماعات العنصرية بحجة بحقوق الوطنية ؟ ؟ فأجابه مستشار الداخلية بأن الحكومة لا تريد مساس لغة او طبائع عنصر من العناصر الوطنية غير انها تريد أن يسلك الوطنيون سياسة واحدة ، وهي ترى أن الجمعيات تبالغ في محافظتها على سياسة الجنس - أي القومية - .

ولكن الزهراوي اجاب باسم المبعوثين العرب ، بأن الجمعية العربية لا تتبع طريقاً خفية ، كما ذكرت الجرائد المحلية ، مؤكداً أنه لم يسمع قبلاً بأن شعباً أنكر لسانه وطبائع عنصره ، حتى يجوز للعرب أن ينكروا لغتهم ويغيروا طباعهم .

كان الزهراوي يدافع عن لغة قومه وطبائعهم ، ويؤكد كما أكد غيره من مبعوثي الاجناس الاخرى « ان الامة العثمانية تتألف من عناصر كثيرة ذات صفحات في التاريخ كلها مجد وسؤدد » كما كان الزهراوي بنفس الوقت يرد على تخرصات الجرائد التركية التي اتهمت العرب بأنهم يسلكون طريق الجمعيات السرية لمقاومة الحكومة .

وبالرغم من هذه المقاومة ، فإن المادة الرابعة فازت عندما عرضت على الاقتراع - فنالت اكثرية ٩٠ - ٦٠ صوتاً .

وهذا أمر بدهي ، فإن المجلس في هذه الاثناء لم يكن فيه من احزاب وتكتلات سوى حزب الاتحاد والترقي ، لذلك قرر نواب القوميات الاخرى تأسيس احزاب برلمانية ، الغاية منها توثيق روابط الاتحاد بين العناصر المختلفة

مع المحافظة على شخصية كل عنصر ومميزاته ، لتتمكن من مقاومة حزب
الاتحاد والترقي العنصري .

وكان أهم الأحزاب البرلمانية التي تأسست ، حزب الاحرار المعتدلين أو « الحزب
الحري الدستوري المعتدل » وحزب الاهالي ، وقد ساهم مبعوثو العرب في وضع
دساتير هذه الأحزاب وكان في مقدمتهم عبد الحميد الزهراوي ورشدي الشفعة
واشترك في عضويتها المبعثون العرب وغيرهم من مبعوثي القوميات الأخرى .

أما السمات المميزة لهذه الأحزاب فكانت سمات مشتركة أهمها : من حيث
المبدأ : المناهضة باللامركزية ، ومن حيث أسلوب العمل : العمل العلني ، ومن
حيث التكوين : عثمانية شاملة ، ومن حيث موقفها من الحزب الحاكم : المعارضة .
وفي ٨ تشرين الثاني سنة ١٩١١ اشترك الزهراوي مع طاهر خير الدين
(التونسي) بتأسيس حزب الحرية والائتلاف حيث امتص الأحزاب البرلمانية
السابقة جميعها ، وجاء من حيث التنظيم ، محصلة لجميع هذه الأحزاب ، وكان
بحق نداء لحزب الاتحاد والترقي ، وانضم اليه نواب الأحزاب السابقة الى جانب
الاعضاء الذين انشقوا عن حزب الاتحاد والترقي ، من العرب والقوميات الأخرى
فجاء هذا الحزب تعبيراً مهماً عن الأحزاب العثمانية التي قامت في مواجهة
الاتحاديين وسياستهم العنصرية المركزية .

تناول الزهراوي شرح مبادئ الحزب في جريدة الحضارة التي كانت
يصدرها في الآستانة ، وهي بنفس الوقت تلقي ضوءاً ساطعاً على مضمون الفكر
السياسي عند الزهراوي ، يقول :

أ - عزمنا على تأليف فرقة سياسية على أشد « الأسس » التصاقاً بالحرية .
ب - واعظم الاسس لبروغرام الفرقة - اي الحزب - المحافظة على الحرية

والمساواة بين الافراد والجماعات دائماً .

هـ - ان « الروح الاصيلي » في هذا البروغرام هو صون حرية الافراد وحفظ حقوق العناصر وتأييد الدستور فهذا لا يتغير .

وواضح من عبارات « الاسس » ثم « اعظم الاسس » ثم « الروح الاصيلي » ان عبد الحميد الزهراوي يريد أن يؤكد بأن الحزب الذي انتمى اليه وسام في صياغة دستوره ، يتبنى المبدأين اللذين يؤمن بهما ، وهما مبدأ الحرية والمساواة وان مضمون الحرية والمساواة ، كان ينصرف للأفراد والجماعات ، أو للأفراد والعناصر ، - القوميات - وان نوع الحكم اللازم لإمكانية قيام الحرية والمساواة هو الحكم الدستوري ، وان هذين المبدأين - بهذا المضمون وفي ظل الحكم هما مبدأان ثابتان لا يتغيران ، كما يبدو في تعييري « دائماً » وتعبيري « فهذا لا يتغير » . واستناداً الى هذه المبادئ يحدد الزهراوي اهداف الحزب بقوله (١) :

الفرض الاعظم لهذا الحزب شيان :

أ - مقاومة الاستبداد ولاسيما الاستبداد تحت ستائر القانون .

ب - إصلاح ذات البين بين جميع العناصر .

وجدير بنا أن نلاحظ في تحديد الهدف عبارة : ولا سيما الاستبداد تحت

ستائر القانون ، فهي تشير الى أنه من الممكن أن يقوم الاستبداد على الرغم من

وجود القانون بل وتحت ستاره ، كما أنه يقصد واقعياً حكم حزب الاتحاد والترقي .

وفي بيان المضمون العملي التطبيقي لهذا الهدف أو « الفرض الاعظم »

على الاوضاع القائمة في الامبرطورية العثمانية ، نجد أن حزب الحرية والائتلاف

كما يقول الزهراوي يسعى « لإصلاح ذات البين بين جميع العناصر » .

«هيئة التحرير»

(١) الارث الفكري ، ٤٨١ .

ويحدد هذه العناصر في ثلاثة أنواع : عنصر الجنسية ، وعنصر الدين ، وعنصر الفكر والاجتهاد والاجتماعي .

ويتضح لنا من ذلك ان الزهراوي ورفاقه ، كانوا يدركون ثلاثة انواع من التناقضات القائمة في الإمبراطورية العثمانية حينئذ هي : التناقضات القائمة على أساس الجنسية - وتعني هنا « القومية » - والتناقضات القائمة على أساس « الدين » وتعدده ، والتناقضات القائمة على أساس الفكر الاجتماعي .

ويطالب الزهراوي بالحرية والمساواة لهذه العناصر ، في حدود عدم الاضرار بالعثمانية فيقول : (٢)

« والمقصود أن يكون كل عنصر من هذه العناصر حراً ليس مضبوطاً عليه ، ولا مضيقاً في رغائبه بما يعود لمصلحة عنصره ، مما لا تضر بالعثمانية ، وان تكون هذه العناصر كلها متآلفة مع التحالف ، متعارفة متعاطفة مع التغير » .
ودرءاً لكل الشبهات حول هدف الحزب أو غرضه ، فإن الزهراوي يصفه قائلاً : « هذا ولأننا لانسمى الى غاية شخصية ، أو قومية ، وإنما نسمى لادامة حياة هذه الدولة وابعاد شأنها ، وسعادة الامة ، وترقية عمرانها .. الخ » .
فواضح ان الزهراوي ورفاقه من مؤسسي الحزب كانوا يعدون سكان الإمبراطورية العثمانية امة واحدة - رغم قومياتها المتعددة - وان الدولة العثمانية هي دولة هذه الامة ، وقد ترتب على هذا المفهوم ان كانت عضوية الحزب مفتوحة لجميع العناصر ، أو على حد قول الزهراوي :

« لذلك يضم هذا الحزب ضمناً حقيقياً المسلم وغير المسلم ، والتركي وغير التركي من سائر الأجناس ، والمتعصب ديناً وغير المتعصب ديناً .. »

وانسجاماً مع تلك المبادئ والاهداف التي شرحها عبد الحميد الزهراوي ،

فقد كان حزب الحرية والائتلاف ينادي باللامركزية الإدارية التي آمن مؤسسو
الحزب وعضاؤه بضرورة تطبيقها .

ولابد لنا من الإشارة الى ان عبد الحميد الزهراوي من الرواد العرب
الذين كانوا يؤمنون بضرورة الوفاق ، بين قوميات الامبراطورية العثمانية ،
والإبقاء على هذه الامبراطورية ، رغم مناداته باللامركزية ، فالاستقلال شيء
واللامركزية شيء آخر ، أضف الى ذلك المادة الرابعة التي شهرها الاتحاديون
في وجه التنظيمات الحزبية ، ومن الجائز ان يكون المبدأ الثالث لحزب الحرية
والائتلاف الذي ينص « على وحدة الأمة والدولة العثمانية » تكتيكا حزبيا
ليضمن بقاء الحزب وانتشاره .

أمام هذا التكتل تمكن الاتحاديون من حل مجلس (المبعوثان) في اواخر
شهر كانون الثاني يناير سنة ١٩١٢ ، وبعد ثلاثة اشهر جرت معركة الانتخابات
الجديدة ، وكانت معركة حامية الوطيس بين الاتحاديين والائتلاقيين ولكن تمكن
الاتحاديون من الفوز على الائتلاقيين بالتزوير ، مما دعا إلى ثورة ضباط الجيش
احتجاجاً على تزوير الانتخابات بقيادة اليوزباشي الالباني طياربك ، وطالبوا
بحل المجلس وتشكيل حكومة من غير الاتحاديين ، وقد تجاوب مع هؤلاء
الضباط وبياناتهم ضباط حاميات « ازميز ودمشق وحلب » وغيرها ، واطلقوا
على انفسهم اسم ضباط الإنقاذ ، فاضطرت حكومة الاتحاديين الى تقديم
استقالتها في ٩ تموز « يوليو » سنة ١٩١٢ ، ليتسلم انصار حزب الحرية والائتلاف
زمام الحكم في الامبراطورية العثمانية .



تهام الزهراوي خارج المجلس

اتفق عدد من العرب في (الأستانة في مقدمتهم عبد الحميد الزهراوي
عزة الجندي (١) وعبد الكريم الخليل (٢) وغيرهم على تأسيس « منتدى أدبي »
تلتقي في أرجائه الشبيبة العربية والأحزاب والكتل العربية ، وكأنه « جبهة »
تسمى لبوغ الأغراض السياسية في رفع شأن العرب وتأمين حقوقهم ، عن طريق
التوعية الثقافية ، وافتتح المنتدى في الأستانة بتاريخ ٢/٨ سنة ١٩١٠
بمظاهرة عربية رائعة ، والقي معروف الرصافي قصيدة جاء فيها :

وإن تكن عربي الأصل لا كذباً فمت لإحياء مجد كان للعرب

دع المجامع في لهو وفي طرب واجعل مقرك هذا المنتدى الأدبي

بقي المنتدى الأدبي حتى عام ١٩١٥ « بيتاً قومياً عربياً » يجمع شمل أبناء العروبة
في العاصمة العثمانية من أنحاء الوطن العربي ، فكان « قبلة العروبة في عاصمة الدولة »
وكانت خطته نشر الدعوة للقضية القومية الوطنية ، وبالرغم من هذه الصفات التي
أطلقها عليه المعاصرون ، وبالرغم من أن فكرة القومية العربية كانت واضحة

(١) عزة الجندي ، هو عزة بن محمد بن سليمان الجندي العباسي ، طبيب من العاملين في القضايا
العربية ولد في حمص عام ١٣٩٩ هـ = ١٨٨٢ م وتعلم بها وبدمشق ودرس الطب في الأستانة
ثم في المعهد الطبي العثماني بدمشق وعمل في ثورة طرابلس الغرب على الإيطاليين ثم أقام مدة
في مصر شارك خلالها بحركة اللامركزية ثم عاد إلى سورية واستدعاه جمال باشا السفاح
عام ١٩١٦ من حمص إلى دمشق فكان آخر العهد به ، قيل أن السفاح قتله في إحدى غرف
الفندق ودفنت جثته بمكان مجهول .

« هيئة التحرير »

عن الاعلام ٢٣٠/٤ الطبعة الرابعة

(٢) عبد الكريم بن قاسم الخليل ، همام ، من شهداء العرب في عهد الترك ولد عام ١٣٠١ هـ

١٨٨٤ م وأعدم ببغروت عام ١٣٣٤ هـ = ١٩١٦ م

« هيئة التحرير »

عن الاعلام ٥٤/٤ الطبعة الرابعة

في احاديث اعضائه ، إلا أن كتاباتهم كانت تدور - في بادئ الامر - في اطار الرابطة العثمانية ، التي كان الأعضاء حريصين عليها .

كتب الزهراوي في جريدة الحضارة بتاريخ ١٠ نيسان ابريل سنة ١٩١١ مقالاً بعنوان « تربيتنا السياسية » يدعوفها إلى الاتحاد النافع : « الذي يبقى فيه العربي عربياً والرومي رومياً ولا يسيء أحد بأحد الظن حين يريد خدمة لسانه ويسعى في ترقية افكار قومه » ، ويظهر تئيه بأن يكثر بينهم العلماء والأدباء ، وأن يتعارف شعبه فيما بينهم ، ويتعاضدوا على تحسين أحوالهم الاجتماعية سواء فعل ذلك العرب ام غيرهم (٣) .

ولكن في عام ١٩١٣ بدأ أعضاء المنتدى الادبي يدعون جهرأ وعلانية إلى قوميتهم العربية رداً على التعصب التركي وسياسة التتريك التي طبقها الاتعاديون كتب الدكتور عزة الجندي في جريدة الامرام بتاريخ ٢٢ / ٤ / ١٩١٣ مقالاً جاء فيه : « إن المسلم عربي ، والمسيحي عربي ، اتنا عرب قبل كل شيء وقد تركنا مسألة الديانات أو العبادات إلى الجوامع والكنائس ، فإذا كنا عرباً قبل أن نكون مسلمين أو مسيحيين ، فالاولى أن نكون عرباً قبل ان نكون عثمانيين . »

وهكذا نرى أن مؤسسي المنتدى الادبي قد تخطوا الطائفية ، وتخطوا صيغة التنظيم الحزبي إلى صيغة جديدة هي الصيغة الجبهوية ، ومجال سياسي جديد هو المجال غير المباشر لمواجهة ظروف الضغط التي تحرم العمل الحزبي الصريح واوضاع الاخطار القومية التي تتطلب الجهد الموحد .

(٣) الارث الفكري ، ١٦ « هيئة التحرير »



الزهرراوي ومؤتمر باريس العربي

ترأس عبد الحميد الزهرراوي المؤتمر العربي الذي عقد في باريس من ١٨/٥ - ٢٣/٥ عام ١٩١٣، وجاء هذا المؤتمر خطوة إلى الامام في العمل الجماعي العربي . والمؤتمر العربي يحتاج إلى دراسة خاصة ، ولكن من المهم هنا الاشارة إلى أن صاحب فكرة عقده هو حزب العربية الفتاة السري ، وفي مقدمتهم الاعضاء الذين كانوا يتلقون العلم في فرنسا ، على ان توجه الدعوة - باسم الجالية العربية في باريس - الى حزب اللامركزية في مصر ليتبناه بشكل عملي . وعندما أقرت اللجنة العليا لحزب اللامركزية في جلستها المنعقدة في ١١/٤/١٩١٣ قبول اقتراح لجنة المؤتمر ، عينت وفداً ليمثلها وكان يتألف من عبد الحميد الزهرراوي صديق الحزب ، واسكندر عمون (١) ، ويشغل منصب وكيل لجنة الحزب .

وقد انتخب الزهرراوي في الجلسة الاولى رئيساً للمؤتمر، كما انتخب عضواً في لجنة الاطلاع على الخطب وإجازة القائها مع اسكندر عمون وغيرهما . (٢) وقد افتتح الرئيس الزهرراوي المؤتمر بخطبة كان عنوانها «تربيتنا السياسية» ابتدأها بلمحة تاريخية لوضع البلاد العربية ، وتاريخ الحكم التركي في البلاد

(١) اسكندر عمون ١٢٩٢ - ١٣٢٨ هـ = ١٨٥٧ - ١٩٢٠ م عالم بالحقوق ، له اشتغال بالادب ، ولد في دير القمر « بلبنان » وسكن مصر ، كان من البارزين في حزب اللامركزية الادارية العثماني . دعي الى دمشق في عهد الحكومة العربية « ١٣٢٧ هـ » فتولى فيها وزارة العدلية ، ومرض ، فاستقال وعاد الى القاهرة فتوفي فيها .

عن الاعلام ١/٣٠٢ ط ٤

« هيئة التحرير »

وكتاب رواد النهضة الادبية في لبنان الحديث : ١٩

(٢) جمعت محاضر جلسات المؤتمر وما دار فيه من مناقشات وما لقي من خطب في كتاب بعنوان « كتاب المؤتمر العربي الاول » وطبع في مصر عام ١٩١٣ « هيئة التحرير »

والعلاقة بين العرب والترك .

ودعا الزهراوي إلى نقطة مهمة ، حيث يشبه العرب « لواجب عظيم كان الترك والعرب جميعاً غير مهتمين به كما ينبغي ، وهو وجوب اشتراك الفريقين بسياسة البلاد . » اي أنه جعل العرب والترك بمثابة الند للند ، وبين الزهراوي بوضوح أنه « لا العرب انتفعوا بتحملهم وحدهم تبعية ذلك العبء الثقيل . » ثم اشار الزهراوي « إلى أن هذا الاشتراك لا ينافي الإخاء ، بل الذي ينافي الإخاء هو عدم هذا الاشتراك » وطالب أن يكون أساس « تربيتنا السياسية » بث هذه الفكرة والتعصب لها « وعندما أخذ يشرح الوسائل التي تؤدي إلى مافيه خير البلاد قال : « لقد وجدنا اللامركزية من خير الوسائل لظهور أثر هذا الاشتراك خارج العاصمة » .

وعندمالقىاسكندرعلمونخطبتهبعنوان«الاصلاح على قاعدة اللامركزية» علق الزهراوي وأكد : « بأن اللامركزية هي الطريقة السياسية التي أجمعت جماهير أمتنا على أنها خير الطرق لإدارة ممالك متعددة كالممالك العثمانية » . وهكذا حقق دعاء اللامركزية ، في مؤتمر باريس ، هدفهم وبينوا أن الأمة العربية تنادي باللامركزية ، وهاجموا مفهوم المركزية الذي يحصر إدارة أمور الأمة - السلطة - في عنصر واحد ، وأن الحكم المركزي يتناقض مع الحكم الدستوري ، وبينوا أن هذا التناقض « هو السبب الحقيقي في خيبة الآمال التي كانت معلقة بإعلان الدستور » وبالتالي قاموا بشرح مبادئ حزب اللامركزية وأهدافه أمام أعضاء المؤتمر وكان حزباً حديث العهد .

وبما تجدر الإشارة إليه ، أن حزب العربية الفتاة السري تبني شرح مبدأ القومية العربية ، أما مبدأ الطائفية واللاطائفية فقد أثاره وتناوله

اكثريه اعضاء المؤتمر .

وكان عبد الحميد الزهراوي قد أكد لندوب جريدة « الطان » الفرنسية قبل انعقاد المؤتمر قائلاً : « بأن المؤتمر ليس له صفة دينية وكل اعماله تنحصر في الدائرة المحددة له من البحث في شؤوننا الاجتماعية والسياسية ، ولذلك ترى عدد اعضائه المسلمين والمسيحيين متساوياً » .

وقد اصدر المؤتمر قراراته وملاحقه ، وههنا هنا بالنسبة لهذا البحث الملحق الاول وينص : « على أنه إذا لم تنفذ القرارات التي صادق عليها هذا المؤتمر ، فالاعضاء المنتمون إلى لجان الاصلاح العربية ، يمتنعون عن قبول أي منصب كان في الحكومة العثمانية ، الا بموافقة خاصة من الجمعيات المنتمى اليها » . ولم يأخذ المؤتمر العربي بسياسة القطيعة مع حزب الاتحاد والترقي الحاكم في الآستانة ، من أجل تحقيق مقرراته بل أخذ بسياسة الاتصال والتفاوض والحوار مع ذلك الحزب وحكومته ، وقد تم التوصل فعلاً إلى اتفاق وقع عليه عبد الحميد الزهراوي بالنيابة عن المؤتمر العربي ومدحت بك شكري بالنيابة عن جمعية الاتحاد والترقي ، وهو اتفاق يعرف « باتفاقية باريس » .

وبالرغم من أن بنود هذه الاتفاقية ، كانت دون المطالب العربية ، كما يبدو من مقارنة بنودها بمقررات المؤتمر العربي ، فقد وقع عبد الحميد الزهراوي هذه الاتفاقية تدليلاً من قادة المؤتمر عن حسن نواياهم تجاه الدولة العثمانية ، وتعبيراً منهم عن مرونة سياسية أرادوا بها أن تعطي حزب الاتحاد والترقي فرصة اخيرة للتفاهم مع العرب .

واتفق أن يعود عبد الكريم الخليل ، مسج ممثل الاتحاديين إلى الآستانة لمرض الاتفاقية على اللجنة المركزية للحزب ، وان يبقى رئيس المؤتمر - الزهراوي -

مع عدد من المندوبين في باريس كهيئة متابعة تنتظر نتائج مباحثات عبد الكريم الخليل في الآستانة وتتأهب للاشتراك في تنفيذ الاتفاق إذا ما أقره الاتحاديون وسرعان ما كشف الاتحاديون عن سياستهم التي تستهدف ضرب الحركة العربية وتفتيت جبهة مؤتمر باريس على الشكل التالي :

أ - بعد توقيع الاتفاقية من قبل وزير الداخلية الاتحادي طلعت باشا باسم الحزب ، وعبد الكريم الخليل عن المؤتمر ، طلب طلعت باشا أن تبقى الاتفاقية سرية حتى يتم تنفيذها .

ب - اتصل الاتحاديون بأعوانهم من البشوات والاعيان العرب وطلبوا منهم مواصلة الهجوم على مؤتمر باريس وهيئاته وقادته .

ج - عندما أعلن رفيق العظم (١) رئيس حزب اللامركزية شروط الاتفاقية بعد أكثر من شهر من توقيعها ، نتيجة التباس صنعته وكالة رويتر الإنكليزية ، قام الاتحاديون وذهبت جريدة (طنين) التركية إلى درجة انكار وجـ - ود الاتفاق ، وانكار ان سفر مدحت شكري إلى باريس كان من أجل التفاوض مع رجال المؤتمر العربي .

د - وعندما قررت حكومة الاتحاديين تنفيذ ما أسسته « الإصلاح » استصدرت ارادة سنية ، وتراجعت عن أهم بنود الاتفاقية وهو البند الثاني عشر الذي يقضي بأن تكون المعاملات الرسمية في البلاد العربية باللغة العربية . وهكذا بينما كان النشاط السياسي في الإمبراطورية يدور من ناحية

(١) رفيق العظم « ١٢٨٤ - ١٣٤٣ هـ = ١٨٦٧ - ١٩٢٥ م »

عالم بحاث من رجال النهضة الفكرية في سورية . ولد في دمشق ، زار مصر ثم استقر فيها عام ١٣١٦ هـ واشترك في كثير من الاعمال والجمعيات الاصلاحية والسياسية والعلمية وتوفي بالقاهرة .
عن الاعلام ٣/٣ ط ٤ « هيئة التحرير »

الشكل باسم المؤتمر وفي صيغة التعاون الجبهوي التي أقامها ، أصبح النشاط يدور من ناحية المضمون حول تحقيق مقررات المؤتمر وما تعبر عنه من ارادة عربية عامة ، تمكن الاتحاديون من خلال هذه الخطوات ، أن يبدروا بين صفوف الجبهة العربية المتحدة ، خصوصاً عندما رغبى عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الأدبي بخطوات الاتحاديين ، وفتح بذلك ثغرة في موقف الجبهة العربية ، بل أكثر من ذلك بدأ يحاول اقناع عبد الحميد الزهراوي بالتوجه نحو الاستانة . ولكن الزهراوي ارسل واحداً من أعضاء هيئة المتابعة إلى الاستانة للمشاركة في اقناع الاتحاديين بتنفيذ بنود الاتفاقية ، وبقي الوفد عدة أسابيع شهد أعضاؤه خلالها تلاعب الاتحاديين ، وتأكدوا بأن الاتحاديين نقلوا النزاع والمطاحنة إلى العرب أنفسهم ، العرب الاتحاديون والعرب الثوريون ، واخيراً قرر أعضاء الوفد العودة .

مكث الزهراوي مدة خمسة أشهر في باريس ، كانت خلالها على اتصال بحزب اللامر كزية في مصر ، وعندما أرسل له عبد الكريم الخليل برقية يدعوه فيها إلى الاستانة ، استأذن حزب اللامر كزية ، ويقول محمد رشيد رضا (٢) في مجلة المنار ، ان الحزب خيره بين مصر والاستانة وكان هو يفضل الاستانة ، بينما الحزب يفضل حضوره إلى مصر .

وهكذا وصل الزهراوي عاصمة الامبراطورية في ٢٨ / ١٠ / ١٩١٣

(٢) محمد رشيد رضا « ١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م » من كبار رجال الإصلاح في العصر الحديث ، تتلمذ على الشيخ محمد عبده ، واصر مجلة « المنار » في مصر لمدة (٣٤) عاماً ترأس المؤتمر السوري ثم عاد الى مصر بعد دخول الفرنسيين الى سورية وله في القلمون وتوفي بالقاهرة . وله مؤلفات كثيرة .

هيئة التحرير

عن الاعلام ٦ / ٢٦ ط ٤

فاستقبلته الشبيبة العربية في المحطة بالهتاف للاصلاح وزعمائه ، وزعماء العرب . . واتجه إلى المنتدى الأدبي حيث تبودلت الكلمات وعلت الهتافات وفي ٣٠ / ١٠ بدأت مفاوضات الزهراوي بصورة رسمية ، مع مدحت شكري ولم يمض اسبوع ونصف على بدء المفاوضات ، حتى ادرك الزهراوي تسويق الاتحاديين ومماطلتهم لتحقيق الاتفاقية ، وحاول العودة إلى مصر غير أن عبد الكريم الخليل وانصاره الحوا عليه بالبقاء واعطاء فرصة اخرى للاتحاديين ، ولكن الزهراوي شرح موقفه في الصحف مؤكداً أن الحكومة تعدّه وعوداً دون تنفيذ ، وأنه قرر مغادرة البلاد « إذ مافائدة الوعود ونحن نريد أعمالاً لا اقوالاً » وعندما سأله مندوب إحدى الصحف ولكن « ماهو السبب في مماطلة الحكومة قال : أظن السبب خلافاً بين أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ، فإن فريقاً من اعضائها يؤيد مطالبنا ويريد معاملتنا بالحسنى ، وفريقاً يرفض مطالبنا كل الرفض ، ويشير باستعمال الشدة معنا . ولانعلم أي الفريقين يرجح ، فإن استطاع اولهما اقناع ثانيها كان لنا ماطلبنا ، والا ساءت العاقبة كثيراً . »

واخيراً تمكنت حكومة الاتحاديين من اقناع عبد الحميد الزهراوي بأنها في الطريق إلى إقامة مدرستين سلطانيتين « ثانويتين » في دمشق وبيروت اساتذتهما من العرب ، وجعل اللغة العربية رسمية في المحاكم والدواوين العربية . وأنهم بحاجة الى المال لتحقيق بقية المشروعات التي تم الاتفاق عليها .

وفي ١٤ / ١ / ١٩١٤ صدرت الارادة السنية بتعيين سبعة من العرب أعضاء في مجلس الاعيان ، كان عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر العربي ، هو الوحيد بينهم من دعاة اللامركزية ، وكان ثلاثة من الاتحاديين وثلاثة من الحيايين . .

وقد قبل الزهراوي هسدا التعيين مخالفاً للقيّد الذي وضعه مؤتمر باريس

حول قبول مثل هذه التعيينات وقبله من غير ان يستشير حزب اللامركزية الذي
كان على صلة وثيقة به واصبح متفقاً في الرأي مع عبد الكريم الخليل في أنه
من الضروري أن يعد طلاب الاصلاح العرب ايديهم الى الاتحاديين . .
لقد ارسل الزهراوي بعد ذلك رسائل مفصلة الى حزب اللامركزية ،



شهيد العرب وفقيد الفضل والشهامة والادب
العلامة عبد الحميد الزهراوي

تدور حول هذا الموضوع - وجدتتها بين اوراق محب الدين الخطيب (١) في مكتبه بالقاهرة وكلها بخط عبد الحميد الزهراوي - يبرر فيها وجهة نظره مؤكداً .
« ان الاتحاديين ناوون نية قاطعة ان يجددوا شباب الدولة بقدر ماتسمح بسـه الظروف ، ويشتهون ان يخلص إليهم العرب ويساعدهم فضلاؤهم في هذا السبيل» .
وتشير الرسائل المتبادلة بين الزهراوي وحزب اللامركزية إلى وجود أزمة حزبية كادت تؤدي به الى الانشقاق ، كما ان موقف حزب اللامركزية أمام الاحزاب الاخرى ، كان موقفاً لا يحسد عليه ، اذ كان موقف الاحزاب موحداً يرفض خطة الاتحاديين ويشجب انشقاق الخليل والزهراوي ، بل ان الجمعيات العربية في المهجر طلبت التمسك بقرارات مؤتمر باريس ، واتهمت الزهراوي وحزب اللامركزية بمسايرتهم للاتراك وان الاتحاديين اشتروا تأييدهم ورضاءهم ببعض المراكز والمناصب .

وكان هناك من انصف الزهراوي مثل الضابط الكبير سليم الجزائري .
عندما كتب في ١٥ / ١ / ١٩١٤ قائلاً . . . أيجوز لنا ان نخطيء الزهراوي .
ونتقده على هذا الاتفاق ؟ انا لست على هذا الرأي ، لان الزهراوي لولم يتفق مع الحكومة لكننا الآن في أشد المآزق حرجاً . . . »

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا تجاه تعيين الزهراوي (٢) : « اما أنا فكان يغلب على ظني ان جعله من الاغنياء احبولة يريدون بها اصطبياد المخلصين من طلاب

(١) محب الدين الخطيب « ١٣٠٣ - ١٣٨٩ = ٢٨٨٦ - ١٩٦٩ م » من كبار الكتّاب الاسلاميين ، ولد في دمشق ، وتعلم بها وبالاستانة وشارك في النضال السياسي . حكم عيّسه الاتراك بالاعدام غيابياً . استقر في القاهرة بعد دخول الفرنسيين دمشق واصدر عدداً من المجلات والكتب .
عن الاعلام ٥ / ٢٨٢ ط ٤ « هيئة التحرير »

(٢) انظر كلام محمد رشيد رضا في مجلة المنار المجلد ١٩ ص ١٧٤ « هيئة التحرير »

الإصلاح في خارج المملكة ، ليفتكوا بهم بعد جلبهم اليهم جملة واحدة . ، وهو رأي لم تلبث الاحداث ان أكدت صحته خلال الحرب العالمية

ومهما كانت قيمة التفسيرات والمسوغات التي تتجسد في كل من تصرفات عبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوي ، فانتنا نرى انها لم يكونا منتسبين - في أثناء انعقاد المؤتمر - لاي حزب يمارس عليها أي ضغط انضباطي سواء في تكوين « الرأي » او في « المسلك » ، وانها كليهما كانتا يقعيان في الآستانة ، ويلسان عن كذب اتجاهات الاتحاديين وما يضررونه للقوميات الاخرى ، ثم ان الزهراوي ، كان أقرب في عقليته وتكوينه إلى تغليب أمل التفاهم والوفاق مع الدولة العثمانية على ضرورة النزاع معها وإلى تغليب أسلوب الحوار على أسلوب الصراع كما تسدل رسائله التي وجهها إلى حزب اللامركزية ، بعكس ما كان عليه رجال حزب العربية الفتاة وحزب العهد السريين . .

ومهما تكن الامور فان حقد الاتحاديين على أبناء الامة العربية قد كثر عن انيابه ، وقال من روادها في اول فرصة منحت لهم ، سواء أكان هؤلاء الرواد ممن حسن ظنه بالاتحاديين او ممن قاومهم ، وكانت اعضاء مؤتمر باريس في المقدمة ، وكان عبد الكريم الخليل من القافلة الاولى للشهداء التي قدمتها الامة العربية بتاريخ ٢ آب أغسطس سنة ١٩١٥ ، وكان عبد الحميد الزهراوي من قافلة الشهداء الثانية في ٦ أيار مايو سنة ١٩١٦ .

الدكتورة

سهيلة ياسين زكية الريمراوي - عمان

النظم الإدارية في بلاد الشام

من سنة ١٣٢ - ٢٥٨ هـ / ٧٥٠ - ٩٦٩ م

الدكتورة (هَيْثَا بَيْطَار)

استاذة التاريخ الاسلامي بجامعة دمشق

كانت بلاد الشام في الفترة الواقعة بين سنتي ١٣٢ - ٢٥٨ هـ / ٧٥٠ - ٩٦٩ م ولاية تابعة للخلافة العباسية ، ولكنها كانت من الولايات التي احتاج العباسيون إلى بذل جهد كبير لفرض طاعتهم فيها . فقد تسببت في إثارة الكثير من المشاكل للخلافة العباسية ، كما اضطرت العباسيين لتسخير قسم من قوتهم لتهدئة الاحوال فيها والسيطرة على الامن . وعلى وجه الاجمال فإن خلفاء العباسيين اهتموا بشؤون بلاد الخلافة إدارياً اهتماماً كبيراً ووجهوا جل اهتمامهم لاختيار ولاية الاقاليم . فاختاروا ولايتهم ممن يشقون بهم .

وعلى الرغم من ذلك فإن ولاية الاقاليم في العصر العباسي الاول لم تكن لهم سلطة مطلقة كتلك التي كانت للنواة في عهد الأمويين . فلم يسمح للوالي بالبقاء في ولايته مدة طويلة ، لئلا تسنح له الفرصة بالاستغلال والاستبداد بالأمور . كما كان عليه ان يقدم بياناً مفصلاً عن شؤون ولايته بعد عزله ، وقد يتعرض لمصادرة أمواله إذا احتاج الأمر إلى ذلك (١) .

وكان على رأس كل ولاية الأمير و-و قائد الجيش وإمام المسلمين في

١ - محمد جمال الدين سرور ، الحضارة الإسلامية في الشرق ، ص ٩٥

الصلاة ، ثم يليه العامل ويسمى صاحب الخراج ، لأنه يختص بحمل خراج الولاية إلى خزانة الدولة والانفاق عليها مما يحصله من الاموال . وكان الامير يخاطب في المراسلات بما يخاطب به العامل (١) وأخشى ما كان يخشى منه ان يتضافر الأمير والعامل في الولاية ، ليفعلا ما يحقق مصلحتها دون مصلحة الولاية . او ان يختلفا فيتمسبا في قيام الفوضى في البلاد . ففي سنة ٢٢٦ هـ / ٨٤٠ م حدث خلاف في دمشق بين أميرها علي بن اسحق بن يحيى بن معاذ ، وعامل خراجها رجاء بن أبي الضمك فقتل الأخير (٢) .

أما إذا تقلد رجل واحد المنصبين معا ، فيصبح كالحاكم المستقل بولايته . وهذا ما فعله كل من ابن طولون والاشيد (٣) . ومن الواضح أن الولاية كانت تتضرر إذا كثرت عدد العمال فيها ، لان كلا منهم كان يعمل على اثراء نفسه على حساب الرعية . ففي سنة ٢٢٩ هـ / ٨٤٣ م كان في مدينة الرقة قاض ، وكاتب سلعة يعرف بالبذار لجمع الخراج ووجوه المال ، وصاحب جند ، وصاحب بريد ينهي أخبار الولاية للخليفة ، ومتول للضياع السلطانية (٤) . وكان هؤلاء يعينون من قبل الوزير ويعزل كثير منهم بعزله . مما أدى إلى كثرة التعمل وإثارة الفتن والاضطرابات (٥) ولم تجمع بلاد الشام تحت حكم وال واحد إلا فيما ندر . ففي أغلب الاحوال كان يعين وال لكل جند من أجنادها . وفي احيان كثيرة يجمع لوال واحد اكثر من جند . وقد أدى هذا الامر في النهاية إلى صعوبة التنقل من جند إلى

١ - محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٩٧

٢ - الطبري : المصدر السابق ، جزء ٩ ، ص ١١

٣ - ادم ميتز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، الطبعة الثالثة ١٩٥٧ م

جزء ١ ص ١٢٩

٤ - ادم ميتز ، المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٢٩

٥ - محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٩٧

آخر . كما أدى إلى تعقد الاعمال التجارية . وما يؤكد أن كل قصبة في الشام كانت مستقلة عن الاخرى ، ما ذكره كتب التاريخ عن ارتفاعات كل قصبة على حدة (١) . وما لا شك فيه أن هذا الوضع الإداري الجديد لم يرق الاهالى الشام بعد أن كانوا نواة الدولة العربية الإسلامية .

وقد أورد ابن المقفع في كتابه الى الخليفة المنصور نصيحة يبدي فيها رأيه في إدارة الشام وأهله . فذكر انهم اشد الناس مؤونة ، وأخوفهم عداوة وبائقة . ونصح بأن يختص منهم خاصة ممن يرجو عنده صلاحاً ، أو يعرف منه نصيحة أو وفاء . وأكد بأن هؤلاء لا يلبثون أن ينفصلوا عن أصحابهم في الرأي والهوى . وان يدخلوا فيما حملوا عليه من امرهم وأورد مثلاً عملياً عن نتائج سوء معاملة الامويين لاهل العراق . وما على العباسيين إلا ان يعتبروا بمن سبقهم ، وأن لا يجعلوا فيء أهل الشام إلى غيرهم . بل يصرف فيهم ، و ان لا يبعدوا عن المناجر والمجالس والاعمال . كما نصحه بأن يستفيد من عنده قدرات خاصة منهم دون أن يفضل أحداً منهم على غيره ، إلا على خاصة معلومة . وقدم عذراً على نزوات أهل الشام ، فهم كغيرهم من الناس حين يخرج الملك من بينهم (٢) .

وكان الخلفاء العباسيون في بداية الامر على قدر كبير من القوة والسلطان .

١ - انظر الجشيارى : الوزراء والكتاب ، ص ٢٨١ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ قدامة بن جعفر ، لبذ من كتاب الحراج وصناعة الكتابة ، طبعة ليدن ١٨٨٩ ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ و ص ٢٥١ - المقدسي ، أحسن التقاميم في معرفة الاقاليم ، ص ١٨٩ - ابن خرداذبه ، المصدر السابق ، ص ٧٥ - ٧٩ ابن حوقل : صورة الارض ، ص ١٨٨ - ١٨٩ - ابن خلدون ، مقدمة ، منشورات الاعلى ، بيروت ١٩٧١ ، ص ١٥١ - جرجي زيدان ، المرجع السابق « جزء ٢ ، ص ٥٤ ، ٥٩ ، ٦١ ، من ١٠٧ - ١١١

٢ - كرد علي ، الاسلام والحضارة العربية ، جزء ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦

- الادارة الاسلامية ، ص ١٣٢ - ١٣٣

ممكنهم من السيطرة على الولاية . فقد عزل الخليفة هارون الرشيد واليه على دمشق حين لمس منه عـ عدم مقدرته على تسيير أمور البلاد ، ولاحظ تدهورها اقتصادياً .

وقد بدأ فساد الولاية منذ أن ظهر إلى الوجود نظام الضمان . ويعني هذا النظام ان يوظف على العامل مال معين يدفعه في السنة إلى بيت المال في بغداد ، مقابل ان يتولى هو قبض الخراج والجزية وسائر الضرائب . وان ينفق ماينفقه كما يشاء ، وفي ذلك ما فيه من الضرر على الولاية .

ويبدو ان هذا النظام نشأ في العصر العباسي الثاني ، عندما ساءت الأحوال المالية والاقتصادية وإن بدأت فكرة التضمين للولايات قبل ذلك ، فقد تولى ابراهيم بن الأغلب ولاية افریقیة وبذل ان يحمل كل سنة أربعين ألف دينار للخلافة ، وان يتنازل عن المعونة التي كانت تدفع لها من مصر وقدرها مائة ألف دينار (١) وكان الهدف من هذا التضمين إقامة حكم علي يعتمد في حماية الولاية وتقويتها على مواردها الخاصة وأن يقف حائلاً في وجه الإدارة والدولتين الخارجيتين دون انتظار القوات العباسية . ولكن الامر أسوأ استعماله فيما بعد . وفي الشام اخذت بعض مناطقه تضمن تضميناً إلى من يدفع أكثر . فقد عقدت فلسطين لنواب كافور بخمسمائة ألف دينار ، وكذلك جند دمشق . وكثيراً ما كان كافور يطلب من عماله على سبيل القرض ، وقبل ان يحين موعد الدفع . وكان يدع عماله مقابل ذلك يحبون مايشاؤون من المال ارضاء لهم ، إذ كان يرى ان أولياءه يجب ان يتمتعوا لثلاث تنقل النعمة الى الاعداء (٢) . كما لجأ البعض الى تعيين ارزاق لقوم لا يؤدون عملاً ، وأرزاق لآخرين ليس لهم وجود

١ - زيدان ، التمدن الاسلامي ، جزء ٢ ، ص ٤٦

٢ - ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ١٧٢

على قيد الحياة (١) .

وكثيراً ما كانت أموال بلاد الشام تحمل خارجها مع الثائرين اومسح
الييزنطيين في غزواتهم على البلاد مما أنهك البلاد اقتصادياً . فقد حمل لؤلؤ مولى
بن طولون معه الى بغداد زهاء ثلاثمائة خزانة (٢) وكذلك استولى الامبراطور
الييزنطي على ٣٩٠ بكرة دراهم من قصر سيف الدولة عدا ماأخذه من خزائن
السلاح ، ومن البفال (٣) .

ويبدو انه كان يوجد في قصر كل ولاية في الشام اوكل جند من اجنادها
دار لضرب النقود . ففي سنة ١٤٦ هـ / ٧٦٣ م ضربت فلوس بمدينة حلب باسم
صالح بن علي وفي سنة ١٥٧ هـ / ٧٧٤ م ضربت فلوس أخرى باسم مولى أمير
المؤمنين (٤) . كما كانت تضرب النقود في دمشق في قصر الخضراء في القرن
الرابع . فقد اصبح هذا القصر مجلساً للشرطة وداراً للضرب (٥) .

كما كان في كل قصبة بيت مال يعلق على اعمدة في مسجدھا الجامع . فبيت
مال دمشق كان في صحن الجامع الأموي مرفوعاً على ثمانية أعمدة ، وكانت حيطانه
مرصعة بالفيفساء (٦) . وبعد ان كان ديوان الخراج الرئيسي في دمشق في المهد
الأموي انتقل إلى بغداد . ولم يمد في دمشق إلا دواوينها الخاصة . وكانت الاموال

١ - محمد جمال الدين سرور ، المرجع السابق ص ١٠٠

٢ - ابن العديم ، زبدة الحليب ، جزء ١ ، ص ٨٠

٣ - ابن العديم ، المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٢٨ ، ١٢٩

٤ - ابن العديم ، المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٦٠

٥ - انظر مجلة معهد المخطوطات العربية لسنة ١٩٥٨ م ، مجلد ٤ ، جزء ١ ، مقال عن عصر

المؤرخ المهلب المتوفى سنة ٥٣٦٧ هـ ، ص ٦٥

٦ - المقدسي ، المصدر السابق ، ص ١٨٢ و ١٥٧

تجمع في بلاد الشام من الخراج والجزية والمكوس على التجارة (١) وما كان يجبي من الفنادق وبخاصة في بيت المقدس (٢) ، فيصرف منها على العمال وحاجات البلد ، ثم ينقل الباقي إلى دار الخلافة ليوضع في بيت المال . (٣)

ولثقل الضرائب عمل صغار ارباب الضياع على الإفلات من عبء الخراج العادي بإلجاء ضياعهم الى الكبار الاقوياء . فكانت تجري بأسمائهم ليخفف عن أهلها الخراج ، فيدفعون العشر فقط كما هو الحال في الاقطاعات ، ولكنها كانت تبقى في ايدي أهلها يتبايعونها ويتوارثونها وهي بأسماء من ألجئوها إليهم . ويقال إن هذه التلجئة كانت موجودة في عهد الأمويين (٤) .

وتجلى في هذا العصر كثرة مصادرة اموال العمال والكتاب . فقد صادر محمد بن طنج عماله مراراً ، وإذا أفلت احد من المصادرة حياً لم يكن يسلم من أخذ امواله بعد وفاته ، فكان يتعرض ابن طنج لورثته ويأخذ منهم ويصادرهم . وكان العاميل إذا صودر وثقل عليه عبء المصادرة تبرع له اصحابه ، وجمعوا له الاموال للتخفيف عنه . وكذلك كان يفعل مع التجار والاغنياء (٥)

ومن القصص التي تذكر في هذا المجال ان الاخشيذ كان في احد الايام خارجاً للصيد بظاهر دمشق ، فرأى حماماً فأرسل عليه الجارح فأخذه فإذا مع الحمام كتاب الراشدي إلى بعض الدمشقيين يقول فيه : قد حصل عندك تمام

١ - آدم ميتز ، المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢١٣

٢ - المقدسي : المصدر السابق . ص ١٨٩

٣ - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ٢١٣

٤ - آدم ميتز : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٩٧ .

ان نظام التلجئة هذا كان بداية لنشأة نظام الحماية التي شاع في الدولة الاسلامية في الفترة المتأخرة .

٥ - محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ١٠٠ - احمد امين : ظهور الاسلام ، جزء ١

ص ١٢٢ وجزء ٢ ص ١٠

ثمانين ألف دينار . وانصرف الاخشيذ إلى داره واحضر الرجل وطالبه بالمال
واخذه منه (١)

وسار الحمدانيون على نفس الطريقة . فقام سيف الدولة بمصادرة الاموال ، كما
كان يصادر التركات . وكان قاضية ابو حسين الرقي يقول : للتركة لسيف الدولة
وليس لابي الحسين إلا اخذ الجمالة . وشاع بين الناس القول : من هلك فلسيف
الدولة ماملك .

وأدت سياسة سيف الدولة في المصادرة الى كره اهالي دمشق له ، وقفضيل
حكم الاخشيذيين على حكمه ، وبخاصة حين ادركوا مطامعه في غوطة دمشق
لاعجابه بها من الحديث الذي دار بينه وبين احد رجالات دمشق والمسمى
القيهي ، إذ صرح له بقوله - بعد ان اوضح له الاخير بأن غوطة دمشق تعود
ملكيتها الى امر مختلفة - ، بأنهم سيطر كونها اذا استولت عليها القوانين
السلطانية (٢) وقد أدت هذه الحال الى ضعف مركز رؤساء الدواوين وعمالها
لكثرة ما تعرضوا له من مصادرات .

وكثيراً ما كانت الولاية تعطى للأقوى ، كما انها كانت مجال مساومة بين
العمال . فقد ولي طريف حلب سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ - ٩٣٦ م ، ثم بلفه ان الخليفة قد
بدرأ الحرشي ولاية المدينة ، فاتصل طريف بالوزير ابن مقله ، ودفع له عشرين
ألف دينار ليتوسط له لدى الخليفة لابقائه والياً على حلب . ولكن طلبه جاء متأخراً
إذا أن الحرشي كان قد وصل الى حلب ، وجري قتال عنيف بين الطرفين

١ - ابن سعيد ، المقرب في حلى المقرب ، ص ١٥٥

٢ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢١٨ - ابن الودي ، المصدر السابق ، جزء

١ ص ٢٧٩ - CANARD Sayf al Doula - , pp 31 - 32

انتهى بانزاع طريف ، واستيلاء الحرشي على المدينة (١) .

وبالإضافة الى ذلك كان ولاية حلب يتبدلون بسرعة ، فأدى ذلك الى عدم استقرار الاحوال في المدينة . ففي ولاية مؤنس الخادم على مصر والشام للخليفة المقتدر ، اتاب عنه في حلب أبا العباس احمد بن كيفلغ ، ثم أبا قابوس الخراساني ثم وصيفاً البكتمري الخادم ، ثم هلال بن بدر ، ثم وصيفاً مرة أخرى وهكذا (٢) . واكثر ما كان يهم الخلفاء العباسيين وصول أنباء الولايات الاسلامية اليهم ، ولذلك لقي ديوان البريد اهتماماً خاصاً منهم . فما يذكر ان أم ما كان يشغل الخليفة المنصور معرفة أحوال الناس ، وقد تمكن بفضل نظام عمال البريد عنده من معرفة أنصاره واعدائه ، فساس الرعية وهو من معرفتها على مثل وضع النهار (٣) . وكان عمال البريد يكتبون للخليفة المنصور في كل يوم عن سعر القمح والحبوب والادم ، وسعر كل ما كول ، وبكل ما يقضي به القاضي في نواحيهم ، وبما يعمل به الوالي ، وبالمال المجبي ، وبكل ما يهيم . وعند ورود كتبهم إليه ينظر فيها ، فإذا رأى تغيراً في الاسعار كتب الى الوالي والمعامل هناك وسأله عن السبب في ذلك (٤) .

وكان الرشيد أيضاً من أشد الخلفاء بحثاً عن أمرار رعيته ، وأكثرهم بها عناية وأحزمهم فيها أمراً . وعلى نحو هذا كان المأمون . والدليل على ذلك رسالة المأمون إلى اسحق ابراهيم في الفقهاء وأصحاب الحديث وهو بالشام ، والتي

١ - سامي الكيالي : سيف الدولة : ص ٦٦

٢ - سامي الكيالي : سيف الدولة ، ص ٦٥

٣ - المحاضر . التاج في اخلاق الملوك ، ص ١٦٩ - ١٧٠

صلاح الدين المنجد . بين الخلفاء والخلفاء ، ص ٨٧ - ٩٢ - ٩٣

٤ - محمد جمال الدين سرور . المرجع السابق ، ص ١٠٢

خبر فيها عن عيب واحد واحد وعن حالته وأمره التي خفيت أو أكثرها عن
القريب والبعيد (١) .

ومن شدة اهتمام العباسيين بالبريد أنهم كانوا يكتبون لصاحبه عهداً عند
توليته يوضحون له فيه الخطة التي يجب عليه أن يحتذيها في عمله ، فقد كان عليه
أن يعرف حال عمال الخراج والضيايع ، وحالة عمارة البلاد ، وماهي عليه من
الكمال والاختلال ، ومايجري في أمور الرعية ، وأن يعرف ماعليه الحكام في
حكمهم وسيرهم ، وأن يعرف حال دار الضرب ومايضررب فيها من العين والورق .
وأن يكون ماينهيه من الاخبار شيئاً يثق بصحته . وأن يفرد لكل مايكتب
فيه من اصناف الاخبار كتباً . فيفرد لـ اخبار القضاة وعمال الخراج والضيايع ،
وأرزاق الاولياء ونحو ذلك كتباً ليجري كل كتاب في موضعه (٢) .

وقد راج استعمال الحمام في نقل الرسائل السريعة ابتداء من عهد الخليفة
المنصور (٣) . وقد استعمله الخليفة المعتضد لسرعة وصول الاخبار إليه . فقد
ارسل احد رجاله إلى اليرموك ، ليعاقب أحد الاعراب الذين تطاولوا على رجال
دولته . وطلب من الرجل ان يرسل إليه الخبر مع الطير (٤) . وقد استخدم
القرامطة وعامة دعاة الاسماعيلية الطير في مراسلاتهم . ومما يذكر في ذلك أن
دعاة المهدي كتبوا له على اجنحة الطيور من بغداد يخبرونه بما فعله والي سلمية
التركي . وانه اخبر الخليفة عن وضع المهدي في سلمية مما اضطر المهدي معه

١ - الجاحظ ، التاج في اخلاق الملوك ، ص ١٦٩ - ١٧٠

- صلاح الدين المنجد : بين الخلفاء والخلفاء ، ص ٨٧ و ص ٩٢ - ٩٢

٢ - محمد جمال الدين مرور . المرجع السابق ، ص ١٠٢ - ١٠٣

٣ - كرد علي . الاسلام والحضارة الاسلامية ، جزء ٢ ، ص ٢٠٠ - الادارة الاسلامية
ص ١٢٦

٤ - كرد علي . الادارة الاسلامية ، ص ١٧٨ - ١٧٩

إلى ترك سلمية والتوجه إلى الرملة (١) .

وكان للبريد محطات تسمى السكك ، تتعشب من مركز الخلافة إلى أطرافها ، وينقسم كل طريق إلى محطات أو مواقف أفراس . فيستبدل عمال البريد أفراسهم بأفراس مستريحة في كل موقف التماساً للسرعة (٢) . ومن أهم طرق البريد التي تمر بالشام :

١ - الطريق من بغداد إلى الشام عن طريق الضفة الغربية للفرات ماراً بالأنبار وهيت ودمشق . وقد استخدم العباسيون هذا الطريق لنقل البريد إلى مصر بالجمازات (المراكب السريعة) . وحين عزم الفاطميون غزو مصر سنة ٩١٣ / ٨٣٠١ م ليقفوا على حقيقة الحال في كل يوم (٣) .

٢ - الطريق الممتد من بغداد إلى المغرب ويمر بالموصل ، ثم يخترق أرض الجزيرة إلى سنجار ونصيبين والرقّة ومنبج وحلب وحماه وحص وبعبك ودمشق وطبرية واللجون . ومن اللجون إلى الرملة ومنها إلى القاهرة فالمغرب (٤) .

وكان لطريق البريد أثر كبير في تسهيل انتقال قطر الندى ابنة خاوريه إلى العراق عند زواجها من الخليفة المعتضد . وقد أمر خاوريه عمال بريد مصر بأعداد الطريق بين القطائع وبغداد ، فبنوا لها على رأس كل مرحلة قصرأ تنزل فيه (٥) .

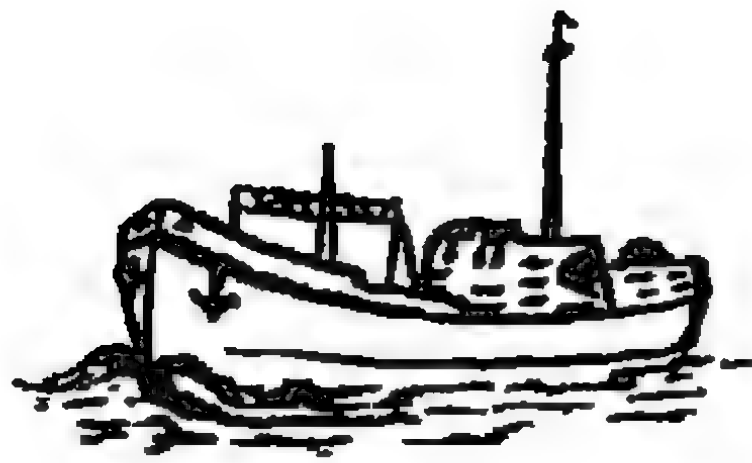
-
- ١ - محمد بن محمد الياني . سيرة جعفر ، ص ١١٠
 - ٢ - زيدان . التمدن الاسلامي ، جزء ١ ص ١٨٢
 - ٣ - محمد جمال الدين سرور . المرجع السابق ، ص ١٠٤ - حسن ابراهيم حسن . المرجع السابق ، جزء ٣ ص ٢٧٥
 - ٤ - محمد جمال الدين سرور . المرجع السابق ، ص ١٠٤ - آدم ميتز . المرجع السابق ، جزء ٢ ص ٤٠٦
 - ٥ - حسن ابراهيم حسن . تاريخ الاسلام السياسي والثقافي . جزء ٣ ، ص ٢٧٧

وهكذا يبدو أن الإدارة في بلاد الشام في هذه الفترة كانت إدارة شديدة من حيث اشراف الخلافة على البريد والاخبار ، وخاصة في الدور العباسي الاول . كما كانت الاخبار تصل بسرعة الى خلفاء هذا الدور فيجرون مايلزم . ومايشوب الإدارة في هذه الفترة ، عدم توحيد الشام تحت سلطة واحد ، إلا في بعض الفترات البسيطة .

أما في الدور العباسي الثاني ومنذ قيام الدول المستقلة فإن الاوضاع الإدارية ساءت إلى حد ما لضعف سلطة الخليفة في مركز الخلافة . ولذلك ساد تضمين الولايات وانتشرت المصادرات ، واصبحت الولاية لصاحب الساعد القوي .

الدكتورة

أمينة بيطار - جامعة دمشق



ملاحظات حول صلة علوم الأنثروبولوجيا بعلم التاريخ

(تاريخ صلات العلوم الانسانية بعلم التاريخ)

ماجد الموصلي
مدير أبحاث

القسم (٢) (١)

١ - الحقيقة ان القارئ العربي الذي اطلع على بعض ما ترجم حول موضوع علم الانثروبولوجيا والمجالات التي يتطرق اليها ذلك العلم ، لاشك انه قد تعرف ايضاً على بعض المصطلحات الاخرى المعربة والمتعلقة بعلم مثل علم الاتنوغرافيا وعلم الاتنولوجيا وعلم السوسولوجيا ، لذا اجسد من الضروري اولا التعريف بهذه العلوم قبل الانتقال الى ملاحظة علاقتها بعلم التاريخ .

طبقاً للتقاليد المعروفة حتى الان لمجالات علم الانثروبولوجيا يمكننا تحديدها على الشكل التالي : علم الانثروبولوجيا الطبيعية (دراسة الانسان وتاريخ نشوء السلالات والاعراق من الناحية الفيزيائية) ، علم الانثروبولوجيا الاجتماعية (دراسة المجتمعات والشعوب ماقبل الصناعة ودراسة بنيتها الاجتماعية) ، علم الانثروبولوجيا الاقتصادية (دراسة اقتصاد السلالات وخاصة تلك التي مازالت

١ - نشر القسم الاول من هذا البحث في العدد الاول من مجلة البحث التاريخي ص ٦٣

بعيدة عن الاندماج في الحياة الصناعية الحديثة والعالمية (وعلم الانثروبولوجيا الثقافية وهو العلم الذي يدرس ثقافات وحضارات الشعوب والسلالات البشرية لما قبل العصر الصناعي الحديث . وعلى كل حال فإن مجال علوم الانثروبولوجيا يبقى في حدود الانسان البدائي وحضاراته وذلك من وجهة نظر المدارس والجامعات الناطقة باللغة الانجليزية ، أما علم الاتنولوجيا فيدرس تاريخ نشوء الشعوب وتشكلها وهو ما يعرف بعلم السلالات المقارن ويتعرض هذا العلم في مجالات أبحاثه الى ما يتعرض له الانثروبولوجيا بمختلف فروعها التي أشرنا إليها أعلاه . يدرس علم الاتنوغرافيا السلالات البشرية وحضاراتها وثقافتها وهو العلم الذي يعرف بعلم وصف السلالات البشرية ، وأخيراً تدرس السوسولوجيا المجتمعات البشرية في العصر الصناعي وبشكل خاص المجتمعات المدنية ومواضيع الاوربانيزم .

١ - ١ الحقيقة ان موضوع صلة علم الانثروبولوجيا بعلم التاريخ شائك للغاية وذا تشعبات عديدة والسؤال الذي يطرح نفسه أولاً هو : ما وظيفة علم الانثروبولوجيا وما وظيفة علم التاريخ ؟ بعد الاطلاع على الأدب الانثروبولوجي يتبين للقارئ ان الخط العال لهذا العلم هو اغناء المعرفة البشرية بمعلومات عن الشعوب التي تفتقد بشكل خاص لتاريخ مكتوب مع الاصرار على ان لها جذوراً حضارية ذات مستوى محدد وعليه فإن الشعوب المعالج موضوعها من قبل الانثروبولوجيا هي جميع الشعوب التي عاشت وتعيش جغرافياً خارج القارة الاوربية مع استثناء دراسة الحضارات ذات البعد التاريخي التي عاشت في بلاد العالم القديم (الصين والهند وبلاد ما بين النهرين ومصر) فهذه الاخيرة هي من صلب موضوع الدراسات التاريخية والتاريخ الحضاري ، هذا وقد ساهمت الاتنولوجيا بمنهجها

التاريخي بإيضاح مسائل تشكل الشعوب الأوروبية وحضاراتها .

هل الوظيفة التقليدية لعلم التاريخ هي فقط استعراض تقييمي لما سجل حق
يومنا هذا في الوثائق التي ندعوها بالوثائق التاريخية وللمعلومات التي يمكن لعلم
الأثر أن يفيد بها علم التاريخ ؟

لقد ورد في الكتاب المترجم الى العربية والذي يحمل عنوان
الانثروبولوجيا البنيوية (١) ماييلي : (ولكن التوازي المنهجي الذي يراد رسمه
بين الانتوغرافيا والتاريخ لمقارنتها هو تواز وهمي : ذلك أن الانتوغرافي يجمع
الوثائق ويقدمها (اذا كان انتوغرافيا جيداً) وفقاً لمقتضيات المؤرخ ذاتها .
وانما يقوم دور المؤرخ على استخدام هذه الاعمال ، عندما تسمح له بذلك
ملاحظات موزعة على فترة زمنية كافية ، ويقوم دور الانتولوجي على
استخدامها ، عندما تيسر له ذلك ملاحظات من الطراز نفسه ، تتناول عدداً
كافياً من المناطق المختلفة في جميع الحالات ، يضع الانتوغرافي وثائق يمكن ان
تفيد المؤرخ . واذا وجدت قبل ذلك بعض الوثائق واختار الانتوغرافي دمج
خلاصتها في دراسته افلا ينبغي على المؤرخ - شريطة اتباع الانتوغرافي ، بالطبع ،
منهجاً تاريخياً جيداً - ان يحسده على مزية كتابة تاريخ مجتمع يملك
عنه تجربة معاشه ؟

يؤول النقاش ، اذاً ، الى العلاقات بين التاريخ والانتولوجيا بمعناها الضيق
ونحن سنثبت ان الفرق الاساسي بينهما ليس فرقاً في الموضوع ولا في الهدف ولا
في المنهج ، ولكنها (باعتبار أن موضوعها واحد ، هو الحياة الاجتماعية وهدفها
واحد ، هو فهم الإنسان فهماً ممتازاً ، ومنهجها يتغير فيه تقدير طرق

١ - ص ٣٦ من كتاب الانثروبولوجيا البنيوية لمؤلفه كلود ليفي ستروس ترجمة
د. مصطفى صالح ، دمشق ١٩٧٧ (حفاظاً على العلمية فقد اوردت الاستشهاد
بجرفيته) .

البحث فقط - يتميزان على نحو خاص باختيار الآفاق المتعة .

١ - ٢ (ترتبط العلوم الانثروبولوجية بعلاقات وثيقة مع بقية العلوم الأخرى فمنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر تقوم علاقات وثيقة بين علم الآثار باختصاصاته في ما قبل التاريخ والتاريخ القديم والتاريخ المبكر وبينها ، والهدف من تلك العلاقات إعادة النظر في تقييم المفاهيم حول التطور الحضاري من البدايات الدنيا وحتى بدايات التاريخ الموثق بمصادر مكتوبة ، وعليه فإن علم الآثار بخاصيته المبنية على البعد الأفقي الواسع للتطور الانساني يزودنا بإمكانية تصور لموضوع الانتشار المتقدم للحضارة البشرية (٢) وبكلمة اوضح نستطيع القول إن علم الآثار يفيدنا بالمعلومات حول ما طمر تحت التراب من حضارة بشرية وبالمقابل يزودنا علم الانثروبولوجيا بالمعارف المتعلقة بالحضارة البشرية التي مازالت تعيش فوق التراب ، ولاشك أن علم التاريخ سوف يعتمد على العلمين في نتائج أبحاثها لا بالضرورة اعتماد طريقتيها المنهجية . (ينتج عن العمل المشترك بين علم الآثار وعلم الانثروبولوجيا البرهان على استمرارية التطور الحضاري لمنطقة محددة جغرافياً وبالتالي الوصول الى اساس متين يعتمد في البحث عن التاريخ الاثني والسلافي) (٣) كذلك الحال بالنسبة لعلم اللغات المقارن والوثائق التاريخية التي يدور موضوعها حول وصف الشعوب قديماً ، فهذه العناصر سوف تعتمد من قبل الانثروبولوجيا للوصول إلى فهم افضل للديناميكية الحضارية الحاضرة . ولإعادة فهم التاريخ المكتوب نفسه من جديد . وتنعكس علاقة الانثروبولوجيا ببقية العلوم وخاصة بالتاريخ على مدى ما أكملت به مادتها او على مدى السرعة

٢ - ص ١٦ / من كتاب Voelkenkunde Puen Teder mann leipzig 1967

٣ - ص ١٦ / نفس المصدر السابق

التي تحتاجها إلى اكمالها ، وحيث ان علوماً مثل علم تاريخ الاقتصاد وعلم تاريخ الفن وعلم تاريخ القانون كانت قد نشأت قبل ظهور علم الانثروبولوجيا الا ان تلك العلوم تراجعت عن بعض مواقفها بسبب استشهادها بالمعلومات الجديدة التي وفرها لها كل من العلمين الجديدين (الانثروبولوجيا) و (السوسولوجيا) وعلى كل حال يبدو وكأن الانثروبولوجيا قد تمكنت من الوصول إلى بناء قاعدة متينة ادت بدورها إلى فهم أفضل للبنية الاجتماعية للشعوب والحضارات كما ادت بالتالي إلى توفير امكانية اعادة كتابة وفهم أفضل للتاريخ المكتوب حتى الان .

١ - ٣ ورد في كتاب علم الشعوب لكل انسان (Voelkenkunde fuer Teder mann)

(٤) الذي صدر في لايبزغ عام ١٩٦٧ عن علم الشعوب ، مقطع يدور حول تطور المعرفة البشرية ونظراً لاهميته بالنسبة لموضوعنا لذا ارتأيت ترجمة بعض ماورد فيه (اذا عدنا قليلاً إلى الوراء نجد ان التاريخ يفيدنا بوجود علاقات بين سكان البلاد المختلفة فمن خلال العلاقات التجارية والغزوات الحربية والهجرات تم الاتصال بين ممثلي الشعوب المختلفة بعضهم مع بعض ، وتعلم كل منهم أساليب معيشة الآخر وقد وثقت شعوب عرفت الادب موضوع علاقاتها مع الشعوب الأخرى ، منها التي كانت تعرف الكتابة ومنها التي كانت تجهلها . . . ونتيجة للتطور التاريخي العالمي في القرن الماضي فقد احتكت الثقافات وتبدلت المعرفة ، وبعدها ان تم الكشف من خلال أعمال التنقيبات الاثرية عن الوثائق الكتابية القديمة وجرى سبر محتواها وترجمتها إلى اللغات الحية ، ازدادت معرفتنا عن الشعوب واصبحت تلك المعلومات الأساس والمنطلق للكثير من تحليلاتنا حول تاريخ وحضارات وشعوب الأرض

واللوحات الطينية المكتشفة في تل العمارنة والمشهورة برسائل تل العمارنة

او تلك المكتشفة في بوغا سكوى (آسيا الصغرى) والمعروفة بارشيف الملوك
الحثيين افادتنا بالكثير عن الشعوب والحضارات التي عاشت قبل الميلاد واصبحت
تعتمد ركيزة للبحث في تاريخ وحضارات الشعوب عند بداية الكتابة (٥)
وبالطبع فإن اكتشاف ارشيف ايبلا الذي يعد حوالي ١٥ ألف رقيم طيني
مكتوب سيقرب الموازين بالنسبة لاعادة كتابة تاريخ سوريا ومعرفة الشعوب
واللغات في زمن تسجيلها (الألف الثالث ق . م) .

١ - ٤ صلة علوم الانثروبولوجيا بمجموعة علوم اثار ما قبل التاريخ
وبالايونتولوجيا هي صلة وثيقة جداً ، فمن المعروف ان الحضارات البدائية التي
اصطدم بها الاوربيون الغزاة عند بداية الاستعمار كانت قد صنفت من قبل العلماء
الانثروبولوجيين طبقاً لنفس النظام المتبع في تصنيف الاثار التي عثر عليها تحت
التراب والتي تمثل حضارات العصور الحجرية وما قبل التاريخ . ومن الجدير بالذكر
هنا القول بأن أعمق سوية حضارية صنف على اساسها حضارات شعوب بدائية
معزولة جغرافياً حتى اليوم هي سوية العصر الحجري الوسيط ، وهكذا فإن
كتابة تاريخ ما قبل التاريخ لشعوب بدائية انقرضت هي وحضارتها (مع
مراعاة الاستمرارية) الى مراحل لاحقة اول شعوب بدائية حافظت على حضارتها
نظراً لاسباب تأتي في مقدمتها العزلة الجغرافية ، اعتمدت نفس الطريقة المنهجية
في التصنيف الحجري للحضارات الابتدائية ونفس النظام العلمي التطوري .
وعليه فقد أثرت تلك الطريقة بالتالي على أسلوب البحث والطرائق العلمية
المستخدمة في الدراسات الانثروبولوجية .

كذلك الحال بالنسبة لكتابة التاريخ السلافي والعربي فإن الابحاث

الحديثة المتعلقة بالتطور السريع لعلم الباليونتولوجيا سوف تؤثر تأثيراً ملحوظاً على علم التاريخ وسوف يسبب تراكم المعلومات الجديدة التي أفادنا بها هذا العلم الجديد الأخذ بمزيد من الحذر عند كتابة تاريخ الإنسان القديم .

١ - ٥ توضحت صلة علم الاتنولوجيا بعلم التاريخ و التاريخ القديم عندما انجز فريتز هنزيل كتابه (مسائل البحث في ما قبل تشكل الشعوب) وذلك في عام ١٩٤٠ (٦) .

يعزو هنزيل تطوير طرائف البحث في أمور وصلات الاتنولوجيا مع علم ما قبل التاريخ الى البروفسور ريتشارد موكي ، وقد حدد مار كوفيتش الذي تعرف على أعمال ونظرية موكي بعد وفاة الأخير بعدة سنوات ، طريقة موكي بمايلي :
اعتماد كلي على البحث في الحياة البدائية للشعوب وتحديد اتجاه الهدف بدقة وتعتمد نظرية موكي على بندين الاول : نظرية العلاقات المشتركة للإنسان وهي مبنية على تطور شكل القوم والعائلة في ما قبل التاريخ . ثانياً : التاريخ القديم للزراعة والرعي وضمننا تاريخ الحرف اليدوية ، ترتبط النظريتان إحداهما بالأخرى ارتباطاً وثيقاً وتوضحان من منطلقها الابتدائي الموحد موضوع تشعب اشكال الظواهر الاجتماعية والاقتصادية ، كما وتعتمدان على ملامح الظواهر الاتنوغرافية وقد أدى عرض هاتين النظريتين الى ظهور كتاب مسألة القرابة بين الشعوب الذي صدر في (غرايفسفالد) عام ١٩٠٥ وبالتالي ولد العلم الجديد ألا وهو علم اتنولوجيا ما قبل التاريخ ، وانطلق باستقلالية بعيداً عن استخدام ماعرضته بقية العلوم من نظريات حول مسائل التاريخ القديم وماضي الشعوب والقبائل وذلك بغية إعادة كتابة التاريخ وبغية حل مسائل موضوعها نشوء الشعوب

Probleme der - Vor - Voelker Forschung

٦ - اسم الكتاب

F. Haensell . Frank furt - main - wien 1955

والقراية بين الشعوب وغيرها (٧) .

يعتبر هنزيل الاختلاف في ظواهر الشعوب موضوع أساس البحث في اتنولوجيا ما قبل التاريخ وعلى الرغم من اشتراك الاتنولوجيا مع بقية فروع العلوم الانسانية بموضوع البحث الاساسي إلا انها تختلف عنهم باتباع منهج خاص وبالانقياد إلى البحث من خلال الاطار التاريخي للعناصر المعالجة وقد ادت ابحاث هنزيل الى معالجة مسائل معقدة مثل نشوء القبائل ، والبنية الاجتماعية المتعلقة بنظام القراية تبعا للأمم ، ونشوء الاقتصاد القبلي والاشكال البدائية لاقتصاد ما قبل التاريخ ، ونشوء اللغات وموضوع الاختلاف الاثني عند نشأة الشعوب ومسألة الشعب والعرق وصلة الاتنولوجيا بعلم آثار ما قبل التاريخ وغيرها .

١ - ٦ تماثل صلة علم الاتنوغرافيا بعلم التاريخ صلة علم الفولكلور او كما يدعوه الالمان بعلم الشعب (فولكس كونده) هو علم التراث الشفوي والمادي لشعب واحد يعيش ضمن منطقة جغرافية واحدة والاختلاف بين الاتنوغرافيا والفولكس كونده هو اختلاف فقط من ناحية توجيه البحث إلى الشعب الذي يعيش فيه الباحث (في حالة الفولكس كونده) أو توجيهه إلى الشعوب الاجنبية (في حالة علم الاتنوغرافيا) الا ان كلا من العلمين يشتركان في استخدام نفس المنهج الميداني وعليه فإن الفولكس كونده في ابحاثها المتعلقة بموضوع دراسة العناصر الثقافية الشفوية والمادية هي في الوقت ذاته علم تاريخ الحياة الثقافية والاقتصادية لشعب ما في حاضره و (بالمقارنة) في ماضيه .

٢ - بناء على ماورد اعلاه يمكننا أن نخلص إلى النقاط التالية :

١ - علم الانثروبولوجيا بفروعه الثلاثة (الانثروبولوجيا الثقافية والانثروبولوجيا الاجتماعية والانثروبولوجيا الاقتصادية) هو علم جديد يتصف بالمنهج

الميداني ويعتبر المعطيات التاريخية جانباً ثانوياً يمكن أن تفيد في توضيح الخلفية والبعد الزمني لمواضيع البحث .

٢ - علم الاتنولوجيا هو علم يقوم بدور الوسيط بين المعطيات التاريخية واللغوية من جهة والمعطيات الاتنوغرافية من جهة أخرى ، وينبغي حل المسائل الاثنية الفامضة مع اعتماد مناهج متفاوتة وطبقاً لموضوع البحث .

٣ - علم الاتنوغرافيا هو علم وصفي يستخدم المعطيات التاريخية لإكمال وصف العناصر الثقافية المبحوثة مع اعتماد المنهج الميداني في البحث .

٤ - علم السوسولوجيا هو علم الاجتماع بحرفية الكلمة ويعتمد على المعطيات التاريخية الاتنولوجية والاتنوغرافية كبعد زمني مع الاصرار على اعتماد المنهج الميداني فقط في أبحاثه .

٥ - يعتمد علم التاريخ على جميع المعطيات العلمية التي تنتج عن أبحاث العلوم المنوه عنها أعلاه .

٦ - تعتبر المعلومات العلمية التاريخية الناتجة عن أبحاث علم آثار ما قبل التاريخ مفيدة جداً بالنسبة للعلوم الانثروبولوجية .

٧ - تعتبر الاتنولوجيا من أقرب العلوم الانثروبولوجية إلى علم التاريخ لسبب اعتماد المنهج التاريخي المقارن والواحد في البحث

٨ - ان الاختلاف في اعتماد المنهج الواحد في البحث العلمي بين كل من علم التاريخ وعلوم الانثروبولوجيا يمكن أن يؤدي إلى تناقض في علاقة الكم والكيف للنتائج المستخلصة عن بحث موضوع واحد .

٩ - لا شك ان المعلومات الناتجة عن الأبحاث الانثروبولوجية يمكن ان تكون مميّزاً محترماً لعملية إعادة كتابة تاريخ منطقة ما .

١٠- من أفضل الامثلة عن العلاقة الوثيقة بين التاريخ والانثروبولوجيا هو ظهور كل من المدرستين الانثروبولوجيتين (المدرسة الثقافية التاريخية الألمانية (٨) ومدرسة التاريخ الثقافي الأمريكية (٩) .

للبحث صلة

ماجد الموصلبي



Die Kulturhistorische - Schule

٨ - تدعى هذه المدرسة باللغة الألمانية

٩ - تدعى هذه المدرسة بـ History Of Cuerure وتنسب الى مؤسسها فرانز بواس

لذا تعرف بـ Boas Schule

حمص

فلعنهما أسوارها القديمة - أبوابها

لقدوة الأساقفة

محمد الشاطر - منذر خمودي

عندما حاولنا البدء بكتابة تاريخ حصص برزت أمامنا عدة صعوبات واقعة ، أهمها ان ما كتب عن حصص قديماً وحديثاً من القلة والتبعثر بحيث لا يساعد على كتابة أبحاث منظمة مختصة . وأيضاً فإن الآثار القديمة قد زالت أو ازيل معظمها . فاجتمعت عليها قلة الكلام وكثرة النسيان ، وكلما مرت الايام على هذا المتوال زادت الصعوبات فما كان قائماً مفيداً اضحى اليوم في حكم المجهول يتساءل عنه الناس . وممول المهسدم مازال مستمراً وهكذا نفوس في المجهول اكثر فأكثر ، فوادي القلعة وبقايا السور في الشرق وحي الاربعين كلها الآن في طريق الزوال ، من هنا كنا في الجمعية التاريخية أمام مهمة دقيقة وعاجلة لرصد ما تبقى واستطلاع ما غاب ، ومنها بذلنا من جهد وأوتينا من عزيمة فإننا لن نبلغ المستوى المطلوب الا مثل مع حرصنا على اتباع المنهج التاريخي الصحيح ، حسبنا أننا بدأنا الرحلة ونأمل من الاخوة والزلاء المعنيين بهذا النوع من الكتابة أن يقدموا للمجلة مالمديهم من بحوث وموضوعات جديدة حول المدينة وقوابعها ليصار إلى نشرها (١) . وسنبداً بالاطصار الخارجي للمدينة (القلعة الأبواب

١ - ان مجلة البحث التاريخي تفتح صدرها لكل بحث تاريخي او ميداني يتعلق بمدينة حمص وترجو السادة الباحثين والعلماء والقراء ان يتفضلوا باهداء ملاحظاتهم وتصحيحاتهم حول ما نشر من هذه البحوث ليصار الى استدراكه في أعداد قادمة .

الأسوار) مراعين في البحث النواحي الثلاث التالية :

أ - ماورد في المصادر القديمة حول القلعة والأبواب والأسوار

ب - وصف الوضع الراهن لهذه المعالم

ج - ربط حاضر هذه المعالم بماضيها

د - ورد في فتوح الشام للواقدي (١) ص ٩٧ عن فتح حص مايلي :

وقسم الامير ابو عبيدة (٢) عسكر المسلمين أربع فرق فبعث فرقة مع المسيب بن نجبة الفزازي (٣) فنزل بهم على باب الجبل فمايلي الباب الصغير . وبعث فرقة أخرى مع المرقال هشام بن عتبة بن أبي وقاص (٤) فنزل بهم على باب الرستن وبعث فرقة أخرى مع يزيد بن ابي سفيان (٥) فنزل بهم على باب الشام ونزل الامير أبو عبيدة وخالد بن الوليد (٦) رضي الله عنها على باب الصغير والعرب قادمون هنا من بعلبك بعد فتحها .

وعلى هذا فلححص أربعة أبواب « باب الجبل - باب الصغير - باب الشام

باب الرستن » .

١ - الواقدي : محمد بن واقد السهمي من أقدم المؤرخين في الإسلام ومن أشهرهم ، ولي قضاء بغداد أيام الرشيد . فقال الزركلي وينسب إليه كتاب « فتوح الشام » وأكثره مما لاتصح نسبته إليه . توفي الواقدي عام ٢٠٧ هـ - ٨٢٣ م .

عن الأعلام ٦ / ٣١١ ط . ٤

٢ - ابو عبيدة بن الجراح : عامر بن عبد الله بن الجراح ، وهو ١ - العشرة المبشرين بالجنة توفي بعمواس قرب الرملة عام ١٨ هـ

أسد الغابة ٣ / ١٢٨

٣ - ورد اسمه في تاريخ الطبري المسيب بن نجبة « بالباء » ٤ / ٤٨٨ وفي مواضع أخرى ٤ - هشام بن عتبة بن ابي وقاص المرقال أسلم يوم الفتح ، وكان من الشجعان الابطال والفضلاء الأخيار ، شهد صفين مع علي بن ابي طالب .

أسد الغابة ٥ / ٣٧٧

٥ - يزيد بن ابي سفيان ، كان أفضل بني سفيان ، وكان يسمى يزيد الخير . من الابطال القاتحين ، توفي بطاعون عمواس سنة ١٨ هـ .

أسد الغابة ٥ / ٤٩١

٦ - خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، سيف الله ، الفاتح الكبير ، قاتل الردة وشارك في فتح العراق ، وقاد الفتح في الشام ، توفي في حص عام ٢١ هـ - ٦٤٢ م

عن الاعلام ٢ / ٢٠٠ ط ، ٤

وعن القلعة جاء في مجلة الحوليات الاثرية (٧) . ولدينا في كتاب « الرحلة الشائقة إلى مصر وسوريا » للرحالة كسار صور تمثل قلعة المدينة دون أسوارها وتبدو القلعة المذكورة في هذه الصورة على شاكلة القلاع الايوبية والمملوكية المعروفة والتي بنيت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادية والتي لدينا نماذج متعددة منها كقلاع حلب وحماة وشيزر ودمشق والتمرود وغيرها . وقد ظهرت أبراجها المربعة فوق منحدرها الذي يحيط به الخندق على اشكال منشآت قلعة حلب ، ولا شك أن هذه القلعة كانت كمدينة ملكية يقيم فيها سلطان حمص وترتفع على ماحولها بنحو ٣٢ م .

وفي نفس المصدر السابق ص ٢٧ جاء حول الاسوار والابرار مايلي :
« اما أسوارها وأبراجها فزالا ايضا ولم يبق منها الا الشالي الذي يحوي كما أسلفنا الكتابتين الاثريتين وقد انصرفت المديرية العامة للآثار والمتاحف الى ترميم هذا البرج الشالي وكشف مايحيط بالبرج المذكور من سور ، كما اكتشفت وتحتها بابا مدخلا كان ينفذ منه الى القلعة ولعل هذا الباب كان باب القلعة



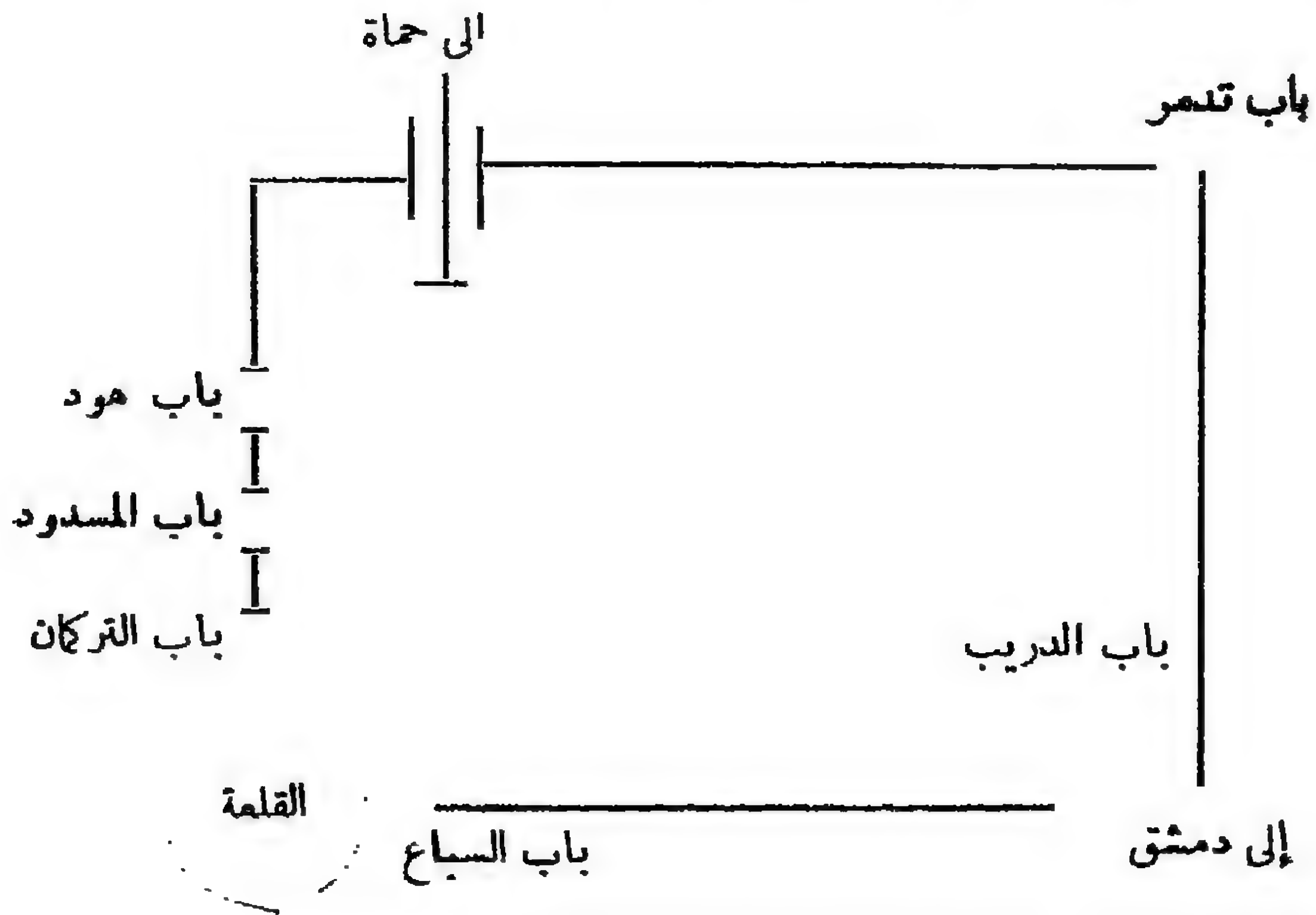
الشكل (١)

الرئيسي القديم . »

وعن تهدم المدينة واسوارها جاء في كتاب الحروب الصليبية في الآثار
السريانية للقس اسحق أرملة للسرياني ص ١٤٢ مايلي :

وفي هذه السنة ١١٥٧ حدثت زلازل شديدة أخرجت بلاداً شتى في
سوريا كحماة وسلامية وحمص وحلب وكفر طاب وأقاميا وحصن الاكراد
وعرقا وأغلب بلد انطاكية وطارابلس . وأتلفت الزلزله في شيزر أربعين الف
نسمة ، وانهار مضاف جبلها الذي تعلوه قلعتها المشهورة .

كما أن معبد اله الشمس « ايلا غابال » الذي كان الحجر الاسود موضوعاً
فيه والذي كان يعد ملاذاً مقدساً يحرم مس من يلجأ اليه بسوء وكان مكانه
موضع الجامع النوري الكبير الحالي (١) . « الحوليات الاثرية » ص ١٧ .
وقد وضع الدكتور ساطع محلي في كتابه عن حمص مخططاً للمدينة يعود
تاريخه إلى عام ١٨٠٠ م وإليك المخطط (٢) .



١ - الحوليات الاثرية ١٠ / ١٧

٢ - حمص أم الحجار للسود ، ١١٦

بعد استعراضنا ماورد في المصادر القديمة ننتقل الى البحث الميداني للقلعة

والاسوار :

تقع القلعة ضمن الحي المعروف باسم « باب السباع » وهي عبارة عن تل طبيعي حفر ماحوله ورد التراب الى القلعة فازداد حجمها وعلى ذلك يكون القسم الأدنى منها طبيعياً والاعلى اصطناعياً .

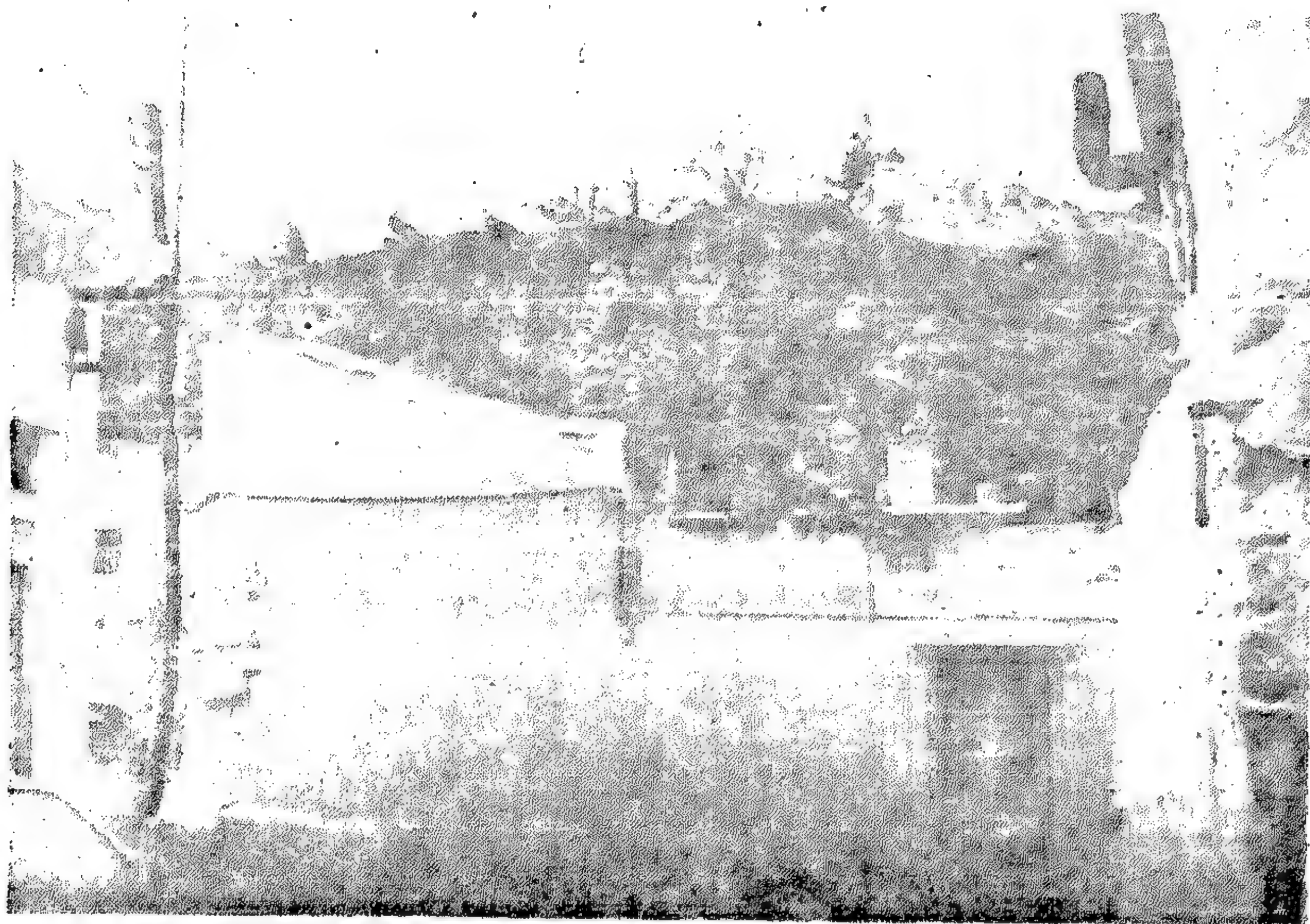


الشكل (٢)

سور حمس وخندقها في الجنوب :

فإذا وقفنا في الشرق في الشمال الغربي من حمام الفرج حالياً على الطريق الدحل
الى سوق الخشيش ونظرت الى القلعة لوجدت جداراً مبنياً من حجارة سوداء

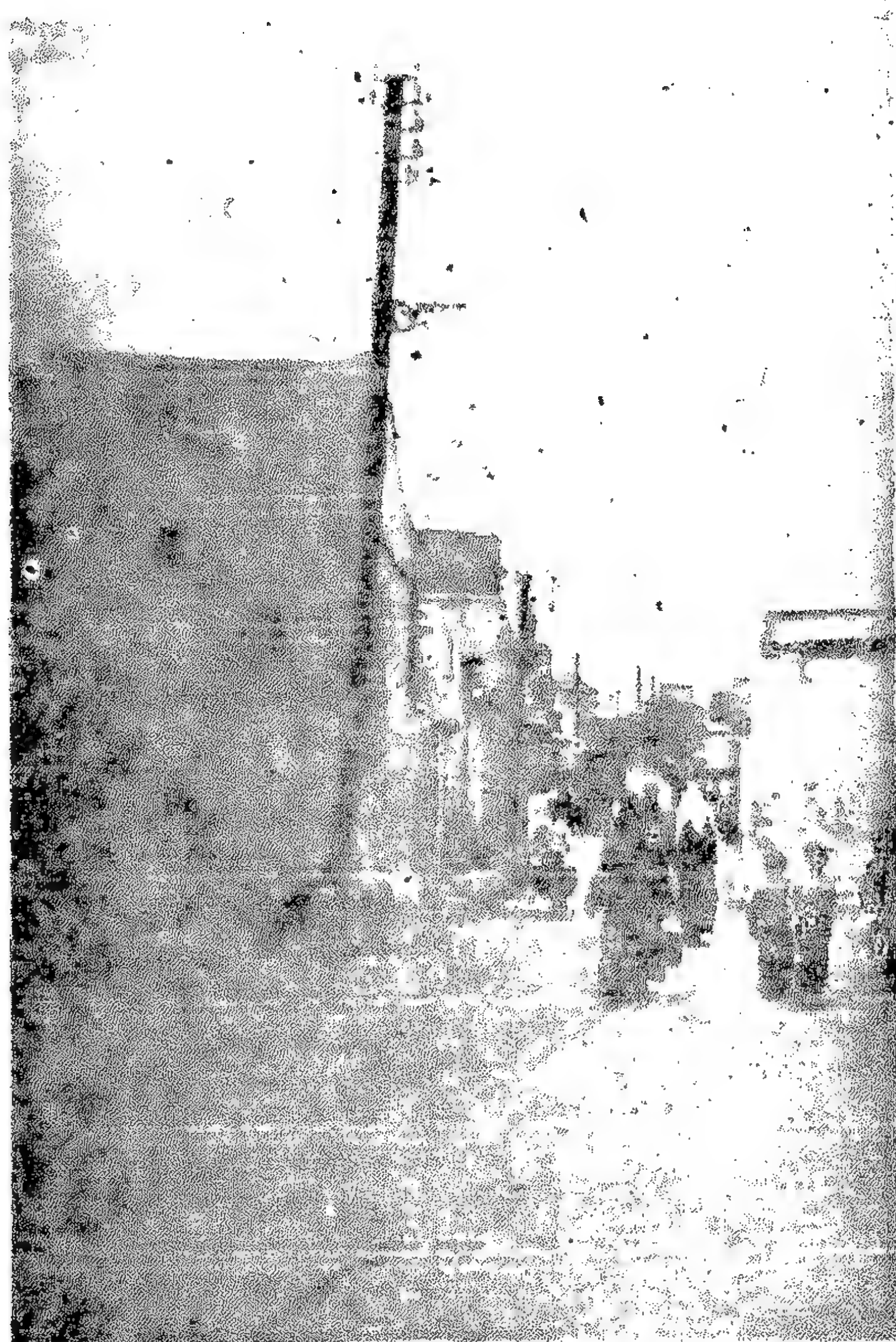
وبعضاء كبيرة هابطاً نحو الشرق ليظهر في أسفل القلعة بجدارية كبيرة مازال بعضها قائماً حتى الآن على نفس الطريق ، هذه الجدارية هي بقايا السور القديم .



الشكل (٣)

والجدارية الموجودة على الطريق هي بقايا الباب الجنوبي القديم لمدينة حمص والمعروف حالياً باسم باب السباع (انظر الشكل ٤) والقلعة كلها محاطة بخندق اصطناعي يسير ليحيط بالاسوار والابواب كلها فيحندق بالبلد من جوانبها الاربعة. فإذا ما اتجهنا من باب السباع شرقاً مقابل السور الهابط من القلعة وجدنا آثار الخندق القديم واضحاً بينما لا أثر للسور حيث تهدم واقامت مكانه الابنية المختلفة ، تظل هذه الحال قائمة حتى نصل إلى ما يعرف اليوم باسم مقام كعب الاحبار الواقع إلى الزاوية الجنوبية الشرقية للمدينة مقابل الجهة الغربية حيث نجد بقايا احجار مشابهة لتلك التي وجدناها في باب السباع وسور القلعة العلوي هي بقايا الباب الثاني أو ما يعرف اليوم باسم « باب الدريب »



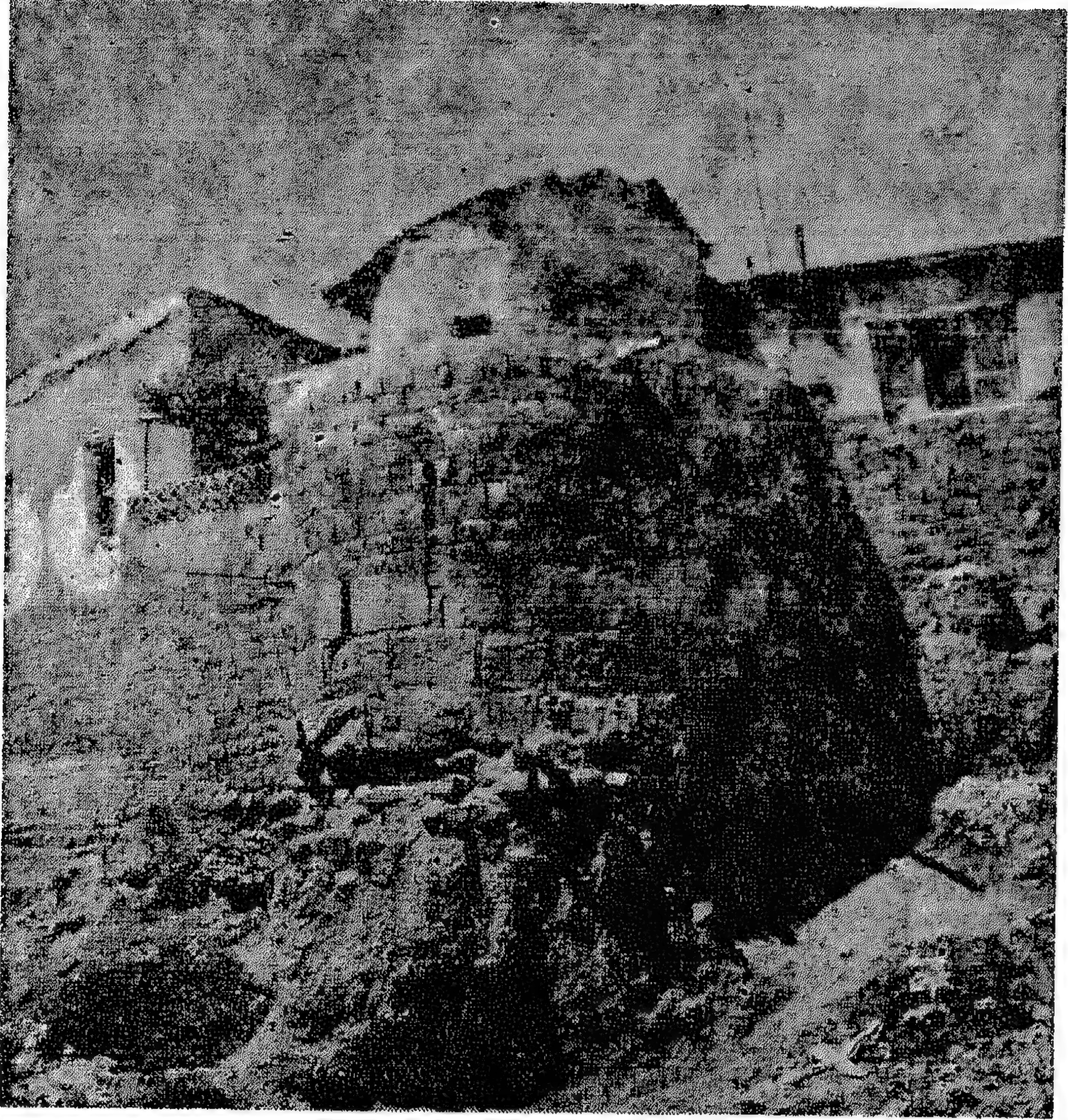


الشكل (٤)



الشكل (٥)

إلى الشمال بدأ الوضوح حالياً في كل من الخندق والسور حيث تجد بقايا السور بعرض « ١٥ م » وعلى السور مازالت بقايا بعض الابراج المبنية من حجارة



الشكل (٦)

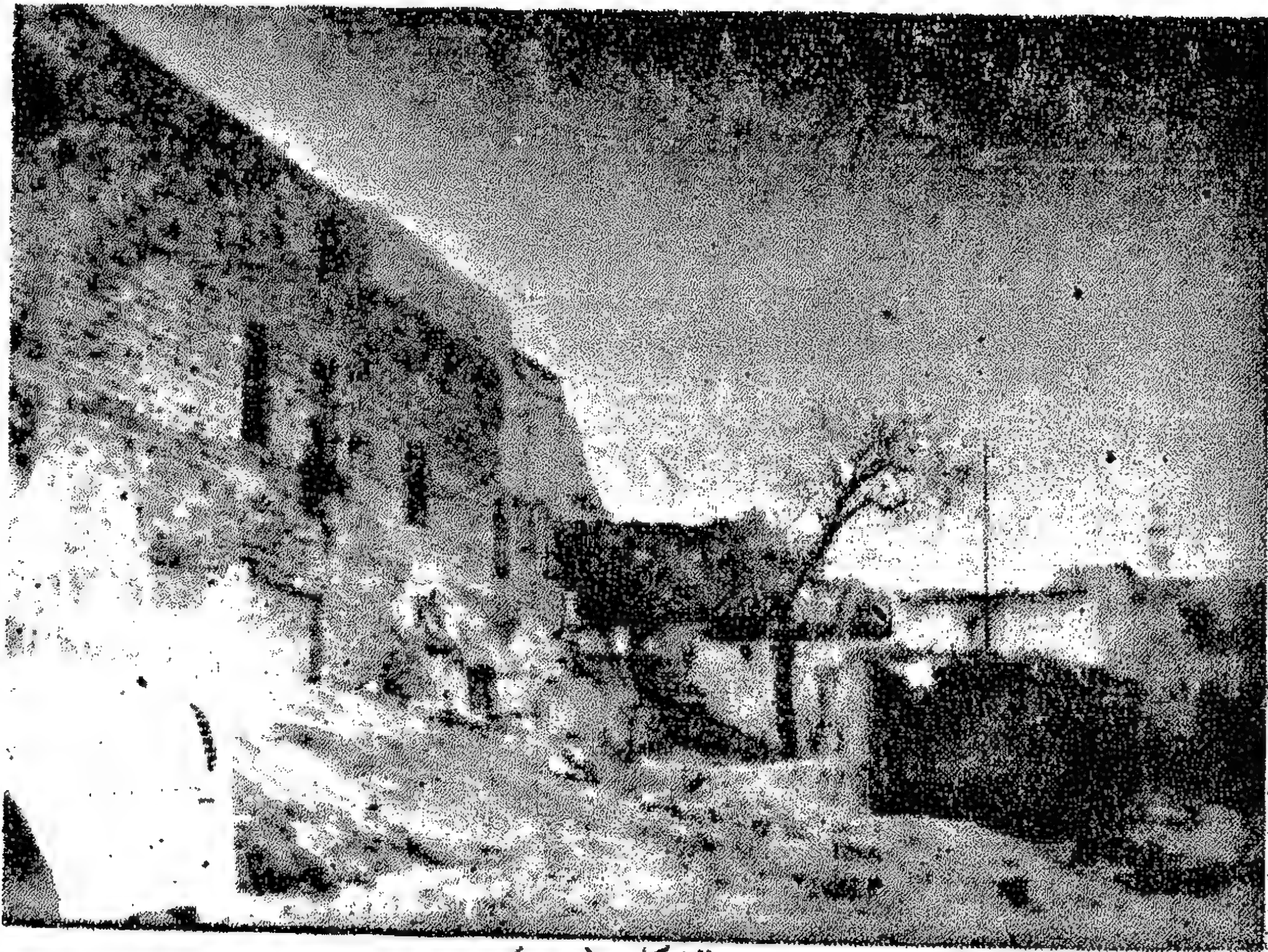
مختلفة ومتباينة بعضها مشابه لحجارة ابراج القلعة نفسها وبين البرجين القائمين الآن ومقابل اعدادية عزة الجندي يقع المكان المعروف باسم طاقه أبي جرس، ومن هذه الطاقه دخل المسلمون إلى المدينه خلال عمليه الفتح، ومن الطاقه يمكن رؤية جرس ماراليان ، حتى إذا ما وصلنا الى النهاية الشرقية لشارع الحميدية وبعد أن نسير

غرباً بطريق صاعدة قرابة عشرين متراً وعلى امتداد السور نفسه تلاحظ أيضاً بقايا احجار قائمة وملقاة على الارض هي بقايا الباب الثالث المعروف اليوم باسم « باب تدمر » وهنا يسير الخندق باتجاه الغرب حائلاً سوق الحميدية الحالي



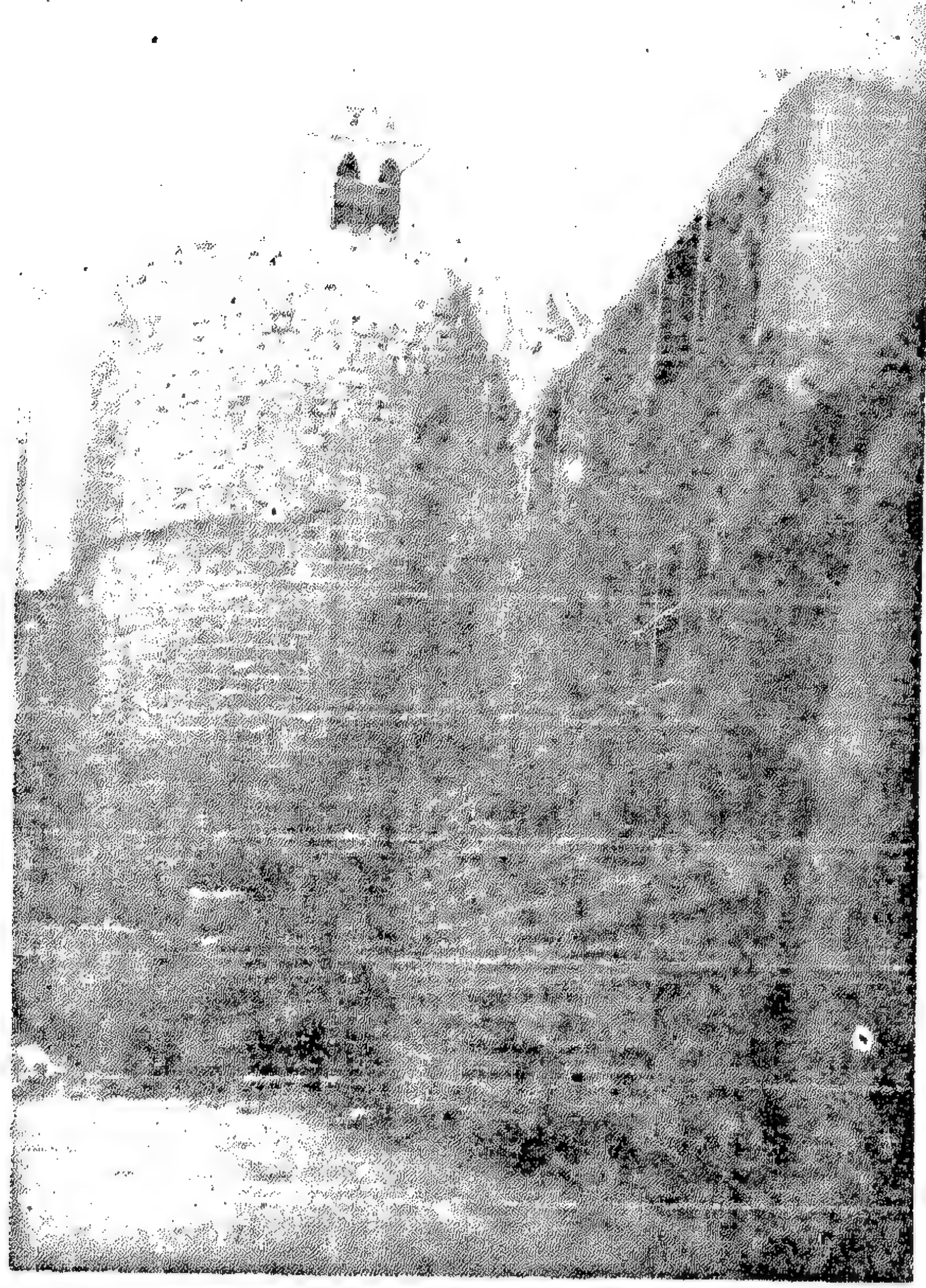
الشكل (٧)

يحاذيه خارج السور ، ولمسافة ١٠٠ م باتجاه الغرب تظهر بوضوح بقايا السور والخندق وبرج من نفس النمط الشرقي بعدها تزول معالم السور والخندق حيث



الشكل (٨)

لا تجد لها أثراً إلا في حي لأربعين خلف المجمع الحكومي الحالي حيث آثار السور
والأبراج واضحة في غرب المدينة القديمة .

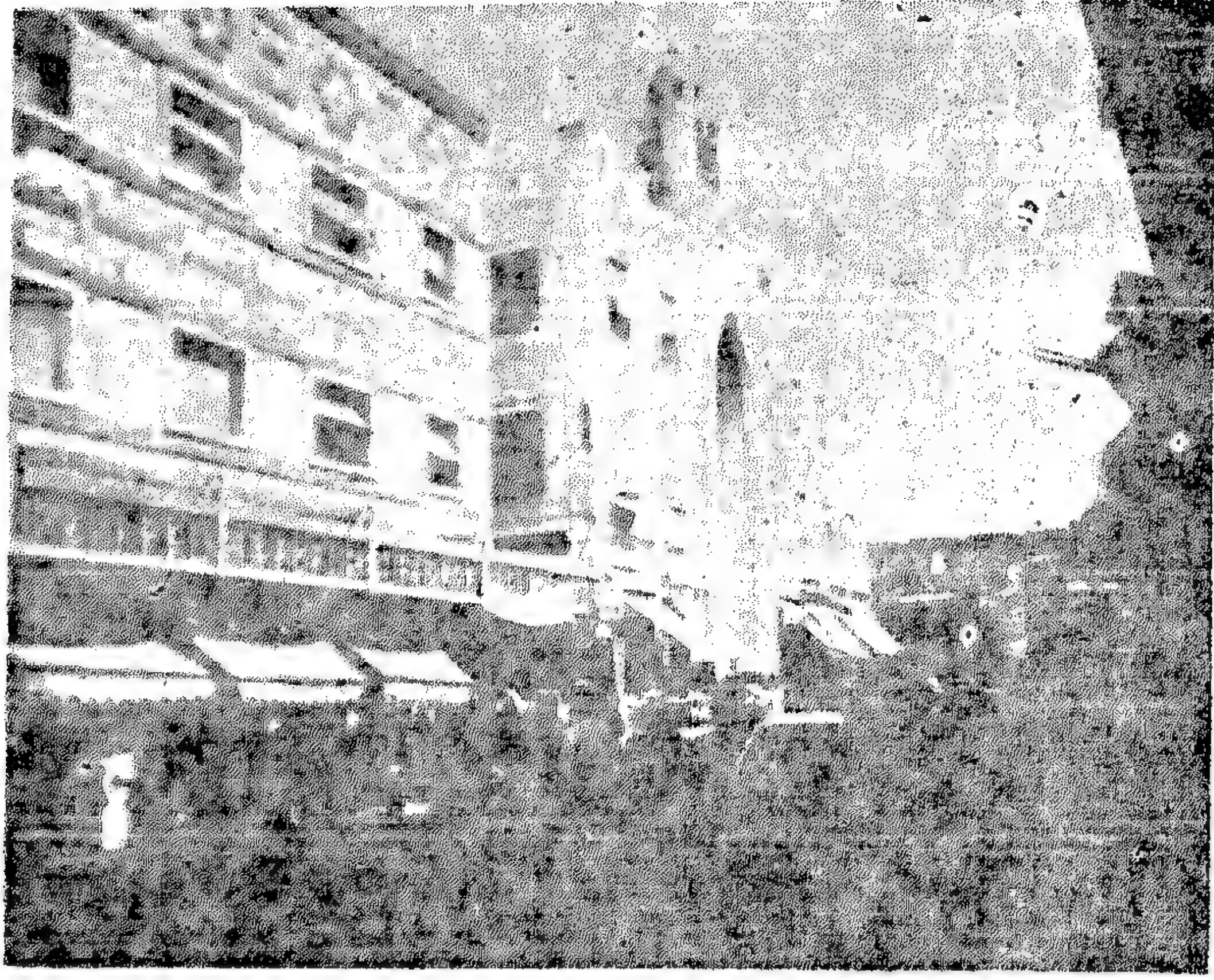


الشكل (٩)

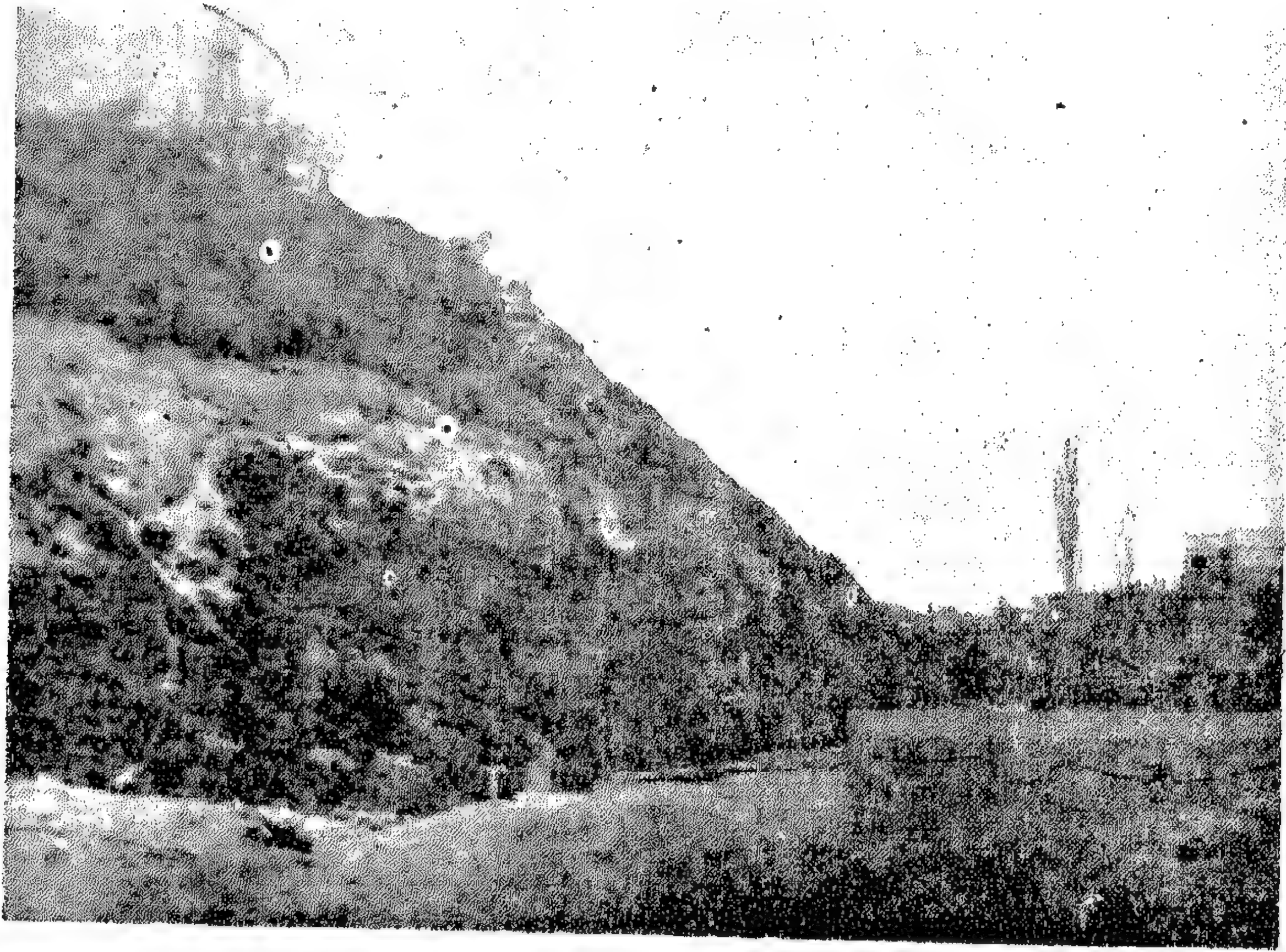
جـ - أما الباب الرابع الذي عرف باسم « باب السوق » فلا اثر له ومن
اقوال القدماء صح لدينا بانه يقع مقابل الزاوية الشمالية الغربية لبناء
الاقواق الحالي كما هو مبين في الشكل . (١٠)

وهذا الموقع يقابل السور الثاني الهابط من القلعة من الشمال ليصبح شكل
البلد مستطيلاً إذا أربعة ابواب متقابلة ومتناظرة تماماً . أنظر الشكل ١١
أما الابواب (باب التركان - باب المسدود - باب هود) فهي من الابواب

أنظر الشكل ١٢ و ١٣



الشكل (١٠)



الشكل (١١)

الملحقة غالباً في العصر الايوبي وهذه الظاهرة تجدها واضحة في الباب
المسدود القائم بشكل واضح حتى الان . اذ نجد خليطاً من أحجار متعددة غير
متجانسة مما يدل على أنها جمعت جمعاً من ابنية مهدمة . هذه الابواب تجد سورها



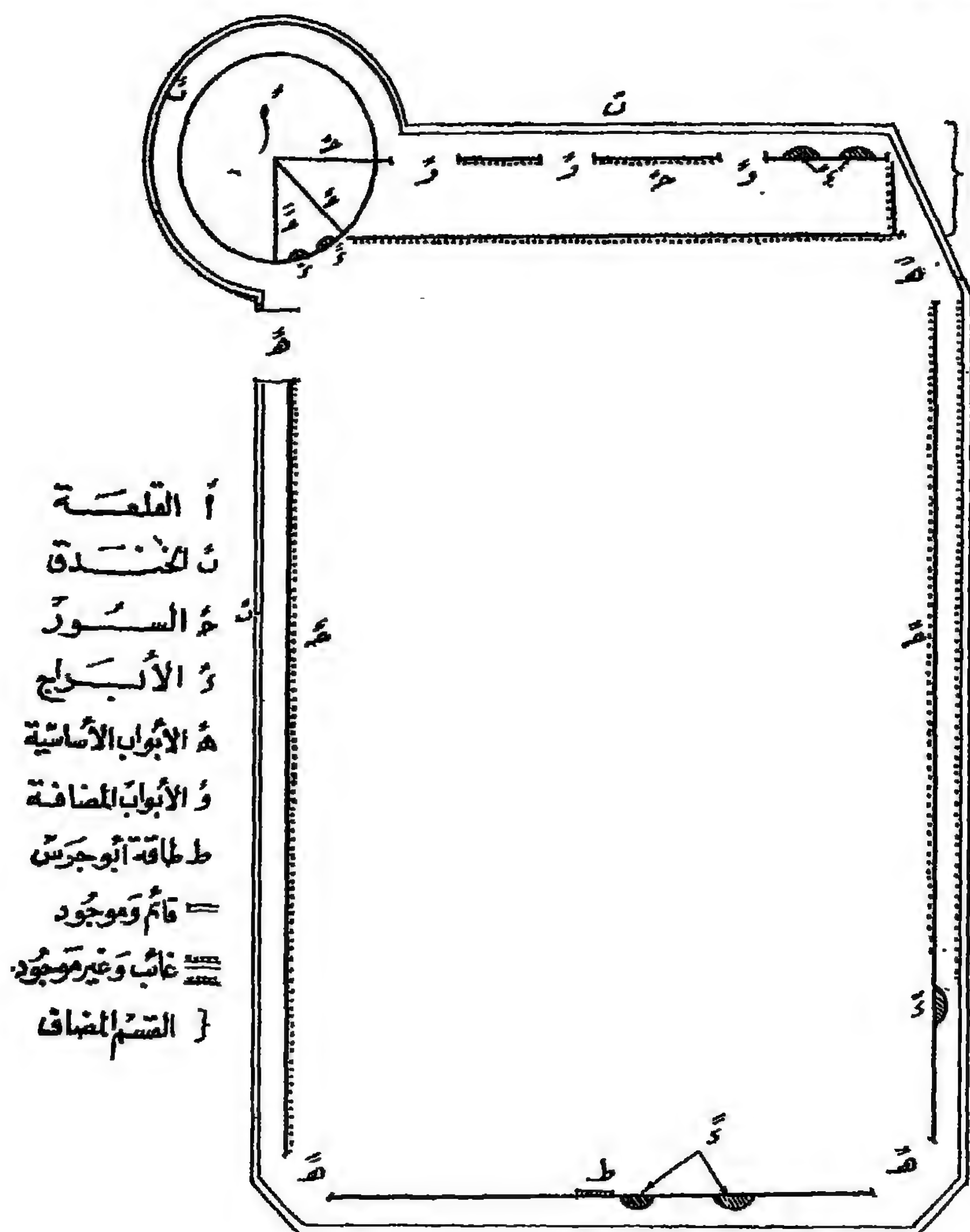
الشكل (١٢)



الشكل (١٣)

هابطاً من أعلى القلعة ليتصل بباب التريكان كما في الشكل ٧ ثم إلى الباب
المسدود لينتهي أخيراً في حي الأربعين حيث بقايا الأسوار ويمتجه شرقاً ويلتقي

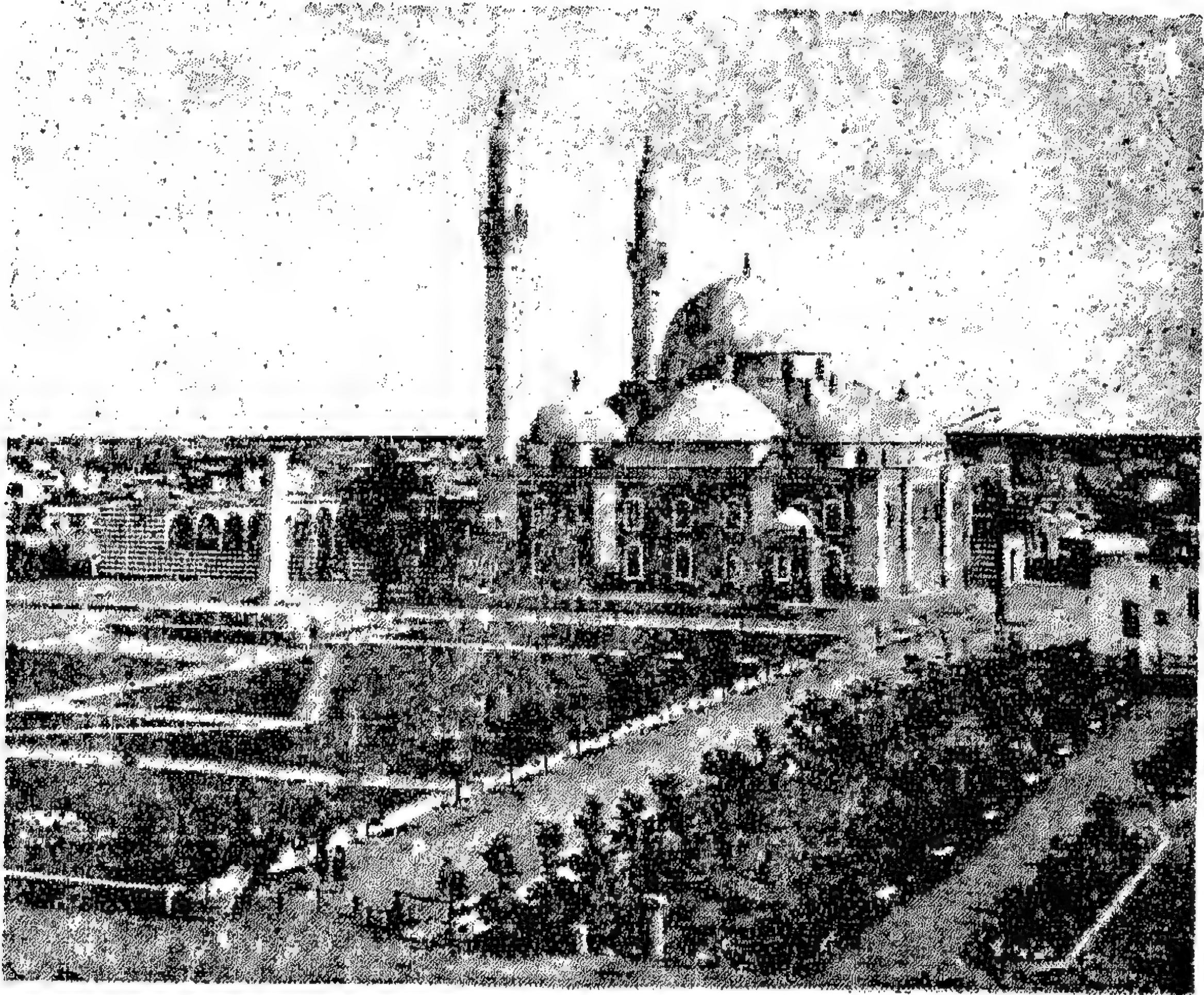
بالباب الرابع (باب السوق) كما هو مبين في الشكل ١٠ اذن هذا هو القسم الجديد و خندق باب هود هو الخندق الحالي لهذا القسم من السور . أما الخندق المحيط بالسور الاساسي من جهة الغرب فقد زال وتجد بقاياها في الارض المنخفضة او الممتدة ما بين جامع النوري ونهاية باب التركمان حيث يلتقى مسع السور الهايط من القلعة .



الوضع القائم والتكويني للسور عرض القديس وقلعها

مسجد خالد بن الوليد

للسافر يحيى البدرى



تعرف حمص (١) بمدينة بن الوليد لأن تربتها تحتضن رفات القائد العربي العظيم خالد بن الوليد الذي سنتحدث في هذه المقالة عن تاريخ المسجد المسمى باسمه وقبل أن ندخل في صلب الموضوع لابد لنا من أن نلم إلمامة سريعة بحياة

١ - مدينة قديمة يعود بناؤها الحالي إلى ما قبل ميلاد السيد المسيح بحوالي ٢٢٠٠ سنة . ذكرت قديماً بأسماء عدة (حامات - صوبات - أميا - أيمز - حومسوس) وهي المدينة الثالثة بعد دمشق وحلب ، وتقع وسط الجمهورية العربية السورية ، شرقي نهر العاصي نحو ٣ - ٤ كم وترتفع عن سطح البحر حوالي ٥٠٠ م ، وقد شغلت من تاريخ سورية مكاناً ممتازاً لما تتمتع به من ميزات ولما شهدته من أحداث .

الفاتح العظيم (١) .

هو خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي . كان من أشرف قريش في الجاهلية ، ولي أعنة الخيل ، وشهد مع مشركيهم حروب الإسلام إلى الحديبية ، وأسلم قبل فتح مكة سنة ٧ هـ ، فسر به الرسول ﷺ وولاه الخيل ، ولما ولي أبو بكر وجهه لقتال مسيلة ومن ارتد من أعراب نجد . ثم سيره إلى العراق سنة « ١٢ هـ » ففتح الحيرة وجانباً عظيماً منه . وحمله إلى الشام وجعله أمير فيها من الأمراء ، ولما ولي عمر عزله عن قيادة الجيوش بالشام وولي أبا عبيدة بن الجراح ، فلم يثن ذلك من عزمه واستمر يقاتل بين يدي أبي عبيدة إلى أن تم لها الفتح سنة « ١٤ هـ » فرحل إلى المدينة ، فدعاه عمر ليوليه فأبى . ومات بجمص في سورية وقيل بالمدينة . (٢)

وكانت وفاته عام ٢١ هـ = ٦٤٢ م . كان مظفراً خطيباً فصيحاً يشبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلقه وصفته . قال أبو بكر رضي الله عنه عجزت النساء أن يلدن مثل خالد .

تاريخ الجامع

تذكر المصادر التاريخية بأن قبر خالد بن الوليد شمله الإصلاح سنة ٦٦٢ هـ ولم يكن قبر خالد آنذاك إلا مقاماً من المقامات التي كثرت بجمص في ذلك العصر . إلا أنه لم تذكر أوصاف عن بناء هذا القبر ، واكبر الظن أنه كان

١ - اعتمدنا على كتاب الاعلام في سرد خلاصة مركزة لحياة ابن الوليد .

الاعلام ٢/ ٣٠٠ ط ٤

٢ - قال ابن الاثير في آمد الغابة ٢ / ١١١ .

وتوفي (خالد) بجمص من الشام ، وقيل بل توفي بالمدينة . وانظر أيضاً العبقريات

الإسلامية للعقاد : ٨٩٩

« هيئة التحرير »

كالمدارس والمدافن الايوبية والملوكية التي نشأت آنذاك .

وقد أدرج الظاهر بيبرس ضريحه فبنى فوقه مسجداً صغيراً ، وكان المسجد تابعاً لضاحية المدينة ، التي كانت تسمى قرية سيف الله خالد بن الوليد ، وقبعت عن حمص نحو ميل ، لكنه حالياً الى الشمال في ظاهر مدينة حمص بحى الخالدية ، نظراً للتطور العمراني الكبير الذي حظيت به المدينة .

وكان تجديد الملك الظاهر بيبرس لمقام خالد اثناء عبوره حمص للاغارة على مدينة سيس (١) وماحولها في كيليكيا . وتشير الى حادثة مرور الملك الظاهر بحمص كتابتان اثريتان هامتان ، وهما مكتوبتان بخط نسخي جميل سنأتي على ذكرهما فيما بعد .

وبعد ان كان بناؤه القديم قوياً ذا ركائز ضخمة وسقف عقد متين ، قام ناظم باشا احد ولاة الشام في عهد عبد الحميد الثاني واستحصل على مبلغ / ٦٠٠٠ / دينار عثماني اكملها بثمن الحلي التي كانت على الضريح ، وهدم البناء القديم كله وشرع بإقامة البناء الجديد على نسق جامع القسطنطينية (جامع السلطان احمد) فجاء عند ختامه في سنة ١٣٣١ هـ آية في الجدة والروعة ، وهو احدث المباني الاثرية في حمص إذ بني مكان المقام المملوكي الذي تقدم ذكره ، وقد انتهى ناظم من بناء الجامع المذكور في سنة ١٩١٢ م .

« وقد جرى تكليف عبد الحميد باشا الدروبي بالاشراف على مراحل البناء واجراء مايلزم بوصفه رئيساً للبلدية آنذاك . فأذاع الباشا الدروبي نداء

١ - سيس عاصمة أرمينيا الصغرى (كليكيا) وكانت مدينة كبيرة ذات أسوار ، وتقع على جبل وتحيط بها بساتين ونهر صغير (أبو الفداء ص ٢٥٧) هي الآن بلدة صغيرة جنوبي الاناضول .



إلى الأهالي للتبرع بالعمل والحفر ورفع الانتقاض والقبور الدارسة . فكان في كل يوم تذهب محلة (حي) من المحلات للعمل هناك بالتناوب ... وهكذا شاركت حمص بشبابها ورجالها بهذا العمل . . . ، علماً بأن رئيس البلدية وقف بنفسه مراقباً لا يترك العمال من الصباح حتى المساء إلا عندما تدعوه الضرورة للذهاب إلى مكتبه لتسيير بعض الأعمال الإدارية . وقد بنى إلى جانب المسجد تكية تقدم الخبز والحساء المزوج باللحم إلى فقراء المدينة ، ويصرف المصروف من واردات

الجامع باعتباره اغنى جامع في ذلك الوقت . وفي أوائل العشرينيات تقرر إلغاء
التكية وصرف مصروفاتها على تأسيس كلية شرعية في الجهة الشمالية من باحة
المسجد . (١)

كتابات أثرية وتاريخية

الكتابة الاولى على باب خشبي ، وهي مؤلفة من خمسة أسطر من الخط
النسخي المملوكي ونصها : « بسم الله . . . أمر بإنشائه على حرم قرية سيف الله
وصاحب رسول الله خالد بن الوليد رضي الله عنه مولانا السلطان الملك الظاهر
ركن الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة قاهر الخوارج
والمتمردين محيي العدل في العالمين مالك البحرين صاحب القبلتين خدام الحرمين
الشريفين وارث الملك سلطان العرب والعجم والترك اسكندر الزمان صاحب
القرآن بيبرس الصالحى قسم أمير المؤمنين أعز الله سلطانه عند عبوره حمص
للغزاة ببلاد سيس وذلك في شهر ذي الحجة سنة اربعة وستين وستائة » . (٢)
الكتابة الثانية على حشوة خشبية ، وهي مؤلفة من خمسة أسطر من الخط
النسخي المملوكي الجميل ونصها :

« بسم الله . . . أمر بإنشائه على ضريح سيف الله وصاحب رسول الله ﷺ
خالد بن الوليد رضي الله عنه مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين
سلطان الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين قاهر الخوارج والمتمردين محيي
العدل في العالمين ملك البحرين صاحب القبلتين خدام الحرمين الشريفين وارث

١ - تكرم الاستاذ الفاضل المؤرخ قاسم الشاغوري بمررد واعطاء هذه المعلومات ، فله
شكري واحترامي وتقديري .

٢ - عن الحوليات الاثرية السورية ١٩٦٠

الملك سلطان العرب والمعجم والترك اسكندر الزمان صاحب القرآن بيبرس الصالحي قسم أمير المؤمنين أعز الله سلطانه عند عبوره على حصص للفزاة ببلاء سيس وذلك في شهر ذي الحجة سنة اربعة وستين وستمائة . (١)

والكتابة الأثرية الأخرى ، على لوح خشبي تذكر بانتصار آخر أحرزه المماليك على الصليبيين في عهد السلطان الملك الأشرف خليل بن السلطان سيف الدين قلاوون سنة ٦٩١ هـ وتتألف هذه الكتابة من ثمانية أسطر مدرجة على لوح خشبي بالخط النسخي وهي كما يلي :

« بسم الله . . جدد هذا الشباك المبارك في هذا المشهد الخالدي رضي الله عنه في أيام مولانا السلطان الأعظم الملك الأشرف العادل المجاهد الم رابط المئاغر المظفر المنصور الهام مالك الأنام صلاح الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين ناصر الملة الحمديدية محيي الدولة العباسية ملك البحرين صاحب القبلتين ووارث الملك سلطان العرب والمعجم والترك مالك رقاب الأمم جامع فضيلتي العلم والسيف ابي الفتح خليل خلد الله سلطانه وافاض عليه الرعاية كافة عدله واحسانه ابن مولانا السلطان الشهيد المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون قدس الله روحه ونور ضريحه وذلك عند توجهه الى فتح قلعة الروم سنة احدى وتسعين وستمائة . (٢)

التابوت الاثري

ولزام علينا أن نشير الى تابوت اثري (ضريح) من الخشب المحفور ، مزين بكتابات قرآنية من الخط الثلث والخط الكوفي المعقد وذبخارف نباتية متداخلة :

« أمر بصنعه الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي سنة ٦٦٤ هـ =

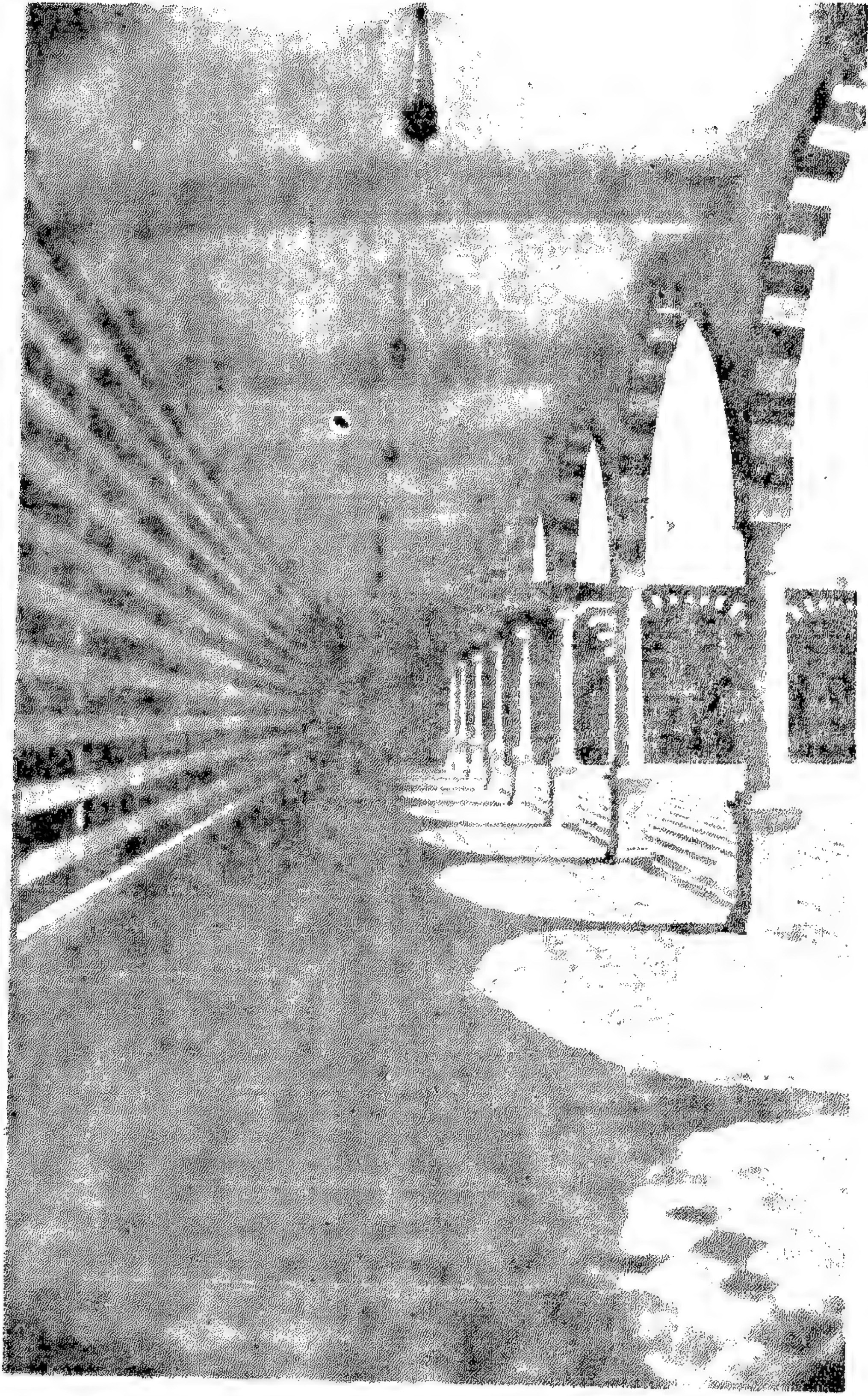
١٢٦٥/١٢٦٦م احياء لذكرى البطل الفاتح خالد بن الوليد في حمص وذلك بمناسبة انتصار المسلمين على الملكة الارمينية في كيليكيا وفتحهم مدينة سيس ، (١) .

والتابوت المذكور هو من مقتنيات المتحف الوطني بدمشق - فرع الآثار العربية الاسلامية - معروضات القسم الثاني من قاعة الخشب . وقد أصلح هذا التابوت في المعمل الفني التابع للديرية العامة للآثار والمتاحف بدمشق ، وأنقذ من التلف ويتألف شكله من مواز للمستطيلات ، وله قاعدة سفلية يقوم فوقها صف من ستة محاريب ضامرة في كل مكان من الجانبين العريضين ، وثلاثة في كل من الجانبين الضيقين وكل هذه المحاريب مملوءة بالزخارف الهندسية والنباتية البارزة ، ثم يأتي فوقها صف من الزخارف الكتابية الكوفية رفوق هذه صف آخر من الزخارف الكتابية النسخية .

مخطط الجامع

يتألف من ثلاثة مداخل ، الرئيسي منها بالوسط ، تعلوه لوحة رخامية دون عليها ما يلي :
لا اله الا الله محمد رسول الله .. هذا جامع الصحابي الشير سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه ومقامه الثابت بالتواتر ، شيد بناءه القديم السلطان الظاهر بيبرس عام ستاية وثلاثة وخمسين هجرياً ، ثم صدرت ارادة السلطان عبد الحميد الثاني العثماني عام ألف وثلاثاية وثمانية عشر بتجديد بنائه بعد هدمه وذلك بمساعي أرباب الفضل ، من ريعه الخاص واحسانات السلطان المذكور فتم بناؤه عام ألف وثلاثاية وثلاثة وستين من هجرة سيد المرسلين ﷺ وعلى اله وصحبه اجمعين ..

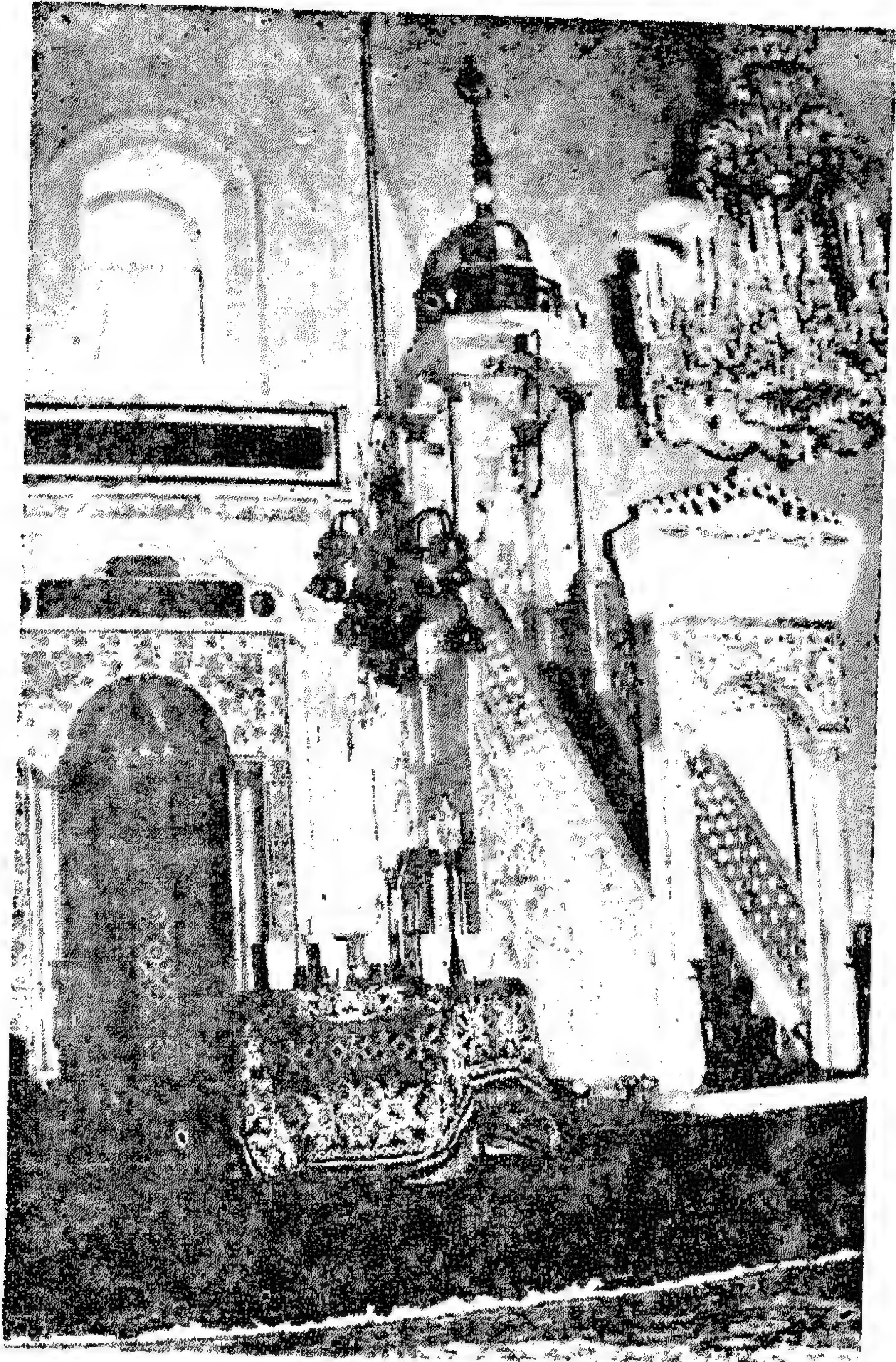
١ - عرفت هذه المعلومات من الالواح المكتوبة التي وجدت مع الضريح في مدفن خالد بن الوليد بحمص . والمحفوظة في المتحف الوطني بدمشق .



« الرواق الشرقي للمسجد »

تم بناؤه ١٣٦٣ هـ .

وشكل الحرم مربع تقريباً ٣٠×٣٠ م ، يقوم سقفه المؤلف من خمس قباب نصف كروية ، الوسطية مرتفعة وكبيرة جدا (قطرها ١٢ متراً ، وترتفع الى ٣٠ متراً) ، وأربعة انصاف بيضوية الشكل تحملها جميعاً أربع دعائم مربعة ومقواة بعضائد ، وفي صدر الحرم ثلاثة محاريب . وفي زاوية الحرم الشمالية الغربية



« المنبر والمحراب »

ضريح خالد بن الوليد « وهو على شاذلة قبة سيدنا يحيى في الجامع الاموي بدمشق » ، وفي زاوية هذا الضريح ، ضريح صغير لعبد الرحمن بن خالد ، وفي الزاوية الشمالية الشرقية ضريح ثالث لعبيد الله بن عمر بن الخطاب ، وهو عبارة عن تابوت خشبي محاط بشبك حديدي ومغطى بقماش أخضر .
اما المحراب فمرصوف بفسيفساء وخشامية ملونة بشكل هندسي ، والمنبر من

الرخام أيضاً ، زخرفته النافرة حديثة من انواع الركو كور . كما يوجد المنبر الخشبي المزخرف والمرصم من قبل المديرية العامة للآثار والمتاحف ، ويعود عهده الى أواسط العصر العثماني قبل ٢٠٠ سنة تقريباً وفي اعلاه مكتابة .

وصحن الجامع واسع ، أبعاده (٣٦ x ٤٧ متراً) يطل عليه رواقان من شماله وشرقه ، وفي الاخير غرفة استعملت مدرسة شرعية وغرفة مبخضة . وتقوم مع بناء الحرم مئذنتان رشيقتان ، ويلاحظ بأسفل البناء أحجار اثرية كبيرة الحجم استخدمت قواعد لما فوقها .

النصب التذكاري

يوجد في حديقة المسجد القريبة ، نصب تذكاري دون عليه مايلي :
«بسم الله الرحمن الرحيم - شيد هذا النصب التذكاري للصحابي الجليل خالد بن الوليد من أموال مصونة الشتاء بأمر من قيادة الجيش العربي السوري ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣ م كما دوت العبارة الماثورة المشهورة لخالد بن الوليد وهي :
لقد شهدت مائة زحف أوزهاها وما في بدني موضع شبر الا وفيه ضربة بصيف أورمية بسهم او طعنة برمح وهانذا أموت على فراشي حتف أنفي ، فلا نامت أعين الجبناء » .

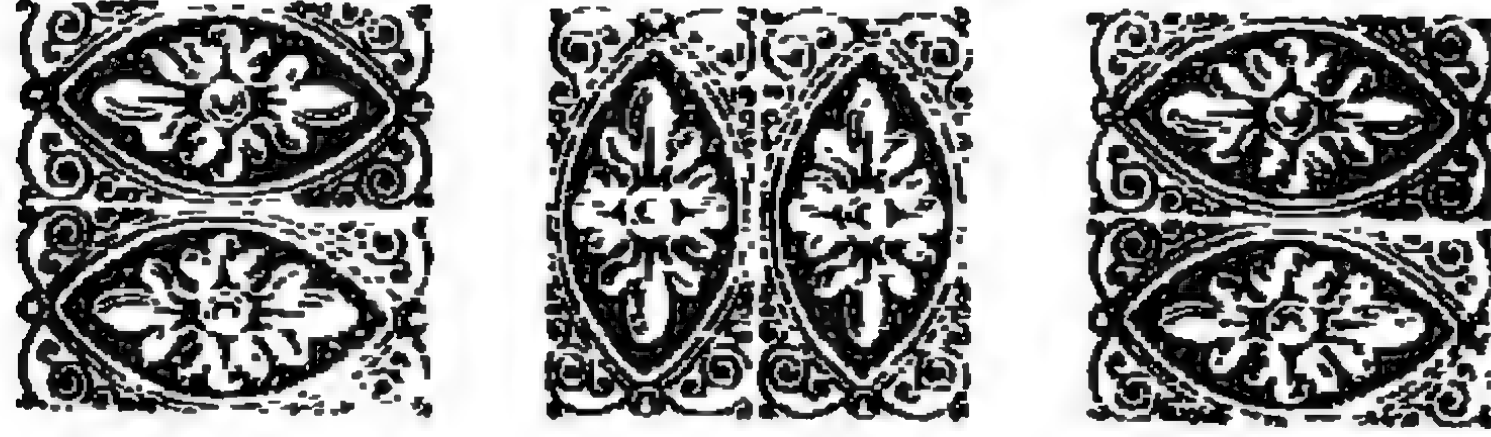
شجرة الجامع

يتمتع جامع خالد بن الوليد بشجرة واسعة بين السياح العرب والاجانب ، يحظى بزيارته كل سائح يؤم حمص عابراً أو مقيماً ، وقد زادت شهرته بموقعه الذي أصبح رئيسياً بعد ان قامت محافظة حمص سنة ١٩٦٠ برفع

المقابر الموجودة غربي الجامع وتنظيم المنطقة وتجميلها وأزال الت المرتفع القائم في
حمص الشمالي وأحالت المنطقة الى حديقة جميلة مزينة بالأشجار والزهور باتساق
فني يديع يليق بقدسية الجامع وروعته .

الاستاذ رياض البدري

مديرية آثار حمص



مصادر البحث ومراجعته

-
- ١ - أسد القابة في معرفة الصحابة - ابن الاثير
 - ٢ - الاعلام - خير الدين الزركلي - طبعة رابعة
 - ٣ - تاريخ حمص ١١٠٠ - ١١٣٥ هـ . تحقيق عمر العمر
 - ٤ - تقرير الأستاذ كامل شحادة ١٩٦٣
- دائرة آثار حماة
- ٥ - حمص أم الحجار السود - ساطع محلي
 - ٦ - الحوليات الاثرية السورية - المجلد العاشر ١٩٦٠ - المديرية العامة
للآثار والمتاحف
 - ٧ - دليل السياحة بـحمص ١٩٧٥ - ١٩٧٦ - دائرة السياحة بـحمص
 - ٨ - دليل المتحف الوطني بدمشق ١٩٦٩ . المديرية العامة للآثار والمتاحف .
 - ٩ - سيف الله خالد بن الوليد - الجنرال أكرم ترجمة العميد الركن صبحي الجابي
 - ١٠ - العبقريات الاسلامية . عباس محمود العقاد

مارغريغوريوس يوحنا أبو الفرج بن العبري

مفريان المشرق (١)

١٢٢٦ - ١٢٨٦ م

سيرة المطران ملاطوس برنابا

مطران حمص وحماة وتوابعها للسريان الاوثلوكس



فيلسوف كبير غاص في أعماق العلوم الفلسفية وعلامة لودعي ، بل مؤرخ مدقق ، وشاعر من الطراز الاول ، ولغوي محقق ومشرع له اليد الطولى في القانون الكنسي والمدني وطبيب حاذق ، وعالم في الطبيعيات والرياضيات والمساحة ، وخطيب مصقع ومحدث لبق يأخذ بمجامع القلوب ويسيطر على سامعيه ببلاغته واسلوبه الاخاذ ، ومرشد حكيم ، وعلم من اعلام الدين ، وعبقري يشار اليه بالبنان في الادارة والحكمة ، ونعني به المفريان مارغريغوريوس يوحنا ابن العبري . « ابو الفرج »

كان ابو الشماس امرون الطيب ابن توما الملطي الملقب بتاج الدين (٢) وهو حكيم زمانه من أعظم أهل عصره تقوى وورعاً وعلماً وفضلاً وهو ينحدر من

١ - مفريان المشرق ، رتبة كنسية تلي البطريرك ، وهو رئيس أساقفة المشرق

٢ - اللؤلؤ المنشور لبطريرك افرام برصوم

اسرة ملطية (١) عريقة وكانت امه ايضاً من فضليات النساء في زمانها ، وملطية منبت رهط كبير من علمائنا السريان وفلاسفتنا ومؤرخينا امثال البطريك ميخائيل الكبير ، وابن صليبي ، وسعيد ابن الصابوني ، وأخيه باسيليوس أبي غالب ، وابن وهبون وغيرهم . (٢)

وكان والده الطبيب امرون عريقاً بالمسيحية لا كما توهم بعض المستشرقين انه كان يهودياً فتنصر ، متخذعين بالاسمين امرون وابن العبري . اما اسم امرون فكان مستعملاً عند المسيحيين كثيراً حتى ان بعض الاساقفة كان يسمى - امرون - مثل البطريك ابن المديني . واما الاسم الثاني « ابن العبري » فليس دلالة على اليهودية وقد نفى هذا الظن ابن العبري نفسه في بيت شعر له مشهور ، واليك قوله عن نفسه بالسريانية ما ترجمته :

إذا كان الرب قد سمى نفسه سامرياً ، فلا غضاظة عليك اذا دعوك بـ « ابن العبري » فهذه التسمية متأية من نهر الفرات ، ولم تتخذ عن دين مشين ارفقة عبرية (٣) وقد دحض العلامة البطريك افرام برصوم (٤) الاول وهم المستشرقين هذا بمقال مستفيض نشره في مجلة الكلية الامريكية في بيروت

١ - ملطية ، مدينة في ولاية معمرة العزيز (تركيا) كانت مشهورة عظيمة مذكورة واقعة قريباً من نهر الفرات على الضفة اليمنى منه ، من امهات مدن السريان كان لهم فيها ست وخمسون كنيسة سنة ١٠٤٩ م وهي موطن نخبة من اقطاب علمائهم ، امست اليوم بليدة .

٢ - يعقوب ابن الصليبي مطران آمد ١١٧١

ابو غالب امقف جيحان ١١٧٧

ابن وهبون بطريك دخيلا ١١٩٣

البطريك ميخائيل الكبير بطريك السريان ١١٩٩

البطريك يوحنا ابن المورني ١٢٦٢

سعيد ابن الصابوني مطران ملطية

باسيليوس ابو غالب مطران ملطية ١١٢٩

٣ - ديوانه بالسريانية ص ٧١

٤ - افرام برصوم بطريك السريان الانطاكي ١٩٣٣ - ١٩٥٧

سنة ١٩٢٧ وفي مجلة الحكمة السريانية في القدس وفي كتابه اللؤلؤ المنشور (١) .
وهكذا فعل المرحوم المطران بولس بهنام (٢) . وقداسة البطريرك يعقوب .
ابصر نور الوجود في مدينة ملطية سنة ١٢٢٦ واهواه من علمت وجاهة
وثقافة وتقوى ، وسمي في المعمودية يوحنا ، فتدرج في بيئة علم ودين وادب
ونشأ منذ نعومة اظفاره على حب الفضيلة وحب العلم لنباهة وذكاء خارق تميز
بهما ، فوطد العزم على طلب العلم والادب منذ طفولته ، وراح يتلقن اصول العلم
واللغات في وطنه . وحقق طقوس الكنيسة والكتاب المقدس وشرحه
وتفاسير ائمة المسيحيين الاولين ، ثم قرأ الطب على ابيه مقتفيا اثاره فيه وهو
حكيم زمانه ، كما درس عليه ايضاً علوم الفلسفة حين اشتد ساعده في درس
المعارف البشرية .

ويحدثنا كاتب سيرته المنظومة انه كان ينتجع موارد العلم اينما كانت فيبحث
عن مهرة العلماء يأخذ عنهم ويرتاد البلدان طلباً للمعرفة فتشبه بالنحلة التي ترتاد
الازهار لتجمع الشهد (٣)

وفي سنة ١٢٤٣ رحل مع ابيه الى انطاكية وكانت نفسه تتوق الى العلا
والحياة الروحية وسيرة الكمال فانزوى في مفارة منعقدة في دير مجاور
لانطاكية ، وقضى في هذه العزلة سنة كاملة حيث هبط على نفسه الطاهرة صفاء
الايمان وزاره في منسكه هذا البطريرك اغناطيوس داود (٤) .

ولكن نفسه التواقة الى العلم لم تشبع فترك صومعته الهادئة وانتجع مع رفيق

١ - اللؤلؤ المنشور - طبعة اولى ص ٤١٢

٢ - بولس بهنام : مطران بغداد والبصرة السريان الارثوذكس

٣ - سيرته المنظومة

٤ - اغناطيوس داود : بطريرك السريان ١٢٥٢

له يدعى صليبا (١) مدينة طرابلس الشام حيث انهى دراسة الطب والبيان والمنطق على الاستاذ يعقوب النسطوري (٢) وحذق هذا العلامة من اللغات السريانية والعربية والفارسية والارمنية - وكان في جميعها من الكتاب المبرزين حتى نعت به « بحر الحكمة » ونور المشرق والمغرب ، وملك العلماء واكبر الحكماء والاب القديس ، والاب العارف بالله ، وزينة المؤلفين ، واكليل المفارئة وناج الرؤساء ودائرة معارف القرن الثالث عشر (٣) .

اسقفيتيه

ولما اشتهرت فضيلته ، وظهر علمه اختاره البطريرك أغناطيوس داود ، ورسمه اسقفاً على بلدة جوباس القريبة من ملطية في ايلول ١٢٤٦ ولم يكن قد جاوز العشرين من عمره ، فاهتم بأمور رعيته التي سعدت به ولكن لم يطل الامر به اكثر من سنة واحدة فقط ، حيث نقل إلى اسقفية لاقبين على اثر استقاله اسقفها اهلون (٤) . فكث في ابرشيته هذه الجديدة خمس سنوات يفرغ قصارى جهده في رعايتها واعلاء شأنها من النواحي العمرانية والروحية . وفي سنة ١٢٥٢ نقل الى مطرانية حلب على اثر ارتفاع باسيليوس صليبا (٥) إلى رتبة مفرانية المشرق باسم اغناطيوس ، وكان حظ حلب سعيداً بهذا المطران الهام فكث فيها زهاء اثنتي عشرة سنة كان فيها مثلاً اعلى في السهر على رعيته والاهتمام بها .

وفي سنة ١٢٥٨ حاصره ولا كومدينة حلب فخرج المطران يوحنا ابن العبري

١ - اللؤلؤ المنشور ص ٤١٣ . وصليبا المذكور هو رفيق ابن العبري ومعاهد له

٢ - يعقوب النسطوري ، استاذ المنطق سنة ١٢٤٠ م

٣ - ترجمة بقلم الاب دولباني في ديوانه المرياني

٤ - اهلون اسقف لاقبين ١٢٣٩ م وجوباس ولاقبين مدينتان مجاورتان لملطية وقد خربتتا

٥ - باسيليوس صليبا ؟

الى الفاتح المغولي يستعطفه لسكان المدينة غير ان شفاعته لم تأت بطائل لان الجند اقتحموا المدينة وانتشروا في ارجائها يعملون السيف في رقاب اهلها ، فقتل خلق كثير من المسلمين والنصارى (١) حتى ان الذين قتلوا في حلب كانوا اكثر من الذين قتلوا في بغداد (٢) .

وفي اثناء رئاسته على حلب بنى فندقاً كبيراً بجانب الكنيسة لفائدتها وقال حظوة كبرى عندهم ولا كوابسة الطب الذي كان يتفوق فيه على كثيرين من اطباء زمانه - وكانت له هبة كبرى واحترام جزيل في البلاط سواء عند رجال البلاط أو عند ملك الملوك نفسه .

اما روحه السليمة فتتجلى في كونه اخلص المودة للبطركين المتنازعين على الرئاسة في زمانه . فإن دينيسوس (٣) عنجور كان صديقاً لاسرته منذ كانت في ملطية فرعى له حرمة هذه الصداقة وبعد وفاته عاد إلى نده البطريك يوحنا بن المعدني (٤) فصار من اكثر الاساقفة تأييداً له ، وقد ادى بذلك حق شخصية ابن المعدني وقداسته وعلمه ، حتى انه رثاه عند وفاته بقصيدة ، فخلع عليه اوصافاً فائقة لا يمكن أن يصورها شاعر مالم تكن منبعثة من نفس تجيش بالالم الشديد على فقدته من جهة وتقديسه وتعظيمه من جهة اخرى فقد سماه فيها - شمس الزمان وضياء الكنيسة وعمودها وتاج الامة الرفيع (٥) .

مفريانتسه

طارت للأسقف العلامة ابن العبري شهرة واسعة في جميع أنحاء الكنيسة السريانية وذاع عبير فضله وعلمه في كل الاقطار وعرف عنه أنه مثال للراعي

١ - تاريخ الدول السرياني ص ١٠٥

٢ - نفس المصدر

٣ - دينيسوس عنجور ؟ بطريك السريان

٤ - يوحنا بن المعدني ؟ بطريك السريان

٥ - ابن العبري الشاعر للمطران بولس بهنام ص ٢٢

الديار . فوضع البطريرك ابراهيم في ركنه عنه إلى أبناء كنيسة المشرق
يصف بزيادته السابقة ، وناقبه التي ترجمته ليكون أباً عاماً للكنيسة المشرق
الأرثوذكسية . وفي هذه الأثناء قرى في ابن ابراهيم دخول البطريرك يوشع عام ١٢٦٩
فاجتمع البطريرك الجديد باساقفته في مدينة سيراكيوز (سيراكيوز) ودعا المترجم
لقريافة المشرق لما عرف عنه من الحكمة والإدارة والمنازاة العلمية والدينية
واللاهوتية ، وكانت حفلة تنصيبه في كنيسة القديس سباس وسخرها حاتم
ملك سيراكيوز وأرسله راجعاً إلى أرمينيا ، ورؤساء أساقفة الأرمن وعلمائهم
وشعب صغير منهم حضر بين الجماهير الصغيرة من شبيبا السرياني وأساقفتنا
ومطارنة معظلم ابرشياننا . وكان ذلك في ١٠ كانون الثاني سنة ١٢٦٩ . وفي
نهاية حفلة التذويب ارتقى المفريان الجديد منبر الخطابة والتي خطبة بليغة في
رئاسة الكهنوت (١)

وأول عمل جليل قام به المفريان العلامة بعد تنصيبه سعيه المشكور في توسيد
سلطة البطريرك مار اغناطيوس يشوع . فقد سافر هذا البطريرك صحبة المفريان
ابن العبري برهت من الاساقفة إلى مدينة أرزنجان من حواضر الأرمن للشول
بين يدي هؤلاء المعروف بملك الملوك . وقد سبق المفريان البطريرك إلى ملك
الملوك . وكان يستعين بطبه في السفر فيساعده الولاة والديان حتى بلغ هؤلاء
نفسه . فدخل بلاطة موقور الكرامة . ومثل بين يديه ومهد الطريق لبطريرك
القادم فاستدرك ملك الملوك أوامر ملوكية سامية لمساعدته حتى إذا ما وصل ادخله
المفريان حالاً . فسر به الملك وحادثه طويلاً وأكرم مشواه ومنحه براءة سامية ،
أردفها بكتاب آخر اثنى فيه على المفريان واطرى محامده

ومنحه براءة ذكوية ايضاً (١)

تدريسه إلى المشرق

بعد ان انهى المفريان اجازة مهمة بتأيد سلطنة بطريرك كرج ، جاءت قبشائر
بقدرمه إلى بلاد المشرق فاستبشرت بدسه فرحاً هذه الكنيسة العريقة وكانت
الموصل اول مدن العراق التي تشرنت بطلمته القدسية فلما دخلها استقبلته بأبهة
رائعة بأعيانها واشراف دولتها بسكانها من المسلمين والمسيحيين على
اختلاف طبقاتهم (٢) .

ان حظ كنيسة المشرق كان سعيداً جداً بهذا الحبر العلامة لأنها كانت منذ
عهد طويل متعطشة الى عالم جليل مثله ، ويخبرنا كاتب سيرته المنظومة ، ان
كنيسة المشرق لم تر لاهوتياً ومفسراً مثله منذ عهد سويريوس موسى ابن كيفا
المطران اللاهوتي الكبير عام « ٩٠٣ » ، اردف قائلاً ان الله الذي اثار به كنيسة
المغرب لم يرد ان يحرم كنيسة المشرق افوار تعاليمه الساطمة ، ولم تكن فئدته
خاصة بكنيسته فقط بل كانت عامة للجميع . وكانت هناك بغضاء شديدة
بين الارثوذكس والنساطرة في بلاد العراق منذ القرن السادس فازالها هذا المفريان
القديس بروحه الطيبة وسياسته الحكيمة وادارته الرشيدة (٣) .

ثم توجه الى دير مار متى فاحتفل رهبان الدير ورئيسه بتنصيبه شرعياً لرئاسة
ابرشيات المشرق حسب التقاليد القديمة المرعية في تنصيب المقارنة . وكانت
حفلة التنصيب في الدير بالغة حد الروعة والابهة ، وبعد حفلة التنصيب في دير
مار متى قفل راجعاً الى الموصل ليهتم بامور الرعية فيها فوجدها في حالة يرثى لها

١ - تاريخ كنيسة المشرق - مترجم

٢ - المصدر نفسه وابن العبري الشاعر

٣ - المصدر نفسه

من جراء الظروف القاسية التي مرت بها منذ اربع سنوات خلت فكانت سبباً في معظم نزوح أسرها الى مدينة اربيل وتوطنهم فيها وبناءهم هناك كنيسة فخمة رغماً عن حالتهم المالية الضيقة ، وكان لقدم هذا الراعي الصالح تأثير عظيم بتحسين حالة شعبه فقد طلب الى ذوي الأمر أن يخففوا عنهم فتجح في ذلك وقال حظوة معتبرة عند الجميع ويقول كاتب سيرته المنظومة : انه رفع رأسنا بعد ان أن كنا اذلاء ، ومنح المشرق الحكمة والعلم بعد ان كانت كنيسة صفراً من كل ذلك وصار تلامذته ملافتة (١) وعلماء في بلادنا ، ونشر الايمان بوهظه في مدتنا وقرانا (٢)

كان في كنيسة المشرق إبان مجدها الاول اثنتا عشرة ابرشية تخضع بإدارتها الروحية العليا لمقریان تكريت « العراق » وقد رتب هذه الابشيات في القرن السادس المقریان ماروثا في جمعه الاقليمي الذي جمعه في دير مار متى ، وحضره اساقفة المشرق الارثوذكسيون جميعاً ، ثم اضيف اليها ثلاث ابرشيات اخرى جديدة في عهد ماوروثا نفسه وذلك في بلاد فارس ، على اثر نزوح جماعات كثيرة من الرهاويين الارثوذكس الى مقاطعتي سجستان وخورسان قبلت ابرشيات المشرق الخاضعة للمقریان خمس عشرة ابرشية ، ماعدا ابرشيتي مار متى ونينوي بما فيها الموصل الخاضعتين مباشرة لمطران دير متى نفسه (٣) .

ظلت هذه الابشيات بين مد وجزر حتى القرن الثالث عشر حيث ارتقى غريغوريوس ابن العبري كرسي مفریانية الشرق فوجد بين يديه عشر ابرشيات فقط ، ولكنها كانت عامرة بكنائسها واساقفتها وكهنتها وشعبها ، وقد

١ - ملافتة : علماء - اصلها سريانية

٢ - سيرته المنظومة بقلم جبرائيل البرطلي - بالسريانية

٣ - تاريخ كنيسة المشرق ، ترجمة المقریان ماروثا

فضلها المقران ابن العبري نفسه على ابرشيات المغرب الخاضعة للبطريرك
بقوله : انني اتمتع براحة كبرى في ابرشيات المشرق ولا يعوزني شيء لكي
اهرب منها وانتقل إلى غيرها كما فعل اسلافي المرحومون ، وان كان زماننا صعباً
غير ان الراحة التي لاقتني في المشرق لم تلاق غيري .

اما هذه الابرشيات فهي : ١ - مار متى - ٢ - بيت صيدا - ٣ - بغداد
٤ - بانوهوار - ٥ - اذربيجان - ٦ - تبريز - ٧ - سنجار - ٨ - نصيبين - ٩ - الجزيرة
- ديار ربيعة - ١٠ - جزيرة ابن عمر - ١١ - اربيل

رحلاته الراحوية

لما كانت الابرشيات التي يدبرها المقران ابن العبري كبيرة وواسعة فكان
لا بد له من تمهدها بيقظة وهمة عالية ، وقد قضى أيام رئاسته متنقلاً من بلد الى
آخر يعظ ويرشد ويشجع ويبني الكنائس والاديرة ، ويؤيد المؤمنين في ايام
كانت قاسية جداً ، ولكنه كان يضيف عليها حياة بعلمه وفضله وحظوته العظمى
عند الملوك والامراء والحكام والعلماء والرؤساء ، واهم رحلاته الراحوية هي :

١ - الرحلة إلى بغداد : بعد ان نظم الامور في نينوى وابرشيات
الموصل ودير مار متى ، ونصب رسمياً في الدير التاريخي - رحل إلى بغداد
سنة ١٢٦٥ لزيارة هذه الابرشية الهامة مركز الخلافة وموطن العلوم والادب ،
وهي لازالت متأثرة بجراحها بسبب الاهوال التي نزلت بها يوم اجتاحتها المغول
بجملهم ورجلهم (١) .

فرحت بغداد بقدوم المقران العلامة ، فابتهجت الكنيسة ورفعت رأسها لتباهي
الملايكة الرئيس الجليل وخرجت لتستقبله بابهة منقطعة النظير ، كما يليق بمثله

١ - ابن العبري الشاعر - ص ٢٨

من الرجال الكبار - وثالث يتقدم المعتقبين الارخذ ياقون (١) « رئيس الشمامسة » وطريقة صالحة من اشراف السريان البغداديين وبينهم وقد معتبر من اشراف النساطرة من قبل الجاثليق (٢) ما مكيخا (٣) يتقدمه ابن أخت الجاثليق وابن أخيه ، دخل هذا المركب الفخيم للمفريان الضيف الى مكيخا الجاثليق فاستقبلته استقبالا حاراً واعجب بمواهبه وشخصيته الفذة ثم ودعه وجاء الى الكنيسة السريانية الكاثنة في باب موحول فاستقبله هناك جميع افراد شعبه بشوق واكبار وارسل الجاثليق في هذه الاثناء وقده ثانية الى الكنيسة يحمل للمفريان هديته التقليدية ، وهي حلة حريرية بيضاء فألبسوها المفريان ، فأرسل بدوره ايضاً هدايا سنية للجاثليق (٤) .

وصل المفريان بغداد في ايام الفصح فترأس الحفلات الدينية الرائعة في الكنيسة واضفى عليها جلالاً وأبهة جديدين من شخصيته العظيمة وهيبته الرائعة : فتقاطرت جموع غفيرة لمشاهدة هذه الاحتفالات الدينية المؤثرة ، وبينهم كثيرون من النساطرة الذين لم ترق لهم هذه الامور كلها خوفاً من أن يظن المفريان على جاثليقهم ولا سيما بعد ان شاهدوا ما كان عليه المفريان من الخصال العالية والمزايا الفريدة ، واخذ شعبه يعطيه حقه من المدح والاطراء اللائق بمنزلته العلمية السامية .

احتفل المفريان في خميس الفصح بتقديس الميرون (٥) في بغداد ، وحدثت

١ - الارخيد ياقون كلمة يونانية تعني رئيس الشمامسة

٢ - الجاثليق : كلمة يونانية . مرتبة رئيس اساقفة النساطرة

٣ - : مارمكيخا : جاثليق النساطرة

٤ - ابن العبري الشاعر

٥ - الميرون ، كلمة سريانية وتعني : الزيت المقدس

اعجوبة (١) بأمره بل يده يذكرها التاريخ وهذا ما رفع منزلته في أعين شعبه
وعند الخوفا الذين شاهدوا تلك الاعجوبة باعينهم فتحدثوا بها في الجرائد
والانديس .

وفي مدة المدة حاز المفريان في اوساط بعض ادمال بحر زعفران من الرؤساء المتبعين
حتى توجس النمسا طرد منه خوفاً ، فشرع الجاثليق في ملوود من بندق ، غير أن
الجاثليق توفي في هذه الايام ففسا ١٢٦٥ ، قبل ان يستطيع ان يؤذي المفريان
اقام المفريان في بندق المنصب كله يتمتع بمنزلة رفيعة جداً عند الجميع ،
فرسم هناك شامسا كثيرين ثم عاد في الى نواحي نينوى .

٣ - رحلته إلى المغرب : وفي سنة ١٢٦٥ قام المفريان برحلة إلى سورية
لزيارة اهل بعد أن رتب شؤون ابرشية ارامنة .

في الطريق لني البطريرك مترجمها إلى ملك الملوك لتقديم شكايته على
الطبيب القيسر شمعون الذي اغتصب دير مار برصوم (٢) ولكن المفريان
لم يكن يرغب في هذه الطريقة رحل ان لا يقابل البطريرك وتبع رحلته ، وفي
« سيس » « كياكبة » اصابه مرض خطير كاد يودي بحياته لولا رحمة الله
فتلقى من البطريرك رسالة رقيقة يشكر الله على شفائه ، ولما ابل المفريان زار
البطريرك في دير مار برصوم ، ثم غادر من هناك عائداً الى المشرق فحط رحاله
في تبريز فمراغة ، وكان يشتغل بتفسير كتاب « اقليدس » ثم عاد
الى نينوى .

وفي صيف عام ١٢٧٢ رحل المفريان ثانية إلى مراغة فبنى دار اسقفية

٦ - هي فيضان الزيت في اثناء تقديمه كما يذكر التاريخ .

١ - دير مار برصوم : بالقرب من مدينة ملطية على جبل

ومصلى كبيراً في بيعتها الجديد ومكث فيها سنة كاملة يشتغل بتفسير كتاب
« المجسطي » لبطلميوس .

وفي سنة ١٢٧٣ لبي طلب الطبيب القس شمعون وتوجه إلى كيليكية
فصالح امرة القس شمعون الطبيب مع البطريرك ، واصطحب معه القسيس
شمعون الطبيب وشقيقه القس يعقوب والشماس نمرود ابن أخيها ، وهربونا لهذا
الصلح رسمه البطريرك قسيساً ثم مطراناً للمطية وعاد المقريان إلى ملطية ثم نينوى
محموداً سمي .

وكانت رحلته الثانية إلى بغداد سنة ١٢٧٧ للاشراف على تجديد الكنيسة
التي كانت تبني بهمة الرئيس « صفى الدولة سليمان بن جملا » (١) بالقرب من دار
الخليفة ، وترأس أيضاً حفلات عيد القيامة في بغداد ، ورسم شمس الدولة بن
توما شماساً ومعه كثيرين من ابناء الملة وقدس ميرونا في كنيسة مار توما
الكاتدرائية في بغداد ورسم شمامسة أيضاً في كنيسة العذراء

ونال المقريان اكراماً لاثقاً بمقامه الكبير من الجاثليق النسطوري ماردنجا ،
فقبل وصوله إلى بغداد أخبر رئيس الشمامسة بذلك فأخبره الاخذ ياقون
بدوره الجاثليق ، فارسل من قبله اساقفة واشرافاً من ابناء طائفته ، فذهبوا
مع ابناء الكنيسة السريانية ووجوها لاستقبال المقريان ولما زار الجاثليق
في دار الجثقة التفت الجاثليق إلى الجمهور الغفير من السريان والنساطرة وأطرى
المقريان وقال : طوبى للشعب الذي له مثل هذا (٢)

وبعد أن بقي في بغداد الصيف كله تركها متوجهاً إلى مدينة تكريت ودخلها
في هذه السنة ١٢٧٨ بعد أن لم يدخلها مقريان منذ ست سنوات ، ففرح به

١ - وهو احد اعيان السريان في بغداد ، ووزير ؟

٢ - تاريخ كنيسة المشرق - سيرته -

أشراف تكريت وأعيانها وشعبها فوجاً لا يوصف وزار كنائسها الأثرية الفخمة
ومكث فيها شهرين يتعهد شؤون الكنيسة هناك ثم عاد إلى نينوى .

وفي سنة ١٢٧٩ رحل المقيان إلى مدينة مراغة ليتعهد شؤون كنيسة
الصغيرة ، وبعد مكوثه فيها مدة غادرها إلى تبريز في أيام الربيع لإنهاء بيعتها
الجديدة ، وهناك بلغه نبأ وفاة الملك « أباقا » المغولي وجلس ابنه على عرش
المملكة ، فسافر إليه لتهنئته فادخله وزراء المملكة ، وبعد أن قدم له آيات الدعاء
نال منه براءة سامية تؤيد رئاسته على أذربيجان وآثور وما بين النهرين .

ثم عاد إلى تبريز فأكمل بناء الكنيسة . ومن هناك عاد إلى نينوى في
أيام الصيام الكبير سنة ١٢٨٤ .

رحلته الأخيرة إلى مراغة : في سنة ١٢٨٦ وهي السنة الستون لولادته
كان يتخيل الموت يقترب إليه مسرعاً ، استناداً إلى تكهنات عليّة أبرزها أمام
أخيه الصفي ، وكان يتشائم من هذه السنة كثيراً وكان يقول بيته المشهور :
يا شبكة العالم في سنة ١٥٣٧ يونانية صادني شركك واظن اني في سنة ١٥٩٧ لن
أكون موجوداً فيك (١) .

وكانت في هذه السنة قد كثرت الفرائد والمصائب في ديار نينوى والشرق ،
وكثر اللصوص في المدن والقرى فأصر برصوم الصفي على أخيه المقيان بالسفر
إلى مراغة وكان المقيان يأبى الرحيل غير أنه اطاع رغبة أخيه وشد الرحال
إلى تبريز ثم مراغة وكانت هذه الرحلة خاتمة حياة هذا الرجل العظيم ، ففي
مدينة مراغة أنهى المقيان العلامة رسالته وذهب إلى ربه عموداً سعيه
مشكوراً فضله .

١ - السنتان يونانيتان والسنة اليونانية تبدأ عام ٣١١ ق . م

منذ ان وصل المفران المهام ارض المشرق صرف كل همته في ملء جميع الشواغر
بالاساقفة والكهنة والشمامسة فرسم لابرشياته الواسعة هدداً لا يحصى من الكهنة
والشمامسة بجميع درجاتهم (١١) ثم عاد الى هذه الابشيات فملاً كراسيها الشاغرة
بالاساقفة الاكفاء وكان ينتخبهم من افضل الرهبان واقدسهم وأوسمهم علماً
وابعدم صيناً في المقدرة وفي المواهب الروحية (٢) ، وقد رسم اثني عشر
اسقفاً لتلك الابشيات . وهم :

- ١ - اثناسيوس بهنام ابن سماعة - لابرشية بانوهورا ١٢٦٥
- ٢ - طيمثاوس يشوع لابرشية بغداد - ١٢٦٥
- ٣ - ايونيس دنحا بن حمزة - لابرشية اذربيجان - ١٢٦٥
- ٤ - يوحنا وهب - رسمه سنة ١٢٦٦ لابرشية جزيرة ابن عمر
- ٥ - سويريوس يشوع ، لابرشية اذربيجان - وتوفي عام ١٢٧٧
- ٦ - ديونيسيوس يوسف - وخلف خاله الاسقف سويريوس على ابرشية اذربيجان
- ٧ - ميخائيل نخلص - لابرشية بارمان - وهي البوازيج
- ٨ - باسيليوس ابراهيم لابرشية بيت صيدا - القريية من اربيل
- ٩ - ايونيس نعمه رسمه لابرشية باهروبايا
- ١٠ - يوحنا دنحا - رسمه اسقفاً لابرشية دير مار سرجيس في الجبل
المطشان (القاحل) .

- ١١ - ايونيس ايوب الملقان - رسم سنة ١٢٨٥ لابرشية بانوهورا

١٢ - ديوسقورس جبرائيل البرطلي : رقاد المقرين الى رتبة الاسقفية - مكافأة
لفضيلته وعلمه وتقواه - لابرشية جزيرة ابن عمر وكان شاعراً وقد نظم
سيرة استاذة المقرين شعراً ، وهي احدى مصادر هذا المقال .

علاقاته بالبطريركية :

كانت علاقاته بالبطريركية مثل كل المفارسة الذين سبقوه وكانت
البطريركية ترعى جانبه اكثر من الجميع لما كان له من المنزلة العليا في الكنيسة
عامة ، وكان غالباً ما يبدي لها النصيح والارشاد في تسيير دفة الامور وكانت
آراؤه في هذا المضمار صائبة جداً . كما حدث بينه وبين البطريرك يشوع ، ولما
توفي هذا البطريرك اقام بعض الاساقفة فيلكسينوس غرود بطريركاً بتأثير عمه
القس يعقوب الاتف الذكر سنة ١٢٨٣ - كادت الكنيسة تتخلى عن البطريرك
الجديد لمخالفته القوانين المرعية في رسامات البطارقة ، وحاول البطريرك
استمالة المقرين اليه بشق الوسائل ولكنه ابقى وبعد محاولات اخرى من القس
شمعون الطبيب وهو عم البطريرك غرود ، زاره تلميذه تاج الدولة ابن القس
شمعون وكان يحبه وطلب اليه الاعتراف بالبطريرك غرود ، فلم يشأ المقرين ان
يعيد تلميذه خائباً بل نزل عند رغبته وكتب رسالة مطولة الى البطريرك يعترف
به بعد ان انبه على تسرعه بالجلوس على الكرسي البطريركي بدون اجماع
الاساقفة والمقرين .

اعماله العمرانية :

كان عهد المقرين الهام نشاطاً متواصلاً ، وعلا دؤوباً في خدمة الكنيسة والتفكير
بمصلحتها وحاجاتها ، ولم يكن محباً للمال بل كان يستخدمه لخير رعيته ، حدثنا
أخوه الصيفي عنه قال : اني لم اراه اربعين سنة يتناول درهماً او فلساً بيده . ولما كان
يقدم المؤمنون له شيئاً للبركة كانوا يلحون عليه ان يأخذ بيده فيأبى فيضمون

امامه - فيبقى هناك حتى يأتي أحد تلاميذه فيأخذه وكان بعضهم قد اعتاد وضع المال تحت فراشه عند تقبيل يديه ، وعند انتقاله من محل إلى آخر كانوا يجدون تحت الفراش ربطات كثيرة من المال ، ولما كان يجتمع لديه شيء كان يفكر في طريقة مفيدة ينفقه فيها (١) .

وقد قام بأعمال عمرانية كثيرة أقامت كنيسة فوائد كثيرة أهمها :
أنه بنى كنيسة في مراغة ، وأقام بجانبها غرفاً كثيرة وانفق عليها من جيبه الخاص ، كما اهتم بتوسيع كنيسة تبريز وملحقاتها . ودير مار يوحنا في برطلي - (الموصل) وزين الكنيسة الجديدة وبذل في سبيلها جهوداً كبيرة من أموال واللقاب .

كنيسة العذراء في بغداد التي جددت بهمة وهي الكائنة يومئذ بالقرب من دار الخلافة عام ١٢٧٤ بالاشتراك مع الوزير صفى الدولة سليمان بن جملا - أحد اعيان السريان في بغداد .

وفاته :

كان عام ١٢٨٦ عاماً قاسياً فقد اختل فيه حبل الأمن وكثر اللصوص وتكررت الفارات ، وفقد الأمن فخاف الصيغي برصوم على أخيه المفريان واقنعه بضرورة السفر إلى أذربيجان بينما كان هو يمانع بغية البقاء بين شعبه الذين احبهم واحبوه ليلقى ربه بين ظهرانيهم ولكنه استسلم إلى رغبة أخيه ورحل إلى أذربيجان وحط رحاله في مراغة . فطلب اليه فضلاء المسلمين ان يعرب تاريخه السرياني المدني لفائدتهم ففعل واتى عليه خلال شهر واحد فألبسه حلة قشبية من العربية ، وسماها « تاريخ مختصر الدول » .

١ - ذيل التاريخ الكنسي بقلم أخيه برصوم الصيغي

وفي ليلة السبت ٢٨ تموز من عام ١٢٨٦ شمر بجمي خفيفة تتفلفل بين مفاصله ، ثم زاد عليه لهيبها في أواخر الليل ، وفي صباح الأحد تألب حوله اطباء البلدة وأشاروا عليه بشرب الدواء فأبى وقال ، قد أعيا الداء عن الدواء والساعة الرهيبه قد دنت - وقبل ان تغيب شمس هذا النهار كانت شمس حياة هذا الفيلسوف الكبير والاب البار القديس تتسارع نحو المغيب فشمع الرجل العظيم بدنو الساعة وطلب قلماً ليكتب وصيته الاخيرة غير ان اقامه الطاهرة التي خطت الحكمة و الفلسفة من بشرية وروحية لم تستطع كتابة كلمة واحدة . فشمع الجميع بالخطب الجلل - واطلقوا العنان لدموعهم ، ولكن المقران القديس كان يشجعهم ويقول تشجعوا ولا تحزنوا اكثر من الراجب فاللوت ليس جديداً في العالم ، ثم دعا احد تلاميذه وأشار اليه ليكتب وصيته فشرع يقول والتليذ يكتب :

« الانسان مثل العشب ايامه كزهر الحقل هكذا تزهو مز ١٠٣ - وبعد ان انهى وصيته ، ثم ادى الاعتراف القانوني واوصى اخاه بتدبير قلايته (١) وسلمه محتوياتها . ثم نظر الى تلاميذه بايتسامة هادئة . وقال لهم : اوصيكم ان يحب بعضكم بعضاً . فالحبة ياأبنائي رباط السلام ، سأغادركم الى دار الخلود واحظى بروية الرب وادعوا لاجلكم . وهكذا انطفا مصباحه الوهاج في ٣٠ تموز عام ١٢٨٦ ريعت مراغة بالخطب الجلل وبمكته جميع المل والنحل في تلك المدينة وتالت الجموع الغفيرة لتتال بركته يتقدمهم الجاثليق ياأبالاها - وبعد ان صلى عليه جميع الكهنة واحتفلوا بدفنه احتفالاً مهيباً وضع في مذبح كينيستنا الصغيرة الذي كان يصلي فيه ويقدس كلها حضر الى مراغة - واصدر ياأبالاها الجاثليق اوامره الى جميع مسيحيي مراغة ان يتمتعوا عن العمل ويلبسوا الحداد على ركن النصرانية ونورها الساطع (٢) .

١ - غرفته الخاصة ٢ - تاريخ كنيسة المشرق سيرته

منزله ومؤلفاته :

لقد حاز المقرئان منزلة سامية عند الملوك والامراء والرؤساء والعلماء ،
وجماهير الشعب لزهده وتوفقه عن المادة وعلومه الغزيرة ومعارفه الواسعة ، وقد
اطلق عليه العلماء وفتوته بدائرة معارف القرن الثالث هجر ، وقد ترك
لنا ذخيرة روحية عظيمة من كتاباته وتأليفه القيمة التي أربت على خمسة
وثلاثين كتاباً في شتى العلوم :

وهي في تفسير كتاب الله ، «نخزן الاسرار» اللاهوت ، «منارة الاقداس
والفلسفة والطبيعات وما وراء الطبيعة والفقه والشرع» «كتاب الهدايات»
والاخلاق «الايتھون» واللغة - كتاب اللغ - والارجوزة النحوية «مدخل
النحو» قال المستشرق الاميركي ماركان سبرنكلن : «ان ابن العبري اكبر كاتب
في تاريخ الادب السرياني باجمعه فضلاً عن كونه من اعلم رجال عصره بأسره
وقد سخر لكتاب الله العزيز علمه بأسره في «نخزן الاسرار» وكل من اللاهوتي
والمؤرخ والباحث في علم الانسان وفي النفس والفيلسوف يجد ذخراً لا يحائنه
في هذا المصنف الجامع الذي ديجو رجل القرن الثالث عشر (١) وقد ألف
كتباً في الطب - وترجم كتاب الاشارات والتنبيهات لابن سينا الى السريانية .

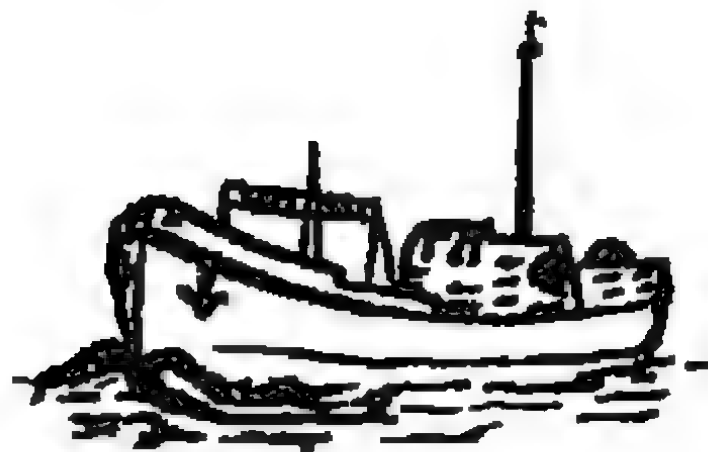
أما في التاريخ - فقد ألف اربعة مجلدات ، اثنان منها في التاريخ الكنسي
يشمل المجلد الاول تاريخ بطاركة انطاكية من عهد مار بطرس الرسول حتى
أيامه - وثانيها تاريخ جثالقة المشرق ومفارقتها من أيام القديس قوما الرسول
وختمه بترجمة مسهبه لنفسه إلى سنة وفاته اكمله اخوه الصيغي .

تاريخ الزمان : من اول الخليفة حتى سنة ١٢٨٥ ضمنه تاريخ العالم والدول

والعلماء بنغاية مايكون من من الضبط والدقة . طبعه الاب بيحان ١٨٩٠ (١)
ثم تاريخ مختصر الدول : وهو تاريخ الزمان نقله بتصرف من السريانية إلى
العربية قبيل وفاته اجابة إلى رغائب بعض علماء المسلمين في مراغة وانجزه
الاثلاث صفحات في مدة شهر واحد .

وضمنه فوائد تتعلق بعلماء العرب المسلمين نقلًا عن تواريخ عربية أورد
بعضها بنصها وفصها ، وبحث في دول الاولياء الاولين وقضاة بني اسرائيل
وملوكتهم وملوك الكلدانيين والفرس واليونان والافرنج والرومان واليونانيين
المتصرين والعرب والمغول وصفحاته ٥٢٢ طبع في بيروت ، سنة ١٨٩٠ -
وله ديوان شعر نفيس يحوي غرر القصائد في الحكم والمدح والتفريع
والفلسفة والمحبة الالهية ، والكمال الروحاني ، نشر في القدس عام ١٩٢٩ -
وكان ابن العبري يتقن اللغات السريانية والعربية واليونانية
والفارسية والارمنية .

قال في حقه البطريرك افرام برصوم بعد ترجمة ضافية : ويلذ لك في امهات
مصنفاته الفواتح المبتدعة والديباجات المشرقة التي تحمل القارىء على مطالعتها
مشغولاً بكلام خلق في أعلى سماء البلاغة ، وكلها غاص في بحر الكتاب وقعت
يده على درة بتيمة ولؤلؤة نفيسة وطرفة نادرة وانتهى باحناء مامته اجلالاً
لامير الكتاب وملك العارفين واشهر علماء السريان على الاطلاق (١)



وصف لكتاب تاريخ مختصر الدول ومقتطفات تاريخية منه

كتاب ضخيم يشمل ٥٢٢ صفحة ، طبع في المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين في بيروت سنة ١٨٩٠م وقد سبق لبعض المستشرقين ان طبعوه في أوروبا ونقلوه إلى اللغات الاجنبية ، أضاف اليه الطابع مقدمة ثم ترجمة المؤلف لانتخو من أخطاء بالنسبة إلى اعتقاد ابن العبري في تجسد السيد المسيح - وأضاف في نهاية الكتاب جدولاً بأسماء الاعلام التي وردت في متن الكتاب وايضاحات اخرى . وكما قلنا فقد نقل المؤلف العظيم كتابه هذا من السريانية إلى العربية بإنشاء على جانب من البلاغة والتهذيب ، وضمنه اموراً كثيرة لا توجد في المطول السرياني ولا سيما فيما يتعلق بدولتي الاسلام والمغول وتراجم العلماء والاطباء ، فإنه افرد لهم فصلاً خاصة فيها حوادث نادرة ونوادير ممتعة .

بحث المؤرخ الكبير في تواريخ الدول المتداولة الثانية بحسب تقسيمه فجاءت بمائة وسبع وخمسين صفحة اما بقية الكتاب فقد ضمنه اخبار دولة العرب المسلمين ودولة ملوك المغول ، حتى سنة وفاته ١٢٨٦ ، الامر الذي يدل على تبسطه في إيراد اخبار الدول العربية التي تعاقبت منذ الخلفاء الراشدين ثم الامويين فالعباسيين ثم المغول ، وقد بلغت صفحاته ٣٦٥ صفحة .

يستدئ المؤلف العلامة مقدمته بعد الحمد له بقوله :

وبعد فهذا مختصر في الدول قصدت في اختصاره الاقتصار على بعض ما أوتي في ذكره اقتصاص احدي فائدتي الترغيب والترهيب من امور الحكام

والحكماء خيرا وشرا على سبيل الالتقاط من الكتب الموضوعة في هذا الفن
بلغات مختلفة سريانية وعربية وغيرها مبتدئا من اول الخليفة ومنتها إلى زماننا
(١٢٨٦ م) وهو مرتب على عشر دول داولها الله تعالى بين الامم فتداولتها
تداولاً بعد تداول .

الدولة الاولى : دولة الاولياء من آدم أول البرنساء (١) أي الناس .
الدولة الثانية : الدولة المنتقلة من الاولياء إلى القضاة ، قضاة بني اسرائيل .
الدولة الثالثة : الدولة المنتقلة من قضاة بني اسرائيل إلى ملوكهم .
الدولة الرابعة : الدولة المنتقلة من ملوك بني اسرائيل إلى ملوك الكلدانيين .
الدولة الخامسة : الدولة المنتقلة من ملوك الكلدانيين إلى ملوك المجوس .
الدولة السادسة : الدولة المنتقلة من ملوك المجوس إلى ملوك اليونانيين الوثنيين .
الدولة السابعة : الدولة المنتقلة من ملوك اليونانيين الوثنيين إلى ملوك الافرنج (٢)
الدولة الثامنة : الدولة المنتقلة من ملوك الافرنج إلى ملوك اليونانيين المنتصرين .
الدولة التاسعة : الدولة المنتقلة من ملوك اليونانيين المنتصرين إلى ملوك
العرب المسلمين .

الدولة العاشرة : الدولة المنتقلة من ملوك العرب المسلمين إلى ملوك المغول .
واليك بعض مقتطفات مما جاء في فصول الكتاب :

الدولة الاولى ص ٤

للاولياء قبل الدخول الى ارض الميعاد

قال من غني باخبار الامم وبحث عن سير الاجيال : ان اصول الامم في سالف
الدهر سبعة : الفرس والكلدانيون واليونانيون والقبط والترك والهند والصين ،

١ - برنساء مهربة عن كلمة برنوشو السريانية ومعناها الانسان .

٢ - يريد بملوك الافرنج - ملوك الرومانيين .

ثم تفرعت كل واحدة من هذه الامم إلى امم وتشتبت اللغات وتباينت الاديان ،
وكانوا جميعاً صابئة يعبدون الاصنام تمثيلاً للجوهر العلوية والاشخاص الفلكية
وهم على كثرة فرقهم وتحالف مذاهبيهم طبقتان : طبقة عنيت بالعلوم كالكلدانيين
والفرس وسائر من يأتي ذكره في موضعه ، وطبقة لم تمن بهذا كأهل الصين والترك
والصقالبة والبرابر والحبشة ومن اتصل بهم . اما الصين فأكثر الامم عدداً
وأفخمهم مملكة وأوسمهم دياراً ، ومساكنهم محيطة بأقصى مشارق المعمورة
ما بين خط الاستواء الى أقصى الاقاليم السبعة في الشمال ، وحظهم من المعرفة التي
بزوا فيها سائر الامم إتقان الصنائع العملية واحكام المهن التصويرية العملية ، واما
الترك كثيرة العدد ايضاً فخمة المملكة وفضيلتهم التي برعوا فيها معاقاة الحروب ومعالجة
آلاتها ، فهم احذق الناس بالفروسية وابصرهم بالطنم والضرب والرماية ، واما
سائر هذه الطبقة التي لم تكن بالعلوم فهم اشبه بالبهائم منهم بالناس ، لان
من كان موغلاً في الشمال فإفراط بعد الشمس عن مسامحة رؤوسهم برد امزجتهم
وفجج اخلاطهم فعمظمت ابدانهم وابيضت الوانهم واستدلت شعورهم فقدموا
بهذا دقة الافهام وثقوب الخواطر فغلب عليهم الجهل والبلاهة وفشا فيهم الغي
والفباوة كالصقالبة ومجاوريهم . ومن كان منهم قريباً من معدل النهار وخلفه
إلى نهاية المعمورة في الجنوب لطول مقاربة الشمس رؤوسهم ، سخنت امزجتهم
واحترقت اخلاطهم فاسودت الوانهم وتقلقلت شعورهم فقدمسوا بهذا الآلة
وثبتت البصائر كالحبشة وباقي السودان الا الهند ، فان الله فضلهم على كثير من
السمر والبيض وهم معدن الحكمة وينبوع العدل الا انهم يثبتون أزال العالم
ويبطلون النبوات ويحرمون ذبح الحيوان ويمنعون ايلامه . وجاء في
صفحة ٢٠٧ مايلي :

« أبو جعفر المنصور » هو عبد الله بن محمد الامام بن علي بن عبد الله بن العباس ، بويغ له سنة سبع وثلاثين ومائة ، وفي هذه السنة قتل ابو مسلم الخراساني ، قتله المنصور بسبب انها حججاً في أيام السفاح وكان ابو مسلم يكسو الاعراب ويصلح الآبار والطرق ، وكان الذكر له ، فحقق ابو جعفر ذلك عليه . ولما صدر الناس عن الموسم تقدم ابو مسلم في الطريق على أبي جعفر فأتاه خبر وفاء السفاح فكتب إلى أبي جعفر يعزيه عن أخيه ولم يمنه بالخلافة ولم يقم حتى يلحقه ولم يرجع اليه ، فخافه ابو جعفر المنصور واجمع الرأي وعمل المكاييد ومجر للنوم الى ان اقتنصه ثم يورد خبر مقتل ابي مسلم الخراساني .

الى ان يأتي على ذكر بناء بغداد فيقول :

وفي سنة خمس واربعين ومائة ابتدأ المنصور في بناء عمارة مدينة بغداد وسبب ذلك انه كان قد ابتغى الهاشمية بنواحي الكوفة . فلما ثارت الراوندية فيها ، كره سكانها ، لذلك ولجوار اهل الكوفة أيضاً فإنه كان لا يأمن اهلها على نفسه وكانوا قد افسدوا جنده . فخرج بنفسه يرئد موضعاً يسكنه هو وجنده فقال له اهل الحذق إذا نرى يأمر المؤمنين أن يكون على الصراة (١) ، وبين انهار لا يصل اليك عدوك الا على جسر فإذا قطته لم يصل اليك ، وأنت متوسط للبصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد ، ودجلة والفرات والصراة خنادق مدينتك . وتحيثك الميرة فيها من البر والبحر فازداد ، المنصور حرصاً على النزول في ذلك الموضع ولما عزم على بناء بغداد امر بتنقض المداين وايران كسرى ، ونقله إلى بغداد فنقضت ناحية من القصر الابيض وحمل نقضه ، فنظر وكان مقدار ما يلزمهم له اكثر من ثمن الجديد ، فأهرس عن الهدم .

١ - قال ياقوت : الصراة نهر . . .

وجعل المدينة مدورة لئلا يكون بعض الناس اقرب الى السلطان من بعض ، وعمل لها سورين الداخل اعلى من الخارج ، وبني قصره في وسطها والمسجد الجامع بجانب القصر وقبلته غير مستقيمة يحتاج المصلي ان ينحرف باب البصرة ، وكانت الاسواق في مدينته فجاءه رسول لملك الروم فأمر الربيع قطاف به في المدينة ، فقال : كيف ؟ قال : رأيت بناء حسناً ألاني رأيت اعداءك معك وهم السوق فلما عاد الرسول عنه امر باخراجهم إلى ناحية الكرخ وأمر ان يعمل في كل ربع من مدينته بقال يبيع البقل والخل

وبما يدل على ان مؤرخنا المدقق قد تناول الاخبار التي ضمنها كتابه هذا ، من مصادر ثقة يعمل عليها ويؤكد اليها ، ما جاء في صفحة ٢٣٥ من الكتاب نفسه

« فصل »

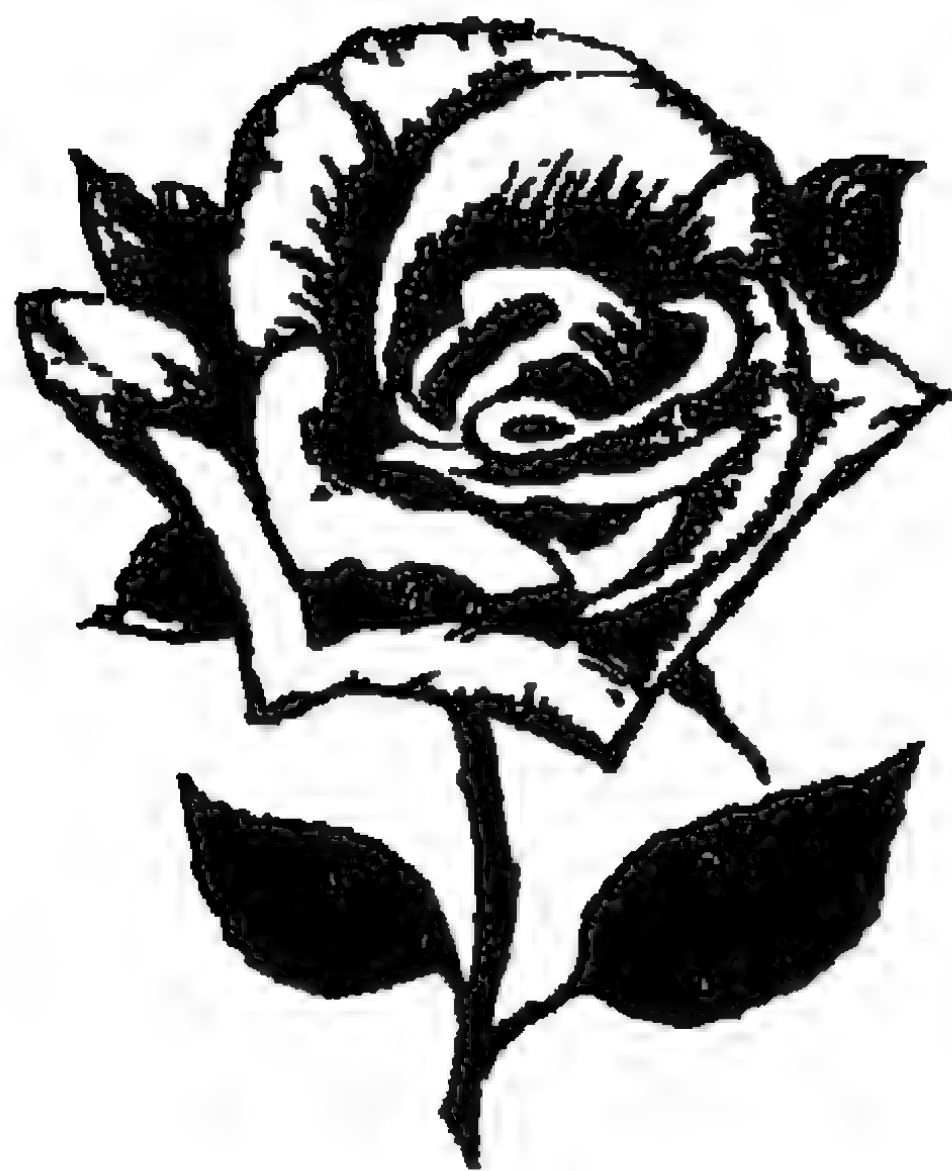
قال القاضي صاعد بن احمد الاندلسي ان العرب في صدر الاسلام لم تكن بشيء من العلوم الا بلغتها ومعرفة احكام شريعتها حاشا صناعة الطب فإنها كانت موجودة عند أفراد منهم غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طراً إليها ، فهذه كانت حال العرب في الدولة الأموية ، فلما أدهال الله تعالى للهاشمية وصرف الملك اليهم ثابت الهمم من غفلتها وهبت الفطن من ميقتها ، وكان أول من عني منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور ، وكان مع براعته في الفقه كلفا بعلم الفلسفة وخاصة بعلم النجوم . ثم لما افضت الخلافة فيهم إلى الخليفة السابع عبد الله المأمون بن هارون الرشيد تم ما بدأ به جده المنصور فأقبل على طلب العلم في مواضعه وداخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا اليه ما حضرم فاستجداد لها مهرة الترجمة وكلفهم احكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما أمكن . ثم حرض الناس على قراءتها ورغبهم

في تعليمها ، فكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظراتهم ويلتذ بمذاكرتهم علماً منه بأن
أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده لانهم صرفوا عنايتهم إلى نيل
فضائل النفس الناطقة وزهدوا فيما يرغب فيه الصين والترك ومن نزع منزعهم
من التنافس في دقة الصنائع العملية والتباهي باخلاق النفس الفضية والتفاخر
بالقوى الشهوانية اذ علموا ان البهائم تشر بهم فيها وتفضلهم في كثير منها . أما
في احكام الصنعة فكالتعمل المحكسة لتسديس مخازن قوتها ، واما في الجراة
فكالاسد وغيره من السباع لا يتعاطى الانسان اقدامها ولا يدعي بسالتها . وأما
في الشبق كالخنزير وغيره مما لا حاجة الى اباتته . فلهذا السبب كان أهل العلم
مصاييح الدجى وسادة البشر واوحشت الدنيا لفقدهم . فمن المنجمين في أيام
المأمون حبش الحاسب المروزي الاصل البغدادي الدار ، وله ثلاثة ازياج
ومنهم احمد بن كثير الفرغاني صاحب المدخل إلى علم هيئة الافلاك يحتوي
على جوامع كتاب بطليموس باعذب لفظ وابين عبارة ، ... إلى ان يقول : ومن
الحكماء يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون كان اميناً على ترجمة الكتب
الحكمية حسن التأدية للمعاني وكانت الفلسفة اغلب عليه من الطب . ومن
الاطباء سهيل بن سابور ويعرف بالكوسج ، . . . وتقدم في الطب في أيام المأمون
وكان اذا اجتمع مع يوحنا ابن ماسويه وجيورجيوس بن نختيشوع وهيسي بن
الحكم وزكريا الطيفوري قصر عنهم في العبارة ولم يقصر عنهم في العلاج
إلى ان يقول : ومن اطباء المأمون جبريل الكال وكانت وظيفته في كل
شهر الف درهم وكان اول من يدخل اليه كل يوم

ومن هذه الصفحات القليلة يمكن للقارئ أن يطلع على الجهود الكبيرة والاعتاب
الجسيمة التي كابدها مؤرخنا الكبير في تأليف الكتاب وترجمته والتقاط الاخبار
الثابتة من اصدق مظانها ، فيقدر له ابجائه التاريخية ودقته في هذا المصنف الثمين.

المراجع :

- ١ - تاريخ كنيسة المشرق لابن العبري بالسريانية الجزء ١ و ٢
- ٢ - سيرته المنظومة للمطران جبرائيل البرطلي بالسريانية
- ٣ - تاريخ البطارقة بالسرياني لابن العبري
- ٤ - تاريخ مختصر الدول لابن العبري
- ٥ - اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية للبطريرك افرام برصوم
- ٦ - كتاب الحمامة - لابن العبري - طبعة دولباني -
- ٧ - ابن العبري الشاعر : للمطران بولس بهنام . .
- ٨ - ديوان ابن العبري بالسريانية طبعة دير ماروقس بالقدس .
- ٩ - كتاب الايحيقون - لابن العبري - ترجمة المطران بولس بهنام ١٩٦٦
- ١٠ - الحقائق الجلية - في الابحاث التاريخية . لبطريرك يعقوب الثالث



رجال الفتوح

السَّامِخُ بْنُ مَالِكٍ وَانْخَوْلَانِي

وَعُثَيْبُ بْنُ سَجَّاسٍ الْكَلْبِيُّ

الاستاذ محمد كمال طه

بعد أن فتح العرب إفريقيا ورسخوا أقدامهم فيها ، فكروا في عبور بحر الزقاق الفاصل بين أفريقيا وأوربا سنة ٩١ هـ ٧١٠ م فأرسلوا سرية مؤلفة من أربعمائة فارس بقيادة فارس عربي أبو زرعة طريف بن ملوك حيث نزلوا في جزيرة صغيرة تسمى بالوماس على مقربة من المكان الذي سيحصل اسم بلدة طريف وعادوا يحملين بالغنائم الكثيرة .

في ربيع عام ٩٢ هـ ٧١١ عبر المسلمون بقيادة طارق بن زياد المضيق بين المغرب وإسبانيا ونزلوا في أطراف الجبل الذي سمي فيما بعد باسم جبل طارق ، حيث تقدموا في البلاد بعد عدة انتصارات باهرة . لحق موسى بن نصير والي إفريقيا مدعماً بالنجدات والرجال بعد أن أمر طارقاً بالتريث حتى يقدم . . .

سار موسى بن نصير بطريق غير التي سلكها طارق حيث التقيا في وادي

الأوركامبو في مكان يسمى المعرض بين ماردة وطليلة (١) ، ثم تابع الاثنان سيرهما بقيادة موسى عبر جبال البرت الى بلاد الغال (٣) التي يطلق عليها العرب اسم الارض الكبيرة (٣) .

يذكر المقري في كتابه نفح الطيب ان هدف موسى من التقدم في بلاد الغال هو ربط بلاد الفرنج بالشام عن طريق البر . . . كان ذلك سنة ٩٥ هـ ٧١٤ م إذاحتل أربونه وانطلق من هناك في حملة مخففة على أفينيون ووادي الرون الأعلى (٤) .

ويذهب بعض المؤرخين إلى ان موسى وطارقاً استوليا على برشلونة ثم عبرا جبال البرت وفتحاً أبورقة وأفينيون وواصلوا التقدم حتى بلغا ليون الا ان الدكتور حسين مؤنس في كتابه فجر الاندلس يقول : « ليس بين ايدينا دليل واحد يؤيد مثل هذا الزعم » .

خشي الخليفة الوليد بن عبد الملك ان يغتر موسى بنصره فيدفع بالمسلمين في أرض واسعة بجهولة فاستدعاه وطارقاً إلى دمشق ، فلاطف موسى مبعوث الخليفة الوليد مغيثاً الرومي وسأله إنظاره حتى يتم فتح الاندلس على ان يكون شريكه في الاجر والفتنة فمشى معه حتى بلغ المفازة فافتتح حصن بارو وحصن لك فاقام هناك وبعث سرايا حتى بلغوا صخرة بلاي . . . وبينما موسى كذلك قدم رسول آخر من الخليفة يتعجله في القدوم الى دمشق . . . فترك موسى مدينة لك وخرج الى الفج المعروفة باسم فج موسى ، ووافاه طارق في الطريق

١ - فجر الاندلس . د . حسين مؤنس ص ٩٨

٢ - بلاد الغال : فرنسا

٣ - نفح الطيب : المقري

٤ - الاسلام في الغرب : جان بول رو - مترجم ص ٤٧

منصرفاً من الثغر الأعلى فأقفله معه مع الرسولين واحتلوا أشبيلياً
فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على إمارة الأندلس سنة ٩٥ هـ ٧١٤ م . اتخذ
عبد العزيز من مدينة أشبيليا عاصمة للإسرة وتابع سيرة والده في الفتح واستطاع
إخضاع جنوب شرقي شبه الجزيرة الأندلسية حتى إقليم مرسية الذي كان يحكمه
أمير قوطي اسمه تدمير فصالحه على دفع الجزية وتقديم المعونة للعرب المسلمين
والصدق والنصح . . . أما في المنطقة الغربية فقد احتل لبلة وبائرة حتى قلورية .
خلف عبد العزيز بعد مقتله أيوب بن حبيب الذي تابع سيرة خلفه بالغزو
خلال ولايته القصيرة التي دامت شهراً . . . وفي ذي الحجة هام ٩٧ هـ ٧١٦ م تولى
الحرب بن عبد الرحمن الثقفي الولاية وكان ذا نشاط ملحوظ في متابعة الغزو في غالة
وماوراء النهر إلا أنه لم يظهر كفاءة عالية في تدبير أمور الولاية إذ كانت
البلاد في حاجة إلى شخص قادر يرتب أمورها ويضع أسس الإدارة
العربية فيها .

كانت ولاية الأندلس مرجعها القيروان في إفريقية ، وولاية إفريقية
مرجعها دار الخلافة في دمشق ، فلم يكن من الممكن في سلطة موزعة هذا
التوزيع أن يستقر فيها النظام وأن تقيم على الطاعة رجالاً نشووا في ظلال السيوف . . .
إضافة إلى النزاع الذي وقع بين العرب والبربر وبين المسلمين وغير المسلمين بسبب
أراضي المسيحيين التي دخلت في حوزة الفاتحين وقد صارت إلى عدد من ذوي
الاطماع ، حيث حرم عدد كثير من المستحقين للقيء هذا إذا استثنينا النزعات
العصبية بين القيسيين واليمنيين . . . كل ذلك أدى إلى القتال بين الأطراف
إذ سالت الدماء ومشت الصفوف بعضها إلى بعض (١) .

١ - تاريخ غزوات العرب ، شكيب أرسلان ص ٧٠

تولى الخلافة الاموية في دمشق عمر بن عبد العزيز المتميز بالتقوى والفضل
والعكوف على رضى الله وطاعته والتقرب اليه بخدمة الاسلام والمسلمين
ومن يساكنهم في دولتهم (١) . . . وقد وجد نفسه بعد سنة ونصف من ولايته
يتفرغ لأمور الاندلس حيث كان أمامه أمران اثنان . اما اخلاء الاندلس أو
تنظيمها واعمارها . . . فاختار للولاية الجديدة رجلاً من أفاضل عرب إفريقية
وهو السمح بن مالك الخولاني وأمره أن يحمل الناس على طريق الحق ولا يعدل
بهم عن منهج الرفق وأن يخمس ماغلب عليه من ارضها وعقارها ويكتب اليه
بصفة الاندلس وانهارها (٢) وعين الى جانبه رجلاً يقال له جابر لتنظيم شؤون
خراج الولاية ، وكان ذلك سنة ١٠٠ ٧١٩ هـ م . . .

كان السمح مدبراً ، حكيماً مقاتلاً بأسلاً ، وصائساً حازماً ذا دراية ادارية واسعة
فأصلح الامور ، ورسم الشجور ، ورتق الفتوق ، ووازن بين الدخل والخرج ،
وانصف الجند في الاعطيات ووزع على المجاهدين جانباً من الاراضي ، وعهد بما
بقي منها إلى وكلاء من ذوي الامانة ورد ريعها إلى بيت المال .

كانت الخليفة قد طلب من السمح أن يقدم له بياناً عن البلاد المفتوحة
وما فيها من النفوس والجبايات ليبرم فيها رأياً . . . فقد كان شديد الخوف على
المسلمين ، حيث هاله بقاء ذلك العدد الكبير من أبناء البلاد الاصليين . . ففكر
في إجلاء مسيحي اسبانيا وجنوبي فرنسا الى افريقية حيث لا يكون من وجودهم
تهلكة على الدولة ، إلا أن السمح طمأن الخليفة وأرسل اليه أن الاسلام ينمو
وينتشر وتمتد شماريخه بسرعة في الاندلس ، وأنه لايبعد اليوم الذي تصير فيه

١ - التاريخ الاندلسي : عبد الرحمن علي الحجي ص ١٨٩

٢ - البيان المغرب : ابن العذاري ج ٢ ص ٢٦

تلك البلاد بأجمعها تابعة لدين محمد (١) .

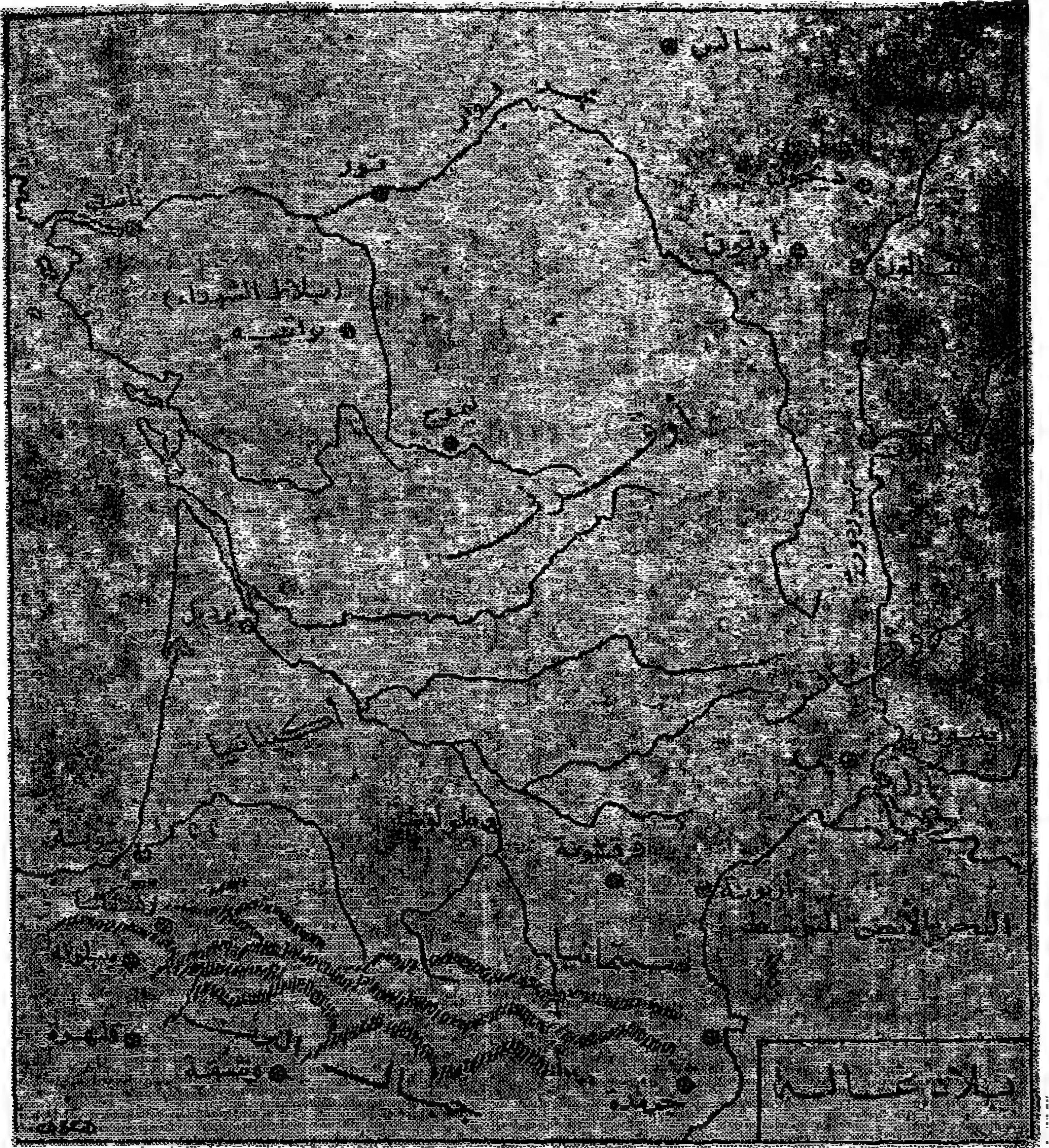
اتخذ السمع قرطبة عاصمة لولايتيه ، وعمل جاهداً على تحسينها واعمارها ، فترك فيها عملاً خالداً هو بناء القنطرة على نهر الوادي الكبير فعندما فتح العرب قرطبة وجدوا فيها آثار قنطرة فوق نهرها من تأسيس الامم القابرة قد هدمتها مدود النهر على مر الازمان ، فاستأذن السمع الخليفة لاعادة بنائها فورده جواب الخليفة عام ١٠١ هـ يأمره ببناء القنطرة بصخور السور وبناء السور بالبن ، ثم عمل السمع على اخراج خمس قرطبة ، فخرج من الخمس البطحاء المعروفة بالريض فاتخذها مقبرة للمسلمين بناء على امر الخليفة

استقرت الامور في الاندلس ، فأعمل السمع همه في الجهاد ليستأنف المسلمون اندفاعتهم الاولى وليجددوا من عزائمهم ففي سنة ١٠٢ هـ ٧٢١ م ، وفي خلافة يزيد بن عبد الملك عمل السمع على تحقيق الفكرة التي دارت في رأس موسى بن نصير من قبل وهي ان يصل الى بلاد الشام عن طريق أوروبا فاجتاز بحيشه جبال البرت وفتح اقليم سبتانية ، وهي منطقة ساحلية تمتد من البرت غرباً الى مصب نهر الرون شرقاً ، وتصل بما يعرف اليوم باسم الرفييرا الإيطالية وهي تطل على البحر الابيض جنوبي فرنسا ، وعرفت بهذا الاسم لاشتغالها على سبعة أقسام ادارية ، كذلك عرفت هذه المنطقة باسم جوثيا نسبة إلى القوط ، إذ كانت من بقايا مملكة القوط الغربيين ، وكان يتحكم فيها يومئذ جماعة من نبلاء القوط وعاصمتها أربونة (٢) .

استولى السمع على اربونة بعد حصار دام شهراً تقريباً وغنم المسلمون الكثير الكثير من الاموال والتحف التي يرجع اغلبها الى كنوز رجال الدين

١ - تاريخ غزوات العرب ، شكيب ارسلان ص ٧١

٣ - المسلمون في أوروبا د. ابراهيم علي طرخان ص ١٤١ - ١٤٢



«أُخذت هذه الخريطة من كتاب تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس»

للدكتور السيد عبد العزيز سالم

الذين فروا بها من الاندلس عقب الفتح الاسلامي لها ، فقد حملوها معهم وأودعوها المؤسسات الدينية في هذه المدينة وغيرها ، وساعد سقوط هذه المدينة في أيدي المسلمين انها كانت مفتوحة من جهة البحر مما يسهل للعرب وصول الامدادات والتجارات ونظراً لأهميتها الجغرافية فقد عمل السمع على

تحصينها وشحنها بالميرة ، ووضع الحاميات في المدن المجاورة لها (١) ، واتخذها قاعدة لعملياته الحربية في غالة ، ولا يزال يوجد في هذه المدينة شارع ينسب الى السمح يعرف باسم شارع السمح .

تابع السمح زحفه متتبعا مجرى نهر الرون واتجه غربا وفتح جميع مصادفه من المدن والحصون وأرغم أهلها على دفع الجزية مثل بيزية وماجلون ، وهذه الأخيرة عرفت باسم ثغر المسلمين . . . ثم فتح قرقشونه وتابع زحفه حتى وصل الى طولوشة عاصمة اكويتانيا ، غير انها قاومت الحصار الذي فرضه السمح حولها رغم استعماله المنجنيقات ، وظلت المدينة تقاوم حتى وصل دوق اكويتانيا أودو على رأس جيش ضخم . . . فاشتد القتال بين الطرفين ، وكان السمح يحول بين جنوده ويشدد أزرهم (٢) ويقرأ قوله تعالى :

« إن ينصركم الله فلا غالب لكم . »

وكانت معركة رهيبة استشهد فيها عدد كبير من المسلمين ، على رأسهم السمح بن مالك الخولاني ، الذي أصيب بطعنة بالغة قضت عليه يوم عرفة سنة ١٠٢ هـ ٧٢١ م .

جاء في كتاب فجر الاندلس للدكتور حسين مؤنس :

« تذكر المراجع العربية ان الهزيمة وقعت عند طرسونة والاصح ان يقال عند طرسكونة هي مقربة من طولوشة عند مصب نهر الرون ، وقد ذهب الى هذا الرأي المؤرخ سافدرا معتمداً على ما ذكره اينيدور الباجي من ان السمح استشهد عند طولوشة في موقعة حامية بينه وبين دوق اكويتانيا ، ويؤكد صاحب مدونة مواسياك هذا الرأي ايضاً . »

١ - تاريخ غزوات العرب ، شكيب ارسلان ص ٨٥ - ٨٨

٢ - المسلمون في أوروبا ، د. ابراهيم علي طرخان ص ١٤٣

كان لمقتل السمح اثر كبير على الجند ، فدبت الفوضى ، ووهنت المعزية
حق استطاع أحد امراء الجيش وهو عبد الرحمن بن عبد الله النافقي ان يجمع
شقات قلوب الجيش ويتراجع بهم الى أربونة . . . كانت هذه المعركة أول انكسار
للعرب في اوربا ، فلو احتلوا طولوشة لأمكنهم التحكم في وادي نهر الجارون
وفي الحدود الشمالية لمقاطعة غسقونيا ، ولتابعوا سيرهم لتحقيق هدفهم في ربط
الشرق بالغرب براً .

تولى عبد الرحمن النافقي شؤون ولاية الاندلس أشهراً قلائل حيث
استبدل به عامل افريقيا عنبسة بن سحيم الكلبي سنة ١٠٢ هـ ٧٢١ م أيام
الخليفة هشام بن عبد الملك (١) .

كانت عنبسة من طراز السمح ، تقياً ، ورعاً ، إدارياً صلباً ، وعسكرياً
مجاهداً ، أميناً على الولاية ، حريصاً على المسلمين وقد ظهر ذلك من أعماله
وجهوده الادارية والعسكرية .

نظم الخراج ، فتضايف بحسن تدبيره وتنظيمه . وقسم الاراضي بين
المسلمين بدون تجاوز على الاراضي التي لها ملاك من أهل البلاد الاصليين فكان
يستوفي العشر من الذين خضعوا لدولة العرب من أنفسهم ، ويستوفي الخمس
من لم يخضعوا إلا بالسيف ، وأنجز ما بدأ به سلفه السمح من بناء جسر
قرطبة العظيم (٢) .

طاف عنبسة في المقاطعات يتظرفي مظالم الناس ، ويوزع العدل
والانصاف بدون تمييز بين الاديان ففضى مدة السنوات الأولى من ولايته
في تنظيم أمور الاندلس بعد الاضطراب الذي حصل بسبب الخلافات العصبية
بين العرب أنفسهم وبين العرب والبربر فما إن استقرت الاحوال

١ - الاعلام : خير الدين الزركلي ج ٥ ص ٢٦٩

٢ - الاعلام خير الدين الزركلي ج ٥ ص ٢٦٩

وهدأت الخوطر حتى جهز جيشاً عظيماً لغزو غالة والثار لمقتل السمح بن مالك الخولاني .

سار غنبة بجيشه متعباً نحو نهر الرون حيث لم يتبع الطريق الذي سلكه السمح ، بل سار من برشلونة بمحاذاة الساحل حتى قرقشونة فحاصرها وشدد عليها الحصار حتى أرغم أهلها على التسليم والصلح فقبلوا شروطه ، وصالحوه على نصف أعمالها ، وعلى جميع ما في المدينة من أسرى المسلمين وأسلامهم وان يدفعوا الجزية ، ويلتزموا بأحكام الذمة من محاربة من حاربه المسلمون ومسألة من سألوه (١) وأخذ بعض الرهائن من أهلها وأرسلهم إلى برشلونة .

واصل غنبة سيره باتجاه نيم فاستولى عليها وأخذ أيضاً بعض الرهائن وأرسلهم إلى برشلونة ، ثم تابع طريقه مع مجرى نهر الرون إلى الشمال فاجتاح أوز وفين ونواحي فلانسي ، واغار على منطقة دوفيني وعاصمتها غروفيل حتى وصل إلى مدينة ليون التي يسميها العرب حصن لودون . . . دخل منطقة بورجونيا دون مقاومة واحتل مدينة ماسون وشالون التي تقع على نهر الساؤون وقد وجد الطريق أمامه خالية فسار مسرعاً دون ان يلقى مقاومة تذكر واستولى على أتون ونهبها وحرقها ثم اتجه نحو ديجون وبيز حتى لانجر ، وعاد ثانية إلى أتون (٢) وقد بعث سراياه إلى جهات نيفير بالقرب من نهر اللوار ثم إلى كونتيه برجنديا التي عرفت فيما بعد باسم فرانك كونتي ، ولا تزال توجد فيها إلى يومنا هذا آثار عربية (٣) .

لم يقف جيش غنبة ولم يلق مقاومة تذكر إلا بالقرب من مدينة سانس على بعد ثلاثين كيلو متراً جنوبي باريز ، وهي عاصمة إقليم بوند وتقع على

٢ - تاريخ غزوات العرب ، شكيب أرسلان ص ١١٢

١ - فجر الاندلس ، د حسين مؤنس ص ٢٤٧

٢ - المسلمون في العصور الوسطى د. ابراهيم طرخان ص ١٤٦

نهر السين . . . وهناك واجه عنبسة المقاومة الاساسية حيث تصدى له ايون اسقف سانس واستعد له من قبل ، فحصد المدينة وحشد مواطنيه ، فهبوا معه لحماية مدينتهم ، ونجحوا في وقف الزحف العربي بعد ان اخترق قلب بلاد الغال حيث غابوا حوض نهر الرون بأسره .

يشك المؤرخون العرب بأن اسقف سانس هو الذي كان السبب في رجوع عنبسة وايلاف غزوه ، ويبدو ان عنبسة أدرك بعد هذا التقدم الظافر الذي جعله يقترب من باريز ، انه توغل كثيراً في بلاد الغال ، حيث ابتعد عن خط توينه قرطبة بنحو ألف ميل ، اضافة إلى سماعه في ذلك الوقت بانبيعات المعصية في الاندلس ووقوع خلافات بين العرب والبربر ثانية ، حيث عمت الفوضى بسبب تنازع عماله الضعفاء على الحكم فيها ، فعالت دون وصول الامدادات والتجندات للجيش الفاتح (١) . . . فكان لابد من رجوعه إلى مقر ولايته حفاظاً على استقرار أمور المسلمين . . . ولولم توجد مثل تلك الاحوال القاهرة في ذلك الوقت لما انصرف عن فتوحاته الموفقة في بلاد الغال بعد أن حاز النصر العظيم .

وفي طريق العودة لم يكن عنبسة حذراً ، فداهمته جموع كبيرة من الافرنج ، فالتهم معها في معركة ضارية أصيب فيها بجراح بالغة توفي على أثرها في شعبان سنة ١٠٧ هـ ٧٢٥ م ، فعادت فلول الجيش العربي بقيادة هذرة بن عبد الله الفهري إلى اربونة . وقد اختلفت روايات المؤرخين حول مقتل عنبسة او وفاته : -
- يذكر ابن الاثير ان عنبسة توفي في شعبان سنة سبع ومائة ، وكانت ولايته أربع سنين وأربعة أشهر ، ولما مات ارسل والي افريقيا بشر بن صفوان ، يحيى

١ - الاسلام في الغرب جان بول رو مترجم ص ٤٧

ابن سلمة الكلبي والياً على الاندلس بدلاً منه وذلك في ذي القعدة ١٠٧ هـ (١)
- يقول ابن خلدون ان استشهاد عنبسة كان في اراضي الفرنجة
سنة ١٠٧ هـ (٢)

- ابن عذاري يقول ان مقتل عنبسة كان في اراضي الفرنجة غازياً
سنة ١٠٧ هـ

- يقول رينو حيث لم يشر الى المراجع التي استند عليها في ذلك :-
« وقد قتل عنبسة في احدى غزواته سنة ٧٢٥ م ، واضطر خليفته عذرة الى
قيادة الجيش في طريق العودة الى الحدود ، ولم تلبث الحرب ان استعرت
من جديد في عنف ، ولما كانت امداد كبيرة قد اقبلت من الاندلس
فقد نهض قادة المسلمين ، وشجعهم المقاومة القليلة التي صادفوها ، واخذوا يرسلون
الحملة في كل وجه ، ويقول مؤرخ عربي : ان رياح الاسلام اخذت تهب على
النصرانية من كل ناحية ، فاقتحم المسلمون سبتانية مرة أخرى وعادوا الى حوض
الرون وغزوا بلاد الالبين وليفلية ونهبوها نهباً ذريعاً وأتت النيران على ما أغفلته
سيوف العرب ، حتى لقد استنكر الكثيرون من الفاتحين أنفسهم هذا الاسراف
في أعمال العنف » (٣) .

ويعلق الدكتور حسين مؤنس في كتابه فجر الاندلس على هذا القول :
« ولسنا نستطيع تحقيق ذلك على وجه الصحيح ، وان كنا نقبل
ما تذكره الروايات اللاتينية عن الاعمال التي وقعت أثناء ولاية عذرة لان عبد
الرحمن النافقي حينما تولى وجد المسلمين في حالة طيبة في غالة ، ولو كان أمرهم

١ - الكامل لابن الاثير المجلد ٤ ص ١٩٧

٢ - تاريخ غزوات العرب ، شكيب ارسلان ص ٨٤

٣ - فجر الاندلس د . حسين مؤنس ص ٢٥٥

وقف عندما انتهت اليه أعمال عنبسة وهو الرجوع الى الاندلس ، ولما استطاع عبد الرحمن الغافقي أن يقوم بالعمل الكبير الذي قام به .

والمعروف أن عذرة واصل جهاد سلفه في بلاد الغال حيث اقتحم سبتانية وحوض الرون .

وبعد هذا العرض السريع لأعمال بعض رجال الفتوح لابد من ذكر الملاحظات التالية :

أولاً :

إن حملة عنبسة تميزت بالحدق والمهارة ، كما يقول المؤرخ ايزيدور الباجي ، أكثر مما تميزت بالبطش والقوة (١) وقد قيل ان عنبسة كان يكره العيث في بلاد العدو ، إلا أنه كان يداري جنده ويحذر من أن يتهم بفتور الحمية الاسلامية .

ثانياً :

ان حملة عنبسة قد بينت الخطر الحقيقي لامراء الدوقيات في غالة وجعلتهم يفكرون في الموقعة الحاسمة مع العرب التي تمت فيما بعد مع عبد الرحمن الغافقي في بلاط الشهداء .

ثالثاً :

إن حملة عنبسة لم تكن في الحقيقة غير غارة بعيدة المدى ، ولو كان لدى عنبسة نية الفتح الثابت لأتم الاستيلاء على ماغلب عليه من المدائن ولأقام الحاميات في بعضها على عادة العرب في فتوحهم ، وربما كانت نيته من أول الامر ان يقوم بحملة تشبه حملة عقبة بن نافع الكبرى ، غارة بعيدة المدى تشق البلاد شقاً وتطلع المسلمين على احوالها وتمهد لما بعدها .

ولو استقر عنبسة في ليون مثلاً او في أحد مراكز غالة الوسطى لكان في

١ - تاريخ غزوات العرب شكيب ارسلان ص ٩٧

امكاننا ان نقرر انه فتح جنوبي غالة ووسطها ، أما وقد هاد ادراجيه بعد ان صار نحو الف ميل شمالي قرطبة فلا نستطيع القول الا أن حملته الرائعة تلك لم تكن اكثر من غارة سريعة طويلة اتت بمغانم كثيرة ووفيرة ونشرت في نواحي غالة كلها رعباً شاملاً ، ومهما يكن من الامر فإن عنبسة يتفرد بين الفاتحين المسلمين بهذا الفخر ، فخر الوصول برايات الإسلام الى قلب أوروبا الغربية ، ولم يدرك هذا الشأ بعد ذلك فاتح إسلامي آخر (١) .

رابعاً :

كان للبربر الفضل الأكبر في الحملات التي قادها السمع بن مالك الخولاني ومن بعده عنبسة بن سحيم النكبي ، فقد كانت هذه الجماعات ترد الى الاندلس وقلوبها متعلقة بالجهاد والفتح وما يتعلق بها من مغانم واسلاب ومكاسب . . . وكانوا يتجمعون في الاندلس فلا يستطيع الولاة تركهم دون عمل يتسكعون في العاصمة وما حولها . . . فكانوا ينهضون معهم للفرز . . . وكلما زاد نشاط الفتح ازداد مؤلاء البربر ضراوة في الحرب وطمعاً في المغانم ، وربما استبد طمع بعضهم في الاسلاب فكان ذلك من اسباب فشل بعض الحملات كما تراها في وقعة بلاط الشهداء .

خامساً :

تذكر روايات مؤرخي الفرنجة اخباراً كثيرة عن اعمال العرب في غالة خلال الفترة ما بين موت عنبسة وقسودوم عبد الرحمن النافقي بكثير من المبالغات عما تسمية مساءات العرب او مظالمهم التي انزلوها بأهل المنطقة ، إذ ليس من الانصاف ان يقال ان العرب لم يفعلوا في غالة غير تخريب

١ - فجر الاندلس د . حسين مؤنس ص ٢٤٨

الكنائس وحرقت الأديرة . . . والثابت المعروف عنهم انهم لم يخربوا كنيسة او يحرقوا ديراً ، وإذا قارنا المسلمين بالشعوب التي كانت تسود غالة في ذلك الحين من فرنجة وقوط غربيين وقوط شرقيين وبرغنديين ومن اليهم لتبيننا ان المسلمين كانوا اعظمهم حضارة وابعدهم عن النهب والتخريب . ومهما بحثنا في حوايات ذلك العصر فلن نجد بين من ظهوروا على مسرح الحوادث في غالة خلال النصف الاول من القرن الثامن الميلادي رجالا نستطيع ان نقارنهم بالسمح بن مالك الخولاني وعنبسة بن سحيم الكلبي او عبد الرحمن الفافقي (١) .

ان النصوص التاريخية لاتذكر ان المسلمين هم الذين قاموا بأعمال التخريب ولكنها تقول ان « الوند » او الوندال « او الجندال » هم الذين كانوا يخربون ، فجاء مؤرخو الكنيسة فقالوا ان المراد بهذه الالفاظ هم المسلمون . . . وتابعهم رينو وغيره من المؤرخين المحدثين في ذلك ، وهو تعسف لامعنى له وخاصة ان هذه التسميات اطلقت فيما بعد على المجريين الذين اغاروا على هذه النواحي وخربوها ايام قارله وبيبين وشارلمان . . . وقد عادرينو فتشكك في ان المسلمين هم الذين قاموا بهذا التخريب ، بل ان الفرنجة انفسهم بقيادة عاهلهم الاكبر شارل مارتل ، نهبوا الكنائس واستولوا على كنوزها وخربوها فيما بعد في وقعة تور (٢) .

سادساً :

يقول المؤرخون ان الذي ساعد على نجاح المظاهرة العسكرية العربية في اواسط بلاد الغال تحالف الدوق اودو حاكم مقاطعة أقطانية « اكويتانيا » مع

١ - فيجر الاندلس د . حسين مؤنس ص ٢٥٩

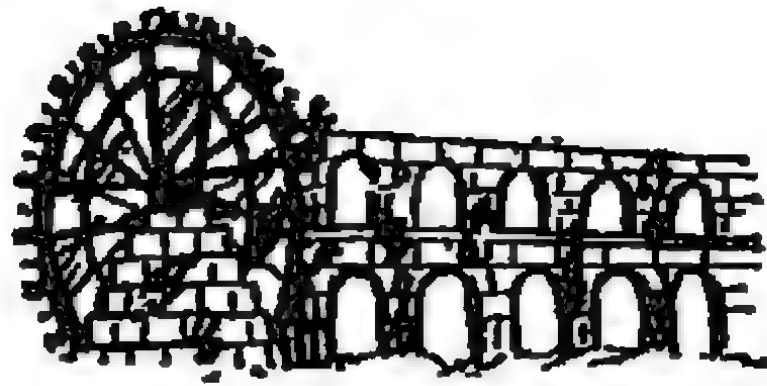
٢ - المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى د ابراهيم علي طرخان ص ١٤٨

العرب ، ويقولون ان احد قادة البربر ويدعى عثمان بن ابي نعسة المعروف
بـ « مونوسة » (١) وقد كان صهراً للدوق اودو ، وبما ان الدوق لم يكن على علاقة
طيبة مع شارل مارتل ملك الفرنجة لان هذا الاخير كان ذا مطامع بأملوك
الدوق اودو ، اضافة الى ان معظم الاشراف الاقطاعيين في غالة كانوا يخافونه
ويكرهونه ، وفي حالة حرب دائمة معه . . . الامر الذي دفع دوق اودو
الى مصادقة المسلمين ومصاهرة احد مواطنيهم .

ان وجود ابن ابي نعسة في الجيش العربي كان السبب في انصراف المسلمين عن
بلاد الدوق اودو ، وربما كان هذا الاتفاق هو السبب فيما وفق اليه المسلمون
من انتصارات فاقت كل ما كان منتظراً من حملة غنيسة . وفي ذات الوقت لولا
هذا الاتفاق لكان العرب في ذلك الحين من القدرة بحيث يتمكنون من التوغل في
اراضي مقاطعة اكويتانيا والاستيلاء على معاقلها . (٢)

محمد كمال لطفي - حمة

المركز الثقافي العربي



١ - مطررت الراوية الاوربية حول مونوسة أوهاماً ، ولا يوجد أساس قوي لاعتبار

صحة مثل هذه القصة « التاريخ الاندلسي د . عبد الرحمن الحجي ص ١٩٢ »

٢ - د . حسين - فجر الاندلس ص ٢٥٣

ابن عساكر وتاريخ دمشق

بإهداء: عبد الله بن هاشم

بلغ ابن عساكر في كتابه « تاريخ مدينة دمشق »
الدروة في فن تاريخ المدن فيما روته لنا قصة
الحضارة العربية على كثرة ما ألف المؤرخون
والاخباريون في هذا الفن المهبب .
« الدكتور شاكِر القحام »

يتسم التراث التاريخي للامة العربية بضخامة واتساع مداه وغزارة مادته
وغنى مكتبته وكثافة مؤلفيه واصالتهم ، وإن كل ما نشر حتى الآن من كتب
التاريخ العربي في مختلف اتجاهات لا يدر جزءاً مما ألف في هذا الميدان . وإذا
كانت كل الامم تهتم بتاريخها وتسجيل أحداثها فإن الامة العربية تأتي في طليعة
الامم التي تأثرت لديها هذا الفن وتواصل ، وتفرع وتثمر مما دفع بالدكتور
شاكِر مصطفى إلى القول : (١)

« مامن أمة في الارض قبل العصور الحديثة كتبت في التاريخ وألفت فيه
المؤلفات الضخمة جدد الضخامة وفرحت الفروع العديدة وسجلت دقائق
ماهاشت من الاحداث مثل ما كان في العهد العربي الإسلامي . . . فقد تميزت

١ - التاريخ العربي والمؤرخون ١ / ٦ - ٧

الحضارة العربية الاسلامية بالفزعة التاريخية الواضحة التي تجلت في ظهور حوالى خمسة آلاف مؤرخ على الاقل فيها ، ومايزيد على عشرة الى اثني عشر ألف كتاب تاريخ - في اقل تقدير - لديها .

ولذا كانت الامة العربية قديماً قد هنت بالتاريخ فإن هنايتها به حديثاً تبرز على المستويين الفردي والجماعي ، الفردي المتجلى في جهود الافراد من المؤرخين والباحثين والمحققين ، والجماعي الذي تقوم به الجامعات والجمعيات التاريخية من جهة ، والمؤتمرات التي ترعاها الدول العربية من ناحية أخرى .

وفي إطار هذا لاهتمام احتفل القطر العربي السوري هذا العام لمدة ثلاثة ايام اعتباراً من ٢٦ / ٥ حتى ٢٨ / ٥ / ١٣٩٩ هـ الموافق ٢٣ / ٤ حتى ٢٥ / ٤ / ١٩٧٩ م بذكرى مرور تسمائة سنة على ولادة مؤرخ الشام الكبير « ابن عساكر » الذي سنقف معه وقفة عاجلة ، وقفة تحية وتقدير لاسترجاع ماغبر من شذاه وروحته وريحانه .

يدب منها نسيم البرء في هالي

لعل إلهامة بالجزع ثانية

ابن عساكر في سطور (١)

هو ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين الدمشقي الحافظ من اصحاب الحديث (٢) ولد بدمشق سنة ٤٩٩ هـ = ١١٠٥ م (٣) أيام طفتكين (٤) وبدأ تلقى العلم من صغره ، ولم يلبث ان أخذ يتردد على كبار

١ - كان اعتمادنا الاساسي على ماكتبه الدكتور صلاح الدين المنجد في تقديمه لتاريخ ابن عساكر - المجلد الاول - ولن نشير إليه مرة أخرى .

٢ - خريدة القصر - قسم شعراء الشام - ١ / ٢٧٤

٣ - الاعلام للزركلي

٤ - هو أبو سعيد سيف الإسلام ظهير الدين معتمد الدولة طفتكين من بني بوري أتابكة دمشق .

معجم الأنساب والاسرات الحاكمة ٣٤٠

الشيوخ في دمشق يقرأ ويستمع ، قرأ على سبيع بن قيراط ، واستمع إلى أبي القاسم النسيب وأبي الفرج الصوري وقوام بن زياد وأبي طاهر الحنائي ، وأخذ عن جده النحر والعربية . وأخذ يستكتب شيوخ بغداد وخراسان ولما يبلغ الحلم وبعد وفاة أبيه عزم على الرحلة في طلب الحديث فاتجه إلى العراق سنة ٥٢٠ هـ شأن المحدثين في ترحالهم طلباً للمزيد من العلم وتلقي الاسانيد العالية . وأقام الحافظ في بغداد سنة واحدة ، عاد بعدها إلى دمشق ، ولم يلبث أن عاد إلى بغداد يريد الحج عن طريقها . وفي مكة والمدينة ومنى سمع الحافظ ممن لقيه من العلماء ، وعاد بعد ذلك إلى العراق بعد أن حدث بمكة .

وأقام الحافظ ابن عساكر في العراق خمس سنين يستمع الدرس في المدرسة النظامية ببغداد ، ويطوف في العراق فمن الكوفة إلى الرحبة إلى الجزيرة إلى ماردين . . . يستمع ويحدث ، حتى إذا آن أوان الرحيل شد راحلته ويم شطر مدينة دمشق سنة ٥٢٥ هـ ليتابع الاستفادة والافادة .

وفي سنة ٥٢٩ هـ يترك الحافظ دمشق قاصداً خراسان ليأخذ عن علماء المعجم ومحدثيهم وهم من هم في علو كعبهم وغزارة روايتهم وقد نص الحافظ نفسه على الغرض من هذه الرحلة فقال :

« وإلى الامام محمد الفراءى كانت رحلتي الثانية . لأنه كان المقصود بالرحلة في تلك الناحية لما اجتمع فيه علو الإسناد ووفور العلم وصحة الاعتقاد ولين الجانب والاقبال بكلية على الطالب فأقيمت في صحبته سنة كاملة ، وغنمت من مسموعاته فوائد حسنة ، وكان مكرماً لموردي عليه ، عارفاً بحق قصدي إليه ومرض مدة مقامي ، وكنت أقرأ عليه في حالة مرضه ، ثم عوفي وفارقت متوجهاً إلى هراة . فجاءنا نعيه إلى هراة . وكان موته سنة ثلاثين وخمسمائة (١) .

١ - تبیین کذب المفتري ص ٣٢٥ نقلاً عن مقدمة المنجد .

وأخذ الامام الحافظ يتجول في خراسان يأخذ عن علمائها وأدائها
وفقهاؤها ومحدثيها . وقد وضع الدكتور صلاح الدين المنجد اعتماداً على معجم
الادباء والوافي بالوفيات وطبقات الشافعية الكبرى الثبت التالي الذي يبين
أشهر المدن التي زارها ابن عساكر :

أ	ح	س	ن
أبر	حلوان	مرخس	نوقان
أبيورد	خ	سمنان	نيسابور
أرجيش	خر باذقان	ط	هـ
أمداباد	خسرو جرد	طابران	هراة
أصبهان	خوى	طوس	همدان
ب	د	غ	ي
بسطام	دامغان	غشت	اليهودية
بوشنج	ر	م	
بيهق	الري	مرغاب	
ت	ز	مرنسند	
تبريز	زنجان	مشكان	
توت	زودراورد	مرو والشاهجان	
ج		ميهته	
جي			

وهاد الحافظ إلى بعداد سنة ٥٣٣ ولقي بها السمعاني (١) ، وكان قد فارقه في

١ - السمعاني (٥٠٦ - ٥٦٢ = ١١١٣ - ١١٦٧ م) عبد الكريم بن محمد السمعاني ،
أبو سعد ، مؤرخ رحالة من حفاظ الحديث ، مولده ووفاته بمر . رحل إلى أقاصي
البلاد ولقي العلماء والمحدثين أخذ عنهم وأخذوا عنه . والسمعاني نسبة إلى بطن من
تميم . أشهر كتبه (الانساب) عن الاعلام ٥٥/٤ ط ٤

خراسان . ثم قفل عائداً الى دمشق بحيث عقد مجالس التحديث سنة ٥٣٣ هـ .
ومن سنة ٥٣٣ هـ إلى سنة ٥٧١ هـ انصرف الحافظ إلى التصنيف إلى جانب
قيامه بالتدريس . وكانت مرحلة خصبة مثمرة رفد فيها الحافظ المكتبة العربية
بتراث زاخر لاتزال تعتر به ، ولا يزال الباحثون ينكبون عليه ويعتمدون منه
ويعتمدون عليه في شتى مجالات الثقافة الإسلامية . وفي هذه المرحلة علا نجم
الحافظ ابن عساكر وطار صيته في الافاق وقصده العلماء وطلبة العلم وارتفع
شأنه لدى نور الدين ومن بعده لدى السلطان صلاح الدين .

وشاء الله ان يسترد أمانته ويأخذ وديعته ، وعادت نفس الحافظ الى ربها
راضية مرضية ، وكان ذلك بين المشائين ليلة الاحد حادي عشر رجب سنة
إحدى وسبعين [وخمسة] ودفن بمقبرة باب الصغير ، وصلى عليه الملك
الناصر صلاح الدين في ميدان الحصا ، (١) ورتاه عدد من الفضلاء منهم فتيان بن
هلي الاسدي (٢) الذي اورد العماد الاصفهاني له قصيدة تامة في رثاء الحافظ
منها هذه الابيات :

هلماء البلاد حلتُ حباها	لك يا مَنْ عم الورى بالحبا
ماهسى أن نقول فيك وقد فا	نت أياديك جملة الاحصاء
أنت أعلى من ان تحمد بوصف	بلغته بلاغة البلاء
أنت اولى بأن تريك حق	يبعث الخلق ، السن الشعراء
فعلبك السلام ملاح وجه الصبح	من تحت طرة سوداء
وسقى التربة التي غبت فيها	كل جونٍ وديعة مطلاء

١ - هو الحي المعروف حالياً بالميدان في دمشق .

من تعليقات د ، شكري فيصل على الحريدة .

٢ - الحريدة ١ / ٢٨٠

ولعل خير وصف للإمام الحافظ ما وصف به نفسه ، وأوجز فيه
سيرة حياته قال :

بمساعد ومؤيد وملاطف	بامعشر الإخوان لوظفرت يدي
وشققت سالف ذاك بالمستأنف	لشرحت ما حاولت مراحاً بيناً
ما يفيض العلماء غير محارف	تالله أو في حلفةٍ للحالف
أكفف وعيدك لي فليست بخائف	يا من تتوعدني لفرط جهالة
فذر الوعيد فليست لي بالعارف	لو كنت تعرفني لما خوّفتني
كلا ، ولا لايت حنف الحائف	مالنت قط لغامرٍ أوحاقد
وأنا القذى في عين كل مخالف	فأنا الشجى في خلق كل منافق
سفرين بين فداقد وتائف	وأنا الذي سافرت في طلب الهدى
من أصبهان إلى حدود الطائف	وأنا الذي طوفت غير مدينة
بعد العراق وشامنا المتعارف	والشرق قد عاينت أكثر مدنه
ولقيت كل مخالف ومؤلف	وجمت في الاسفار كل نفيسة
أنفقت فيها نالدي مع طارقي	وسمعت منة أحمد من بعدما
وتزاهمة تنفي سفاهة قارف	ورويتها بأمانة وصيانة

والأبيات تشير بوضوح الى غنى جوانب الحافظ ابن عساكر ، وتعدد مناهي
نشاطه . وإن المقام لا يتسع في هذه المعجالة للإمام بجوانب الحافظ وسنكتفي
بالتعريج على الناحية التاريخية .

مؤلفاته في التاريخ :

بلغت مؤلفات الحافظ ١٤٣ مؤلفاً حسب إحصاء الاستاذ مطاع
طرابيشي (١) وسنقف عند مؤلفاته التاريخية ذكراً وتعداداً اعتماداً على

١ - انظر كتاب ابن عساكر ص ٢٤٤

قائمة الاستاذ الطرابيشي وعلى تعداد الدكتور شاكر مصطفى : (١)

- ١ - تاريخ دمشق
 - ٢ - فضل البيت المقدس او فضل القدس
 - ٣ - فضل مكة
 - ٤ - فضل المدينة
 - ٥ - فضل عسقلان
 - ٦ - فضل الخليل (٢)
 - ٧ - المعجم المشتمل على ذكر اسماء شيوخ الأئمة النبيل (٣)
 - ٨ - المعجم لمن سمع منه أراجاز له
 - ٩ - معجم النساء (٤)
 - ١٠ - شيوخ ابن البناء
 - ١١ - شيوخ الحلواني
 - ١٢ - كتاب البلاد والقرى التي حدث فيها ابن عساكر (٥)
 - ١٣ - معجم أسماء القرى والامصار التي سمع بها
وله ايضا معجم لشيوخ البخاري ومسلم ومعجم للصحابه .
- هذه جملة مؤلفاته التاريخية ، وستقف عند كتابة العظيم تاريخ مدينة دمشق .

-
- ١ - التاريخ العربي والمؤرخون ٢ / ٢٤٣
 - ٢ - لم يذكره الاستاذ الطرابيشي
 - ٣ - ذكره الدكتور شاكر مصطفى باسم (معجم الشيوخ ومعجم الشيوخ النبيل)
أي جعله معجمين .
 - ٤ - ذكره الاستاذ الطرابيشي (معجم النسوان) وباسم (من سمع منه من النسوان)
 - ٥ - ذكره الاستاذ الطرابيشي باسم (معجم القرى والامصار التي سمع بها) وذكر ان
اسم هذا الكتاب اورد في سير النبلاء « اسماء الاماكن التي سمع فيها + معجم القرى والامصار

يعد تاريخ مدينة دمشق للحافظ ابن عساكر من ام المراجع التاريخية وأوسعها وأشملها ، ولعله أكبر تاريخ وضع بالعربية حتى الآن . ويغلب على ظن القدماء والمحدثين أن ابن عساكر بدأ عمله في هذا التاريخ في مرحلة مبكرة من عمره فالحافظ المنذري علامة مصر ومحدثها يقول وقد ذكر تاريخ ابن عساكر :
ما ظن هذا الرجل - يعني ابن عساكر - الاعزم على وضع هذا التاريخ من يوم عقل على نفسه ، وشرع في الجمع من من ذلك الوقت « والا فالعمر يقصر عن ان يجمع فيه الانسان مثل هذا الكتاب بعد الاشتغال والتنبيه (١) .

كما أن الدكتور شاكر مصطفى ينص على أن ابن عساكر كان منذ أيام الدراسة يداري مشروعاً في خاطره لتاريخ دمشق يضاهي به عمل الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ، وقد شرع به ثم توقف ، ثم سمع الاتابك (٢) نور الدين بن زفكي مهم بهذا المؤلف وبإنجازه فأنجزه وكان من ذلك تاريخ دمشق (٣) .

والاسم الكامل لهذا التاريخ هو :

« تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الاماثل أو اجتاز بنواحيها من واردتها وأهلها »

١ - عن مقال للشيخ محمد احمد دهمان . كتاب ابن عساكر ٢٠٧
٢ - يتألف هذا اللقب من لفظين هما « أتا » بمعنى أب ، و « بك » بمعنى أمير . واصله أن السلاطين السلاجقة منذ أيام ملك شاه بن ألب ارسلان كانوا يطلقون لفظ (اطا بك) على كبير أمرائهم ، يولونه الوصاية من بعدهم على سلطان أو أمير قاصر صغير ، ثم أطلق هذا اللقب في أيام المماليك بمصر على مقدم العساكر أو القائد العام على اعتبار أنه أبو العساكر والأمراء جميعاً وكان يسمى « اتابك العسكر »

انظر كشاف الاصطلاحات في الاعلاق الخطيرة الجزء الثالث القسم الثاني ٨٧٧

٣ - التاريخ العربي والمؤرخون ٢٤١

وقد يكون العنوان أضيق مما اشتمل عليه الكتاب ، لأن هذا التاريخ في حقيقته ليس تاريخاً لدمشق فحسب بل إنه كما يقول الاستاذ عبد المعين الملوحي : (١) تاريخ الامة العربية ، ولذلك نرى الدكتور شاكر مصطفى يدرون الملاحظة التالية :

« وقد تعمع حلقة دمشق في خاطرة لتشمل الشام احياناً فيترجم لمن كان في صيدا أو حلب أو بعلبك أو الرقة أو الرملة » (٢)

وقد امتد الكتاب على مدى خمسمائة جزء وسبعون جزءاً كما ذكر ياقوت أو إلى ثمانمائة جزء في ثمانين مجلدة (٣) . وعلى كل حال فإن العاملين الآن في تحقيق تاريخ دمشق يقدرون له إذا تم تحقيقه وإخراجه أن يصدر في حوالي مائة مجلد من القطع الكبير .

صرف الحافظ في جمع مادة كتابه ما لا يقل عن ثلاثين سنة ، (٤) واستمد مادته الغزيرة من مصادر ثلاثة :

١ - السماع من الشيوخ

٢ - المكاتبة معهم

٣ - الكتب المخطوطة « مؤلفات السابقين »

ونهج في تصنيفه من منهج المحدثين ، فهو يذكر كل خبر يسنده وقد يكرر الخبر إذا ورد بسند جديد أو يختلف ولو قليلاً عن السند السابق . ورتب تراجم الكتاب على حروف الهجاء إلا أنه بدأ بمن اسمه احمد تيمناً باسم الرسول الاعظم ﷺ .

١ - كتاب (ابن عساكر) ٢٢٥

٢ - التاريخ العربي والمؤرخون ٢٤١

٣ - معجم الادباء ١٣ / ٧٦

٤ - التاريخ العربي والمؤرخون ٢ / ٢٤١ وانظر مقدمة المنجد

وخصص المجلدة الاولى للحديث عن مدينة دمشق وخططها وفضائلها
وفتوح الشام بشكل عام .

ونظراً لضخامة الكتاب وحاجته إلى العمل الشاق المضني في تحقيقه وإخراجه
فإنه لم ير النور منه سوى أجزاء ، لقد طبعت منه المجلدة الاولى سنة ١٩٥١ والقسم
الاول من المجلدة الثانية سنة ١٩٥٤ . وفي سنة ١٩٦٣ صدرت المجلدة العاشرة ،
وفي سنة ١٩٧٨ صدر قسم من حرف العين و العين مع الألف « (١) ولا يزال الاساتذة
المحققون يوالون عملهم الشاق في تحقيق هذا الكتاب الذي يعد مصدراً أساسياً
من مصادر تاريخ الحضارة الإسلامية لذلك نجد الدكتور شكري فيصل يقول : (٢)
« اننا حين نعرض الكتاب نجد أن المؤلف لا يقدم لنا تاريخاً دمشقياً ولا
تاريخاً شامياً فحسب ، وإنما يقدم تاريخاً حضارياً لهذه البلاد كلها التي
انتشر فيها الاسلام وسادت العربية وانصاحت فيها مهاجرة العرب المسلمين
بين أقصى الشرق فيما وراء النهر وبين اطراف المحيط » .

إن إحياء هذا الكتاب ونشره على نطاق واسع يجب ان يقدم على
أي عمل تاريخي آخر ، وإذا كانت الاصوات في هذه الايام ترتفع في كل جانب
من جوانب الوطن العربي تطلب إعادة كتابة التاريخ على أسس جديدة (٣)
فإن على أصحاب هذه الدعوات أن يعلموا أنه لا ارتفاع لبناء ولا ديمومة له إذا

١ - المجلدة الاولى والقسم الاول من المجلدة الثانية نشرها مجمع اللغة العربية بدمشق
بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد

٢ - المجلدة العاشرة نشرها المجمع بتحقيق الشيخ محمد احمد دهمان

٣ - قسم العين مع الالف وقد نشره المجمع في مايقرب من ألف صفحة بتحقيق
الدكتور شكري فيصل .

٤ - عن كتاب « ابن عساكر » ٢٣٦

٥ - اجرت المعرفة التي تصدر عن وزارة الثقافة بدمشق استفتاء حول « كيف نكتب
تاريخنا القومي » ثم جمعت الاجابات وطبعت في كتاب مستقل صدر عن وزارة الثقافة

لم يبن على أساس وطيد ، وإن الأساس الذي يجب أن نبتدىء به لكتابة تاريخنا هو أولاً نشر التراث التاريخي ، ويجب أن ينظر إلى ضرورة إحياء التراث التاريخي نظرة جدية ، لأن الأمر ليس أمر إيجاد عمل للمطابع ومعامل الورق ، بل إن القضية أخطر من ذلك وقد لخصها الدكتور مصطفى زيادة بقوله :

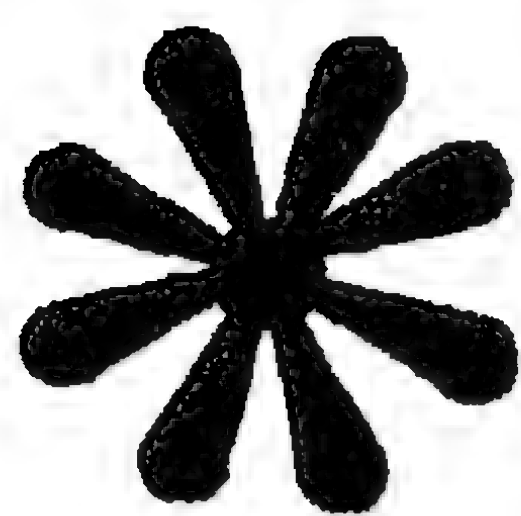
« إن إحياء الكتب القديمة ليس للتقوى والزلفى فحسب بل لبناء حاضر

الثقافة في أمم الشرق على اسم منه » (١)

هذه عجالة أعدناها عن تاريخ دمشق ومؤلفه الحافظ ابن عساكر الجدير بأن تكتب عنه المطولات وإن يسجل اسمه بأحرف من نور في سجل الخالدين .

عبد الاله نبهان

حمص - الجمعية التاريخية



مراجع اعداد البحث

- خريدة القصر - قسم شعراء الشام د. الهادي الاصميهاني - تحقيق الدكتور

شكري فيصل

- معجم الادباء - ياقوت الحموي - طبعة أحمد فريد الرفاعي

- الاغلاق الخطيرة - ابن شداد - تحقيق يحيى عبارة - وزارة الثقافة

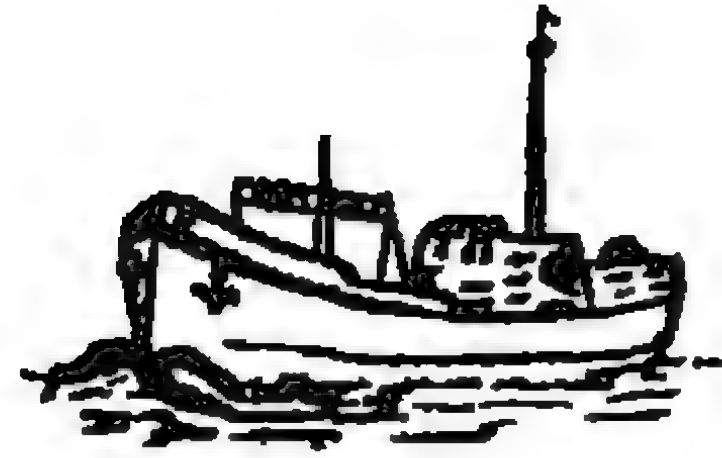
- التاريخ العربي والمؤرخون الدكتور شاكر مصطفى - دار العلم للملايين

- الاعلام . خير الدين الزركلي

- ابن عساكر في ذكرى تسعمائة سنة على وفاته

وزارة التعليم العالي بدمشق

- تاريخ مدينة دمشق . مصورات مجمع اللغة العربية بدمشق



معرض الكتب

التاريخ العربي القديم

تأليف جماعة من الأساتذة المختصين
ترجمته واستكله : د. فؤاد حسنين علي
راجع الترجمة المرحوم : د. زكي محمد حسن

عَنْ وَلَدِ خَيْصٍ
وَلَدِ سَافَةِ خَالِدِ السَّيَّاحِي

تمهيد : في يناير / ١٩٢٧ ظهر باللمانية كتاب « التاريخ العربي القديم »
يبحث في تاريخ بلاد العرب السعيدة قبل الاسلام ، مشتملاً على خمسة فصول
كتبها عدد من الاساتذة المختصين في الجزيرة العربية آثاراً وتاريخاً ، ولغة ، وأدباً
كتب الفصل الاول الدكتور : ديتلف نيلسن بعنوان : تاريخ العلم
ونظرة حول المادة .

وكتب الفصل الثاني الدكتور : فرتز هومل بعنوان : التاريخ العام لبلاد
العرب الجنوبية .

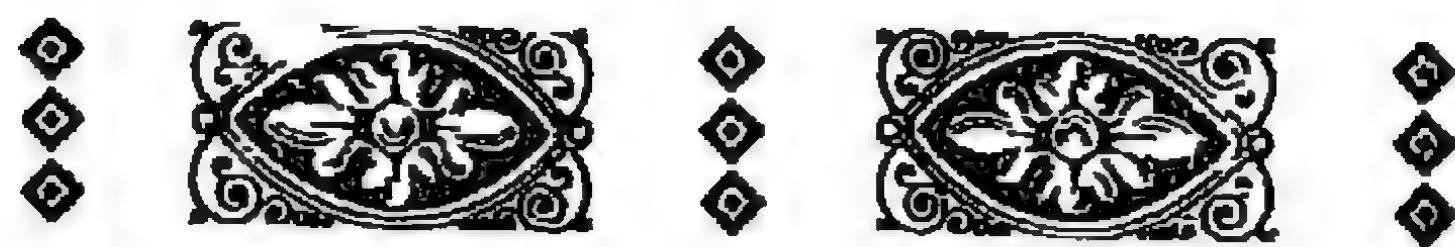
وكتب الفصل الثالث : نيكولوس رودكافاكين بعنوان : الحياة العامة
للدول العربية الجنوبية .

وكتب الفصل الرابع الدكتور ادولف جررومان بعنوان الناحية الاثرية
لبلاذ العرب الجنوبية

وكتب الفصل الخامس الدكتور : ديتلف نيلسن بعنوان : الديانة
العربية القديمة .

ثم استكمل المترجم الدكتور : فؤاد حسنين علي ، بعض فصول الكتاب بما
استجد من معلومات منذ صدوره عام / ١٩٥٨ / أغنى بها فصوله .
في عرضنا للكتاب سنكتفي بتلخيص الفصل الاول منه ، وذلك لما
يتضمنه من معلومات قلما تتوفر في أي كتاب آخر .

في هذا الفصل بحث الدكتور « ديتلف نيلسن » في تأريخ علم البحث
والتنقيب عن الآثار والنقوش في بلاد العرب الجنوبية ، فتحدث عن البعثات
العلمية الأوروبية التي اقتحمت هذه البلاد ، في الفترة الممتدة من / ١٧٦٠ / حتى
اندلاع الحرب العالمية الاولى / ١٩١٤ - ١٩١٨ / وقد حاول « نيلسن » جهده
ان يكون المصور الامين ، فنقل اليها اخبار هذه البعثات والنتائج التي جاءت
بها ، ومدى الفائدة التي عادت على العلم منها ، واستغرق منه ذلك / ٥٠ / صفحة
ثم استكمل المترجم بـ / ٨ / صفحات تأريخ عمليات البحث والتنقيب في بلاد العرب
الجنوبية منذ صدور الكتاب عام ١٩٢٧ وحتى ترجمته عام ١٩٥٢ . ونحن هنا
- كما كانت المؤلف والمترجم في تأريخها لبعثات التنقيب ، أمينين - سنحاول في
تلخيصنا ان نقتفي اثرهما في الامانة بذكر تأريخ جميع تلك البعثات والرحلات
التي وردت عندهما ، كما يجدر التنويه ان ترقيم البعثات من اجل تنظيم التلخيص .



بهر العرب الجنوبية

البعثة الاولى : في منتصف القرن الثامن عشر اتصل مستشرق دانماركي وهو « كريستنسن ف . هافن » العالم في جامعة جوتنجن الالمانية بنيل دانمركي هو « الجراف برنشتورف » وحدثه عن الفوائد التي تعود على العلم من وراء ارسال بعثة علمية الى بلادالعرب الجنوبية ، فاقتنع «الجراف» بوجاهة الفكرة ، ففاته «فريدريك الخامس» - ملك الدانمرك في ذلك الوقت - في أمر هذا المشروع ، فأجابه الى طلبه ، واصدر أمره بوجوب تأليف البعثة ، وكانت على الوجه الآتي :

١ - كريستنسن هافن - لعلوم الاستشراق ٢ - بيتر فورسكول - للعلوم الطبيعية ٣ - كارستن نيبور - الضابط ٤ - كريستنسن كارل كرامر الطبيب ٥ - جورج فلهم بور ففيند - الرسام .

وفي / ٤ / يناير / . تركت البعثة « كوبنهاجن » فوصلت بلاد اليمن في أواخر / ١٧٦٢ / ولم يأت شهر أيار / ١٧٦٢ / الا وتوفي « المستشرق » ضحية حمى وتوفي في « مخا » . ثم لحقه « عالم الطبيعيات » في تموز / ١٧٦٣ / بمدينة « يريم » ثم واصلت البعثة الصير الى « صنعاء » فاحتفى الامام باستقبالها . وفي جزيرة « سقطرة » شيعت البعثة الرسام وخادمه . في آب / ١٧٦٣ / وفي « بومباي » مرض « الطبيب » ودفن هناك في شباط / ١٧٦٤ / . ولم يبق من البعثة الا « نيبور » فنفذ الخطة التي رسمت للبعثة . ولم تطلأ قدماء كوبنهاجن « الا في عام / ١٧٦٧ / والجدير بالذكر ان بعثة « نيبور » بلغت اماكن لم تطلأها قدم أوربي من قبل او من بعده ، ولقد لفت نظر من جاء بعده الى تلك الخرائب وما قشتمل عليه من نقوش « حميرية » باشارته اليها في خريطته .

وكذلك يظهر أن « نيبور » أول عالم أوربي ، رأى نقشاً عربياً جنوبياً وذلك
لأنه لما مرض في « نخا » زاره هولاندي اعتنق الاسلام واطلعه على نقش «دون
في ايجدية غير معروفة فقال «نيبور» لأشك ابدأ في ان الانسان ليوجد في الجهات
الجبالية باليمن ، خاصة فيما بين « تعز - صنعاء - تهامة » نقوشاً في اللغة الحميرية .
وعن طريق هذه البعثة ، عرف العلماء هذه الكتوز ، التي تنتظرهم ، والتي
تتصل بالآثار القديمة لبلاد العرب الجنوبية ، لذلك كانت بعثة « نيبور » فاتحة
البحث واللاهات وراء الآثار العربية .

الثانية :

في صيف /١٨١٠/ نجد الدكتور « و . ي ستزن » يحاول البحث عن النقوش
التي تحدث عنها « نيبور » وما كان يترك « صنعاء » ويتجه الى الجنوب حتى هثر
على النقوش التي اشار اليها « نيبور » واستطاع أن ينسخ بالقرب من المدينة
الحميرية « ضمارة » النقوش العربية الجنوبية الاولى ثم واصل سيره ماراً « بحدن »
حتى بلغ « نخا » فاعتقد اللوم انه ساحر ، لما وجدوا معه ثعابين ثم اختفي
داخل البلاد نهائياً .

ثم جاء رحالة آخر وهو « ارنود » وقد علم من سكان « مأرب » عن
مخلفات « ستزن » من رسوم واوراق وكتب مبهورة بامضائه الى جانب بعض
الرسائل والنقوش .

ولم يمر حادث اختفاء « ستزن » دون ان يترك أثراً في نفوس المغامرين
الأوربيين في الاحجام عن السفر الى بلاد العرب زهاء ثلاثين عاماً .

الثالثة :

وفي صيف عام « ١٨٣٦ » استطاع كل من « هلتون » و « كروتندن » الوصول

الى « صنعاء » بطريق كان السير فيها شاقاً لجفافها وشدة حرارتها ، مما أدى لمرض « ملتون » ورفاقه . ونجح « كزوتندن » فيما بعده في نشر النتائج التي وصلت اليها بعثته ، ومن بينها ، خمسة نقوش قصيرة سبائية وجدها في صنعاء

الرابعة :

نظراً لاهتمام الانكليز بالشواطىء اكتشف اللقنت « ولستند » عام ١٨٣٤ « حصن الغراب » الواقع على الشاطىء شرق « بال حاف » ، كما وجد فوق الصخر الاسود الذي بني عليه الحصن ، بعض النقوش ، من بينها نقش اشتمل على عشرة اسطر عرف باسم « نقش حصن الغراب » ويعود الى عام / ٦٤٠ / . ويعد أول نقش طويل كامل واضح عثر عليه . وفي العام التالي انتهز « ولستند » رسو السفينة في خليج قبة العين فقام برحلة متجهاً الى الشمال لمسيرة يومين في الصحارى ، فعثر على بقايا مدينة يطلق عليها اليوم (نقب الهجر) ، اما الاسم الاصلي فهو (ميفعة) وقد ورد ذلك في نقش بجائط نقله الانجليزي ، واسمه نقش نقب الهجر

الخامسة :

في عام ١٨٣٢ قام المبشر (ولف) برحلة من نخا الى صنعاء وعاد بخفي حنين وكذلك كان نصيب عالم النبات (بوتا) الذي قام برحلته ١٨٣٨ الى الجهات الغربية الجبلية .

وبعد هاتين الرحلتين ادرك العلماء ان مآلديهم من النقوش يصلح لان يكون أساساً لدراسة اللغة العربية الجنوبية ، فاضطلع العلماء الالمان بهذه المهمة وظهر (جرفيوس) و (روديجر) .

السادسة :

في عام ١٨٤٣ سار الالماني « ادولف فون فريده من ميناء مكلا متجهاً باتجاه

الشمال الغربي حيث «حضر موت» . فعثر بعدها في سهل ميفعة الشرقي بوادي «أوبنه» على بقايا حائط قديم وعليه نقش حضرمي من خمسة سطور يعرف باسم نقش «أوبنه» .

السابعة :

وفي عام ١٨٤٣ ايضاً رحل الصيدلي «توماس يوسف ارنود» كطبيب للسفارة التركية الى صنعاء . وهناك هرب من رفاقه ، ووضع نفسه تحت حماية احد افراد قافلة متجهة من صنعاء الى مأرب واستطاع ارنود بتصريح خاص من أمير المدينة ان يدخل مأرب وخلفها تاريخها الغني المجيد ، وما كاد ارنود يدخل مدينة مأرب حتى سارع ورسم تخطيطاً يبين السد ، كما نسخ عدداً من النقوش ولان الامير وضع ارنود تحت حمايته ، استطاع ان يفحص خرائب مأرب القديمة وهي عبارة عن طبقة أرضية من بقايا سور المدينة المحيط بها ، وكذلك معبد (المقه) (١) الواقع خارج المدينة ، الذي يطلق عليه العرب اسم (حرم بلقيس)

١ - المقه ، اسم الاله القمر السبائي ص ٢١٦ وهو سين الحضرمي وعم القتباني و(ود) المعيني وكلها أسماء لاله القمر ص ١٨٩ - (عن كتاب التاريخ العربي القديم وديتلف نيلسون) واليه يشار دائماً أما الاسماء العادية للقمر كاله قهري ، والتي نجدها عند مختلف الشعوب السامية فهي (ورخ) و(سين) و(شهر) فهذه الاسماء غالباً ما نجدها في مختلف النقوش سواء أكانت في جنوب بلاد العرب او بلاد الحبشة او في شمال البلاد العربية . لكن الشيء الاهم هو ان كل الاساطير التي لدينا بمحتوياتها الدينية المختلفة ترجع كلها الى القمر ص ٢٠٧

وكما ان الشمس هي الام العظمى للآلهة كذلك القمر هو الاب السهاوي ص ٢٠٨ (ومن عدد عظيم من الاسماء والالقباب يتضح لنا ان هذا الاله كان ينظر اليه كالجد الاكبر للقبيلة و للشعب ، وبني آدم . من هذه الاسماء نجد لفظ (أب) وكذلك (عم) وقد اصبحت ذلك اللفظ في العربية المتأخرة قاصراً على (العم) . لكن قديماً كان يدل على نفس المعنى الذي يدل عليه لفظ (أب) بمعنى الجد الاكبر والاصل . وبهذا المعنى يلعب هذا اللفظ الدور الهام في وصف ذلك الاله بكونه الرحمن الرحيم بالبشر وحاميهم ص ٢٠٨

وفي اثناء عودته الى صنعاء ، انتهز استراحة القافلة بمكان قريب من خربة غنية بالخرائب ، سار اليها ليلا ، برفقة دليله ، فاستطاع ان ينسخ بعض النقوش التي تتحدث عن بناء العاصمة السبئية الاولى صرواح ، وقد قاسى ارنود الاهوال في الطريق من صنعاء الى شاطي ، تهامة الا ان وصفه للرحلة والنقوش السبئية التي يبلغ عددها ٥٦ نقشا وصلت الى القنصل الفرنسي (فرسنل) وكان هذا القنصل من المعنيين بمثل هذه الدراسات ، خاصة اللهجات العربية الجنوبية ، وكانت ترجمته لمثل هذه النقوش في ذلك الوقت ، مسألة صعبة ، ومع ذلك ارسلها (فرسنل) الى المجلة الآسيوية هام ١٨٤٥ وقد استخدمت الحروف العربية الجنوبية للمرة الاولى ومن بعض ملاحظاته ، تبين لنا انه كان على حق في شروحه ، كما كان على شيء من الخبرة في النقوش العربية الجنوبية . وقد قام (ارنست اوسيندر) ببعض البحوث حول نقوش (ارنود) وشرحها كاملة قبل وفاته ١٨٦٤

الثامنة :

اذا استثنينا نقوش ارنود فمعظم النقوش التي وصلت أوروبا كانت على يد الانكليز ، ولذا بدأت فرنسا تهتم بالامر ، فقررت اكااديمية الفنون الجميلة ارسال المستشرق يوسف هلفي في بعثة الى بلاد اليمن ، استطاع هلفي ان يتصل هناك باليهود اليمنيين ، كما تبين له ، انه من السهل على اليهودي ان يتجول بين افراد القبائل العربية المستقلة ، كما تقتضي الشهامة العربية ، عدم الاعتداء على اليهودي الاعزل حفاظاً على الكرامة البدوية ، لذلك استغل هلفي هذه التقاليد ، وتزياً بزي يهودي فقير ، حضر من القدس الى اليمن عام ١٨٧٠ ، وأخذ يتنقل في مختلف الجهات التي كان من العسير على غيره بلوغها .

ومن صنعاء بدأ رحلته غارقاً الجوف الى بخران وهناك وقف امام خرائبها

ثم تركها متجها جنوباً ماراً بأرب و صرواح عائداً الى صنعاء .

لكنه عاد يحمل الكثير من المواد العلمية الى فرنسا ، وقدم للاكاديمية ،
مالايقل عن ٦٨٦ نقشاً لم يعرف العالم منها من قبل إلا ١٥ نقشاً جمعها من ٣٧
مكاناً ، ونشرها هليفي عام ١٨٧٢ ، مع ترجمة لها تتفق والمستوى العلمي
لمصره وبعدها نشر هليفي بحثاً حول لغة النقوش .

والقيمة العلمية الكبرى لهذه الرحلة ، ليست في كمية نقوشها ، وإنما
للمعلومات الجديدة التي جاءت بها . فمنها عرفنا أنه كان هناك حضارة راقية
رفيعة لشعب ضرب في المدينة بحظ وافر .

في الجوف العربي الجنوبي وشمال شرقي صنعاء اكتشف « هليفي » آثار
تلك الحضارة الرفيعة التي مدنها فوق مرتفعات حصينة ، تبين من النقوش
فيها بعد أنها مدن « معينية » قديمة بينما النقوش التي عرفت من قبل كليا في اللغة
السبائية ، وقليل منها في اللهجة الحضرية ففي خرائب المدن المعينية عرف
« هليفي » العالم على معابدهي على جانب عظيم من البهاء ، وعثر على مرتفع
يظهر أنه كان مكاناً مقدساً ، نسخ منه / ١٥٤ / نقشاً دينياً يتصل بالحياة الدينية
العامة ، ومنها نعرف أن المدينة الحالية « براقش » سميت قديماً « يطيل » وهي
من المراكز الثقافية المعينية . ووجد أيضاً مدينة تعرف اليوم « السوداء » اعتقد
قديماً انها كانت صناعية بالرغم من انها اليوم خرائب ، واكبر مدينة لم تصلنا
الاخرائبها ، هي عاصمة دولة معين « فرناو » واليوم « معين » حيث تقع على
مرتفع طوله / ٢٨٠ / م وعرضه / ٢٤٠ / م يحيط به سور عظيم ، وجد عليه
« هليفي » وعلى غيره / ٨٠ / نقشاً .

في تلك الفترة أصبحت اليمن منذ عام ١٨٧٠ أياًلة تركية ، حتى الحرب

العالمية الاولى . وكثيراً ما كان الموظفون الاتراك يشترون بعض النقوش التي كان العرب يجلبونها الى صنعاء ، ولذا اصبح المتحف التركي يضم /٥٠/ قطعة معظمها سبأية .

وكانت من نتيجة رحلة «هليفي» ومشتريات الاتراك ، أن زاد الاهتمام بآثار البلاد العربية الجنوبية لذلك قام الكثيرون بقلدها وبيعونها للمتاحف الاوربية إلا أن العلماء اهتموا إلى هذا التزوير ، عن طريق جعل متقطعة ، أو كلمات مكتوبة على مادة جيدة ، وقد أفادت من حيث أنها كانت تقليداً لاجزاء اصلية

التاسعة :

وفي عام ١٨٨٠ أقدم العالم المستشرق النمساوي استاذ اللغة العربية « ادوارد جلازر » على رحلة من قبل الاكاديمية الباريسية الى مصر ، ليتزود باللغة والعادات والتقاليد العربية .

وبينما كان « جلازر » في طريقه إلى اليمن ، اقترح مستشرقو « فيينا » ارسال المستشرق الشاب أخصائي اللغة العربية « سيجفر لينجر » عام ١٨٨٢ إلى اليمن عن طريق سورية ، فجدة ، فقهذه ، فالحديدة وفي طريقه الى صنعاء مخترقاً بلاد حمير القديمة ، هثر على نقش حميري كبير واهتدى إلى الخرائب الحميرية ، التي اشار اليها « نيبور » وفي صنعاء استطاع نسخ نقشين ، ولم يسمح له الاتراك بالتقدم داخل البلاد فأعادوه الى الحديدة .

لكن « لينجر » لم يفقد الرغبة في المغامرة فتوجه إلى عدن ، وتوصل الى نقوش لا يعرف من أي الجهات وصلت لعدن . من بينها نقش هام جداً من الناحية اللغوية ، فهو في اللهجة الحضرية ومن عدن تنكر في زي احد الاعراب ليصل الى الخرائب داخل البلاد ، فكشف دليله أمـرحيلته ، فقتله بعد

مسيرة أيام قلائل من عدن ومن حسن الحظ ان لنجر كان قد أرسل من قبل هذه النقوش والتي يبلغ عددها ٢٢ نقشا الى « فيينا » ونشرت بعد وفاته .

العاشرة

وفي نفس العام الذي قتل فيه « لينجر » وصل جلازر الى صنعاء فاحتجزه الاتراك محتجين بمصير لينجر لكن جلازر اقنع كبار الموظفين بأهمية مهمته فاستطاع أن يقوم مابين ١٨٨٢ - ١٨٨٤ بثلاث رحلات في شمال بلاد اليمن .

الرحلة الاولى : كانت بمرافقته حملة تركية حربية لفتح مدينة سودة التي كانت تناصب الحكومة العداء ، حيث نجح « جلازر » تحت حمايتهم في القاء نظرة عامة على البلاد .

الرحلة الثانية : قرر القيام برحلة في رفقة بعض اليمنيين الى شيام - كوكبان - رهجة عمران ، وجميعها بالقرب من همدان . وهناك فحص خرائبها ونسخ نقوشها ، ثم وافته قرصة ثمينة بدخول منازل قبائل « حاشد » و « بكيل » فاستغلها بمعونة الحاكم التركي الذي اكتسب ود القبيلتين الاختين المتنازعتين اللتين كثيراً ما جاء ذكرهما في النقوش القديمة .

الرحلة الثالثة : في يناير ١٧٧٤ بدأ رحلته مع بعض شيوخ « ارحب » ثم أرسل نتائج رحلاته الثلاث الى الاكاديمية الفرنسية ، وهذه النتائج تلخص في أربعة أحجار فيها نقوش سبائية ، و ٢٨٠ نسخة لكتابات شاهدها .

الحادية عشرة :

في عام ١٨٨٥ يعاود « جلازر » السفر إلى بلاد العرب الجنوبية ، ولكنه ينحصر المنطقة الواقعة بين صنعاء وعدن بعنايته ، لانه يرمي إلى زيارة الخرائب - التي اشار اليها نيبور - الواقعة بالقرب من « ضمر » و « يريم » ، اتجه شمالاً شرقياً الى

رداع» . وحصل على ٣٧ نقشاً أصلياً معظمها في اللغة الميعينية ومن اقليم «جوف» اضيفت. هذه المجموعة ايضاً الى مجموعات المتحف البريطاني ، وتعتبر اكبر مجموعة ميعينية وصلت إلى أوروبا بعد مجموعة « هليفي » وقد عاد « جلازر » من رحلته هذه ، ومعه اكثر من ١٥٠ نسخة من النقوش الجنوبية .

الثانية عشرة :

وفيما بين ١٨٨٧ - ١٨٨٨ قام جلازر ايضاً برحلة أخرى قاصداً مأرب العاصمة القديمة لسبأ وهي واقعة في وادي ضنة شرق صنعاء . وقد وفق جلازر اذ قضى ستة أسابيع وسط خرائب مأرب ومعالمها التاريخية . ففي مأرب استطاع ان يرسم جلازر تخطيطاً لآثار القنوات القديمة وسدودها العظيمة التي كانت مصدر خصوبة لمملكة سبأ وسبباً قوياً من أسباب حضارتها ونسخ الكتابات التي كانت على السدود كما قاس محيط المعبد لاله القمر وقد ظل هذا المعبد قروناً عديدة صامداً امام قوة الصحراء ، يحمل في بنيانه دلائل الحضارة والرقى .

كانت نتيجة الرحلة ما يقرب من ٤٠ نقشاً سبائياً ، عدد القطع الأثرية والمعقود والخواتم ، وجميعها محفوظة « ببرلين » وقد أحضر ايضاً ما يقرب من ٤٠٠ نسخة لكتابات عربية جنوبية ، لم يبق أحد حتى اليوم بنشرها ، ثم قضى جلازر عواماً صرفها في الابحاث العلمية ، ودراسة تلك النقوش .

الثالثة عشرة

وبين عام ١٨٩٢ - ١٨٩٤ عاود جلازر الكرة بمساعدة « اكاديمية براغ » إلا ان الظروف السياسية في بلاد اليمن ، كانت غير مواتية ولا تشجع على التوغل داخل البلاد لان القبائل كانت تائرة على الاتراك ولذلك علم جلازر بعض البدو طريقة طبع النقوش على الورق ثم أرسلهم من صنعاء الى الجهات المختلفة وكانت لهذه المحاولة نتائج باهرة فقد كان يعطي مبلغاً مغزياً من المال عن كل نقش

يطبعونه . فأخذوا يبحثون عن الخرائب التي لم يصلها أوربي من قبل ، واستطاع جلازر عن طريقهم الحصول على الكثير من النقوش المعينية من إقليم «الجوف» منها ما كان قد احضره سابقاً «هليفي» بشكل غير واضح كما حصل جلازر على نقش صرواح العظيم الذي يشتمل على اكثر من ١٠٠٠ كلمة وعلى مايقرب ١٠٠ نقش ظهر انها ترجع الى الدولة القتبانية .

فمن طريق رحلة الصيدلي الفرنسي «ارنود» والمستشرق هليفي ظهرت دولتان بفضل النقوش «السبائية» و «المعينية» ، كنا نعرفها من النصوص الكلاسيكية ، والتي بدورها تحدثنا عن أربع دول عربية جنوبية (للمعنيين والسبائيين ، والحضرميين ، والقتبانيين) . ولكن النقوش لا تحدثنا الا عن ثلاث لهجات لثلاث دول اما الدولة « القتبانية » الاخيرة ، فلم يرد ذكرها او ذكر ملكها الا في نقش واحد ومنه عرفنا بوجود دولة بهذا الاسم ، ولم نعرف شيئاً عن لغتها أو أديها وثقافتها او موقعها . حتى ظهرت وثيقة منحوتة في الحجر تتحدث عن سكان تلك الدولة . والفضل في الحصول تلك الوثيقة ، يرجع الى البدو الذين احضروها الى « جلازر » والنقوش المائة تتحدث عن الحياة السياسية والتاريخية والدينية ، وجدت في اماكن عديدة في الدولة القتبانية ، وبذلك أزيح الستار عنها من الناحيتين التاريخية والثقافية .

أما القيمة العلمية لرحلات « جلازر » يكفي ان توصف بأنها فتحت عهداً جديداً لمعلومات عن بلاد العرب السعيدة ، كما أغنتنا في معرفة تاريخ الشرق القديم . اما السر في نجاحه فيرجع الى اعداده العلمي ، فقد امتاز من غيره انه درس العادات والتقاليد واللغة العربية ، ثم انه كان يحدد هدفه قبل البدء في الرحلة وجلازر قضى عشرة اعوام بين العرب ، فاكتسب صداقتهم ، كما

كان محبباً لهم ، والا لما استطاع ان يحصل على ما حصل عليه .
وبرحلات جلازر تكاد الابحاث حول بلاد العرب الجنوبية تبلغ نهايتها
فيما يتصل بالنقوش والكتابات ، ولذلك نستطيع ان نلخص هذه الجهود
العلمية للرحلات في اعمال ثلاثة رجال هم « نيبور - هليفي - جلازر » .

الرابعة عشرة

ونظراً للنتائج الباهرة لرحلات جلازر أعدت اكاديمية فيينا تحت اشراف كل
من « د . د . ملر » و « ك . لندبرج » بعثة علمية الى بلاد العرب عام
١٨٩٨ ، وحين وصلت ميناء عدن بدأت الصعوبات امامها ، لان البعثة لم تحصل
على اذن خاص من الحكومة البريطانية ، بالتوغل داخل البلاد . لذا أبحرت
إلى « بال حاف » بحضرموت ، وهناك زارت البعثة الخرائب الواقعة
بالقرب من شيوخ عن طريق « عزان - انصاب - وحبان » . ولم تستطع البعثة
إلا طبع النقش الموجود في نقب الهجر بالقرب من عزان التي سبق ان زارها « لستد »
١٨٣٤ وطبع نقش « اوبنه » و « حصن الغراب » .

وفي عام ١٨٩٩ توجهت السفينة الى جزيرة سقطرة لدراسة لهجتهم ، كما درست
فيها بعد اللغات الحديثة في الصومال ومهرة وسقطرة وشخوري ، ونشرت ابحاثا
فيها فيما بعد .

جهود متفرقة

وفي الاعوام الاخيرة ، ساهم أمثال (فان دن برج) و (ا . دفلرز)
و (ج . و . بري) وآخرون في زيادة معلوماتنا عن بلاد العرب الجنوبية ،
وذلك لان الساحل الجنوبي العربي واقليم حضرموت الغني بالآثار والنقوش ،
يقع تحت النفوذ البريطاني ، ومن الصعب الحصول على تلك النقوش عن طريق
الرحلات . ولما نشبت الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ - ١٩١٨ دب الكسل لدى

العلماء عن الاهتمام ببلاد العرب الجنوبية ، لكن (أولف هوير) المبشر
الدانمركي في عدن اغلق أبواب مدرسته ، وعاد الى بلاده ومعه طبقات لبعض
النقوش العربية الجنوبية ، كما تمكن زوج ابنته الماجور الانجليزي (يعقوب) من
ارسال مجموعة من الآثار الى دلهي .

الدراسة العلمية للآثار .

ان دراسة بلاد العرب الجنوبية . قبل الحرب العالمية الاولى ، كانت قد خضت
خطوات واسعة بفضل (جرنيس وأوسيندر وبرتوريوس واد. هملر)
والأخير نشر كثيراً من النقوش ، كما عني بالقواعد وحاول ترتيب النقوش
ترتيباً زمنياً ، ووجه اهتماماً كبيراً لدراسة المصادر العربية الشامية الاسلامية
التي عثت ببلاد العرب الجنوبية .

وقد اهتم بمثل هذه الدراسات القنصل الالماني في القسطنطينية الدكتور
(ي . ه. هورتمان) ويشاركه (مارك ليدزبرسكي) في جوتنجن في دراسة كثير
من النقوش ومعالجتها علاجاً علمياً دقيقاً . وأخيراً نجد الدكتور (فريتز هومل)
يضع في ميونيخ كتاباً في قواعد اللغة العربية الجنوبية مع ثبت بالمراجع
والنصوص ومعجم لها .

ومن حسن الحظ ان الدكتور (جلازر) منذ هودته من رحلاته حتى
وفاته ١٩٠٨ وجد أمامه فسحة من الوقت مكنته من العناية بالنقوش ،
ودراسة مشاكلها ، لوضع تاريخ لبلاد العرب الجنوبية .

كذلك الحال مع استاذ جامعة برلين (مارتن هورتمان) ، فإنه بعد ان
سبق ونشر النصوص ، توجه لدراساتها وكتابة بعض البحوث حول الحياتين
الرسمية والاجتماعية في بلاد العرب الجنوبية معتمداً على الآثار ، وكذلك فعل

زميله في الجامعة (هو جو فنكر) درس بعض النصوص العربية الجنوبية ،
ونشرها فخدم بذلك تاريخ الشرق الأدنى وثقافته وعقائده .

والآن لابد ان يتساءل القارئ ما الفوائد التي عادت على العالم من تلك
الرحلات ؟ وعم تحدثنا هذه الآثار ؟ .

إن تلك الآثار كلها قد دونت بلغة واحدة وتحدثنا عن عظمة غابرة لبلاد
يمكن أبنائها أن يقيموا مدنية رفيعة وقصة هذه المدنية كغيرها من القصص
تنمو وتزدهر مادامت عوامل النمو متوفرة ، أما إذا زالت الأسباب انعدمت
النتائج . فالمدنية العربية الجنوبية ظلت قوية حتى افلقت الطرق التجارية من
يد العرب الجنوبيين فذبلت وقضي عليها . وكما ان حل رموز اللغة
(الهيروغليفية) فتح صفحة جديدة في تاريخ العالم كذلك حل رموز المسماية
الاشورية البابلية اضاف فصلاً جديداً على فصول سجل العالم . وهكذا الحال
مع بلاد العرب الجنوبية فقد كشفت هذه الآثار عن حضارة عربية قديمة
لا تقل عن أختيها المصرية او البابلية الاشورية .

ملاحظة : ثم يكمل المؤلف (نيلسن) بحثه تحت العناوين التالية :

الكتابة

فقد كشف حل رموز تلك النقوش للعلماء الغربيين ان لغتها لم تدون
في اشارات تعبر عن افكار او مقاطع ، كاللغة السامية الاشورية وانما . جاءت
بأبجدية تعبر عن تسعة وعشرين صوتاً ، وهي تقابل الابجدية العربية الشمالية
وان الكتابة من نوع الكتابة السامية العربية ، أعني كتابه حروف فقط
تقرأ من اليمين الى اليسار ويلاحظ ان الابجدية العربية الجنوبية اقرب الابجديات
السامية الى الحبشة الا أنها مع مرور الزمن ، أخذ يطرأ عليها بعض التحول ، إذ

ان الحروف القديمة مستقيمة عادة ومن السهل التمييز بينها وبين الحديثة المموجة
لحد ما فهذه الفوارق هامة جداً لانها تؤرخ هذه النقوش وتميز بينها .

مادة الكتابة :

استخدم الحجر بأنواعه المختلفة مادة للكتابة . أما النقوش فتوجد عادة في
المباني محفورة بدقة وجمال . أما كتابات المعابد فقد كانت حروفها كبيرة يمكن
قراءتها من مسافات بعيدة ، وقد عثر على الواح مدفونة مكتوبة . ورؤوس
التماثيل من الرخام وخواتم واختام وقطع نقود ذهبية وفضية ونحاسية .

اللغة :

ثبت أنها لهجة سامية قريبة الى الحبشية ، واللغة العربية الشامية لغة القرآن
الكريم . وقد فرق العلماء في اثناء شرحهم وترجمتهم للنقوش بين أربع لهجات
تمثل كل منها دولة من الدول التي قامت في بلاد العرب الصاعدة . ولم يبلغ بعد
دراسة اللغة العربية الجنوبية مرحلة الكمال . وحاول « فريتز هومل » سد
النقص فوضع كتاباً في القواعد السبائية ، ولا تزال تحتاج الى اخراج معجم لغوي
للغة الجنوبية ، خاصة وأن هذه النقوش تقرب من الألفين .

المحتويات :

تعبّر الآثار التي وصلتنا عن مواضيع مختلفة ، الا أن أغلبها يتحدث عن العبادات
وكتابات المعابد التي تتصل بتقديم القرابين ، وهي تكاد تكون ذات صيغة
واحدة مكررة في نقوش كثيرة وغالباً ما يكون النص كالآتي :

« فلان بن فلان قدم للآله « عثر » (١) مثلاً أو

١ - عثر ، تدل على آلهة من آلهة الطبيعة أي الزهرة . ص ١٧٨ . وهي (عثرت)
عند الكنعانيين .

« ود » (١) أو « شمس » (٢) مابأتي - مذابح ، هدايا النخ . . . شكراً للآلهة الذين استجابوا دعاءه ، وبعد ذكر سبب تقديم القرбан نجد غالباً التاريخ يذكر باسم الملك الحاكم ، ويختتم النص بدعاء موجه للآلهة .
والنصوص لا تفصل الحديث عن الدين لكنها تكثر من ذكر أسماء الآلهة ، والاعلام المستمدة من اسماء الآلهة كلها ولاشك تعيننا على فهم الدين ونوع الآلهة والعبادات .

الحبشة

ليس الساميون الذين خلفوا لنا في بلاد الحبشة آثاراً وآداباً هم العنصر الاصيل فيها بل هم هاجروا إليها من بلاد العرب ، وذلك لان لغتهم عبارة عن لهجة عربية جنوبية ، أما اللغة والخط والثقافة فسبائية منذ البداية ، وذلك لان بعض المهاجرين من بلاد العرب الجنوبية ، نزحوا إلى البلاد فيما يظن في قرون بعيدة قبل الميلاد وأسسوا مستعمرات ، ووضعوا الاساس لدولة الحبشة التي اخضعت فيما بعد في القرن السادس الميلادي بلاد العرب الجنوبية لسلطانها .

١ - ود : صنم كان يعبد في وادي القري بدومة الجندل . قال الكلبي : فحدثني مالك بن - حارثة الاجداري أنه رآه يعني « ودا » قال : وكان أبي يبعثني بالبن اليه فيقول اسقه الهك قال : فأشربه قال ثم رأيت خالد بن الوليد بعد كسره فجعله جذاذاً . وكانت العرب تسمي « عبدود »
« كتاب الاصنام لابن الكلبي ص ٥٢ »
لها دلالة معنوية اصبحت آلهة ومعناها « حب » ويقصد به الحب الالهي ص ٢٠٩
وقد ورد معناه في نقش سبائي « اله القمر » وفي نقش معين أنه وصف « النامي » كأنه اله القمر ، وفي التمودية كتتحية وكاله وجد في النصوص اللحيانية ، ففي النقش اللحياني رقم « ٤٩ » نجد « عبدود » أي كاهن « ود » وقبيل ظهور الاسلام ورد ذلك اسم الآله ضمن اسماء اعلام كما ذكر في القرآن الكريم « سورة ٧١ آية ٢٢ » وقد حكى القرآن عنه بأنه صنم جاهلي قديم وجد قبل زمن الطوفان ص ٢٠٩ .

٢ - شمس . صنم قديم قال صاحب التاج ان ابن الكلبي ذكره « وليس له ذكر في كتاب الاصنام فلعل ابن الكلبي اشار اليه في كتاب اخر » وقد سمت العرب « عبد شمس » وهو بطن من قريش ، قيل سموا بذلك الصنم واول من تسمي به سبأ بن يشجب
« احمد زكي محقق كتاب الاصنام لابن الكلبي »

ففي ربيع عام ١٩٠٦ وصلت بعثة المانية برئاسة « انوليتان و د - كرنكو »
للحبة لدراسة خرائب « اكوم » ، نشرت نتيجة أعمالها في أربعة مجلدات
وتشتمل على ٥١ لوحاً و ٨٧٣ صورة للنصوص . فأثار الحبة لا تبلغ في الكثرة
تلك التي وجدت ببلاد العرب الجنوبية ، فقد جاءت من الحبة ١١ نقشاً طويلاً
و ٤ نقوش قصيرة ، وجميعها وثائق تاريخية هامة وهي تشمل عصرأ يبلغ نحو
١٥٠٠ عاماً وتكشف اللثام عن حضارة كانت مجهولة تماماً .

واقدم هذه النقوش جاءت في اللغة السبائية والخط السبائي ، وترجع إلى
منتصف الألف الأول قبل الميلاد . وفي حائط كنيسة قائمة على قمة جبل
« الانباينتيون » وجد حجر يتحدث عن مكان سبائي مقدس ذكر فيه الآلهة
السبائية « ذات بعدن » (١) كما وجد جزء من نقش سبائي لتقديس الآله العربي
الجنوبي « عثر »

وقد وجدت وثيقة هامة تتصل بالملك عزانا وهي على لوح الجرانيت الاسود
ترجع إلى القرن الرابع الميلادي وتذكر في اللغة القومية آلهة الاكوميين ، في

١ - ذات بعدن ، آلهة سبائية وضعت كصفة او للتعبير عن شكل خاص . ففي العربية نجد
مثلاً ضمير الاشارة « ذو » للمذكر و « ذات » للمؤنث ، وبعض اسماء - فمثلاً : « ذو عقل »
أي سيد او صاحب عقل اي عاقل . ومثل هذا التعبير نجده مع اسماء الآلهة مثلاً
« ذو خلاص » و « ذو شرى » « ذو قبض » و « ذات اتواط » و « ذات هم » و « ذات
بعدن » جميعها مستعملة في معاني وصفية ، وهي مستعملة كألقاب وليست اسماء ص ١٩٠
واسماء الشمس في بلاد العرب الجنوبية غالباً ما تبدأ بلفظ (ذات) كما يرجع ان
آلهة الشمس كانت تسمى عند المصينيين (نكرح) وهو اسم غريب غامض وعند
السبائيين نجد من اسمائها (ذات بعدن) و (ذات غضرن) (ذات برن) وفي النقوش
القتبانية نجدها تسمى (ذات صنم) و (ذات صخرن) و (ذات رحين) . ص ٢١٧

ذلك الوقت مثل اله الحرب القومي « محرم » (١) وهو اللقب الملكي الوحيد
و « عتار » و « بحير » . (٢) و « مدر » والى الملك « عزاف » يمود ادخال
المسيحية الى « اكسوم » في القرن الرابع الميلادي ويؤيد هذا الرأي ، ان
لهذا الملك نقوداً وثنية ، وأخرى مسيحية جاءها بعضها

بلاد العرب الشمالية

إذا ما تتبعنا سير الثقافة السامية الجنوبية واتجاهها نحو الشمال استولت
علينا الدهشة ، وذلك لاننا إحق وقت قريب لم نكن لنمثر على شاهد ما في
الصقع الشرقي لشبه جزيرة العرب يشير إلى بقايا تلك الحضارة الذهبية الغابرة
وهذه الحقيقة أي عدم العثور على شيء من بقايا الحضارة السامية الجنوبية السائدة
صادقة سواء في « عُمان » المشهورة بالخصوبة او شمال شرق بلاد العرب . أما الآثار
التي وجدت خارج بلاد العرب الجنوبية فمعظمها في الجهات الصحراوية القاحلة
والجبلية الحجرية في شمال غرب بلاد العرب حيث تكشف لنا القناع عن الحالات
المختلفة التي مر بها الطريق التجاري العربي المار « بمكة » و « المدينة » والذي يمتد
حتى يبلغ « دمشق » . واكثر هذه الآثار وجدت في المدن التي فقدت كثيراً من
اهميتها اعني « الملا » و « الحجر » (مدائن صالح) و « بطرانة » و « بصرى »
و فيها الكثير من الخرائب التي ترجع الى ما قبل الميلاد مما يؤيد انها
كانت مركزاً تجارياً هاماً . وقد عثر العلماء على كثير من الآثار في قلب الجزيرة

١ - محرم : عند الساميين الجنوبيين كانوا ينظرون الى آلهتهم كأشخاص لها مالافراد
من خصائص ومميزات مثل (محرم) بمعنى (القديس) ص ١٨١ وقد جاء ذكره أيضاً
عند القتبانيين (حرم أن) أي المقدس ص ١٩١

٢ - بحير : آلهة من الهة الطبيعة ويعني (أرض) وهو من الاسماء النادرة وكذلك (مدر)
ص ١٨٨

« نجد » والجانب الغربي لبادية الشام وفي شبه جزيرة سيناء ويظن ان هذه الكتابات انتشرت الى قلب الجزيرة عن طريق القواعد التجارية .

والفضل في الحصول على كثير من النقوش العربية الشامية ، يرجع الى امثال « دوتي - وهوبر - وواتينج » الذين قاموا برحلات شاقة في شمال غرب بلاد العرب ، في الفترة الممتدة من / ١٨٧٦ - ١٨٨٤ / وقد بلغ ثلاثتهم « هایل » في شمال قلب الجزيرة .

وعندما اقيم خط حديد « مكة » استطاع امثال « جوسن ، سافيناك » الوصول الى خرائب « الحجر » و « العلا » و « تباه » كما نجح « برينو - وموصل ولمان » وآخرون في الكشف عن « بطرا » وماجاورها . اما الاشياء الاثرية التي عثر عليها في سورية ، فيرجع الفضل فيها الى رحلات امثال « فوجيه - ودنجتون » هام ١٨٦١ - ١٨٦٢ وقد أتمت مابدأه هذان العالمان ، فيما بعد ، بمشتان فرنسيان وآخران امريكيان .

وإذا ما قارنا هذه الآثار ، بتلك التي وجدت في جنوب بلاد العرب او الحبشة ، ادر كنا أننا في شمال بلاد العرب أمام مجموعة متنوعة من الآثار . كانت الثقافة العربية الجنوبية قاصرة على اقليم ضيق غاص بالكان ، والقبائل العربية الجنوبية أجمعت أمرها على ان تتحد بدول لها لغاتها وكتاباتها ودياناتها الرسمية والخاصة ، وهي ثقافة سامية جنوبية خالصة بعيدة عن المؤثرات الاجنبية بفضل الصحاري الواسعة الممتدة حولها . وعلى النقيض منها كانت الآثار العربية الشمالية منتشرة في جهات بعضها قفر ، والبعض الآخر آهل بالسكان حيث ان تلك الاماكن لم تكن خاضعة لحكومة مركزية واحدة . بل كانت ملكاً مشاعاً بين القبائل ، ويزيد في اهمية هذه الآثار ان قلب الجزيرة لم يعرف الوحدة السياسية قبل الاسلام . ويلاحظ ان الثقافة

السامية الشمالية ، لم تقتصر على وطنها الاصلي ، بل تسربت الى قلب الجزيرة عن طريق العبارة او الكتابة او الدين والمعبودات الدخيلة .

لكن سهول شمال بلاد العرب بما فيها الشام كانت منذ زمن بعيد مرتعاً بعيداً للبدو وماشيتهم . وذلك بفضل التقاء تلك السهول ، وهذه البوادي بطراف البلاد وان تكن سامية الا انها كانت تحيا حياة نصف بدوية ، فهناك تجد الفلاحين والتجار والجنود المرتزقة الذين كانوا يعملون في خدمة الدول الاجنبية بحماية حدود املاكها ، بفضل هؤلاء الجنود وأولئك التجار الذين كانوا على اتصال مستمر بعرب قلب الجزيرة ، تزاوجت الحضارة السامية الشمالية بأختها في قلب الجزيرة وذلك قبل الميلاد . أما هذه الثقافة السامية الشمالية فهي الثقافة الارامية . ففي الوثائق الاربع القديمة التي عشر عليها في «تياء» بين المدينة وبطرة نقرأ مثلاً كيف أنه قامت هناك مستعمرة آرامية تجارية حوالي القرن الخامس قبل الميلاد . كما أن كثيراً من النقوش النبطية يرجع تاريخها الى ما قبل الميلاد وبعده ، والتي عشر عليها في شمال غروب بلاد العرب ، وفي شبه جزيرة سيناء وحواران ناطقة بالعرب والعروبة ، إلا ان العرب هنا كانوا تجاراً يتكلمون الارامية ويكتبون بها .

وتنقسم الوثائق العربية الشمالية الى أربعة أقسام :

١ - الكتابات المعينية الشمالية التي وجدت في «العلا»

٢ - الكتابات اللحيانية

٣ - الكتابات الشمودية

٤ - الكتابات الصفوية .



الكتابات الشمالية المعينية :

اما مركز الثقافة العربية قبل الاسلام فيظهر مما جاءنا من آثار أنه كان يقع في الجنوب ، ذلك ليس لاسباب جغرافية فحسب بل تجارية واقتصادية ففي الجنوب نجد بضائع هندية متنوعة ، كلها كانت تحمل على ظهور القوافل العربية الجنوبية الى الشمال مخترقة مكة والمدينة والعلا الى بطرة حيث توردها لشعوب البحر الابيض المتوسط . ولحراسة تلك القوافل انشئت مستعمرات معينية في « العلا » شمال « المدينة » .

في ذلك المكان اكتشف اوبتنج ٢٥ نقشا و ٥٠ مخرشة تنسب للمستعمرة المعينية المعروفة باسم « معين مصران » التي جاء ذكرها في النقوش العربية الجنوبية . ومنها نستدل ان المعينيين الشماليين كانوا يستخدمون الكتابة والديانة المعينية التي استخدموها في وطنهم الاصلي ، فعند المعينيين الشماليين نجد نفس الثالث « عثر » و « ود » و « نكرح » (١) كما ان ود يرد ذكره عند الشماليين ككبير لاله شأنه في ذلك شأنه في الجنوب . وتبين للعلماء ان تدوين تلك النقوش المعينية الشمالية لن يكون أحدث من منتصف الالف الاول قبل الميلاد . ويستنتج من اسماء الملوك أنها عمرت في الشمال حوالي قرنين من الزمن .

الكتابات اللحيانية :

في (العلا) وجد ما يقرب من ٤٠٠ نقش يعرف باسم (اللحياني) وترجع هذه النقوش الى شعب او قبيلة يعرف باسم لحيان كما وجد تمثالان حجريان وقد يمثلان ملكين لحيانين وقد اهتم رجال الكتابات السامية الجنوبية بدراسة

١ - نكرح : هي آلهة الشمس عند المعينيين ومعناها لازال حتى الآن غامضا وموضع الخدس والتخمين ونحن نعرف اسماء آلهة الساميين الجنوبيين من النقوش ولا نعرف

هذه الاجزاء من النقوش والتخريشات العربية الشمالية لدراسة العصر الجاهلي الشمالي ، لأن ماروي لنا في المصادر العربية لايشفي ولاينفع والكتابة اللحيانية كتابة محلية حروفها سامية جنوبية وهي قريبة جداً الى الكتابة العربية الجنوبية والحبشية اما اللغة فلهجة غربية شمالية وهي ايضاً سامية جنوبية والدين ، كما يتبين من أسماء الافراد ، سامي جنوبي ايضاً مثل ود وسميع (١) وعثر ومناة (٢) ونسر (٣) أما كبير الاله فيظهر انه المسمى ذو غبت (٤) وبعض العلماء يرى أن تلك النقوش اللحيانية ترجع الى القرن الخامس او السادس قبل الميلاد .

الكتابات الثمودية :

في قلب الجزيرة وشمالها الغربي لايكاد يخلو حجر من نقش تذكاري ، وقد نسخ من هذه النقوش حتى مطلع القرن العشرين حوالي ٢٠٠٠ نقش ، ومما يؤسف أن له أن ماعرفه عن هذه النقوش العربية الجاهلية ضئيل جداً ، وبعض العلماء أطلق عليها لفظ « ثودي » لأن القرآن الكريم كثيراً ما يذكر الثموديين « الأعراف ، آية (٧٣) التوبة (٧٠) هود (٦١ - ٦٨ - ٩٥) ، كوثرين . وهذه النقوش تشتمل على كثير من الاسماء والمعبودات الوثنية ، كما وجد

١ - سميع : ومن مجموعة الاسماء الواردة في القرآن الكريم وفي النقوش العربية القديمة التي تصف الله بأنه حبيب البشر وأنه هو الذي يريد لهم الخير ، وأنه قريب وصديق نجد لفظ (ود) ولفظ (ود) يدلنا حقيقة على هذه المعاني وكذلك الحال مع الاسماء الاخرى الواردة في القرآن مثل (سميع و (حلیم) ص ٢٤٢

٢ - مناة : كان اقدم الاصنام « مناة » وكانت العرب تسمي « عبد مناة » و « زيد مناة » وكانت قريش وجميع العرب تعظمها

« كتاب الاصنام - ابن الكلبي ص ١٤ - ١٥ »

٣ - نسر : صنم كان بموضع من ارض سبأ يقال له يلخع تعبد « حير » ومن والاها فلم يزل يعبدونه حتي هودهم « ذو نواس » كتاب الاصنام - ابن الكلبي ص ٥٧ - ٥٨

٤ - ذو غبت : اسم اله لحياني من الاسماء التي لايزال معناها غامضاً

بينها نقش كتب في لغتين النبطية والشمودية ، ويرجع تاريخه الى ٢٦٧ م ، لكن يستدل من كتابة النقش انها ترجع إلى ما قبل الميلاد . والشيء الجدير بالذكر أن هذه النصوص ، تؤيد ان شمال بلاد العرب كانت له كتابة جاهلية خاصة ، وثقافة وثنية خاصة ، وذلك لأن الكتابة ظهر أنها مشتقة من العربية الجنوبية وليست من نوع الكتابة العربية الشمالية المتأخرة التي دون بها القرآن الكريم فالكتابة الاخيرة مشتقة من الايجدية السامية الشمالية من الآرامية .

واكثر أسماء الاله وروداً اسم « إله - آل » (١) و الهة - الات ورضى (٢) والاسمان الاولان لا يردان كما هو الحال في النقوش العربية الجنوبية والحبشية والحيانية في أسماء الاعلام فقط ، بل في النصوص أيضاً ولهما دور كبير اذ ان المعبود إله ، آل ، أصبح ينادى غالباً بلفظ هـ ال هـ أي الله بينما نجد ذكره نادراً عند الشعوب السامية الجنوبية حيث طفت عليه في العقر من معبودات أخرى .

ملاحظة : (لقد أشرنا في بداية المقال الى ان المؤلف نيلسن كتب أيضاً

الفصل الخامس وتحدث فيه عن الديانة العربية الجنوبية بمقدار ٧٠ صفحة

١ - آل - الهة - الات : يقول « نيلسن » ان الاسم المشترك لكل القاب اله القمر هو « ال » و « اله » بمعنى « الله » او ال . . . لكن نلاحظ في جميع اللغات السامية ان لفظ « ال » او « اله » في عهد تعدد الالهة يقابل تماماً لفظ (الات) او الهة ليس فقط كبديل لكل « اله » او « الهة » لكن كثيراً ما جاء كاسم علم خاص لاله وجاء في النقوش العربية الجنوبية من مدينة حرام ذكر ال كالهة

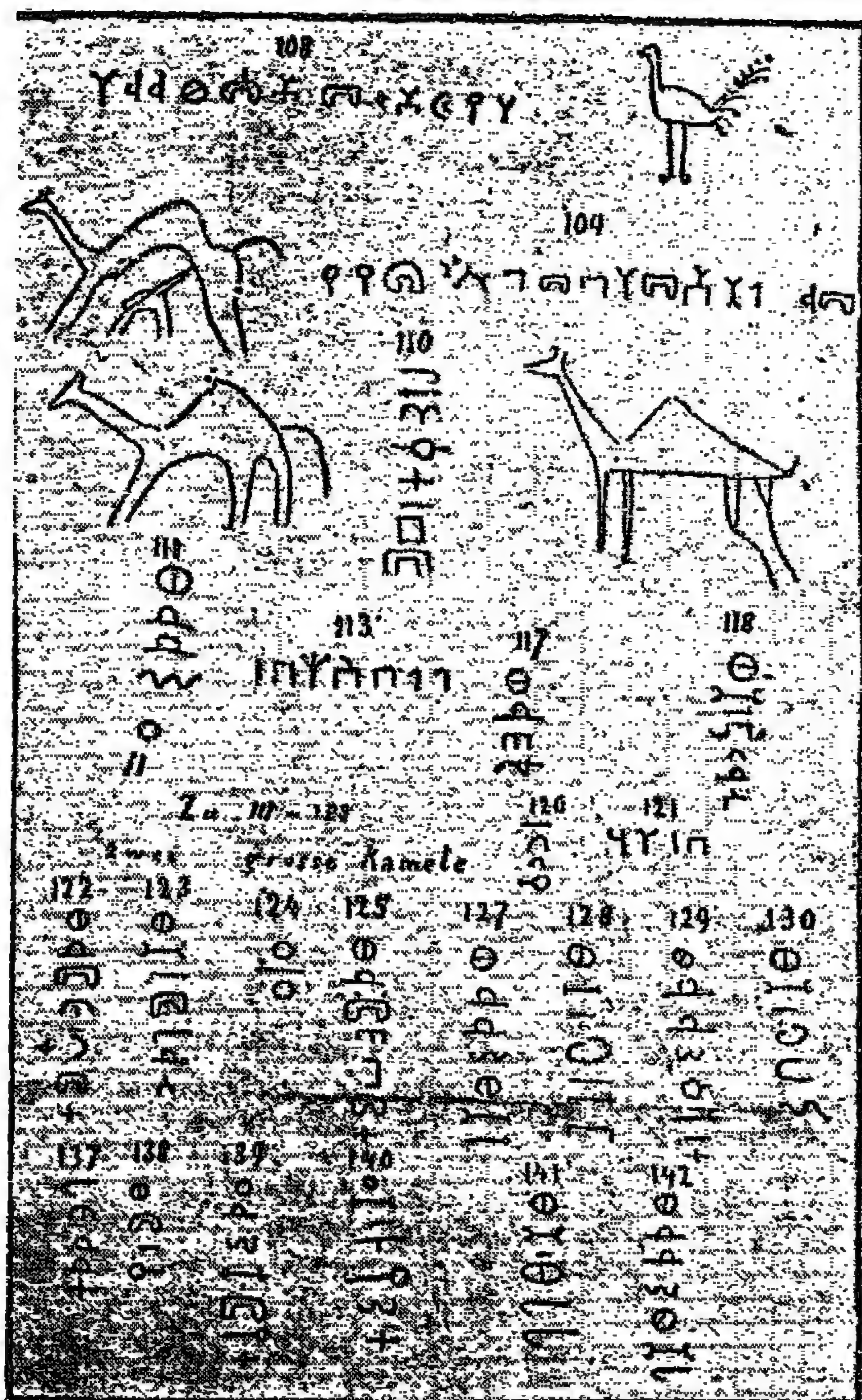
٢ - رضى : وقد كانت العرب تسمي باسماء يعبدونها منها عبد باليل عبد غم عبد كلال عبد رضى . ويذكر بعض الرواة ان رضى كان بيتاً لبني ربيعة فهدمه المستوغر ، وقال المستوغر في كبره رضى في الاسلام

ولقد شددت على رضاء شدة فتركتها تلاتنازع أسحبا

كتاب الاصنام لابن الكلبي ص ٣٠

لها دلالة معنوية اصبحت ومعناها رحمة

الاسم العربي الشمالي للمشتري هو رضى ص ١٩٢



خريطة شموية من بلاد العرب الشمالية عن أريتج انولينان حل الكتابات
الشمودية ١٩٠٤ اللوح ٣ منشورات جمعية الشرق الأدنى العام التاسع المجلد ١

تعرض فيها لاسماء هذه الاله بالتفصيل .

الكتابات الصفوية :

بمجموعه أخرى من النقوش تقدر بحوالي ٣ الاف نقش عثر عليها فوق
جبال الصفا جنوب شرق دمشق ، وهي قريبه جداً من حيث الخط واللغة

وأسماء الآلهة للمغربشات الثمودية . منها ما يرجع الى ٢٠٦ م و ١٢٤ م و ١٠٦ م . وفيها نقرأ أسماء المعبودات مثل : آله (هـ ال هـ و آلت) و « رضى » الى جانب أسماء معبودات سامية شمالية ونستطيع القول إن تلك المنطقة تقف على الحدود الفاصلة بين ثقافتين سامية جنوبية وأخرى سامية شمالية .

فالصفويون هم الوحيدون الذين نعرف شيئاً عنهم ، قبل أن يمتزجوا في الشعوب السامية الشمالية . فقد هرفناهم عن طريق هذه النقوش ، وهم مازالوا محتفظين بالخط السامي الجنوبي واللغة والعقائد السامية الجنوبية أيضاً . وذلك لانهم كما يتبين من آثارهم لم يتركوا حياة البداوة نهائياً ، بل كانوا يحيون حياة تجمع بين البداوة والحضارة وبالتدريج امتزجوا مع القبائل الشمالية المستقرة فبدأت تدخل المفردات والتراكيب السامية الشمالية الى هذه الوثائق الصفوية . ففي العصر الذي دونت فيه النقوش الصفوية كانت الثقافة الهلينية جامعة قوية ، فقد عثر العلماء مثلاً على نقوش تذكارية ترجع إلى القرن الرابع الميلادي في اللغة اليونانية جاء فيها ذكر للآلهة الصفوية التي اطلق عليها اليونان (اثينا) كما اطلق على كبير آلهة الصفويين اسم (زويس صنائوس) ومن بين النقوش العربية الشمالية التي ترجع الى ما قبل الاسلام ، ما كانت لفتها تتفق واللغة العربية الادبية التي نعرفها ، ومن الجدير بالملاحظة أنها ليست مدونة بالخط السامي الجنوبي ، بل دونت بالكتابة الارامية السامية الشمالية التي تطورت عنها فيما بعد الكتابة العربية الادبية في التدوين . وأهم هذه النقوش « نقش النهار » الذي عثر عليه « رينيه ديسو » جنوب شرق دمشق على جبل الصفا ، وهو نقش على قبر الملك « امرؤ القيس بن عمرو ملك جميع العرب » وقد توفي كما يدل النقش عام ٣٢٨ ويختتم هذا النقش بنص يفيدنا في تاريخ الاديان وهو :
ب ال س ع د ذ ول ده ومعنى هذه العبارة : بالاله سعد الذي ولده « أي امرؤ القيس » ، والى القرن السادس الميلادي يرجع نقشان عربيان

مؤرخان أحدهما في ثلاث لغات وهو « نقش زبد » جنوب شرق حلب وكتب باليونانية والسريانية والعربية ويرجع الى ٥١٢ م .

والنقش الثاني هو « نقش حران » ودون بلغتين اليونانية والعربية ويرجع تاريخه الى ٥٦٨ م . وقد اكتشفت نقوش سبائية جديدة ، غير التي تعرف باسم الحريشات السينائية النبطية . وقد أثارت اهتماماً عظيماً .

ففي عام ١٩٠٥ عثر « فلنדרز بتري » بوادي « مغلرا » في الجانب الغربي من شبه جزيرة سيناء ، فيما يقرب من منتصف الطريق بين السويس ورأس محمد على مجموعة من الرسوم البدائية ، و١١ نقشاً في ايجدية جديدة ، هي خليط من « الهيروغليفية » المصرية ، وإشارات أخرى اجنبية . هذه النقوش الفريدة التي فهم بعضها ، ويظهر فيها لفظ « ب ع ل ت » أي « بعة » أي « سيدة » وضعت مسألة أصل نشأة الايجدية السامية بشكلها الشمالية والجنوبية تحت ضوء جديد للبحث والدرس فتبين ان الايجدية السامية الشمالية والجنوبية نشأتا في الألف الاول قبل الميلاد وترجعان الى ايجدية واحدة كانت معروفة في الألف السابق على انقسامها وان هذه الايجدية الام تشير الى الاصل المصري كما أن هذه النصوص السينائية التي ترجع الى الفترة الممتدة فيما بين ١٨٠٠ - ١٥٠٠ ق . م هي الحلقة المفقودة في تطور ايجديتنا .

استكمال (من قبل المترجم)

— لقد وقف « نيلسن » بجدثيه عن آخر أعمال البحث والتنقيب التي قام بها العلماء الغربيون في بلاد العرب الجنوبية عند اندلاع نيران الحرب العالمية الاولى ، و اذا كان من نتيجتها ان أوقفت البعث الى الدراسات السامية . — ففي عام ١٩٢٨ وصلت بعثة الى بلاد اليمن من العالمين « ريجنز » و « فون

فيسمان « احتفل الامام بهما ، وطلب منهما الاشراف على اعمال الحفر التي كان يقوم بها في قرية « حقه » شمال صنعاء .

- وفي عام ١٩٣٦ . أرسلت جامعة « القاهرة » بعثة أثرية إلى بلاد اليمن وصرفت ستة شهور زارت « حضرموت » و « ناعط » قرب صنعاء . ونشر الدكتور « خليل يحيى نامي » عضو البعثة ما أحضرته البعثة من نقوش .

- وفي عام ١٩٣٦ أيضاً زار اليمن سوري يدعى « نزار مؤيد العظم » وأقام في « صرواح » و « مأرب » وكتب عن رحلته رسالة نشرها في القاهرة عام ١٩٣٨ . اما نقوشه فقد درسها « ج . ريكترز » .

- وفي عام ١٩٣٧ نجد ثلاث رحلات هن « ج . كاتون تمسون » و « آ. جاردنر » و « ف . شترك » يقدن إلى حضرموت ووادي « عمد » مقابل « حريضة » فكفشن عن معبد « لاله القمر » وعدد من النقوش وقد نشرت نتيجة رحلتهم عام ١٩٤٤ .

- كما قام بعض المغامرين برحلات إلى بلاد العرب السعيدة ، اقتصر نشاطها على نقل النقوش والكتابات وأشهرهم (فيلي) حيث بدأ من (جدة) ماراً (بنجرمة) (فعيبر) (قنجران) إلى (شبوة) ويريم في حضرموت ونشر نتائج رحلته بكتاب عام ١٩٣٩ .

- ثم نجد رحلات سياسية المظهر كالتي قام بها (هارولد) و (انجرامز) أفادتنا من الناحية الجغرافية عن إقليم حضرموت .

- وفي عام ١٩٣٨ نجد الصاغ (ا. هاملتون) يقوم بزيارة إلى (شبوة) .

عاصمة حضرموت .

- وفي عام ١٩٤٥-١٩٤٦ قام (تريجر) بعدة رحلات إلى بلاد العرب

السعيدة كتب عنها في الصحيفة الجغرافية .

- وفي عام ١٩٤٥ غزت ارتال من الجراد بلاد اليمن ، فاستغاث الامام بمصر فأرسلت جامعة القاهرة (محمد توفيق) فانتهر وجوده فقام بزياره الى الجوف وصور خرائبه ، ونشر جزءاً منها عام ١٩٥١ وانفرد الدكتور خليل يحيى ثامي بنشر بعض النقوش التي جاء بها .

- وفي عام ١٩٤٧ زار الدكتور « أحمد فخري » اليمن عدة مرات ، وزار ثلاث مناطق أثرية . صرواح - مأرب - الجوف . واحضر صوراً ونقوشاً لـ ١٣٠ نقشاً لم تنشر من قبل .

رأينا من العرض السابق الجهود التي بذلتها بعض الدول الأوروبية والعربية في سبيل الكشف عن آثار بلاد العرب الجنوبية ودراساتها . والآن مامدى مساهمة الولايات المتحدة الأمريكية في هذا النشاط العلمي . ؟

- في عام ١٩٤٧ حلقت طائرة أمريكية تحمل عدداً من اعيان اليمن وبعض الأمريكيين فوق خرائب اليمن وفيما بين عامي ١٩٥٠ - ١٩٥٢ نظمت مؤسسة دار الانسان الأمريكية حملتين علميتين برئاسة الاثري « وندل فيلبس » الحملة الاولى اهتمت بعمدن و الثاقبة باليمن . وقد توصلت البعثة إلى نتائج قيمة سواء في اليمن او عمدن وقامت بدراسة مستفيضة حول طرق الري قديماً في مملكة قتيبان كما كشفت عن معابد (تمنع) العاصمة القديمة لـ (قتيبان) ومنها علمنا ان آخر مرة خربت فيها (تمنع) كان حوالي ٢٥ ق . م وكشفت أيضاً البعثة في مأرب عن خرائب ترجع الى القرن السابع قبل الميلاد . مثل معبد « اله القمر » و « سد مأرب » وبعض النقوش السبائية . وقامت بحفائر في « ظفار » والبلد « وخور روري » . والفضل في ازدياد ثروتنا العلمية عن بلاد العرب الجنوبية يرجع ولاشك في الاعوام الاخيرة إلى هاتين الحملتين

- وفي عام ١٩٥١ تحرك في السعودية ركب مكون من « ريكنز » وابن اخيه

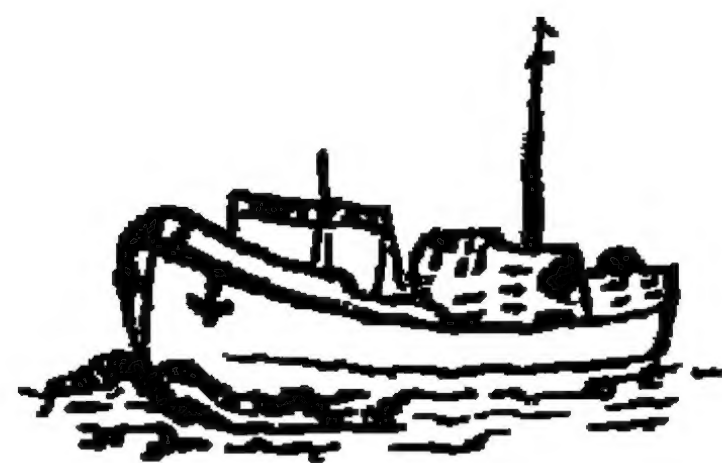
و لنبنز « بزعامه « فيلي » من جدة ماراً بالطائف و أ بها إلى نجران . ومن
هناك على طريق الربع الخالي الى (الرياض) فقطعوا بسيارتهم ٥ كم الالف في أرض
مجهولة . وعادوا ومعهم من الاثار نحو ١٢ ألف كتابة قد نسخت من بينها
٩ الالف كتابة ثمودية و ٣ الالف نقش سبائي . وفي عين مار عثرت البعثة على
نقش (لابرهة الحبشي) يرجع إلى عام ٥٤٧ م ونقش آخر الى عام ٥١٨ م وهو
لذي فواس . كما وجدت عدداً كبيراً من النقوش العربية والاسلامية .

ولكن يجب ان نقرر ونحن « الكلام المترجم » نختم كتابة هذا
الفصل الخاص بأعمال الكشف والتنقيب التي تمت في بلاد العرب أخيراً ان بلاد
العرب بحاجة ماسة الى اعمال البحوث العلمية لتجلب الكثير من
تاريخها وحضارتها وثقافتها وعقائدها بل وحق لغاتها وذلك لان تاريخ هذه البلاد
مازال غامضاً حتى اليوم ، وهو في حاجة ماسة الى الكشف عنه .

عرض خالد السباعي



- ١ - المعينيون : يرجع تاريخهم إلى ١١٢٠ ق . م - ٦٣٠ ق . م
 - ٢ - الحضريون : يرجع تاريخهم إلى ١٠٢٠ ق . م - ٢٩٠ م
 - ٣ - القنباييو . : يرجع تاريخهم إلى ٨٦٥ ق . م - ٥٤٠ م
 - ٤ - السبئيون : يرجع تاريخهم إلى ٨٠٠ ق . م - ٦٢٨ م
- انتمجت قتيان في سبا . حيث سلم (باذان) المندوب السامي الفارسي
الرابع (سبا) الى النبي محمد ﷺ .



جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢	١٥	مهيئة	مهيئة
٢٤	٧	وينبغي	تويني
٤٨	٨	همت	همت
٥٦	١١	للسور جرة	للسور على جرة
٦١	٥	لم يمهله	لم يمهله ليحقق
٧٤	١٥	عليها	عليها
١١٣	٨	الفاطمون	الفاطميون على
١٢١	٧	طرائف	طرائق
١٢٦	٢٤	صغن	صفين
١٢٧	١٣	وتحته	تحتة
١٢٨	٧	مضف	نصف
١٣٩	٧	أمير فيها	أمير من فيها
١٦٠	١٤	فأخبره	فأخبر
١٧٠	١٩	أزال	أزل
١٧٢	٤	باب	إلى باب
١٨٦	١	ولما	لما
١٩٧	١١	ثم سمع	ثم سمع أن
٢٠١	٨	وفاته	ولادته
٢٠٤	٣	بنيل	بنيل
٢٠٩	١١	عليها	كلها

ملاحظة : انظرنا في هذا الجدول على ذكر ما هو ضروري ، أما سائر الأخطاء المطبعية الطفيفة والمذكورة لأول وهلة فلم نذكرها .

